



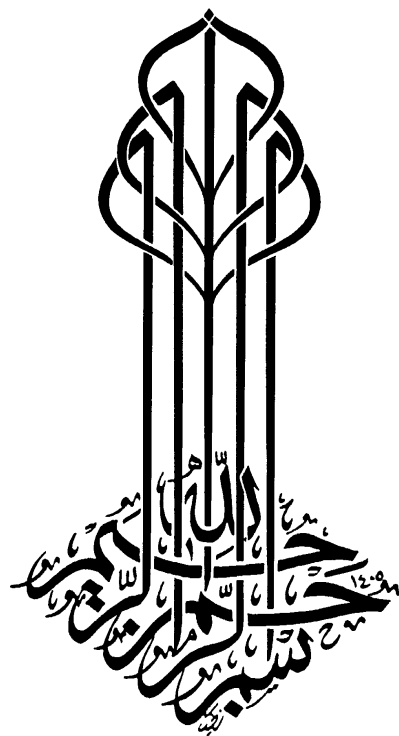
أبحاث المؤتمر الدولي



محمد صلى الله عليه وسلم

برعاية خادم الحرمين الشريفين
الملك / عبدالله بن عبدالعزيز - حفظه الله -

المجلد الخامس





موقف المستشرقين من السنة النبوية

«دراسة تقويمية»

إعداد

د. محمد عبد الرزاق أسود

أستاذ مساعد في كليتي الآداب والعلوم للبنات بجامعة الدمام



المقدمة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الاستشراق في حقيقة الأمر كان ولا يزال جزءاً من قضية التنافس الحضاري بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، بل يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك ونقول: إن الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية لهذا التنافس، ولهذا فلا يجوز التقليل من شأنه بالنظر إليه على أنه قضية منفصلة عن باقي دوائر هذا التنافس الحضاري، فقد كان للاستشراق من غير شك أكبر الأثر في صياغة التصورات الأوروبية عن الإسلام، والواقع الذي لا يمكن إنكاره هو أن الاستشراق له تأثيراته القوية في الفكر الإسلامي الحديث إيجاباً أو سلباً أردنا أم لم نرد.

ويعتبر الاستشراق ظاهرة صاحبت الصحوة الفكرية التي عاشتها أوروبا؛ منذ أن شعرت بالتهديد الإسلامي عن طريق الأندلس غرباً، وعن طريق تركيا شرقاً بعد ذلك، وقد اشتمل الاستشراق على كل فروع العلوم الإسلامية، ومنها: السنة النبوية الشريفة وعلومها؛ بما فيها السيرة النبوية وأحداثها

ووقائعها، فقد درسها وبحث فيها المستشرقون، وألفوا الكتب الكثيرة، وكتبوا المقالات العديدة في ذلك، وجندوا المال والوقت والأشخاص لخدمة مقاصدهم المشبوهة، ومآربهم الدنيئة، والذي يهمننا في هذا البحث هو التركيز على نماذج من آراء المستشرقين في السنة النبوية المطهرة، ثم تقويمها تقويماً موضوعياً، والرد على بعض شبهاتهم التي أوردوها في أبحاثهم ودراساتهم بالدليل العلمي، والإقناع العقلي والمنطقي.

وقد تكون هذا البحث من مقدمة، وخمسة مباحث، وخاتمة.

- المبحث الأول: الاستشراق: تعريفه ودوافعه وأهدافه ومظاهر نشاطه.
- المبحث الثاني: السنة النبوية: تعريفها وثمرتها وتنوع تعريفاتها وخصائصها.
- المبحث الثالث: شبهة المستشرقين في مفهوم السنة النبوية والرد عليها.
- المبحث الرابع: شبهة المستشرقين في النهي عن كتابة السنة النبوية وتأخير تدوينها والرد عليها.
- المبحث الخامس: شبهة المستشرقين في نقد متن وسند السنة النبوية والرد عليها.
- الخاتمة ثم التوصيات.



ختاماً أقول: اللهم لا تعذب لساناً يخبر عنك، ولا عيناً تنظر إلى علوم تدل عليك، ولا يداً تكتب حديث رسولك، ولا قدماً تمشي إلى خدمة دينك.

اللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل، واهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم، سبحان رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول

الاستشراق: تعريفه ودوافعه وأهدافه ومظاهر نشاطه

المطلب الأول: تعريف الاستشراق:

أولاً: الاستشراق في اللغة:

مفردة تمت صياغتها على وزن استفعال وأصلها شَرَقَ أُضيفت إليها الألف والسين والتاء التي تفيد الطلب؛ فيكون معناها: (طلب الشرق)؛ وليس يطلب الشرق إلا لطلب علومه ومعارفه ولغاته وأديانه...، ومما يعمق الدلالة اللغوية للاستشراق والمستشرق كون لفظ (أشرق) يأتي بمعنى النور والضيء؛ وذلك لأن الشمس تشرق من المشرق، وجميع النبوات والكتب السماوية في الشرق، فأصبح معناها طلب النور والضيء الحسي أو المعنوي، فالحكمة المشرقية أو حكمة الإشراف باعتبار الشرق هو المنبع الرمزي لإشراق النور، وليس المقصود بالشرق (الشرق الجغرافي) وذلك لوقوع أجزاء من العالم الإسلامي ضمن جهات أخرى كالجنوب والشمال والشرق، فدول الشمال الإفريقي بالنسبة لأوروبا تقع في الجنوب، والعالم الإسلامي بالنسبة لأستراليا يقع في الشمال والشمال الغربي.



ثانياً: الاستشراق في الاصطلاح:

إن كلمة الاستشراق دخلت على اللغة الإنجليزية حوالي عام (١٧٧٩م)، وعلى معجم الأكاديمية الفرنسية عام (١٨٣٨م)، وقد تعددت تعريفات العلماء له، ويمكن أن يعرف: «بأنه ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي؛ والتي شملت حضارته وأديانه، وآدابه ولغاته، وثقافته، ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامي»، أو هو: «دراسات أكاديمية يقوم بها علماء غير المسلمين للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب عقيدة وشريعة وحضارة وتاريخاً ونظماً، سواء كانت هذه الشعوب تسكن شرق البحر الأبيض المتوسط أم الجانب الجنوبي منه، وسواء كانت هذه الشعوب الإسلامية تتحدث العربية أم غير العربية كالتركية والفارسية والأردية وغيرها لأهداف متنوعة ومقاصد مختلفة».

ويمكن أن نعرف المستشرق بأنه: «من تبحر في لغات الشرق وآدابه»، أو هو: «ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه؛ ولن يتأتى له الوصول إلى نتائج سليمة في هذا المضمار ما لم يتقن لغات الشرق»، وهي ترجمة لكلمة (orientalism) التي تدل على معنى المستشرقين، أما المحققون فيستعملون بدلاً منها (علماء المشرقيات)؛ ولكن كلمة (مستشرقون) أكثر شيوعاً، خاصة في

المطلب الثاني: دوافع الاستشراق وأهدافه:

لكل دافع من الدوافع الاستشراقية أهداف، وقد تنوعت كتابات الباحثين في تحديد هذه الدوافع والأهداف، واختلفت مسمياتها لديهم وتقسيماتهم لها، ومهما كان الأمر فإن الدوافع تلتقي مع الأهداف، باعتبار أن الدافع يمثل المحرض النفسي لاتخاذ الوسائل التي توصل إلى الأهداف الغائية من العمل، والدافع الديني هو أهم هذه الدوافع، ثم يليه الدافع السياسي ثم الاقتصادي، ويأتي الدافع العلمي متأخراً، وضئلاً بالنسبة للدوافع الأخرى، وفيما يأتي توضيح لهذه الدوافع وأهدافها:

(١) انظر للتوسع: تميز الأمة الإسلامية مع دراسة نقدية لموقف المستشرقين منه: د. إسحاق بن عبد الله السعدي: ١/ ٢٢٥-٢٣٤، الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي: د. محمد إبراهيم الفيومي: ١٥، ١٧-١٨، ٢١-٢٣، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره: دراسة ونقد: د. عمر بن إبراهيم رضوان: ١/ ٢٣، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: ١٢٠-١٢٢، وموقع ابن الإسلام على شبكة الإنترنت



أولاً: الدافع الديني:

هو المحور الأساس الذي ارتكزت عليه الحركة الاستشراقية؛ لأنه نما وترعرع في أحضان الكنيسة، وكانت بدايته على أيدي الرهبان النصارى، ولأنه استمر في خدمة التنصير ولم ينفصل عنه إلا في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، وكان ذلك الانفصال شكلياً، أما واقع الأمر فإنه يصعب التفريق بين المستشرق والمنصر حتى في العصر الحديث، وكان لهذا الدافع عدة أهداف عامة وخاصة من أبرزها:

- ١ - حماية النصارى والشعوب التابعة للكنيسة من الدخول في الإسلام.
- ٢ - الحد من انتشار الإسلام على حساب امتداد النصرانية ونشرها، وحرف غير المسلمين الذين يريدون الدخول فيه عن الإسلام.
- ٣ - التعرف على الإسلام ولغته بهدف تشكيك المسلمين به ومحاوله تنصيرهم.

- ٤ - معرفة اللغة العربية ودين الإسلام بهدف التعمق عن طريقهما في العهد القديم (التوراة) للاعتقاد بوجود التشابه بين اللغة العربية واللغة العبرية.
- ٥ - إشغال الشعوب الغربية عن الهجوم على الكنيسة ومعتقداتها بالهجوم على الإسلام، وتوجيه الأنظار إليه باعتباره عدواً للكنيسة والشعوب الغربية.

٦ - تشكيك المسلم في القرآن الكريم والزعـم بأن مصدره بشري أو تكرار للكتب السماوية الأولى.

٧ - التشكيك في نبوة النبي ﷺ ووصفه بالكذب وادعائه النبوة، أو ادّعاء أن هذا الحديث والسنة ما هي إلا من وضع الصحابة رضي الله عنهم.

٨ - التقليل من شأن الفقه الإسلامي؛ والزعـم أنه مستمد من الفقه الروماني، وعدم صلاحيته في الجانب التشريعي الشخصي كالزواج والطلاق والإرث، وكذا في المسائل الاقتصادية والسياسة في كل زمان ومكان.

٩ - التحقير من شأن اللغة العربية، وجعل اللغة العامية لغة الحديث والصحافة، وشوهوا من يتكلم باللغة الفصحى بـصور بشعة.

ثانياً: الدافع السياسي:

ما برح هذا الدافع ملازماً للحركة الاستشراقية في كثير من مراحلها وأطوارها، إذ انبرى نفر من المستشرقين لتقديم دراسات تتناول الأمة الإسلامية جغرافياً وسياسياً، واتجهوا إلى دراسة البلاد الإسلامية في كل شؤونها من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات ليتعرفوا إلى مواطن القوة فيها فيضعفوها وإلى مواطن الضعف فيغتنموها، وتبين أن الاستشراق خدم الاستعمار قبل دخوله



بلاد المسلمين وأثناء دخوله وبعد خروجه، وجاء ليحقق في تلك المراحل الثلاث جملة من الأهداف السياسية من أبرزها:

١- تبرير نزعة الاستعمار ودعمها بوساطة الكشف للمستعمرين عن مواطن الضعف في المجتمعات الإسلامية لاستغلالها في السيطرة والنفوذ، والكشف عن مواطن القوة للعمل على إضعافها.

٢- إضعاف روح المقاومة لدى الشعوب التي سيطر عليها المستعمرون، وإخضاعهم لسلطة المستعمر وثقافته.

٣- تحقيق غايات سياسية متنوعة تفرضها المراحل المتعاقبة، وما تحيط بها من الظروف والأوضاع المختلفة التي ترمي في النهاية إلى احتواء الأمة الإسلامية من كل الجوانب، والتحكم في مصيرها، وفرض التبعية على أبنائها.

٤- العمل على تفريق المسلمين إما كدول، وإما داخل الدولة الواحدة والمجتمع الواحد.

٥- محاولة إحياء الطائفية القبلية الممزقة للمجتمع.

٦- إحياء بعض اللغات المحلية كما صنعوا في المغرب من العمل على إحياء اللغة الأمازيغية مثلاً.

٧- وجهوا أن يكون جميع موظفي السفارات من المتقنين للغة العربية أو

المهتمين بالدراسات المتعلقة بالعالم الإسلامي إلى القيام بعمل الأنشطة الثقافية، أو المشاركة في الأنشطة التي تقوم بها الدولة كالمؤتمرات والدورات.

ثالثاً: الدافع الاقتصادي:

هذا الهدف لا علاقة له إطلاقاً بالدين؛ وإنما ينصب بشكل تام على الجانب التجاري؛ فيأتي المستشرق إلى المجتمعات الإسلامية بتمويل من شركة أو مصنع للتعرف على ثروات ذلك المجتمع وعلى القدرة الشرائية لديهم، وبيان ذلك كالتالي:

عندما بدأت النهضة الاقتصادية في أوروبا احتاجت مصانعها إلى مواد الخام؛ وهذه المواد من حكمة الله أن جعلت في البلدان الإسلامية، ولسد احتياجاتهم أرسلوا الوفود تلو الوفود لهذه الدول لكي يكتشفوها، وبالتالي العمل على استيرادها، وبعد تصنيعها احتاجوا لفتح أسواق جديدة لتصريفها؛ فأرسلوا الوفود للتعرف على الطبيعة الشرائية لدى هذه المجتمعات، وبالتالي تصدير منتجات مصانعهم إليها، وقد يكون الغرض ليس الاستيراد ولا التصدير وإنما الاستثمار داخل الدولة والذي مازال قائماً حتى هذه اللحظة، فهنا الهدف مادي بحت، وسخرته الحكومات الغربية لخدمة الهدف الديني الرئيس.



رابعاً: الدافع العلمي:

وهو ما قام به عدد من المستشرقين، وما يقومون به حتى الآن من دراسة للعالم الإسلامي لهدف نبيل فرض احترامه واحترام من ينتمي إليه، وهذا الدافع يهدف إلى دراسة العالم الإسلامي والمجتمعات الإسلامية بقصد التعريف والتعرف عليها، وتميزت هذه الدراسات بالموضوعية والإنصاف؛ بقصد التعرف وحب الاطلاع وكشف السمات والخصائص التي تميز العالم الإسلامي بشكل عام كهيئة وتشكيل اجتماعي أو الإسلام بشكل خاص؛ مما كان من نتاج هذه الدراسات أن أرجعوا الحق إلى أهلها، فوصفوا الإسلام والمسلمين بالصفات الحقيقية مما يخالف دراسات ونتائج غيرهم من ذوي الأهداف الأخرى، وهذا ما جعلهم عرضة للعداء وهدفاً للانتقاد من قبل الكنيسة والحكومة في بلادهم، إذ كان من أثر هذا الهدف العلمي أن دخل جملة من أصحابه في الإسلام، مثل: د. مراد هوفمان المستشرق الألماني، ومحمد أسد، ولهذا ندر هذا الهدف وندر سالكوه بين المستشرقين لافتقارهم وحرمانهم من الدعم واقتصاره على التمويل الذاتي^(١).

(١) انظر للتوسع: تميز الأمة الإسلامية مع دراسة نقدية لموقف المستشرقين منه: د. إسحاق بن عبد الله السعدي: ١/ ٢٨٧ - ٢٩٤، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره: دراسة ونقد: د. عمر بن إبراهيم رضوان: ١/ ٢٥ - ٢٩، ٤٧، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: =

المطلب الثالث: مظاهر نشاط الاستشراق.

أولاً: التعليم الجامعي والبحث العلمي:

استخدموا في ذلك فتح الأقسام الجامعية والمعاهد والمراكز والكراسي التي تعنى بشكل رئيسي بالعالم الإسلامي والدراسات العربية، سواء كان بالابتعاث الذي نشط في فترة زمنية معينة أم بافتتاح الجامعات في البلدان الإسلامية، ويمكن أن نذكر على سبيل المثال: الجامعة الأمريكية وفروعها في الدول العربية والإسلامية؛ كالجامعة الأمريكية في القاهرة وبيروت والإمارات، وغيرها.

ثم انتقلوا حين وجدوا عدم القدرة الاستيعابية في هذه الجامعات إلى التعليم عن بعد، وهذا ليس خاصاً في تطوير المسلمين؛ وإنما ليتسع التأثير في أكبر قدر ممكن من الطلاب، بالإضافة إلى افتتاح بعض المراكز التي ظاهرها تعليم اللغة وهي في الأصل للتنصير والدراسات الاستشراقية، مثل: المجلس الثقافي البريطاني، والمجلس الثقافي الفرنسي.

=عبدالرحمن حسن حنكة الميداني: ١٢٧-١٣٤، وموقع ابن الإسلام على شبكة الإنترنت

www.ibnalislam.com



ثانياً: التأليف والنشر:

وقد حرص المستشرقون على هذا الأمر في مختلف العصور؛ متطورين بتطور الزمان والمكان؛ فاهتموا بالكتابة أولاً في شتى فروع الدين الإسلامي، فقد ألفوا في العقيدة الإسلامية، والتفسير، والحديث، والفقه، وغيرها، كما اهتموا بالمجلات العلمية، فأصدروا عدداً منها مما له عناية بالعالم الإسلامي بشكل مباشر وأطلقوا عليها مسمى العالم الإسلامي أو الإسلام، ومن ذلك: مجلة العالم الإسلامي الألمانية والأمريكية، ومجلة جسور الأمريكية، ومجلة ينبع الشرق بفيناء، وقد بلغ عددها (٣٠٠) مجلة، كما ألفوا الموسوعات العلمية الكبرى، ومن ذلك: دائرة المعارف الإسلامية، وتاريخ الأدب العربي، وقاموس المنجد، كما اهتموا بالترجمة والتحقيق للكتب والمخطوطات الإسلامية، كما قاموا باستخدام وسائل الإعلام الحديثة، كمواقع الإنترنت لنشر أهدافهم ومواكبة العصر.

ثالثاً: الندوات والمؤتمرات:

فقد عقد المستشرقون عدداً من المؤتمرات الموجهة إما بتمويل شخصي مستمر من الجامعات الغربية، أو المشاركة وحضور المؤتمرات بالجامعات

الإسلامية، وذلك مثل:

١- المؤتمرات التأسيسية ذات العلاقة بمدارسة الاستشراق وتطويره، وغالباً ما تحمل مسمى المؤتمر رقم كذا لعلوم الاستشراق والمستشرقين، وقد بلغت ما يزيد على (٤٠) مؤتمراً بشكل معلن.

٢- مؤتمرات ذات موضوع محدد مثل: مؤتمر المرأة المسلمة في المجتمعات المسلمة وما يدور حولها كحقوقها وحقوق الطفل، ومؤتمرات الإسكان، وكذلك المؤتمرات الاقتصادية، مثل: داغوس الذي يعقد سنوياً في العالم الإسلامي وغيره، ويحرص المستشرقون على حضور تلك المؤتمرات والندوات إما بصفتهم الدينية أو الاعتبارية.

رابعاً: التقارير السياسية والأحاديث الإذاعية والتلفزيونية والمقالات الصحفية بكافة وسائل الإعلام:

استمراراً للتدخل الغريب من الدول الغربية في أنشطة العالم الإسلامي؛ فقد كثفت الحكومات الغربية من إنشاء المراكز المعنية بدراسة العالم الإسلامي، والحرص كل الحرص على أن يشارك منسوبو هذه المراكز في الحوارات والندوات الإعلامية بشتى صورها، ومن ذلك: ما تقوم به بعض القنوات



الفضائية من استضافة غربيين للحديث عن أمر يهم العالم الإسلامي، وأيضاً قيام بعض القنوات الغربية باستضافة بعض المسلمين المتأثرين بالغرب ليتحدثوا عن المجتمعات الإسلامية في تلك القنوات بشكل مفروض عليهم مسبقاً^(١).

(١) انظر للتوسع: تميز الأمة الإسلامية مع دراسة نقدية لموقف المستشرقين منه: د. إسحاق بن عبد الله السعدي: ١/ ٢٩٤-٢٩٦، الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي: د. محمد إبراهيم الفيومي: ٢٣-٢٤، ٤٩-٥٠، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره: دراسة ونقد: د. عمر بن إبراهيم رضوان: ١/ ٤٩-٦٧، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني: ١٣٤-١٣٧، وموقع ابن الإسلام على شبكة الإنترنت

المبحث الثاني

السنة النبوية: تعريفها، وثمرتها وتنوع تعريفاتها، وخصائصها

المطلب الأول: تعريف السنة في اللغة واصطلاح العلماء:

أولاً: السنة في اللغة العربية:

تطلق السنة في اللغة على عدة معان منها:

- ١- ما يدل على الصقالة والملازمة، ومن ذلك إطلاقها على الوجه أو دائرته، أو صورته، فالمسنون: هو المصقول، ورجل مسنون الوجه: حسنُه سهلُه.
- ٢- ترد السنة بمعنى العناية بالشيء ورعايته، يقال: سنَّ الإبل يسُنُّها سنًّا؛ إذا رعاها فأسمنها وأحسن رعايتها.

٣- وتأتي السنة بمعنى البيان، وسُنَّة الله: أحكامه وأمره ونهيه، وسُنَّها الله للناس: بيَّنَّها، وسَنَّ الله سُنَّةً أي بيَّن طريقاً قوياً، كما قال الله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾^(١).

- ٤- كما تأتي السنة بمعنى السيرة المستمرة، والطريقة، فالسُّنة: السيرة، حسنة كانت أو قبيحة؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٨.



أَلْهَدَىٰ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ^(١)، وسنة الأولين أي معانيهم للعذاب عند عدم إيمانهم، وسنت لكُم سنة فاتبعوها كما جاء في قوله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء^(٢)»، وكل من ابتدأ أمراً عمل به قوم بعده قيل: هو الذي سنّه، ويقال في أدلة الشرع: الكتاب والسنة، أي القرآن والحديث، والسنة: الطريقة المحمودة المستقيمة؛ ولذلك قيل: فلان من أهل السنة؛ معناه من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة، وهي مأخوذة من السنن وهو الطريق^(٣).

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٥.

(٢) رواه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمر أو كلمة طيبة، (الحديث: ١٠١٧)، ٢/ ٧٠٤-٧٠٥، ورواه النسائي في كتاب: الزكاة، باب: التحريض على الصدقة، (الحديث: ٢٥٥٤)، ٥/ ٧٦-٧٧، ورواه ابن ماجه في المقدمة، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة، (الحديث: ٢٠٣)، ١/ ١٩٩.

(٣) لسان العرب: ابن منظور: مادة سنن، الصحاح: الجوهري: مادة سنن، القاموس المحيط: الفيروزآبادي: مادة سنن، وانظر للتوسع: منزلة السنة من الكتاب وأثرها في الفروع الفقهية: محمد سعيد منصور: ٧٥، السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام مناقشتها والرد=

ثانياً: السنة في الاصطلاح:

١- تعريف السنة التي وردت في القرآن الكريم:

«هي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر، بناء على سلوكهم وأفعالهم، وموقفهم من شرع الله وأنبيائه، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة»، وهذه السنة تعتبر كالقانون العام، وتتسم بالثبات والاطراد والعموم^(١)، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَجْدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنَجْدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^(٢).

٢- تعريف السنة عند علماء الحديث الشريف:

«هي ما روي عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو سيرة أو صفة خلقية أو خلقية»^(٣)، وأكثر المحدثين أضاف إليها: «الصحابي أو التابعي»^(٤)، وهذا التعريف هو مرادف لتعريف الحديث عند جمهور المحدثين، وأن معنى السنة

=عليها: د. عماد السيد الشربيني: ٣٣ / ١.

(١) انظر للتوسع: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد: د. عبد الكريم زيدان: ١٣، سنن

القرآن في قيام الحضارات وسقوطها: محمد هيشور: ٣٢.

(٢) سور فاطر، الآية: ٤٣.

(٣) معجم علوم الحديث النبوي: د. عبد الرحمن بن إبراهيم الخميسي: ١٢٨، شذرات من علوم

السنة: د. محمد الأحدي أبو النور: ٤٤.

(٤) منهج النقد في علوم الحديث: د. نور الدين عتر: ٢٨.



والحديث مترادفان؛ لأن كليهما ينتهي إلى النبي ﷺ في أقواله المؤيدة لأعماله، وأعماله المؤيدة لأقواله^(١)، وهذا ما أرجحه؛ لأن التفريق بينهما هو تفريق لا مبرر له؛ ولأنه اتسع استعمال الحديث بعد وفاة الرسول ﷺ فأصبح يشمل مع القول فعله وتقريره ﷺ^(٢)، في حين اعتبر بعض المحدثين أن معنى الحديث خاص بما أثر عن النبي ﷺ من الأقوال والأفعال دون التقريرات أو الصفات^(٣)، وأما لفظ الخبر، والأثر، فهما بمعنى السنة عند جمهور علماء الحديث^(٤).

وقد وردت في القرآن الكريم، وكلام الرسول ﷺ، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم كلمات أخرى مؤيدة لمفهوم السنة، مثل: السبيل، والصراط المستقيم، والأسوة الحسنة، وكلها تفيد معنى الطريقة السلوكية، ومعنى الاتباع، يعني أن الطريق الذي سلكه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم والمؤمنون هو السنة، وهو السبيل،

(١) علوم الحديث ومصطلحه: د. صبحي الصالح: ١١.

(٢) الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث في القرن الثالث الهجري: د. عبد المجيد محمود عبد المجيد: ١٣.

(٣) شذرات من علوم السنة: د. محمد الأحدي أبو النور: ٦٦.

(٤) انظر: منهج النقد في علوم الحديث: د. نور الدين عتر: ٢٩، شذرات من علوم السنة: د. محمد الأحدي أبو النور: ٦٦، السنة قبل التدوين: د. محمد عجاج الخطيب: ٢٢.

وهو الصراط المستقيم، وهو الأسوة الحسنة^(١)، وفي عصرنا هذا ساد إطلاق مفهوم السنة غالباً بمعنى الحديث النبوي وعلومه، وما تفرع عنهما، وذلك عند بعض الباحثين، والمؤسسات التعليمية، والجامعات، والمكتبات، وطلاب العلم^(٢).

٣- تعريف السنة عند علماء أصول الفقه:

«هي ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير مما يصلح أن يكون دليلاً لحكم شرعي، وزاد بعض الأصوليين: الكتابة، والإشارة المفهومة، كما زاد الشافعية على ما ذكر من أقسام السنة ما همّ النبي ﷺ بفعله ولم يفعله؛ لأنه ﷺ لا يهيم إلا بحق محبوب مطلوب شرعاً؛ لأنه مبعوث لبيان الشرعيات»^(٣)، وعلى ذلك يكون تعريف السنة هو: «كل ما صدر عن النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو ترك، أو كتابة، أو إشارة مفهومة، أو همّ مصحوب بالقرائن، أو غير ذلك مما يثبت الأحكام ويقررهما، مما لم ينطق به الكتاب العزيز»^(٤).

(١) تحقيق معنى السنة وبيان الحاجة إليها: السيد سليمان الندوي: ٢٢.

(٢) مفهوم أهل السنة والجماعة عند أهل السنة والجماعة: د. ناصر بن عبد الكريم العقل: ٤٧.

(٣) انظر: شرح الكوكب المنير: ابن النجار الحنبلي: ٢/ ١٦٠-١٦٦، تشنيف المسامع بجمع الجوامع: محمد بن بهادر الزركشي: ٢/ ٨٩٩.

(٤) انظر للتوسع: منزلة السنة من الكتاب وأثرها في الفروع الفقهية: محمد سعيد منصور: ٨٢.



٤- تعريف السنة عند علماء الفقه:

«هي كل ما ثبت عن النبي ﷺ ولم يكن من باب الفرض ولا الواجب، فهي الطريقة المتبعة في الدين من غير افتراض ولا وجوب»^(١)، وهي بمعنى آخر: «ما واطب النبي ﷺ عليها مع الترك أحياناً، فإن كانت المواظبة المذكورة على سبيل العبادة فسنن الهدي، مثل: السنن المؤكدة كالأذان والإقامة وسنن الصلاة والوضوء، وتتعلق بتركها كراهة دون عقاب، وإن كانت على سبيل العادة فسنن الزوائد، مثل: سيرة النبي ﷺ في قيامه وقعوده ولباسه وأكله، ولا يتعلق بتركها كراهة»^(٢).

وفي عصرنا هذا ساد إطلاق مفهوم السنة - غالباً - بمعنى السنن العملية من النوافل والمستحبات، وذلك عند عامة المسلمين^(٣)، وقد وقع من بعض فقهاء المذاهب خطأ في معنى السنة؛ فأقاموا لفظ السنة الوارد في كلام النبي ﷺ، أو كلام الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين دليلاً على سنية العمل المرغب فيه بالمعنى الاصطلاحي المتأخر، وذلك خطأ يجب التنبيه له، فإن لفظ السنة الوارد في

(١) السنة قبل التدوين: د. محمد عجاج الخطيب: ١٨.

(٢) كتاب التعريفات: علي بن محمد الجرجاني: ١٦١.

(٣) مفهوم أهل السنة والجماعة عند أهل السنة والجماعة: د. ناصر بن عبد الكريم العقل: ٤٧.

الأحاديث، أو كلام الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين يعتمد المعنى الشرعي العام، فيشمل الاعتقادات والعبادات والمعاملات والأخلاق والآداب وغيرها؛ وهذه فيها الفرض والواجب، وكل مرغّب فيه ومستحب مشروع من الأقوال والأفعال^(١).

٥- السنة وعمل الصحابة رضي الله عنهم:

ذهب بعض المحدثين والأصوليين^(٢) إلى أنه يطلق لفظ السنة على ما عمل عليه أصحاب رسول الله ﷺ سواء أكان ذلك في الكتاب العزيز أم عن النبي ﷺ أم لا؛ كما فعلوا في جمع المصحف وتدوين الدواوين ونحو ذلك، ويدل على هذا الإطلاق قوله ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»^(٣)، وهذا أهم دليل على ذلك^(٤).

(١) انظر: السنة النبوية وبيان مدلولها الشرعي والتعريف بحال سنن الدارقطني: عبد الفتاح أبو غدة: ٩، ١٩.

(٢) الحديث والمحدثون: محمد محمد أبو زهو: ٩، السنة قبل التدوين: د. محمد عجاج الخطيب: ١٨.

(٣) الحديث صحيح الإسناد بطرقه وشواهده، فقد رواه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في=



وقد قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «سن رسول ﷺ، وولاة الأمور بعده سنناً، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، من عمل بها فهو مهتد، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين»^(١).

٦- السنة عند علماء الدعوة والإرشاد:

«هي ما قابل البدعة»^(٢)، وهي ما كان عليه الأمر والعمل على عهد النبي ﷺ

= لزوم السنة، (الحديث: ٤٦٠٧)، ١٣/٥، من طريق خالد بن معدان عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي عن العرياض بن سارية رضي الله عنه، واللفظ له، ورواه الترمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، (الحديث: ٢٦٧٦)، ٤٠٨/٤، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، ورواه ابن ماجة في المقدمة، باب: اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، (الحديث: ٤٣)، ١/٧٢-٧٣، ورواه أحمد في مسنده عن العرياض بن سارية رضي الله عنه: (الحديث: ١٧١٤٢)، ٣٦٧/٢٨.

(١) انظر للتوسع: ما أنا عليه وأصحابي: أحمد سلام: ٨٦، السنة والبدعة: عبد الله محفوظ محمد الحداد باعلوي الحضرمي: ١٠٩.

(٢) انظر: لمحات في أصول الحديث: د. محمد أديب صالح: ٣٢، السنة والبدعة: محمد الخضر حسين: ١٢.

(٣) هي: «طريقة في الدين مختصرة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه». انظر: الاعتصام: إبراهيم بن موسى الشاطبي: ١/٢٨، السنة والبدعة: د. يوسف القرضاوي: ١٠. وهناك آراء للعلماء القدامى والمعاصرين فيها هو داخل في=

وخلفائه سواء مما دل عليه الكتاب أو الحديث النبوي أو أقوال الخلفاء الراشدين»، حيث يقصد علماء الدعوة من ذلك أن يردوا الناس إلى المنهج الإسلامي بنقاوته وأصالته، وبعد أن ينفوا عنه الدخيل من الأهواء والبدع^(١).
والخلاصة: أن مصطلح السنة له عدة معاني سواء كان في المعنى اللغوي، أو المعنى الاصطلاحي الشرعي، ولا يمكن قصر هذا المصطلح على معنى واحد، وقد يكون المعنى الاصطلاحي بعيداً عن المعنى اللغوي.

المطلب الثاني: ثمرة تنوع تعاريف العلماء للسنة:

ولا يفوتنا أن نذكر أنه قد ترتب على تنوع النظرة إلى السنة وتعدد تعريفاتها حسب هذا التنوع نتيجة مهمة في الفرق بين كونها قول رسول الله ﷺ وفعله، وتقريره، وكونها: الواقع العملي المنقول عن رسول الله ﷺ وأصحابه في تطبيق

=البدعة أم لا. انظر للتوسع: السنة والبدعة: محمد الخضر حسين: ٢٣، كلمة علمية هادئة في البدعة وأحكامها: وهبي سليمان غاوجي الألباني: ٥٣، مفهوم البدعة بين الضيق والسعة: محمد سامر النص: ٩، ٣٠.

(١) شذرات من علوم السنة: د. محمد الأحدي أبو النور: ٤٣، الحديث والمحدثون: محمد محمد أبو زهو: ١٠.



مبادئ الدين وأحكامه، فقد ينقل عن النبي ﷺ حديث لفظي يتناول حكماً من الأحكام، وفي ميدان البحث والنظر يثبت للعلماء أن الواقع الذي جرى عليه العمل من فعل الرسول ﷺ، وأصحابه ﷺ مختلف عن المدلول الذي يعطيه ذلك الحديث اللفظي، وفي مثل هذه الحال: ترى العلماء يعبرون بقولهم: جاء في الحديث كذا، والسنة على كذا، أي: إن الذي جرى عليه العمل في عهد الرسول ﷺ، وتناقله المسلمون عن أصحابه ﷺ هو على خلاف ما جاء في النص المنقول لفظاً عنه ﷺ، وهذا كثير عند الإمام مالك الذي كان يقيم كبير وزن لعمل أهل المدينة، باعتبارهم المؤمنين على ميراث النبوة من التطبيق العملي للشريعة.

ولم يترك العلماء هذا الأمر هدرًا؛ بل ضبطوه على أساس من قواعد التعارض والترجيح، فإذا صلحت السنة لمعارضة الحديث اللفظي، بأن كان كل منهما صحيح الثبوت، عمل المجتهد على التوفيق إن أمكن، وإلا عمد إلى القرائن التي يمكن أن ترجح واحداً منهما على الآخر؛ هذا إذا لم يعلم تاريخ كل منهما، أما إذا علم التاريخ، كان المتأخر ناسخاً للمتقدم^(١).

(١) لمحات في أصول الحديث: د. محمد أديب صالح: ٣٢.

المطلب الثالث: خصائص السنة النبوية:

تظهر هذه الخصائص في عدد من الأمور، وهي:

١- أن السنة النبوية نوع من أنواع الوحي، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ

عَنِ أَهْوَىٰ ۖ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١)، ولكن هي وحي بالمعنى لا باللفظ.

٢- اتصال سند السنة النبوية: وهذه تعتبر من خصائص الأمة الإسلامية

أيضاً.

٣- حفظ السنة النبوية من الضياع: وذلك بما هيأه الله تعالى من صحابة رضي الله عنهم

نقلوها عنه ﷺ لمن بعدهم، كما هيأ لها علماء كتبوها ودونوها، وميزوا الصحيح

من الموضوع، ووضعوا لذلك قواعد وضوابط تضبط قبولها وروايتها.

٤- عصمة السنة النبوية من الخطأ في التشريع: لأن السنة وحي، والوحي

منزه عن الخطأ^(٢).

(١) سورة النجم، الآية: ٣ - ٤.

(٢) انظر: المدخل إلى علم الدعوة: محمد أبو الفتح البيانوني: ١٣٧ - ١٣٩.

المبحث الثالث

شبهة المستشرقين في مفهوم السنة النبوية والرد عليها

لقد ظهرت شبهات المستشرقين وأتباعهم في تعريف السنة من خلال

ما يلي:

المطلب الأول: تركيز المستشرقين على بعض معاني السنة اللغوية، والرد عليها.

قد نشأ هذا عن جهل تارة، وعن علم تارة أخرى؛ بعد التغاضي عن باقي معاني السنة الاصطلاحية؛ بغية الوصول إلى هدفهم وغايتهم من التشكيك في حجيتها وعدم العمل بها.

ومن المعاني اللغوية التي يركز بعض المستشرقين عليها في تعريفهم السنة، معناها الوارد بمعنى الطريقة والسيرة، حسنة كانت أو سيئة، ويعبرون عن هذا المعنى بالعادة والعرف؛ كما عرّف المستشرق أجناس جولدتسيهر (GOLDZIH, Y)^(١)

(١) هو مستشرق يهودي مجري عاش بين عامي (١٨٥٠، ١٩٢١م)، تخرج باللغات السامية على كبار أساتذة بودابست وليزيغ وبرلين وليدن، وحصل على دكتور شرف من جامعتي ادنبرا وكمبريدج في إنجلترا، ودرس في كلية العلوم بجامعة بودابست عام (١٨٧٣م)، =

السنة بأنها: «العادات والتقاليد الوراثية في المجتمع العربي الجاهلي الوثني؛ فنقلت إلى الإسلام، فأصابتها تعديل جوهرية عند انتقالها، ثم أنشأ المسلمون من المأثور من المذاهب والأقوال والأفعال والعادات لأقدم جيل من أجيال المسلمين سنة جديدة»^(١).

وتابعه على ذلك سائر من جاء بعده من المستشرقين، أمثال: مارجوليوث (MARGOLIOUTH, D. S)^(٢) الذي استنتج بأنه كان معنى السنة في صدر الإسلام ما كان عرفاً مألوفاً، ويقول في ذلك: «لقد استعملت كلمة السنة في معان عديدة منها: السنة بمعنى العمل المعروف ضد البدعة... ومنها: بمعنى

=من كتبه: الظاهرية مذهبهم وتاريخهم، ودراسات محمدية، والعقيدة والشريعة في الإسلام، ومذاهب التفسير الإسلامي، وغيرها. انظر للتوسع: المستشرقون: نجيب العقيقي: ٣/ ٩٠٦-٩٠٨، ضوابط الرواية عند المحدثين: الصديق بشير نصر: ٣١٣.

- (١) العقيدة والشريعة في الإسلام: أجناس جولدتسيهر: ٤٩، ٢٥١.
- (٢) هو مستشرق إنجليزي، عاش بين عامي (١٨٥٨، ١٩٤٠م)، وقد تخرج باللغات السامية من جامعة أكسفورد، وكان من أساتذتها منذ عام (١٨٨٩م)، من كتبه وبحوثه: محمد ونهضة الإسلام، والإسلام، وانتشار الإسلام، والثقافة الإسلامية، والمسلمون، والعلاقات بين العرب واليهود، والقرآن، والحديث، والخلافة، ونصوص القرآن، والأفكار والمثل في الإسلام، والزندقة في الإسلام والمسيحية، وحول المهدي والمهدية، وغيرها كثير. انظر للتوسع: المستشرقون: نجيب العقيقي: ٢/ ٥١٨-٥٢٠.



العمل القديم، ومنها: بمعنى العمل الحسن مقابل العمل السيئ...، ومنها: بمعنى النظام مقابل الفوضى...، ومنها: بمعنى العمل بدون إضافة تعريف آخر...، وتنسب الكلمة أحياناً إلى جهات شتى...، وبمعنى: عمل النبي ﷺ والخليفين من بعده...، وبمعنى: الأشياء التي هي فوق عمل النبي ﷺ...، وبمعنى محمد ﷺ هو الذي أرشدهم إلى العمل...، وبمعنى العمل الذي يشتمل عليه القرآن...، ونرى كلمة سنة النبي ﷺ أكثر وروداً في النصوص السابقة من أي تعبير آخر، وقد استعمل هذا التعبير في النصوص التي تتصل بالخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه، وربما كان لسلوكه الخطير الذي يختلف فيه عن أسلافه أثر في ذلك، ولو أن الاتهامات الموجهة إليه دوماً مبهمة، ويبدو واضحاً أن المصدر الثاني للتشريع الإسلامي إلى ذلك الوقت لم يكن شيئاً محدداً، بل هو ما كان عرفاً مألوفاً، وقد أيدته السلطة حتى صار عنصراً مندمجاً في شخصية النبي ﷺ^(١).

وكذلك جوزيف شاخت (SSHACHT, J)^(٢) الذي يقول: «إن النظرية

(١) انظر: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه: د. محمد مصطفى الأعظمي: ٧/١ -

(٢) هو مستشرق ألماني، ولد سنة (١٩٠٢م)، وتخرج من جامعتي برسلو وليفزيغ، وعين=

الكلاسيكية للفقه الإسلامي تعرّف السنة بأفعال النبي ﷺ المثالية، وفي هذا المفهوم يستعمل الشافعي كلمة السنة، وعنده أن السنة أو سنة الرسول ﷺ كلمتان مترادفتان، لكن معنى السنة على وجه الدقة: إنما هو النظائر السابقة ومنهج الحياة، ولقد وضع جولدتسيهر أنها مصطلح وثني في أصله؛ وإنما تبناه واقتبسه الإسلام، كما استنتج مارجوليوث أن مفهوم السنة كمصدر للتشريع كان في بداية الأمر يعني العرف المألوف، وانحصر مفهومه في الفترة المتأخرة فقط في أفعال النبي ﷺ، ولذلك يرى شاخ أن مفهوم السنة في المجتمع الإسلامي في العصر الأول كان يعني الأمر العرفي، أو الأمر المجتمع عليه^(١).

= أستاذاً في جامعة فرايبورج عام (١٩٢٧م)، ودرس في جامعة كونسبرج، والجامعة المصرية، واكسفورد، والجزائر، وليدن، من كتبه وبحوثه: دين الإسلام، ونشأة الفقه في الإسلام، وخلاصة تاريخ الفقه الإسلامي، ومقالات إسلامية وفيرة، والفقه الإسلامي، ومحمد ﷺ، والشافعي، وكتب الحيل الفقهية، والشريعة والقانون في مصر الحديثة، وتاريخ علم الكلام، والفقه الإسلامي وعلم الأحوال الاجتماعية، وكتابان في الفروق الفقهية، وإعادة النظر في أحاديث الأحكام، والأحكام الصحيحة في الدور الأول للفقه الإسلامي، والقانون الإسلامي وحل بعض المشاكل المتعلقة بأصوله، وغيرها كثير. انظر للتوسع: المستشرقون: نجيب العقيقي: ٢/ ٨٠٣ - ٨٠٥.

(١) انظر: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه: د. محمد مصطفى الأعظمي: ١/ ٥ - ٦.



الرد على هذه الشبهة:

١ - إن استعمال كلمة السنة في الأشعار الجاهلية، والقرآن الكريم، ودواوين السنة، يوضح أن المعنى اللغوي للكلمة وهو الطريق، والسيرة، والشرعة، ومنهج الحياة، هو معناها الحقيقي، ولقد استعملت الكلمة في المعنى ذاته في القرآن الكريم، ودواوين الأحاديث، وقصائد الشعراء، ولذا فإن ما قاله أجناس جولدتسيهر بأنها مصطلح جاهلي وثني استخدمه الإسلام؛ ادعاء لا يستند إلى دليل، ومعارض للأدلة الملموسة، ثم إن استعمال الجاهليين الوثنيين من العرب لكلمة ما في مفهومها اللغوي لا يلبسها ثوباً معيناً، ولا يحيلها إلى مصطلح جاهلي وثني؛ وخصوصاً إذا لاحظنا استعمالهم المختلفة لهذه الكلمة، وإلا أصبحت اللغة العربية بكاملها مصطلحاً جاهلياً وثنياً، وهذا لا يقول به عاقل^(١).

٢ - ولفظ السنة ومعناها كان معروفاً في لغة العرب قبل الإسلام، ولم يخترع المسلمون هذه الكلمة ولا معناها، ولكن ليس الأمر كما زعم المستشرقون من أن معنى السنة في صدر الإسلام العادة والعرف الجاهلي، أو أنها الطريق الصحيح فقط، وإنما تشمل الطريق الصحيح وغير الصحيح على رأي جمهور

(١) دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه: د. محمد مصطفى الأعظمي: ١/٦ - ٧.

أهل اللغة، ويؤيدهم في هذا الإطلاق القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، والأشعار الجاهلية، كما أن استعمال القرآن الكريم والسنة المطهرة لكلمة السنة بالمعنى اللغوي لا يعني ذلك أن هذا المعنى اللغوي وهو الطريقة أو السيرة أو العادة هو المراد شرعاً بالسنة، فهذه الكلمة انتقلت من معناها اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي الشرعي كما ذكرنا ذلك في المبحث السابق، وهي بهذا المعنى مصدر تشريعي ملازم للقرآن الكريم لا ينفك أحدهما عن الآخر، وهذا المعنى الاصطلاحي لكلمة السنة كان محدداً ومعلومًا في صدر الإسلام، والنبي ﷺ بين ظهرائي أصحابه رضي الله عنهم ^(١).

٣- أما ما استنتجه مارجوليوت بأنه كان معنى السنة في صدر الإسلام ما كان عرفاً مألوفاً، فهو استنتاج تابع للهوى؛ مع مخالفة كافة النصوص التي أوردها ليبرهن على ما يراه من استنتاج، ومع أن معاني كلمة السنة التي جاء بها هذا المستشرق منصبة كلها أو أكثرها على سنة رسول الله ﷺ؛ فإنه يحاول جاهداً إخفاء الحقيقة، ويصرفها إلى ما يميل عليه هواه، فيدعي أن المصدر الثاني للتشريع إلى ذلك الوقت لم يكن محدداً، وأن مفهوم السنة هو ما كان عرفاً معمولاً به في البيئة، مع أنه ليس هناك ما يمكن أن يؤيد استنتاجه

(١) السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام: د. عماد السيد الشربيني: ٢٦/١.



بشكل من الأشكال.

٤- والذي يبحث عن الحقيقة، ويدعي المنهج العلمي في بحثه، لا بد وأن يستعين بالنصوص مجموعة في سبيل تفسير بعضها ببعض؛ حتى لا يقع في مثل هذا الخلط والتناقض.

٥- ولو سلمنا جدلاً أن كلمة السنة كانت قد تطلق في بداية الأمر على ما كان معروفاً ومألوفاً في المجتمع الإسلامي، وهذا لا يمكن إلا في حالات نادرة جداً، حيث تذكر الكلمة مضافة إلى المسلمين أو ما شاكل ذلك، فهذا لا يعني أن هذه الأشياء نسبت فيما بعد إلى النبي ﷺ، أو سميت فيما بعد ذلك بسنة النبي ﷺ، ثم هذا البحث كله يدور حول لفظ كلمة السنة، لا حول فكرة الاقتداء بالنبي ﷺ، فطاعة النبي ﷺ والاقتداء بهديه مفروضان على المسلمين بالنص القرآني، وهذه الطاعة هي الأصل، ولا يؤثر في ذلك إذا كانت كلمة السنة كانت تطلق على هذا أو لا؛ لأن ما يهمننا - هنا - هو فرض طاعته ﷺ بأي اسم كان.

٦- ولذا فلا يمكن أن تقبل تلك الادعاءات ما لم تستند إلى حجج معقولة، سواء في ذلك ما ادعاه أجناس جولدتسيهر في تفسير السنة بأنها: «مصطلح وثني» ثم استعملها الإسلام، أو ما ذهب إليه مارجوليوث من أن معناها في العهد الأول ما كان: «عرفياً»، أو ما توصل إليه شاخت في دراسته من أن

معناها: «تقاليد المجتمع» أو «الأعراف السائدة»؛ لأن تلك الادعاءات تخالف مخالفة جذرية ما دلت عليه النصوص القطعية والتي تفسر بعضها بعضاً.

٧- وقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أفرسول الله ﷺ أحق أن تتبعوا سنته أم سنة عمر رضي الله عنه؟»^(١)، فصل في هذه القضية، حيث ميّز بين قضيتين مختلفتين تماماً، أثبت للأولى حق الاتباع، ونفاه عن الأخرى في حالة التعارض، ليبين بذلك أن السنة التي تتبع في هذه الحالة هي سنة النبي ﷺ، ولو كان العرف الشائع، أو تقاليد المجتمع هما السنة، فكيف نفسر قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما هذا؟

وخلاصة القول: أن السنة معناها في اللغة: الطريقة، والعادة، والسيرة، سواء كانت سيئة أم حسنة، وقد استعملها الإسلام في معناها اللغوي، ثم خصصها بطريقة النبي ﷺ، وقد بقي الاستعمال القديم للكلمة؛ ولكن في

(١) رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (الحديث: ٥٧٠٠)، ٩/ ٥١٠-٥١١، يقول الشيخ شعيب الأرنؤوط: «إسناده ضعيف بهذه السياقة لضعف صالح بن أبي الأخضر، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح». انظر هامش مسند الإمام أحمد له: ٩/ ٥١١، وقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ذلك؛ لأنه كان يفتي بالتمتع في الحج، وأبوه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يفتي بخلاف ذلك.



نطاق ضيق، ومن ناحية أخرى: فإن هذه الكلمة لم تكن مصطلحاً وثنياً في يوم من الأيام، ولم يكن يقصد بها عند المسلمين عرف المجتمع^(١).

المطلب الثاني: تفريق المستشرقين بين مفهوم الحديث ومفهوم السنة، والرد عليها.

وهذا ما ذهب إليه المستشرق أجناس جولدتسيهر حيث يقول: «يجب أن يكون مصطلح الحديث ومصطلح السنة متميزين عن بعضهما، وثمة محاولات عديدة حاولت التعرف على الفرق بين الكلمتين، وبالرغم من ذلك فإن هناك إصراراً على أنهما متماثلان أو هما مترادفان نسبياً، وللرؤية الأخيرة بعض التبريرات بقدر الاهتمام بالتطور النهائي للاصطلاح الإسلامي، ولكن إذا كانت المعاني الأصلية للكلمتين هما فقط المعتبرتان، فإنهما غير متماثلتين على الإطلاق، والفرق الذي يجب أن يؤخذ في الاعتبار؛ هو أن الحديث: الإبلاغ الشفهي من قِبَل النبي ﷺ، في حين أن السنة في الاستعمال الشائع عند جمهور المسلمين تنطبق على الغرض الديني أو الشرعي بصرف النظر عن وجود روايات شفوية

(١) دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه: د. محمد مصطفى الأعظمي: ١/٧، ١٠-١١.

لها من عدمه، وأي قاعدة (حكم شرعي) توجد في حديث ما تعتبر طبيعياً كسنة، وليس من الضروري أن يكون للسنة حديث مماثل يمنحها التصديق (الشرعية)، ومن الممكن أن تتناقض محتويات (مضمون) حديث ما مع السنة، ومن واجب الفقهاء والحاذقين، ومن كان شأنهم التوفيق أن يجدوا حلاً للخروج من هذا الخلاف.

والتباين بين الحديث والسنة محفوظ في كتب الحديث، فالأول: - أي الحديث - ضبط نظري، والثاني: - أي السنة - خلاصة لقواعد عملية، ويمكن ملاحظة ذلك في المثال الآتي: يميز ابن المهدي بين ثلاثة فقهاء أعلام: سفيان الثوري، الأوزاعي، مالك بن أنس بقوله: الأول كان إماماً في الحديث وليس بإمام في السنة، وأن الثاني كان إماماً في السنة وليس بإمام في الحديث، وكان مالك إماماً فيهما جميعاً، وبنفس الطريقة قيل عن أبي يوسف صاحب أبي حنيفة: إنه كان صاحب حديث وصاحب سنة^(١)، فالحديث والسنة ليسا بمعنى واحد، وإنما السنة دليل الحديث^(٢).

(١) انظر: دراسات محمدية: أجناس جولدتسيهر: ٢٤-٢٥، نقلاً عن ضوابط الرواية عند

المحدثين: الصديق بشير نصر: ٣١٤-٣١٥.

(٢) انظر: العقيدة والشرعية في الإسلام: أجناس جولدتسيهر: ٤٩.



الرد على هذه الشبهة:

١- لم يفرق هذا المستشرق بين المعاني اللغوية والمعاني الاصطلاحية للألفاظ، فهو تارة يحمّل اللفظة المعنى الاصطلاحى، ولا يقرر أيّ معنى اصطلاحى يريد، أهو اصطلاح المحدثين أم اصطلاح الفقهاء؟ وتارة أخرى يحمّل اللفظة المعنى اللغوي، والكلام ظاهره في المعنى الاصطلاحى، فهو لذلك لا يستقيم له رأي، ولا تنقاد له فكرة، فالحديث عنده مرة: الإبلاغ الشفهي من قِبَل النبي ﷺ، ومرة: ضبط نظري، ولا نعرف مقصوده بالضبط النظري، وهو على آية حال لم يبلغ المعنى الاصطلاحى عند المحدثين، وكذلك السنة؛ فهي في الاستعمال الشائع عند المسلمين الأوائل تنطبق على الغرض الدينى أو الشرعى بصرف النظر عن وجود روايات شفهية لها من عدمه، ومرة أخرى هي: خلاصة لقواعد عملية، وليس من العجيب أن يخطئ هذا المستشرق؛ لأنه لم يعرف المعاني الاصطلاحية للفظتي: الحديث والسنة، ولذلك تراه يخلط في الموضوع، وقد تكلمت باستفاضة عن تعريف السنة عند علماء الحديث، وأن الحديث مرادف للسنة في المبحث السابق.

٢- وأما قول جولدتسيهر: «إن الحديث: الإبلاغ الشفهي من قِبَل النبي ﷺ»، يشعر بأنه يريد مجرد القول من النبي ﷺ بصرف النظر عن عمله

وتقريره، وهو بصنيعه هذا يخالف ما اصطاح عليه علماء الحديث والأصول وقد فصلت الكلام عن ذلك في المبحث السابق.

٣- عدم التزامه باصطلاحات المسلمين، جعله يظن أن الاختلاف في معاني لفظ حديث وسنة هو نوع من الاضطراب في التفكير عند المسلمين، وهو ليس كذلك.

٤- قوله: «وليس من الضروري أن يكون للسنة حديث مماثل يمنحها التصديق (الشرعية)»، وقوله قبل ذلك: «إن السنة في الاستعمال الشائع عند جمهور المسلمين تنطبق على الغرض الديني أو الشرعي بصرف النظر عن وجود روايات شفهية لها من عدمه»، فهذه الدعوى جرّهُ إليها تفريقه بين الحديث والسنة، في حين أنهما بمعنى واحد عند علماء الحديث والأصول، ومن هنا جاء قولهم: سنة ثابتة عن الرسول ﷺ، وسنة غير ثابتة عنه، فالأولى؛ لأنه ثبت عن الرسول ﷺ أنه قال ذلك الشيء أو فعله أو أقره، وطريقة ثبوت ذلك عن الرسول ﷺ هو وجود الحديث الشريف الذي يتضمن ذلك ويشهد عليه، والثانية؛ لأنه لم نجد حديثاً عن النبي ﷺ قولاً أو فعلاً أو تقريراً يؤكدُها، فهي بذلك سنة غير ملزمة.

٥- قوله: «ومن الممكن أن تتناقض محتويات (مضمون) حديث ما مع

السنة»، لا تحتمل إلا معنى واحداً، وهو اختلاف حديث مع حديث، والأحاديث التي ظاهرها الاختلاف قسمان:

أحدهما: ما أمكن الجمع بينهما، فيتعين ويجب العمل بهما، والثاني: ما لا يمكن الجمع بينهما بوجه، فإن علمنا أحدهما ناسخاً قدمناه، وإلا عملنا بالراجح، ووجوه الترجيح متعددة^(١)، فهذا المستشرق لكي يثبت أن الحديث شيء والسنة شيء آخر يأتي بأية عبارة - يتلقفها من أي كتاب - تجمع بين هاتين اللفظتين معاً، فيوهم بأنهما شيان متغايران.

٦- قوله: «يُميّز ابن المهدي بين ثلاثة فقهاء أعلام: سفيان الثوري، الأوزاعي، مالك بن أنس بقوله: الأول كان إماماً في الحديث وليس بإمام في السنة، وأن الثاني كان إماماً في السنة وليس بإمام في الحديث، وكان مالك إماماً فيهما جميعاً، وبنفس الطريقة قيل عن أبي يوسف صاحب أبي حنيفة: إنه كان صاحب حديث وصاحب سنة»، لا يزال هذا المستشرق في معرض الدفاع عن وجهة نظره، وهي أن السنة شيء والحديث شيء آخر، والحقيقة أن هذا الرجل لا

(١) انظر للتوسع: الاعتبار في النسخ والمنسوخ من الآثار: محمد بن موسى الحازمي: ٣٠-٤٩، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي:

يفهم ما يقرأ، وهذا الخبر^(١) هو منقول عن ابن مهدي لا ابن المهدي كما وهم هذا المستشرق، والمعنى الذي يريده ابن مهدي من أن سفيان الثوري كان إماماً في الحديث وليس إماماً في السنة، أي أنه كان محدثاً غير فقيه، وهذا هو المعروف من حال الثوري الذي يعد أميراً للمؤمنين في علم الحديث، وكذلك بالنسبة للأوزاعي، فالمشهور عنه كونه فقيهاً صاحب مذهب، وقد كان أهل الشام ثم أهل الأندلس على مذهبه مدة من الزمن، ثم مات العارفون بمذهبه، وبقي بعض آرائه في بعض الكتب الفقهية، وكان من أهل الرواية، وقد روى عنه خلق كثير، ولم يبلغ درجة الإمامة في الحديث كأحمد والثوري والبخاري وغيرهم، وهو المقصود من كلام ابن مهدي، وأما الإمام مالك؛ فقد كان إماماً فقيهاً صاحب مدرسة فقهية كبيرة ومشهورة، وقد أخذ بمذهبه خلق كثير، وفضلاً عن ذلك فهو إمام في الحديث لا يجارى، وقد شهد له بذلك^(٢).

وخلاصة القول: أن جولدتسيهر لا يريد أن يسوي بين الحديث والسنة، باذلاً في ذلك ما وسعه في التقاء عبارات جعل ظاهرها أن الحديث والسنة متغايران، فيحسب أن تلك تنفع كشواهد على صحة دعواه؛ وهي في الواقع لا

(١) انظر: شرح محمد الزرقاني على موطأ الإمام مالك بن أنس: ٣/١.

(٢) انظر: تذكرة الحفاظ: شمس الدين محمد الذهبي: ١/١٨٢، ٢٠٤، ٢٠٧-٢١٢.



تنفع إلا أن تكون شاهداً على فساد فهمه وسوء مراميه، وكأنه يريد بهذا التفريق أن السنة هي ما وضعه المسلمون من قواعد ابتدعوها، ألزموا بها أنفسهم وجعلوها في مصاف القرآن الكريم والحديث النبوي، وهي لا تتعدى كونها ابتكاراً واختلاقاً، ليس لها رصيد من الأدلة الشرعية، وبصنيعه هذا يشكك في السنة كمصدر تشريعي له أكبر الأثر في الفقه الإسلامي^(١).

المطلب الثالث: زعم المستشرقين أن مفهوم السنة والحديث ليسا بعربيين.

لقد زعم جولدتسيهر أن مفهوم السنة أخذه المسلمون من كلمة (مشناة) العبرية، التي كان يطلقها اليهود على مجموعة الروايات الإسرائيلية، ويعتبرونها شراً للتوراة، ومرجعاً لهم في تعرف أحكامها، وأن المسلمين عربوها بكلمة (سنة)، وأطلقوها. هم أيضاً على مجموعة الروايات المحمدية، واعتمدوها مصدراً لأحكام دينهم كما فعل اليهود^(٢)، كما زعم المستشرق الفريد جيوم

(١) انظر: ضوابط الرواية عند المحدثين: الصديق بشير نصر: ٣١٦ - ٣٢٢، السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام: د. عماد السيد الشربيني: ٤٨ / ١ - ٤٩.

(٢) الإسلام عقيدة وشرعية: محمود شلتوت: ٤٩٢، السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين =

(GUILLAUME, A)^(١) أن كلمة (حديث) مشتقة من الكلمة العبرية عند اليهود (هداش) والتي تعني الجديد أو تعني الأخبار أو القصص، ومرد هذه الشبهة يهدف إلى نفي أن تكون الكلمتين عريبتين^(٢).

الرد على هذه الشبهة بما يلي:

١- إن كلمة (مشناة) إنما تعني الكتاب الذي ألفه علماء اليهود في زمن دولة البابليين والفرس، ودولة اليونان والروم، وهو الكتاب الأصغر، ويبلغ حجمه نحو ثمانمائة ورقة، وأما التلمود: فهو الكتاب الأكبر الذي ألفه اليهود مع مشناة، ومبلغ حجمه نحو نصف حمل بعير لكبره، ولم يكن علماء اليهود الذين ألفوه في

=ورفض الجاهلين: د. رؤف شلبي: ٥-٦.

(١) هو مستشرق إنجليزي، ولد سنة (١٨٨٨م)، تخرج من جامعة أكسفورد، ودرس في المعهد الملكي بلندن، وجامعة درهام، ومعهد كولم، وجامعة لندن، من كتبه وبحوثه: مدخل إلى علم الحديث، وأثر اليهودية في الإسلام، والتشريع الإسلامي، واليهود والعرب، والإسلام، وملاحظات على الجبرية والقدرية في الإسلام، وجدل بين فقهاء النصرانية والإسلام، وعلم الكلام المسيحي والإسلامي بين الشهرستاني وتوما الأكويني، وسيرة النبي ﷺ في البحث الحديث، وغيرها. انظر للتوسع: المستشرقون: نجيب العقيقي: ٥٤٣/٢.

(٢) السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام: د. عماد السيد الشربيني: ٥٠/١.



عصر واحد، وإنما ألقوه جيلاً بعد جيل، فلما نظر المتأخرون منهم إلى هذا التأليف، وأنه كلما مرّ عليه الزمان زادوا فيه، وأن في الزيادات المتأخرة ما يناقض أوائل هذا التأليف، علموا أنهم إن لم يقطعوا ذلك ويمنعوا من الزيادة فيه، أدى إلى الخلل الذي لا يمكن سده، فقطعوا الزيادة فيه، ومنعوا منها، وحظروا على علمائهم الزيادة فيه، وإضافة شيء آخر إليه، وحرّموا من أن يضاف إليه شيء آخر فوقف على ذلك المقدار^(١)، إذًا فالمشنة والتلمود من تأليف علماء اليهود إرضاء لأهوائهم، وقد نسبوها إلى التوراة وإلى سيدنا موسى ﷺ، وليس الأمر كذلك في الحديث النبوي والسنة المطهرة، فهي مرويات نبوية موحى بها من قبل الله تعالى، ولا مدخل لأحد من علماء الإسلام في شيء منها إلا بحفظها ورعايتها وتنفيذها، ورسول الله ﷺ هو الذي أطلق وسمى كل ما ورد عنه من قول أو فعل أو تقرير بأنه من حديثه الشريف وسنته المطهرة، فهو القائل: «إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنة نبيه ﷺ»^(٢).

(١) إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان: محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية: ٢/ ٣٢٣-٣٢٤.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه في كتاب: العلم، (الحديث: ٣١٨-٣١٩): ١/ ١٧١-١٧٢، وقال: «وقد احتج البخاري بأحاديث عكرمة، واحتج مسلم بأبي أوس، وسائر رواته=

٢- إن المسلمين الأوائل لم يستعملوا كلمة (سنة) بمجموعة روايات، وإنما استعملوها كما استعملها القرآن الكريم، وكما استعملها النبي ﷺ من خلال الطريقة العملية التي كان يطبقها وأصحابه رضي الله عنهم بما يفهمونه من القرآن بوجوه دلالاته المختلفة، وتحري مقاصده التشريعية، وإن إطلاقها على مجموعة الأقوال المروية عن الرسول ﷺ لم يكن إلا بعد تمام المائة الأولى من الهجرة، حيث قصدت الأحاديث والروايات حفظها من الجمع والتدوين الرسمي.

٣- لا يتقبل العقل ذلك؛ لعدم المشابهة بين كلمتي (سنة) و(مشناة)، وكلمتي (حديث) و(هداش) في الحروف والبنية.

٤- ولأن الكلمتين (سنة وحديث) ورد استعمالهما في الشعر الجاهلي قبل الإسلام، كما استعملها الله - تعالى - في كتابه العزيز، ورسول الله ﷺ في حديثه الشريف، وذلك مما لا يترك مجالاً لفرضية بحث تعريب كلمة (سنة) من (مشناة) أو (حديث) من (هداش)، وإذا فالكلمتان لم يعربهما المسلمون من كلمتي (مشناة) و(هداش)، وإنما أخذوها من صميم لغتهم، وصريح القرآن الكريم، وصريح الحديث الشريف، إذا فالكلمتان عربيتان أصليتان، وليستا معربتين.

=متفق عليهم...، وقد وجدت له شاهداً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



- ٥- وقد رأى علماء الإسلام أن مجموعة ما أثر عن النبي ﷺ من أقوال وأفعال وتقرير، هو الطريق الوحيد لتصوير الطريقة العملية التي درج عليها الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ فأطلقوا كلمة (سنة) على هذه المجموعة، وجعلوها في المرتبة الثانية من المصادر التشريعية، فكيف يصح أنهم اقتبسوها من العبرية؟ وكيف يصح أن يقال: إن صنيعهم كصنيع اليهود؟.
- ٦- ولعدم وجود دليل تاريخي يثبت التقاء العرب الأُميين باليهود^(١).

(١) انظر: السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام: د. عماد السيد الشربيني: ١/ ٥٠ - ٥٣، الإسلام عقيدة وشريعة: محمود شلتوت: ٤٩٢ - ٤٩٤، السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين: د. رؤوف شلبي: ٦ - ٩.

المبحث الرابع

شبهة المستشرقين في النهي عن كتابة السنة النبوية، وتأخير تدوينها، والرد عليها

المطلب الأول: شبهة المستشرقين في النهي عن كتابة السنة النبوية والرد عليها:

تتلخص هذه الشبهة في: أن السنة النبوية لو كانت حجة لأمر النبي ﷺ بكتابتها، ولعمل الصحابة والتابعون رضي الله عنهم من بعده على جمعها وتدوينها، حتى يحصل القطع بشبوتها بكتابتها كما هو الشأن في القرآن الكريم، وقد تزعم هذه الفرية المستشرق أجناس جولدتسيهر، والذي ذهب إلى أن الأحاديث الواردة في النهي عن كتابة السنة، والأحاديث الأخرى التي تحث على كتابتها، ما هي إلا أثر من آثار تسابق أهل الحديث في جانب وأهل الرأي في جانب آخر، إلى وضع الأقوال المؤيدة لنزعتهم المتناقضتين، فأهل الحديث يذهبون إلى كتابة السنة، لتكون دليلاً على صحتها والاحتجاج بها، فيقول: (إن الجميع متفقون على أنه لا يمكن إنكار أن تدوين الأحاديث كان له خصوم، وهذه الكراهية للكتابة لم تكن موجودة منذ البداية، ولكنها نشأت بسبب التحامل الذي ظهر فيما بعد... وفي



هذا الموضوع هناك مجموعتان من الآراء في حالة تناقض، ولكي نبين ذلك لابد لنا من الرجوع إلى حقب زمنية مبكرة من هذا النزاع، وللفریقین آراءهما الخاصة، وقد سيقّت في صورة أحاديث نبوية، فيروي أحد الفريقين قول النبي ﷺ: «لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن، ومن كتب شيئاً فليمححه»^(١)، بينما يروي ابن جريج من الفريق الثاني حديثاً عن ابن عمرو رضيه الله عنه؛ أنه سأل النبي ﷺ: «هل أقيّد العلم؟ فوافقه النبي ﷺ على ذلك، وعندما سئل عن معنى تقييده أجاب: بأنها الكتابة»^(٢)، وقد حدّث حماد بن سلمة أن جد عمرو بن شعيب سأل النبي ﷺ: هل يكتب كل ما سمعه منه؟ فأجابه النبي ﷺ: «نعم، فقال له: في الغضب والرضا؟ قال: نعم؛ فإني لا أقول في الغضب والرضا إلا الحق»^(٣)، ويقول أبو هريرة: إن رجلاً من الأنصار جلس يسمع من النبي ﷺ الأحاديث، فلم

(١) سيأتي تخريجه بعد قليل.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه في كتاب: العلم، (الحديث: ٣٦٢): ١/ ١٨٨، وانتقده الذهبي بأن فيه ابن المؤمل وهو ضعيف، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ١/ ١٥٢: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عبد الله بن المؤمل وثقه ابن معين وابن حبان، وقال ابن سعد: ثقة قليل الحديث، وقال الإمام أحمد: أحاديثه مناكير».

(٣) رواه أبو داود في سننه كتاب: العلم، باب: في كتاب العلم، (الحديث: ٣٦٤٦): ٤/ ٦٠ - ٦١، والحديث صحيح. انظر: صحيح سنن أبي داود: محمد ناصر الدين الألباني: ٢/ ٤٠٨.

يقدر على حفظها، فشكى ذلك إليه، فقال له النبي ﷺ: «استعن على ذلك بيمينك»^(١)، وباختراع هذه الأحاديث حاول كلا الفريقين أن يقدم الحجج على صحة مذهبه، دون أن يكشف أي منهم عن دوافعه، وسبب هذه القناعات الدينية^(٢).

الرد على هذه الشبهة بما يلي:

أولاً: سأورد الصحيح من الأحاديث والآثار في النهي عن كتابة السنة، دون التعرض لما هو ضعيف؛ لأن ما في الصحيح يغني عن الضعيف^(٣):

- (١) رواه الترمذي في سننه في كتاب: العلم، باب: ما جاء في الرخصة فيه، (الحديث: ٢٦٦٦):
٤ / ٤٠١، وقال: «هذا حديث إسناده ليس بذلك القائم، وسمعت محمد بن إسماعيل يقول:
الخليل بن مرة منكر الحديث»، والحديث ضعيف. انظر: ضعيف سنن الترمذي: محمد ناصر الدين الألباني: ٢٧٢.
- (٢) انظر: السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام: مناقشتها والرد عليها: د. عماد السيد الشربيني: ١ / ٢٦٦ - ٢٦٨.
- (٣) انظر للتوسع: الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة: عبد الرحمن يحيى المعلمي اليماني: ٣٤ - ٤٤، دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه: د. محمد مصطفى الأعظمي: ١ / ٧٦ - ٨٢، السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام: مناقشتها والرد عليها: د. عماد السيد الشربيني: ١ / ٢٦٨ - ٢٨١.



١- حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً؛ فليتبوأ مقعده من النار»^(١).

٢- ما رواه أبو بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كتبت عن أبي كطباً كثيرة فمحاها، وقال: «خذ عنا كما أخذنا»، ومن طريق آخر عن أبي بردة قال: كان أبو موسى يحدثنا بأحاديث فنقوم أنا ومولى لي فنكتبها، فحدثنا يوماً بأحاديث فقمنا لنكتبها، فظن أنا نكتبها، فقال: «أنكتبان ما سمعنا مني؟ قال: نعم، قال: فجيئاني به، فدعا بهاء فغسله، وقال: احفظوا عنا كما حفظناه»^(٢)، ومن طريق آخر؛ عن أبي بردة بن أبي موسى رضي الله عنه قال: كتبت عن أبي كطباً كبيراً، فقال: «اثني بكتبك، فأتيته بها فغسلها»^(٣).

(١) رواه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: الثبوت في الحديث، وحكم كتابة العلم،

(الحديث: ٣٠٠٤): ٤/ ٢٢٩٨ - ٢٢٩٩.

(٢) تقييد العلم: أحمد بن علي الخطيب البغدادي: ٣٩ - ٤٠.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب: الأدب، (الحديث: ٦٤٩٥): ٩/ ٥٣، واللفظ

له، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ١/ ١٥١: «ورواه الطبراني في الكبير والبخاري بنحوه إلا أن البخاري قال: احفظ كما حفظنا عن رسول الله ﷺ، ورجاله رجال الصحيح».

ثانياً: أن هناك شبه إجماع على أن منع كتابة الحديث قد نُسخ بالتصريح بجواز كتابتها^(١)، وتم كتابة أحاديث النبي ﷺ في أخريات حياته^(٢).

ثالثاً: أن المستشرقين غضوا الطرف عن دوافع النبي ﷺ في النهي عن كتابة الأحاديث، والتي تظهر بما يلي:

١- المحافظة على نقاء كتاب الله - تعالى - وصيافته عن خلطه بالسنة دون تمييز بينهما: لأن المرحلة الأولى من نزول الوحي كان هناك خوف من أن كلمات النبي ﷺ ربما تختلط بآيات القرآن الكريم، وهذا الغرض كان قائماً على سببين منطقيين:

أ - أن كلمات النبي ﷺ كانت تعتبر أقوالاً ماثورة بالنسبة للصحابة رضي الله عنهم، المخلصين الذين تمنوا أن يكتبوها بعد كتابة الحكمة في العصر الجاهلي، ولأن الناطق بلسان كل من القرآن والحديث كان نفس الشخص وهو النبي ﷺ، فكان هناك احتمال أن بعض الآيات القرآنية تؤخذ على أنها أقوال النبي ﷺ.

(١) ستأتي هذه الأدلة في بحث تدوين السنة النبوية في المطلب الثاني القادم.

(٢) انظر للتوسع: صحائف الصحابة رضي الله عنهم وتدوين السنة النبوية المشرفة: أحمد عبد الرحمن الصويان: ٣٩-٤٨.



ب- لقد تعود بعض الصحابة رضي الله عنهم أن يكتبوا - أحياناً - كلمات النبي ﷺ على فراغ هوامش نفس الصحيفة التي كُتِبَ عليها القرآن، ولهذا كان هناك احتمال كبير أن يختلط القرآن الكريم بأحاديث النبي ﷺ، ولهذا منع كتابة الأحاديث، وفضلاً عن هذا كان هناك أشخاص قلة فقط في ذلك الوقت هم الذين يملكون فطنة التمييز بين الآيات القرآنية وأقوال النبي ﷺ، وفي ظل هذه الظروف حظر النبي ﷺ على أصحابه كتابة أقواله في هذه المرحلة المبكرة.

٢- عدم انصراف الناس عن القرآن الكريم: كان الغرض من منع كتابة الأحاديث هو الحفاظ على الاهتمام النشط من جانب الذين هداهم الله إلى القرآن، ولأن القرآن كان لا يزال في مرحلة الوحي ولم يجمع بعد، فكان ينبغي أن يعطى مزيد من الاهتمام للقرآن عن أحاديث الرسول ﷺ.^(١)

٣- خوف الاتكال على الكتابة وترك الحفظ: كما قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه:
«احفظوا عنا كما حفظناه»^(٢).

(١) دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث: د. امتياز أحمد: ٢١٩-٢٢١.

(٢) تقدم تخريجه قبل قليل.

٤- خوف وصول الأحاديث إلى غير أهلها: فلا يُعرف أحكامها، ويُحمل جميع ما فيها على ظاهره، وربما زاد فيها ونقص، فيكون ذلك منسوباً إلى كاتبها في الأصل^(١).

هذه هي دوافع النبي ﷺ في النهي عن كتابة أحاديثه، التي تجاهلها المستشرقون، فإن سَلَّمُوا بصحة تلك الأحاديث فعليهم التسليم بالدوافع التي قيلت من أجلها والواردة فيها.

رابعاً: ليس صحيحاً ما ذهب إليه جولدتسيهر بأن أهل الرأي وضعوا الأحاديث في كراهية الكتابة، وأهل الحديث وضعوا الأحاديث الواردة في السماح بالكتابة، والنظرة البسيطة على قائمة المعارضين والموافقين كفيلة بإبطال ادعاء جولدتسيهر؛ لأن الذين اشتهروا بالشدة وعدم سماحهم بالكتابة، مثل: عبدة، وابن سيرين، هم من أهل الحديث، ومن الذين سمحوا أو شجعوا الكتابة، مثل: الزهري، والأعمش، والثوري، ومالك، هم من الفقهاء الأجلاء، ومن ناحية ثانية، فإنه في تلك الأزمنة كان ممكناً أن يكون هناك محدثون غير

(١) انظر للتوسع: السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام: مناقشتها والرد عليها: د. عماد السيد الشربيني: ١/ ٢٨٨-٢٩٨، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: د. مصطفى السباعي: ٦٦-٦٨، السنة في مواجهة أعدائها: د. طه الدسوقي حيشي: ٢٤٢-٢٤٦.



فقهاء، لكنه لم يكن ممكناً أن يكون الرجل فقيهاً ولا يكون محدثاً^(١).

المطلب الثاني: شبهة المستشرقين في تأخير تدوين السنة النبوية،

والرد عليها:

البداية الأولى لتدوين السنة النبوية هو ما كتبه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

(ت ١٠١ هـ) إلى أبي بكر بن حزم: «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ

فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث رسول

الله ﷺ، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم؛ فإن العلم لا يهلك

حتى يكون سرّاً»^(٢). إن نزعة رفض السنة النبوية، ظهرت بوضوح خلال النصف

الثاني من القرن التاسع عشر في مؤلفات كبار المستشرقين من أمثال:

السير ولیم مویر (MUIR, SIR WILLIAM)^(٣)، والوئز سبرنكر

(١) انظر: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه: د. محمد مصطفى الأعظمي: ٨٢-٨٣،

السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام: مناقشتها والرد عليها: د. عماد السيد الشربيني: ٢٨١/١.

(٢) رواه البخاري في كتاب: العلم، باب: كيف يقبض العلم، ٥٢-٥٣.

(٣) هو مستشرق إنجليزي، عاش بين عامي (١٨١٩، ١٩٠٥م)، تعلم الحقوق في جامعتي

جلاسجو وادنبرا، ودرس في جامعة ادنبرا، وأصبح رئيساً لها، من كتبه: سيرة النبي ﷺ

والتاريخ الإسلامي، وحوليات الخلافة: صعودها وانحدارها وسقوطها، ومصادر =

(Aloiz Sprinkr)^(١)، والبارون فون كريمير (KREMER, A. VON)^(٢)،
وثيودور نولدكه (NOLDEKE, TH)^(٣)، ولكننا نجد في كتابات أجناس
جولدتسيهر تعبيراً أوضح وأشد لهذه النزعة، وإن لب ما وصل إليه أجناس
جولدتسيهر عبارة عن القول بأن الأحاديث لا تمثل إلا الاتجاهات والآراء
الموجودة في القرنين الثاني والثالث الهجري، وقلما تلقى ضوءاً على بداية القرن

=الإسلام، ودولة المماليك في مصر. انظر: المستشرقون: نجيب العقيقي: ٤٩٢/٢.

(١) لم أعتز على ترجمته.

(٢) هو مستشرق نمساوي، عاش بين عامي (١٨٢٨، ١٨٨٩م)، وتخرج من جامعة فيينا،
وعمل في وزارة الخارجية لبلاده، وكان قنصلاً بمصر وببيروت، من كتبه وبحوثه وتحقيقاته:
المغازي للواقدي، والأحكام السلطانية للماوردي، وتاريخ الفرق في الإسلام، والملاحم
البارزة لتاريخ الثقافة في الإسلام، وغيرها. انظر للتوسع: المستشرقون: نجيب العقيقي:
٦٣٠-٦٣١/٢.

(٣) هو مستشرق ألماني، عاش بين عامي (١٨٣٦، ١٩٣٠م)، استكمل دراسته في ليبزيغ وفيينا
وليدن وبرلين، ودرس في جوتنجن، وكيل، وستراسبورج، من بحوثه التي بلغت (٦٣٠)
بحثاً، و(٥٠٠) مقالة وكتبه وتحقيقاته: أصل وتركيب سور القرآن، وسيرة محمد ﷺ،
وفكرة عامة عن حياة محمد ﷺ، والكعبة، وهل كان لمحمد ﷺ معلمون نصاري؟،
والإمامة والسياسة لابن قتيبة، والقرآن الرسمي في قراءة أهل مصر، وتراجم المسلمين،
والشيعية، وغيرها كثير. انظر للتوسع: المستشرقون: نجيب العقيقي: ٧٣٨-٧٤٠/٢.



الأول الذي ينسبها إليه أصحابها، وما لبث أن حظي هذا الرأي بقبول عام لدى المستشرقين من أهل الغرب، وظل أمراً ثابتاً في أذهانهم، وأخذ به جوزيف شاخت ورأى أن تدوين السنة لم يتم إلا بعد سنة (١٥٠ هـ)^(١)، وكذلك السير وليم موير ذهب بأن تدوين السنة لم يتم إلا بعد سنة (١٥٠ هـ)، وأما روبسون (ROBSON, J)^(٢) فقد اعتبر أن تدوين السنة بدأ في القرن الثاني (١٠٠ -

-
- (١) انظر للتوسع: ندوة السنة النبوية ومنهجها في بناء المعرفة والحضارة: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، بحث الشبهات حول السنة النبوية ودراسة منطلقات هذه الشبهة والتعليق عليها: الشيخ عز الدين الخطيب التميمي والتعليق عليه: ٥٨٧/٢ - ٥٨٩، الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية: د. ساسي سالم الحاج: ٦٢٤/٢ - ٦٣٠.
- (٢) هو مستشرق إنجليزي، ولد عام (١٨٩٠ م)، وتخرج باللغات الشرقية من جامعة جلاسجو، ودرس فيها، وبجامعة مانشستر، من كتبه وبحوثه وتحقيقاته: المسيح في الإسلام، وذم الملاحية لابن أبي الدنيا، والملاحية لأبي طالب المفضل بن سلمة النحوي اللغوي، والمدخل في علم الحديث، وأولياء العرب، والإعجاز في القرآن، والتسليم في الإسلام، والإسناد في الحديث عند المسلمين، وهل تكلم الكتاب المقدس عن النبي محمد ﷺ، ومحمد ﷺ في الإسلام، ومواد الحديث، والحديث: ترتيب وفهرسة، والأساس الثاني للإسلام: الحديث، وشرط الإسلام، والغزالي والسنة، وصحيح مسلم، وابن إسحاق والإسناد، وسنن أبي داود، وجامع الترمذي، والاحتفال بشهر المحرم، وغيرها كثير. انظر للتوسع: المستشرقون: نجيب العقيقي: ٥٤٧/٢ - ٥٤٨.

٢٠٠هـ^(١)، وأما شبرنجر (Sprenger,A)^(٢) فقد اعتبر بداية تدوين السنة في مطلع القرن الهجري الثاني (١٠٠هـ)، وهو ما أخذ به دوزي (Dozy,R.P.A)^(٣).

- (١) انظر للتوسع: تاريخ تدوين السنة وشبهات المستشرقين: د. حاكم عيسان المطيري: ١١١-١٧٧.
- (٢) هو مستشرق نمساوي، عاش بين عامي (١٨١٣، ١٨٩٣م)، تعلم في انسبروك، وفيينا، وباريس، ورحل إلى لندن وحصل على الجنسية البريطانية، ونال الدكتوراه في الطب، وعين رئيساً للكلية الإسلامية في دلهي بالهند، ودرس في جامعة برن بسويسرا، من كتبه وتحقيقاته: اصطلاحات الصوفية لعبد الرزاق السمرقندي، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، وفهرس كتب الشيعة للطوسي، والحسبة والاحتساب للتهانوي، وآداب السمرقندي، وكشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي، ومعجم المصطلحات العلمية لدى المسلمين، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي، وسيرة محمد ﷺ، وغيرها. انظر للتوسع: المستشرقون: نجيب العقيقي: ٢/ ٦٣١-٦٣٢.
- (٣) هو مستشرق هولندي، عاش بين عامي (١٨٣٠، ١٨٨٣م)، درس بجامعة ليدن، وأصبح أستاذاً بها، ويعتبر أول فاتح للدراسات الأندلسية، من كتبه وبحوثه وتحقيقاته: فهرس المخطوطات الشرقية في جامعة ليدن، والمعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي، والبيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى المراكشي، وتاريخ الموحدين للمراكشي، وتاريخ المسلمين في أسبانيا إلى فتح المرابطين لها، ونظرات في تاريخ الإسلام، وتاريخ الإسلام من فجره حتى عام (١٨٦٣م)، وغيرها كثير. انظر للتوسع: المستشرقون: نجيب العقيقي: ٢/ ٦٥٨-٦٦٠.
- (٤) انظر: علوم الحديث ومصطلحه: د. صبحي الصالح: ٣٣-٣٦، المستشرقون والحديث =



الرد على هذه الشبهة بما يلي:

مروجو هذه الشبهة أدري الناس بكذبها، ولا يستطيع أحد منهم أن يذكر على ذلك دليلاً، ويمكن إجمال الرد على هذه الشبهة بما يلي:

أولاً: يجب التفريق بين كتابة السنة وتدوينها، فالمستشرقون خلطوا بينهما، حيث فهموا خطأ أن التدوين هو الكتابة، وعليه فإن السنة النبوية ظلت محفوظة في الصدر لم تكتب إلا في نهاية القرن الأول الهجري في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، ولو أن المستشرقين فهموا حقيقة الكتابة، وحقيقة التدوين، وأدركوا الفرق بينهما، لما تعارضت النصوص في فهمهم، ولما صح تشكيكهم في السنة؛ بدعوى تأخر تدوينها مدعين أنه دخلها الزيف؛ لأن العلم الذي يظل قرناً دون تسجيل لا بد أن يعتريه تغيير ويدخله التحريف، فإن الذهن يغفل والذاكرة تنسى، أما القلم فهو حصن أمان لما يدون به:

١- الكتابة: هي مطلق خط الشيء، دون مراعاة لجمع الصحف المكتوبة في

إطار يجمعها.

٢- التدوين: هي مرحلة تالية للكتابة، وتكون بجمع الصحف المكتوبة في

ديوان يحفظها^(١).

٣- التصنيف: معناه أوسع بكثير من التدوين إذ أنه يتضمن تصنيف مجموعة مسجلة بالفعل في أجزاء مختلفة، أي إعادة ترتيب المادة المكتوبة بالفعل إلى أجزاء وفصول مختلفة^(٢).

وعلى ذلك فقول الأئمة: إن السنة دوت في نهاية القرن الأول الهجري لا يفيد أنها لم تكتب طيلة هذا القرن؛ بل يفيد أنها كانت مكتوبة؛ لكنها لم تصل لدرجة التدوين، وهو جمع الصحف في دفتر^(٣).

ثانياً: مقولة: «أول من دوّن العلم ابن شهاب الزهري»، تم ترجمتها خطأ بمعنى: أول من كتب العلم - أي علم الحديث - كان ابن شهاب الزهري، وانطلاقاً من هذا التفسير الخاطئ انبثقت نظرية أن كتابة الحديث بدأت متأخرة للغاية حتى عصر الزهري في نهاية القرن الأول الهجري، أو بداية القرن الثاني^(٤).

(١) السنة النبوية: مكانتها، عوامل بقائها، تدوينها: د. عبد المهدي بن عبد القادر بن عبد الهادي: ٩٤ - ٩٧.

(٢) دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث: د. امتياز أحمد: ٢٨٣ - ٢٨٤.

(٣) السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام: مناقشتها والرد عليها: د. عماد السيد الشرييني: ٣٥١ / ١.

(٤) دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث: د. امتياز أحمد: ٢٨١.



والمتتبع لكلام الأئمة السابقين يتضح له أنه كان معلوماً لديهم الفرق بين الكتابة والتدوين، وهم يؤرخون لتدوين السنة، حيث كان مدار حديثهم على التدوين، وليس في حديثهم شيء يتعلق بالكتابة، كقول الحافظ ابن حجر: «وأول من دَوَّن الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبدالعزيز، ثم كثر التدوين، ثم التصنيف، وحصل بذلك خير كثير، فله الحمد»^(١).

ثالثاً: أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه حينما أمر بتدوين السنة لم يبدأ من فراغ؛ لكنه اعتمد على أصول مكتوبة كانت تملأ أرجاء العالم الإسلامي كله، من خلال روح علمية نشطة، أشعلها الإسلام في اتباعه، فأصبحوا يتقربون إلى الله تعالى بأن يزدادوا في كل يوم علماً، وحينما ثبت أن تدوين السنة قام على أساس مكتوب في عصر النبي ﷺ، وبإذن منه ﷺ شخصياً، فإننا لن نتعسف الأدلة أبداً وصولاً إلى تلك الغاية؛ لأننا لن نقول في هذا الشأن قولاً إلا ونشفعه بالدليل القوي المستمد من أوثق المصادر وأكدها وأصحها.

وإن القول بأن السنة قد بدأت كتابتها منذ عصر النبي ﷺ إلى زمن تدوينها تدويناً رسمياً أصبح حقيقة علمية مؤكدة ثبتت بالبراهين القطعية،

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر: ٢٥١/١.

وتضافرت على إثبات هذه الحقيقة الساطعة أقوال جملة من علماء المسلمين المعاصرين، وأبرز هذه الدراسات الجادة ما يلي:

١- السنة قبل التدوين: د. محمد عجاج الخطيب.

٢- توثيق السنة في القرن الثاني الهجري: أسسه واتجاهاته: د. رفعت فوزي عبد المطلب.

٣- دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه: د. محمد مصطفى الأعظمي.

٤- دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث: د. امتياز أحمد^(١).

رابعاً: نماذج من أشهر ما كتب من الأحاديث النبوية في حياة النبي ﷺ وبعده إلى زمن التدوين الرسمي:

١- ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه لما فتح الله - تعالى - على رسوله ﷺ مكة قام الرسول ﷺ وخطب في الناس، فجاء رجل من أهل اليمن فقال: اكتب لي يا رسول الله، فقال: «اكتبوا لأبي فلان»^(٢).

(١) السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام: مناقشتها والرد عليها: د. عماد السيد الشرييني: ٣٥٢-٣٥٣.

(٢) رواه البخاري في كتاب: العلم، باب: كتابة العلم، (الحديث: ١١٢): ٥٦/١. وانظر في=



- ٢- ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه كتب له التي فرض رسول الله ﷺ: «ولا يجمع بين متفرق، ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة»^(١).
- ٣- ما رواه أبو عثمان النهدي قال: «أتانا كتاب عمر رضي الله عنه ونحن مع عتبة ابن فرقد بأذربيجان أن رسول الله ﷺ نهى عن الحرير إلا هكذا، وأشار بأصبعيه اللتين تليان الإبهام، قال: فيما علمنا أنه يعني الأعلام»^(٢).

- ٤- الصحيفة الصادقة التي كتبها جامعها عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، وإن لم تصل هذه الصحيفة كما كتبها عبد الله بن عمرو رضي الله عنه بخطه فقد وصل إلينا محتواها؛ لأنها محفوظة في مسند الإمام أحمد في مسند عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه حتى يصح أن نصفها بأنها أصدق وثيقة

=التوسع في أحاديث جواز الكتابة في العهد النبوي: كتابة الحديث النبوي وجمعه وتدوينه وصفات أهله: د. كمال الدين عبد الغني المرسي: ١٤ - ٥٢.

- (١) رواه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: العرض في الزكاة، (الحديث: ١٤٥٠): ١/٤٤٧ - ٤٤٨.

- (٢) رواه البخاري في كتاب: اللباس، باب: لبس الحرير للرجال وقدر ما يجوز منه، (الحديث: ٥٨٢٨): ٤/٦٢. وانظر في التوسع في أمثلة الكتابة في عهد الصحابة رضي الله عنهم: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه: د. محمد مصطفى الأعظمي: ١/٩٢ - ١٤٢، كتابة الحديث بأقلام الصحابة: د. ساجد الرحمن الصديقي: ٤٥ - ٩٨.

تاريخية تثبت كتابة الحديث على عهد رسول الله ﷺ^(١)، ودليل اشتغال عبد الله ابن عمرو بن العاص ﷺ بكتابة هذه الصحيفة قول أبي هريرة ﷺ: «ما من أصحاب رسول الله ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب»^(٢).

٥- الصحيفة الصحيحة التي كتبها همام بن منبه ﷺ^(٣)، زوج ابنة أبي هريرة ﷺ، كتبها أمام أبي هريرة ﷺ، وهذه الصحيفة مكانة خاصة في تدوين الحديث؛ لأنها وصلت إلينا كاملة سالمة كما رواها همام بن منبه ﷺ عن أبي هريرة ﷺ، فكانت جديرة باسم الصحيفة الصحيحة^(٤).

ومما يجب التنبيه إليه أن مصطلح صحيفة وكتاب وجزء لا يعنى

(١) انظر للتوسع: صحائف الصحابة ﷺ وتدوين السنة النبوية المشرفة: أحمد عبد الرحمن الصويان: ٦٥-٧٢.

(٢) رواه البخاري في كتاب: العلم، باب: كتابة العلم، (الحديث: ١١٣): ٥٧/١.

(٣) انظر للتوسع في أمثلة الكتابة في عهد كبار التابعين في القرن الهجري الأول: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه: د. محمد مصطفى الأعظمي: ١/١٤٣-١٦٧، كتابة الحديث النبوي وجمعه وتدوينه وصفات أهله: د. كمال الدين عبد الغني المرسي: ٧٥-٩٠.

(٤) انظر للتوسع: صحائف الصحابة ﷺ وتدوين السنة النبوية المشرفة: أحمد عبد الرحمن الصويان: ١٨٩-٢٠٠.



بالضرورة: «مجموعات صغيرة أو مذكرة عن الحديث» كما كان يعتقد أحياناً^(١).
وهذه الكتابات السابقة وغيرها الكثير تقطع بكتابة السنة المطهرة في
عصر النبوة والصحابة والتابعين^(٢).

-
- (١) دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث: د. امتياز أحمد: ١٤٨، ١٥٨، ١٦١.
(٢) انظر للتوسع: السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام: مناقشتها والرد عليها: د. عماد السيد الشرييني: ١/ ٣٤٩ - ٣٧٤، منهج النقد في علوم الحديث: د. نور الدين عتر: ٤٥ - ٥٠،
٤٦٣، دفع الشبهات عن السنة النبوية: د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي: ٥٣ - ٥٧.

المبحث الخامس

شبهة المستشرقين في نقد متن، وسند السنة النبوية، والرد عليها

انبرى جمع من المستشرقين للطعن في المصدر الثاني للتشريع، وهدفوا من وراء ذلك إلى التشكيك في السنة النبوية وإنكارها، وقد ساهم الاستعمار الأوروبي لبلاد المسلمين؛ ومن معه من المستشرقين في نشر فكرة إنكار السنة النبوية بين المسلمين في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين^(١)، من خلال هجومهم على صناعة المحدثين النقدية، سواء في السند أم المتن، وهز الثقة بجهودهم في هذا المضمار، وذلك كما يلي:

المطلب الأول: شبهة المستشرقين في نقد متن السنة النبوية، والرد عليها:

قد أشاع المستشرقون أن المحدثين اقتصروا في فحصهم الحديث على نقد سند الرواية دون متنها، وأنهم لم يتجاوزوا النقد الخارجي، فأصحاب الحديث

(١) انظر للتوسع: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه: د. محمد مصطفى الأعظمي:

٢٥ - ٢٩، الاتجاهات المعاصرة في دراسة السنة النبوية في مصر وبلاد الشام: د. محمد

عبد الرزاق أسود: ٥٦٩ - ٥٧٢، ٦٢٥ - ٦٢٦.



من وجهة نظرهم يصححون الرويات اعتماداً على صحة أسانيدھا فقط، ولم يكلفوا أنفسهم في نقد المتون وفحصھا وتمييزھا من الداخل، وقد أدى بهم هذا التصور إلى وصم منهج المحدثين بالقصور والخلل، ووصفوه بالسطحية من حيث معالجة الشكل دون المضمون، ولذلك فهو في نظرهم لم يتمكن من نقد وغرلة الرويات غرلة وثيقة، وترتب على قصور معايير المحدثين النقدية - في زعمهم - إلى اختلاط الحديث النبوي، وهي مقدمة خطيرة يترتب علیھا طرح الحديث الشريف بالكلية لاهتزاز الثقة بمناهج نقاده، ولأن مادته جاءت أمشاجاً اختلط فیھا الصحيح بالسقيم، والمشهور بالغريب، والمروي الثابت بالمختلق المصنوع من غير تمييز، فنتج عن ذلك: القول بطرح الحديث ورده جملة واحدة، أو على أقل تقدير إنزاله جميعاً في دائرة الريب والتشكيك، ومن أبرز القائلين بهذه الفرية من المستشرقين:

جولدتسيهر، وشاخت، والسير ولیم مویر، وغاستون ويت^(١)،

وكولسون^(٢)، والأمیر کایتانی (CAETANI, LEONE)^(٣) الذي قال: «كل

(١) لم أعثر على ترجمته.

(٢) لم أعثر على ترجمته.

(٣) هو مستشرق إيطالي، عاش بين عامي (١٨٦٩، ١٩٢٦م)، تخرج من جامعات روما، =

قصد المحدثين ينحصر ويتركز في واد جذب محل من سرد الأشخاص الذين نقلوا المروي، ولا يشغل أحد نفسه بنقد العبارة والمتن نفسه»^(١)، وهذا أيضاً هو رأي فنسك (WENSINCK, A. J.)^(٢)، ودنكان بلاك ماكدونلد

= وعمل في سفارة إيطاليا في واشنطن، وقد عُدَّ بمؤلفاته أكبر مستشرق في التاريخ العربي، من كتبه: نمو الشخصية الإسلامية، وانتشار الإسلام وتطور الحضارة، ودراسة التاريخ الشرقي: سيرة الرسول ﷺ، وتاريخ الإسلام من العام الأول الهجري إلى عام (٩٢٢هـ)، وغيرها. انظر للتوسع: المستشرقون: نجيب العقيقي: ٣٧٢/١ - ٣٧٣.

(١) نقد المتن بين صناعة المحدثين ومطاعن المستشرقين: د. نجم عبد الرحمن خلف: ٨ - ١٠.

(٢) هو مستشرق هولندي، عاش بين عامي (١٨٨١، ١٩٣٩م)، وأصبح أستاذاً في جامعة ليدن، وعني بالحديث النبوي منذ عام (١٩١٦م)؛ وسعى إلى وضع المعجم المفهرس لألفاظه من أمهات مصنفاته، فانضم إليه لفيث من المستشرقين، من كتبه وبحوثه: موقف الرسول ﷺ من يهود المدينة، ومحمد ﷺ واليهود، والإسرائيليات في الإسلام، وفهرس ذيل الحديث، وقيمة الحديث في الدراسات الإسلامية، ومحمد ﷺ والنبوة، ومفتاح كنوز السنة، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث عن الكتب الستة ومسند الدارمي وموطأ مالك ومسند ابن حنبل، والخمر في الإسلام، والعقيدة الإسلامية وتطورها التاريخي، والغزالي، والأثر اليهودي في أصل الشعائر الإسلامية، وغيرها كثير. انظر للتوسع: المستشرقون: نجيب العقيقي: ٦٦٧/٢ - ٦٦٨.



(MACDONALD, D. B.)^(١)، وأندرسون (ANDERSON, J.N.D.)^(٢)،

ومونتجمري وات (MONTGOMERY, WATT)^(٣)، وآرثر جفري

(١) هو مستشرق من الولايات المتحدة الأمريكية، عاش بين عامي (١٨٦٣، ١٩٤٣م)، تعلم في جلاسجو بإنجلترا، وأسس في هارتفورد مدرسة كنيتي للبعثات عام (١٩١١م)، وأنشأ بمعاونة صمويل زويمر: مجلة عالم الإسلام عام (١٩١١م)، ومن كتبه وبحوثه وتحقيقاته: علم الكلام في الإسلام، وترجمة رسالة في النفس لابن سينا، وإحياء علوم الدين للغزالي، وتطور علم الكلام في الإسلام، ومذاهب الفقه والنظم، والدين والحياة في الإسلام، وعرض المسيحية للمسلمين، والإله وحدة أم اتحاد؟، وفي الفقه الإسلامي، والخلافة، وعقيدة الوحي في الإسلام، وتاريخ الدراسات الفقهية في الإسلام، والزمن في المدرسة الفقهية، وتطور فكرة الروحانية في الإسلام، وما هو الإسلام؟، والتصوف الإسلامي والمسيحي، والعلوم الطبيعية في الإسلام، وغيرها كثير. انظر للتوسع: المستشرقون: نجيب العقيقي: ١٠٠١-١٠٠٢.

(٢) هو مستشرق إنجليزي، عاش في أواسط القرن العشرين، من كتبه وبحوثه: الشرع والفقه الإسلامي، وإبطال الزواج على المذهب الحنفي، وجريمة القتل في الإسلام، والأحوال الشخصية في القانون العراقي، والأحوال الشخصية في القانون السوري، والأحوال الشخصية للطائفة الدرزية. انظر: المستشرقون: نجيب العقيقي: ٥٤٦/٢.

(٣) هو مستشرق إنجليزي، عاش في أواسط القرن العشرين، وعميد قسم الدراسات العربية في جامعة ادنبرا، من كتبه وبحوثه: عوامل انتشار الإسلام، ومحمد ﷺ في مكة، والإسلام والجماعة الموحدة. انظر: المستشرقون: نجيب العقيقي: ٥٥٢/٢.

(JEFFERY, A.)^(١)، وغيرهم^(٢).

الرد على هذه الشبهة بما يلي:

١- إن نقد المتن أمر مقرر في قواعد الحديث، وقد بدأ قبل علم الجرح والتعديل وظهور الإسناد، ونجد هذا في المناقشات الطويلة التي كانت تقوم بين الصحابة رضي الله عنهم، فعائشة رضي الله عنها اعترضت على عدد من الروايات؛ لا لضعف الرواة، ولكن لأن هذه الروايات لم تنسجم مع المبادئ العامة والبدهيات

(١) هو مستشرق من الولايات المتحدة الأمريكية، من أصل استرالي، عاش في أواسط القرن العشرين، عين أستاذاً في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ثم في جامعة كولومبيا، من كتبه وبحوثه وتحقيقاته: كتاب المصاحف للسجستاني، والقرآن، ونصوص من القرآن، ودراسة عن مختصر شواذ القراءات لابن خالويه، وأبو عبيد والقرآن، والفاخرة، وقراءة زيد بن علي، وطريقة كتابة القرآن في سمرقند، وكتابة القرآن، والاختيار في الإسلام، والجدل الإسلامي المسيحي، وتاريخ محمد ﷺ، ونصارى مكة، ونبي الإسلام، والإسلام، والحركات الإسلامية، والبيروني ومقارنة الأديان، وغيرها. انظر للتوسع: المستشرقون: نجيب العقيقي: ١٠١٣/٣.

(٢) المستشرقون والحديث النبوي: د. محمد بهاء الدين: ١٢٩، ١٤٥، ١٦١، ١٦٣، مناهج الاستدلال على مسائل العقيدة الإسلامية بمصر في العصر الحديث: أحمد قوشتي عبدالرحيم: ١٢١، مقدمة كتاب المصاحف: عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني المعروف بابن أبي داود: د. محب الدين عبد السبحان واعظ: ١٠٣/١.



الشرعية والعقلية، وقد صنف الزركشي كتاباً في استدراكات عائشة عليها السلام على الصحابة عليهم السلام، وجميع هذه الاستدراكات نقد للمتن، وكذلك فعل عمر بن الخطاب عليه السلام، ومعاوية بن أبي سفيان عليه السلام، وغيرهما.

٢- إن نشأة المذاهب الفقهية والاختلافات بين هذه المذاهب مبني في معظمه على نقد المتن؛ فالشافعي يختلف مع غيره في كثير من الأحيان لا في ثبوت النص وإنما في فهم النص، بل إن اتباع المذهب الواحد تتباين أنظارهم تبعاً لفهمهم للمتن وتفسيره، والذين تمسكوا بظاهر النص ومنطوق المتن فئة واحدة هم الظاهرية.

٣- وكذلك الحال في نشأة المذاهب السياسية والعقدية الكلامية، فمعظم الاختلاف مبني على فهم النصوص، ومتون الحديث تشكل قسماً كبيراً من هذه النصوص.

٤- لقد نشأ علم كامل هو علم اختلاف الحديث أو مختلف الحديث أو مشكل الحديث، وموضوع هذا العلم البحث في المتون، ومن ذلك كتاب «اختلاف الحديث» للإمام الشافعي، و«تهذيب الآثار» للطبري، و«مختلف الحديث» لابن قتيبة.

٥- لقد أولى علم العلل متن الحديث عناية خاصة، حتى كان موضوع هذا

العلم الحديث الذي ظاهر إسناده الصحة، وكان العلماء يضعفون الحديث - أحياناً- والسند صحيح جيد، ويقولون: منكر المتن، أو شاذ، أو مضطرب، أو غريب، أو فيه ظلمة، أو يقشعر منه الجلد، أو لا يطمئن له القلب، وغير ذلك من العبارات الكثيرة.

٦- إن الأحاديث الموضوعة يستدل على وضعها من المتن قبل الاستدلال من السند؛ لأن أكثر الكذابين كانوا يسرقون الأسانيد، بمعنى أنهم يركّبون الإسناد الجيد على المتن الموضوع، أو يُلقّنون الثقة في مراحل اختلاطه؛ فيروي الموضوعات بأسانيده الصحيحة، وقد عمد بعض الكذابين إلى كتب شيوخهم الثقات فأدخلوا عليها أحاديث مكذوبة، وكتبوها بين السطور، إلى غير ذلك من الوسائل الخبيثة، ولكن العلماء كشفوا هذا كله وسجلوه في كتب الموضوعات.

٧- إن السند إحدى الدلالات على الصحة، وليس هو الدليل الوحيد عليها.

٨- إن النقد عند علماء الحديث يمكن أن نطلق عليه: «نقد المروي» بغض النظر عن كون الموضوع الواقع عليه النقد سنداً أو متناً، والسند والمتن جميعاً عند الناقد جملة واحدة؛ قد يدخل الخطأ والوهم على أي جزء منها، فقد يخطئ في ذكر الاسم، وقد يخطئ في عبارة التحمل - حدثنا أو أخبرنا -، وقد يخطئ في الرفع أو



الوقف أو الإرسال، وقد يخطئ في عبارة المتن فيختصرها اختصاراً يخل بها، أو ينقص منها ما حقه أن يكون فيها.

٩- إن نظرة في الكتب الستة المتداولة تعطينا الدليل الأكيد على العناية بالمتون ونقدها، فالبخاري يختار الرواية من بين مئات الروايات، وقد ثبت بعد جمع الروايات أن اختياراته مدروسة وقائمة على البحث والتتبع، وقد ظهر الاتجاه نحو نقد المتن على يد الإمام الترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجه، وغيرهم.

وأخيراً، إن معلوماتنا اليوم عن الحديث ونقده أضعاف معلومات الذين أثاروا الشبهات حول نقد متن الحديث؛ وذلك لاتساع المكتبة الحديثية، وكثرة المطبوع منها، واستخراج دفائنها^(١).

المطلب الثاني: شبهة المستشرقين في نقد سند السنة النبوية، والرد عليها:

اعتبر المشرقون أن الأسانيد الموجودة في كتب السنة لا بد أنه قد اختلقها

(١) الفكر المنهجي عند المحدثين: د. همام عبد الرحيم سعيد: ١٠٦-١٠٩، وانظر للتوسع: نقد المتن بين صناعة المحدثين ومطاعن المستشرقين: د. نجم عبد الرحمن خلف: ١٩-٥٧.

المحدثون في القرن الثاني والثالث الهجريين، وهذا ما أكده كايثاني، وشبرنجر، وجوزيف هوروفيتش (HOROVITZ, J.)^(١)، وروبسون، ولامنس (LAMMENS, P.H.)^(٢)، وهؤلاء يبنون نظريتهم في ذلك من خلال

(١) هو مستشرق ألماني، عاش بين عامي (١٨٧٤، ١٩٣١م)، وأستاذ العربية في جامعة عليجرة بالهند، وكان متخصصاً بالإسلام بالهند، ثم انتقل إلى جامعة فرانكفورت، ومن كتبه وبحوثه وتحقيقاته: المغازي للواقدي، والجزءان الأولان من الطبقات لابن سعد، وتاريخ الشيعة وأصل التشيع وأخباره وحوادثه، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والشيعة، والزكاة، والإسناد، وشروح صحيح البخاري، وشعائر الإسلام، والمغازي الأولى ومؤلفوها، واشتقاق لفظ القرآن، والقرآن، والإسلام والنصرانية، وغيرها. انظر للتوسع: المستشرقون: نجيب العقيقي: ٧٤٣/٢ - ٧٤٥.

(٢) هو مستشرق من الرهبان الآباء اليسوعيون، عاش بين عامي (١٨٦٢، ١٩٣٧م)، وهو بلجيكي المولد، فرنسي الجنسية، وهو من أوائل خريجي جامعة القديس يوسف في بيروت، وأصبح أستاذاً فيها، ودرس في إنجلترا، ولوفان، وفيينا، وروما، من كتبه وبحوثه: ثمانون مقالاً في دائرة المعارف الإسلامية في ليدن، والحكام الثلاثة: أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة، وقرآن وحديث، وسن محمد ﷺ وتاريخ السيرة، وإخلاص محمد ﷺ، وفاطمة وبنات محمد ﷺ، ومهد الإسلام، وموقف الإسلام من الفنون المصورة، ومكة قبيل الهجرة، ويهود مكة، وخصائص محمد ﷺ بحسب القرآن، والفقه الإسلامي، وغيرها، وقد بلغت مصنفاته بين كتاب ومقال (١٨٥) باللغة الفرنسية، و(١٢٧) باللغة العربية. انظر للتوسع: المستشرقون: نجيب العقيقي: ١٠٦٨ - ١٠٧٢.

دراستهم لأسانيد الحديث النبوي من خلال كتب السيرة القديمة، بينما بنى المستشرق شاخت نظريته في اعتبار الإسناد جزءاً اعتبارياً في الأحاديث، وأنها نمت وتطورت على يد الأحزاب المختلفة التي كانت تريد أن تنسب نظرياتها إلى أشخاص مرموقين من القدماء؛ من خلال دراسته لأسانيد الحديث النبوي من الكتب الفقهية^(١)، والبعض الآخر من المستشرقين لم يعتبر الإسناد، ولم ينظر إليه أصلاً، أمثال: جولدتسيهر، وآرثر جفري الذي يقول: «فأما أهل النقل فاعتمدوا على آراء القدماء، وعلى هذه التخيلات التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، والتي نقلها العلماء من دور إلى دور، وإذا ما وجدوا بين هذه الآراء خلافاً اختاروا واحداً منها وقالوا: إنه ثقة وغيره ضعيف وكاذب»^(٢).

الرد على هذه الشبهة بما يلي:

١- بدأ استعمال الإسناد في حياة النبي ﷺ، وكان قد استعمله بعض

(١) انظر للتوسع: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه: د. محمد مصطفى الأعظمي: ٣٩٢-٣٩٧.

(٢) انظر للتوسع: مقدمة كتاب المصاحف: عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني المعروف بابن أبي داود: د. محب الدين عبد السبحان واعظ: ١/ ١٠٢، الرد على المستشرق اليهودي جولدتسيهر في مطاعنه على القراءات القرآنية: د. محمد حسن حسن جبل: ٣١-٣٣.

الصحابة رضي الله عنهم لنقل الأحاديث النبوية في ذلك الوقت .

٢- وجد الوضع في الحديث - على الأغلب - في العقد الرابع من القرن الأول من الهجرة، وذلك في مجال السياسة بالذات، فقد أوجدت هذه الفرقة السياسية جبهات متعادية، وبعض هؤلاء كانوا قليلي الدين، ضعيفي الإيمان، وضعوا أحاديث على رسول الله ﷺ لمصلحة أحزابهم، منذ ذلك الوقت أصبح المحدثون أكثر حساسية في انتخاب الأساتذة، وأكثر انتقاء في سماع الحديث، وأكثر احتياطاً في قبول الرواة، وأصبح استعمال الأسانيد أكثر أهمية من قبل.

٣- لم ينتخب المستشرقون لدراسة ظاهرة الإسناد المجال المناسب؛ لأن كتابات الشافعي وأبي يوسف تبين بكل وضوح أن كتابات المجتهدين والفقهاء ليست مكاناً صحيحاً لدراسة ظاهرة الإسناد، وكذلك كتب السيرة؛ لأن السيرة ليست جمع وثائق فحسب، بل هي جمع وتنسيق الوثائق مع حذف الأسانيد لإعطاء التسلسل للحوادث؛ أي: إنه حتى كتب السيرة لا تفني بالغرض، وهذه الأسباب يجب أن تدرس الأسانيد، والأحاديث، والمسائل المتعلقة بهما في كتب الأحاديث نفسها، لا في كتب السيرة، ولا في كتب الفقه، ولا في الكتب الفقهية الحديثة كموطأ الإمام مالك مثلاً.

٤- الأمثلة التي ذكرها شاخت ترد على نظريته بخصوص ظاهرة الإسناد؛

لأن وجود الأعداد الكثيرة من الرواة، مع انتهائهم لعشرات المدن المترامية الأطراف تجعل كلاً من نظرية القذف الخلفي للأسانيد، والاختراع الاصطناعي للأسانيد، غير قابلة للالتفات، وعملية نادرة الوقوع.

٥- لم يكن هناك تطور وتحسين في الأسانيد، وحتى ما كان هناك من رفع للموقوف، أو وصل للمرسل، حتى هذا لم يخف على المحدثين، ولقد كانوا متيقظين جداً فنقدوه، وبينوا ما فيه، أما القول بأنهم كانوا ينتقدون الحديث إذا كان في مصلحة المدرسة الفقهية المعارضة، فهو ادعاء كاذب لا يستند إلى دليل؛ بل يخالف الواقع.

٦- حسب نظرة المحدثين لا يقبل الحديث ولو كان متنه صحيحاً إذا كانت أسانيده موضوعة أو ضعيفة، ولذلك لا بد لقبول الحديث من صحة الإسناد والمتن جميعاً.

٧- ليس هناك أي سبب وجيه لرفض سلسلة الإسناد؛ بل الدراسة تؤكد بأن هذا المنهج يحمل في طياته كل عناصر الأصاله والصحة، وتحتم قبولها بصفة عامة.

٨- لقد قام المحدثون بنقد المتون والأسانيد بكل ما كان في وسعهم، وبكل جرأة، وبكل إخلاص.

٩- كتب الحديث تهيئ الفرصة لإجراء كافة البحوث والدراسات،
وتتحمل كل أنواع النقد المبني على العلم والإنصاف لا على الجهل والحقْد^(١).

١٠- وأما كلام آرثر جفري الذي طعن فيه علماء السلف الذين حفظوا لنا
هذا الدين ونقلوه بكل أمانة، ووصفهم بـ «القدماء»، فإن كان قصده من هذه
العبارة أنهم لا يعتمد عليهم، فبئس الظن والقول؛ لأنهم هم الذين سجّل
التاريخ جهودهم بما لا يدع مجالاً للشك أو الطعن، وأعمال أولئك العلماء
وجهودهم ماثلة أمام أعين الشاهدين ليحكموا بالعدل والإنصاف، وكذلك
طعن السند الذي هو من خصائص الأمة الإسلامية، ووصفه بـ «التخيلات»،
وهذا نابع عن حقد دفين على الإسلام وأهله، وجهل عميق بالأصول المتّبعة في
نقل العلوم الإسلامية، وعمل على إشاعة الباطل عن الإسلام ومتبعيه، وأن ما
سمّاها تخيلات هي حقائق علمية ثابتة بطرق نقيّة، يقرها كل من لديه إمام
بالإسلام، وبالطرق المتّبعة في تثبيت الحقائق، وتمييز الحق من الباطل، وأما اتهامه
المحدثين بأنهم يختارون ما يريدون، ويتهمون الراوي بالضعف والكذب على
هواهم؛ فهذا نابع من جهله وضلاله، أو تجاهله وعداوته للإسلام، فحاشاهم

(١) انظر للتوسع: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه: د. محمد مصطفى الأعظمي:

أن يكونوا كذلك؛ لأن لديهم ضوابط دقيقة مفصلة للاختيار من الآراء المختلفة إن وجدت، وأصولاً مقننة معمولاً بها على مر العصور؛ لمعرفة الراوي الثقة أو الضعيف، من سبر لمروياته، وتتبع لسيره وأحواله، وكونه معروفاً بطلب العلم، وتصديه للتدريس والتحديث والإملاء، أو نحو ذلك، ومن ثم يأتي الحكم على الراوي بأنه ثقة أو أقل من ذلك، وليس كما زعم هذا المستشرق^(١).

المطلب الثالث: أهم استدلالات المستشرقين في إنكار السنة

النبوية، والرد عليها:

أولاً: استدلال المستشرقين ببعض الأحاديث الضعيفة في إنكار السنة

النبوية والرد عليها:

استدل واحتج المستشرق أجناس جولدتسيهر بما روي أنه ﷺ دعا اليهود فسألهم فحدثوه؛ حتى كذبوا على عيسى ﷺ، فصعد النبي ﷺ المنبر،

(١) انظر للتوسع: مقدمة كتاب المصاحف: عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني المعروف بابن أبي داود: د. محب الدين عبد السبحان واعظ: ١/ ١٠٢ - ١٠٣، الرد على المستشرق اليهودي جولدتسيهر في مطاعنه على القراءات القرآنية: د. محمد حسن حسن جبل: ٣٣ - ٣٨.

فخطب الناس فقال: «إن الحديث سيفشوا عني، فما أتاكم يوافق القرآن: فهو عني، وما أتاكم عني يخالف القرآن: فليس عني»، وذلك لنفي حجية السنة النبوية، والتشكيك بها جملة وتفصيلاً^(١).

الرد على هذه الشبهة بما يلي:

١- روي هذا الحديث من طرق كلها ضعيفة: عن علي^(٢)، وأبي هريرة^(٣)،

وابن عمر، وثوبان^(٤) رضي الله عنهم.

(١) العقيدة والشرعية في الإسلام: أجناس جولدتسهير: ٥٤ - ٥٥.

(٢) رواه الدارقطني في سننه في كتاب: في الأقضية والأحكام، باب: كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري، (الحديث: ٢٠): ٤/٢٠٨، وقال الدارقطني: «هذا وهم؛ والصواب عن عاصم، عن زيد، عن علي بن الحسين مرسلاً، عن النبي ﷺ» وقال العظيم آبادي في التعليق المغني على الدارقطني، مطبوع مع السنن: ٤/٢٠٨ - ٢٠٩، «الحديث فيه جبرة ابن المغلس ضعفه ابن معين، وقال البخاري: مضطرب الحديث، وقال السخاوي: وقد سئل ابن حجر عن هذا الحديث فقال: إنه جاء من طرق لا تخلو عن مقال»، وانظر: ترجمة جبرة ابن المغلس في كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين: ابن حبان: ١/٢٢١.

(٣) رواه الدارقطني في سننه في كتاب: في الأقضية والأحكام، باب: كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري، (الحديث: ١٧): ٤/٢٠٨، وقال الدارقطني: «فيه صالح بن موسى ضعيف لا يحتج فيه».

(٤) حديثا ابن عمر وثوبان رضي الله عنهما رواهما الطبراني في المعجم الكبير، (الحديث: ١٣٢٢٤): =

٢- وقد أكد كثير من العلماء الضعف الشديد للحديث، وأحياناً بطلانه بطرق أخرى، أمثال الإمام الشافعي^(١)، والبيهقي^(٢)، وابن عبد البر^(٣)، والشوكاني^(٤)، وغيرهم.

٣- وهذا ما ذهب إليه علماء الحديث المعاصرون إلى أن هذا الحديث لا وزن له عند نقاد الحديث وصيافته؛ بسبب ضعفه، ويذهب بتسعة أعشار السنة التي تلقاها العلماء بالقبول في جميع الأعصار والأمصا^(٥)، ولا يصلح للاحتجاج أو الاستشهاد به^(٦)، وأنه باطل منكر جداً^(٧).

= ٣١٦/١٢، وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ١/ ١٧٠، «حديث ابن عمر رضي الله عنه فيه أبو حاضر عبد الملك بن عبد ربه، وهو منكر الحديث، وحديث ثوبان فيه يزيد بن ربيعة وهو متروك ومنكر الحديث».

- (١) الرسالة: الشافعي: ٢٢٥.
- (٢) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: أحمد بن الحسين البيهقي: ١/ ٢٧.
- (٣) جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله: ابن عبد البر: ٢/ ٢٣٣.
- (٤) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: محمد بن علي الشوكاني: ٢٩١.
- (٥) الحديث والمحدثون: الشيخ محمد محمد أبو زهو: ٢١١.
- (٦) انظر: هامش كتاب الرسالة للشافعي: الشيخ أحمد شاكر: ٢٢٤.
- (٧) هامش تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة لابن عراق: الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف: ١/ ٢٦٥.

ثانياً: استدلال المستشرقين بالمعقول في إنكار السنة النبوية والرد عليها:

نادى المستشرقون - حديثاً - بعرض السنة النبوية على العقل، فما وافقه قبل ولو كان آحاداً صح أو لم يصح، وما لم يوافقه ردوه ولو كان متواتراً صحيحاً، وهذا كله بقصد التشكيك بالسنة النبوية وإنكار حجيتها^(١).

الرد على هذه الشبهة بما يلي:

١- ينبغي علينا أن نقبل السنة النبوية كما أوردتها النبي ﷺ تامة وإلا خسرت قيمتها، ومن سوء الفهم الأساسي للسنة أن نلحقها تخضع للاختيار الشخصي، وتلك دعوى نشأت من الخطأ الشائع في فهم الفلسفة العقلية، وهناك شقة واسعة بين العقل وبين الفلسفة العقلية كما يفهمها - عادة - بعضهم اليوم، وإن العقل يعرف حدوده الخاصة به؛ ولكن الفلسفة العقلية تتخطى المعقول في ادعائها حصر العالم بجميع خفاياه في نطاقها الفردي الضيق، وهي لا تكاد تسلّم في الأمور الدينية بأنه من الممكن وجود أشياء لا يطبقها الفهم الإنساني في زمن ما، أو في كل زمن، مع أنها في الوقت نفسه تخالف المنطق إلى حد أنها تسلّم بهذا الإمكان للعلم^(٢).

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: د. مصطفى السباعي: ٤٤.

(٢) الإسلام على مفترق الطرق: محمد أسد: ١٠٠-١٠١.



٢- كثير من هؤلاء المنكرين للسنة لا يفرقون بين ما يرفضه العقل، وبين ما يستغربه، فيساوون بينهما في سرعة الإنكار والتكذيب، مع أن حكم العقل فيما يرفضه ناشئ من استحالته، وحكم العقل فيما يستغربه ناشئ من عدم القدرة على تصوره، وفرق كبير بين ما يستحيل وبين ما لا يدرك، وهذا ثابت بالاستقراء التاريخي، وتتبع التطور العلمي والفكري، فما كان مستحيلاً بالأمس أصبح اليوم واقعاً، والذين ينادون بتحكيم العقل بصحة الحديث أو تكذيبه، نراهم لا يفرقون بين المستحيل وبين المستغرب؛ فيبادرون للإنكار لما يبدو غريباً على عقولهم؛ وهذا تهور ناتج من اغترارهم بعقولهم من جهة، ومن اغترارهم بسلطان العقل، ومدى صحة حكمه فيما لا يقع تحت سلطانه من جهة أخرى^(١).

٣- لقد اعتنى المحدثون بالعقل في قبولهم للحديث وتصحيحه في أربعة مواطن، هي:

أ- مراعاة المحدثين للعقل في قبول الحديث ورده عند السماع: فالمحدثون إذا سمعوا خبراً تمتنع صحته أو تبعد لم يكتبوه ولم يحفظوه، فإن حفظوه لم يحدثوا به، فإن ظهرت مصلحة لذكره؛ ذكروه مع القدر فيه وفي الراوي الذي عليه تبعته.

(١) انظر للتوسع: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: د. مصطفى السباعي: ٤٦ - ٥٢.

ب - مراعاة المحدثين للعقل في قبول الحديث ورده عند التحديث: لذلك شرط علماء الحديث في الراوي ليصح تحديثه: العقل والبلوغ والعدالة والضبط^(١)، فأئمة الحديث بالمرصاد للرواة؛ فلا تكاد تجد حديثاً بين البطلان، إلا وجدت في سنده واحداً أو اثنين أو جماعة قد جرحهم الأئمة.

ج - مراعاة المحدثين للعقل عند الحكم على الرواة: وهذا يظهر - كثيراً - في كتب التراجم، فالأئمة كثيراً ما يجرحون الراوي بخبر واحد منكر جاء به، فضلاً عن خبرين أو أكثر، ويقولون للخبر الذي تمتنع صحته أو تبعد: منكر أو باطل، وتجد ذلك كثيراً في تراجم الضعفاء، وكتب العلل، والموضوعات، والمتشبهون لا يوثقون الراوي حتى يستعرضوا أحاديثه، وينقدوها حديثاً حديثاً.

د - مراعاة المحدثين للعقل عند الحكم على متون الأحاديث: فمن دلائل الوضع أن يخالف الحديث العقل؛ ولا يقبل تأويلاً بحال؛ لأنه لا يجوز أن يرد الشرع بما يناهض مقتضى العقل^(٢)، فعلماء الحديث أشد احتياطاً في الكشف عن ذلك^(٣).

(١) انظر للتوسع: شروط الراوي والرواية عند أصحاب السنن: دراسة تطبيقية: محمد

عبدالرزاق أسود: ٥٧-١٥٩.

(٢) توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار: الصنعاني: ٩٦/٢.

(٣) انظر للتوسع: الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل =



٤- لقد دل العقل والنظر والاستقراء على أن القرآن فرض على الناس فرائض مجملة تحتاج إلى تفسير، وشرح وبيان، كأداء الصلاة، وإيتاء الزكاة، والقيام بمناسك الحج؛ لذلك يتحتم شرعاً وعقلاً الرجوع إلى السنة لتفصيل مجمله، وبيان كيفية أدائه لوضع الصور التطبيقية لتوجيهاته، ومما يستعان به في تأييد ذلك ما يلي^(١):

• ما روى أن رجلاً قال لعمران بن حصين رضي الله عنه: لا تحدثونا إلا بالقرآن، فقال له عمران: «إنك امرؤ أحمق؛ أتجد في كتاب الله الظهر أربعاً لا تجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدّد عليه الصلاة والزكاة، ونحو هذا، ثم قال: أجد هذا في كتاب الله مفسراً؟ إن كتاب الله أهدى من هذا، وإن السنة تفسر ذلك».

• وروى أن رجلاً قال لمطرف بن عبد الله بن الشخير: لا تحدثونا إلا

=والمجازفة: عبد الرحمن يحيى المعلمي اليماني: ٦-٧، لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث: عبد الفتاح أبو غدة: ١٧٢-١٧٧، السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام: مناقشتها والرد عليها: د. عماد السيد الشربيني: ١/ ٢٥٥-٢٦١.

(١) انظر للتوسع: حجية السنة: د. عبد الغني عبد الخالق: ٣٢٢-٣٣٤، السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام: مناقشتها والرد عليها: د. عماد السيد الشربيني: ١/ ٤٨٥، حجية السنة: د. الحسين شواط: ٢٦٦-٢٦٨.

بالقرآن، فقال له مطرف: «والله ما نريد بالقرآن بدلاً، ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا».

- قال الأوزاعي: «الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب»، أي تفصل ما فيه، وتبين المراد منه^(١).

(١) جامع بيان العلم وما ينبغي في روايته وحمله: ابن عبد البر: ٢ / ٢٣٤.



الختام

بعد الطواف في هذا البحث، والسعي في فهم واستنباط ذلك من مصادره؛
توصلت إلى النتائج التالية:

أولاً: بالنسبة لتعريف الاستشراق ودوافعه وأهدافه ومظاهر نشاطه، كانت
النتائج التالية:

١- أن الاستشراق تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي،
والتي شملت حضارته وأديانه، وآدابه ولغاته، وثقافته، ولقد أسهم في صياغة
التصورات الغربية عن العالم الإسلامي.

٢- ظهرت دوافع الاستشراق وأهدافه من خلال الدافع الديني،
والسياسي، والاقتصادي، والعلمي، وكلها تصب في خدمة الاستعمار القديم
والمعاصر.

ثانياً: بالنسبة لتعريف السنة النبوية وثمرتها وتنوع تعريفاتها وخصائصها،
كانت النتائج التالية:

١- تعددت تعاريف السنة النبوية عند علماء الحديث، والفقه، وأصوله،

والدعوة، كل حسب تخصصه، بحيث تدور كلها على الاقتداء برسول الله ﷺ في الأقوال والأفعال والتقريرات والصفات، والاستفادة منها في التطبيق العملي.

٢- أما خصائص السنة النبوية فهي تمتاز بأنها نوع من أنواع الوحي، واتصال سندها، ومحفوطة من الضياع، ومعصومة من الخطأ في التشريع.

ثالثاً: بالنسبة لشبهة بعض المستشرقين في مفهوم السنة النبوية والرد عليها،

كانت النتائج التالية:

١- تركيز بعض المستشرقين أمثال: أجناس جولدتسيهر ومارجوليوت وجوزيف شاخت على بعض معاني السنة اللغوية كالعادة والعرف، والتغاضي عن باقي معاني السنة الاصطلاحية؛ بغية الوصول إلى هدفهم من التشكيك في حجيتها وعدم العمل بها، وقد جاء الرد حاسماً بأن الإسلام استعمل السنة بمعناها اللغوي، ثم خصصها بطريقة النبي ﷺ، وقد بقي الاستعمال القديم للكلمة؛ ولكن في نطاق ضيق، وأنه لم يكن يقصد بها عند المسلمين عرف المجتمع.

٢- تفريق بعض المستشرقين أمثال: أجناس جولدتسيهر بين مفهوم الحديث ومفهوم السنة، وقد بذل في ذلك ما بوسعه في التقاء عبارات جعل ظاهرها أن الحديث والسنة متغايران، فيحسب أن تلك تنفع كشواهد على صحة



دعواه، وهي في الواقع لا تنفع إلا أن تكون شاهداً على فساد فهمه وسوء مراميه، وكأنه يريد بهذا التفريق أن السنة هي ما وضعه المسلمون من قواعد ابتدعوها، ألزموا بها أنفسهم وجعلوها في مصاف القرآن الكريم والحديث النبوي، وهي لا تتعدى كونها ابتكاراً واختلاقاً، ليس لها رصيد من الأدلة الشرعية، وبصنيعه هذا يشكك في السنة كمصدر تشريعي له أكبر الأثر في الفقه الإسلامي.

٣- زعم بعض المستشرقين أمثال: أجناس جولدتسيهر والفريد جيوم أن مفهوم السنة والحديث ليسا بعربيين؛ بحيث كلمة (سنة) مشتقة من كلمة (مشناة) العبرية، التي كان يطلقها اليهود على مجموعة الروايات الإسرائيلية، ويعتبرونها شراً للتوراة، وأن كلمة (حديث) مشتقة من الكلمة العبرية عند اليهود (هداش) والتي تعني الجديد أو تعني الأخبار أو القصص، وفي الحقيقة أن العقل لا يتقبل ذلك؛ لعدم المشابهة بين كلمتي (سنة) و(مشناة)، وكلمتي (حديث) و(هداش) في الحروف والبنية، ولأن الكلمتين (سنة وحديث) ورد استعمالهما في الشعر الجاهلي قبل الإسلام، كما استعملها الله - تعالى - في كتابه العزيز، ورسول الله ﷺ في حديثه الشريف، ولعدم وجود دليل تاريخي يثبت التقاء العرب الأميين باليهود.

رابعاً: بالنسبة لشبهة بعض المستشرقين في النهي عن كتابة السنة النبوية وتأخير تدوينها والرد عليها، كانت النتائج التالية:

١- شبهة بعض المستشرقين أمثال: أجناس جولدتسيهر في النهي عن كتابة السنة النبوية، وكان الرد عليه بأن هناك شبه إجماع على أن منع كتابة الحديث قد نُسخ بالتصريح بجواز كتابتها، وتم كتابة أحاديث النبي ﷺ في أخريات حياته، وأن جولدتسيهر غرض الطرف عن دوافع النبي ﷺ في النهي عن كتابة الأحاديث، والتي تظهر في المحافظة على نقاء كتاب الله - تعالى - وصيانيته عن خلطه بالسنة دون تمييز بينهما وخاصة في المرحلة الأولى من نزول الوحي، وعدم التنافس مع القرآن الكريم، وكذلك عدم انصراف الناس عن القرآن الكريم، وخوف الاتكال على الكتابة وترك الحفظ، وخوف وصول الأحاديث إلى غير أهلها، فإن سلّموا بصحة تلك الأحاديث فعليهم التسليم بالدوافع التي قيلت من أجلها والواردة فيها.

٢- شبهة بعض المستشرقين أمثال: أجناس جولدتسيهر وجوزيف شاخت والسير وليم موير وروبسون وشبرنجر ودوزي في تأخير تدوين السنة النبوية، وكان الرد عليهم بأنه يجب التفريق بين كتابة السنة وتدوينها، فهم خلطوا بينهما، حيث فهموا - خطأً - أن التدوين هو الكتابة، فالكتابة: هي مطلق خط الشيء،



دون مراعاة لجمع الصحف المكتوبة في إطار يجمعها، وأما التدوين: فهي مرحلة تالية للكتابة، وتكون بجمع الصحف المكتوبة في ديوان يحفظها، وعلى ذلك فقول الأئمة: إن السنة دونت في نهاية القرن الأول الهجري لا يفيد أنها لم تكتب طيلة هذا القرن؛ بل يفيد أنها كانت مكتوبة، لكنها لم تصل لدرجة التدوين، وهو جمع الصحف في دفتر، وهناك أدلة صحيحة تقطع بكتابة السنة المطهرة في عصر النبوة والصحابة والتابعين.

خامساً: بالنسبة لشبهة بعض المستشرقين في نقد متن وسند السنة النبوية والرد عليها، كانت النتائج التالية:

١- شبهة بعض المستشرقين أمثال: جولدتسيهر وشاخت والسير ولیم مویر وغاستون ويت وكولسون والأمير كايثاني وفنسك ودينكان بلاك ماكدونلد وأندرسون ومونتجمري وات وآرثر جفري في نقد متن السنة النبوية، وأن المحدثين اقتصروا في فحصهم الحديث على نقد سند الرواية دون متنها، وأنهم لم يتجاوزوا النقد الخارجي، ولكنهم في الحقيقة تغاضوا عن أن نقد المتن أمر مقرر في قواعد الحديث، وقد بدأ قبل علم الجرح والتعديل وظهور الإسناد، ونجد هذا في المناقشات الطويلة التي كانت تقوم بين الصحابة رضي الله عنهم، وأن نشأة المذاهب الفقهية والاختلافات بين هذه المذاهب مبني في معظمه على نقد المتن،

وكذلك فقد نشأ علم كامل هو علم اختلاف الحديث أو مختلف الحديث أو مشكل الحديث، وموضوع هذا العلم البحث في المتون.

٢- شبهة بعض المستشرقين أمثال: جولدتسيهر وشاخت وآرثر جفري وكايتاني وشبرنجر وجوزيف هوروفيتش وروبسون ولامنس في نقد سند السنة النبوية، من خلال أن الأسانيد الموجودة في كتب السنة لا بد أنه قد اختلقها المحدثون وغيرهم في القرن الثاني والثالث الهجريين، وكان الرد عليهم بأنه بدأ استعمال الإسناد في حياة النبي ﷺ، وكان قد استعمله بعض الصحابة رضي الله عنهم لنقل الأحاديث النبوية في ذلك الوقت، وحسب نظرة المحدثين، لا يقبل الحديث ولو كان متنه صحيحاً، إذا كانت أسانيده موضوعة أو ضعيفة، ولذلك لا بد لقبول الحديث من صحة الإسناد والمتن جميعاً، وليس هناك أي سبب وجيه لرفض سلسلة الإسناد، بل الدراسة تؤكد بأن هذا المنهج يحمل في طياته كل عناصر الأصالة والصحة، وتحتم قبولها بصفة عامة.

التوصيات

لدي بعض التوصيات المهمة عليها تجدد قبولاً من المسؤولين، والعلماء، وطلبة العلم، وهي كالتالي:

أولاً: أن الجهد الفردي أعجز من أن يقف أمام مدّ الهجوم الاستشراقي على الإسلام ومنها السنة النبوية؛ مما يتطلب أن تكون هناك كليات متخصصة تقوم برصد هذا الإنتاج الاستشراقي الضخم والرد عليه.

ثانياً: إقامة مؤسسة علمية عالمية، بحيث ترصد لها الأموال، ويتعاون معها كبار العلماء والمفكرين، تقوم بإصدار الكتب والمجلات والموسوعات، وخاصة ما يتصل بالسنة النبوية رواية ودراية، وترجمتها للغات العالمية ليقف الغرب ومن والاهم عليها دون تحريف ولا تشويه.

ثالثاً: إرسال الأساتذة الدعاة للجامعات الغربية لإلقاء المحاضرات والندوات ولقاءات الحوار لتوضيح السنة النبوية ناصعة محفوظة من التشويه للعالم الغربي.

رابعاً: تعديل مناهج التعليم في أكثر الدول الإسلامية لتقوم على أسس الإسلام الصحيح؛ نقية من الفكر الغربي الدخيل عليها.

خامساً: توجيه المراكز الإسلامية في العالم الغربي للقيام بواجباتها وأداء رسالتها بنجاح؛ برصد كل إنتاج غربي ضد إسلامنا العظيم، وخاصة في السنة النبوية، ثم تزويد الجهات المختصة بهذا الإنتاج للرد عليه، ونشر هذه الردود بين الغربيين.

سادساً: إقامة دورات للمبتعثين لديار الغرب من أجل الدراسة أو المقيمين فيها من أجل العمل لتحسينهم ضد شبهة الغربيين على الإسلام بما فيها السنة النبوية، ولتكون عندهم القدرة في توضيح الصواب.

وصلى الله وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: البحوث والدراسات:

- (١) الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث في القرن الثالث الهجري: د. عبد المجيد محمود عبد المجيد، (١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ م)، مكتبة الخانجي: القاهرة.
- (٢) الاتجاهات المعاصرة في دراسة السنة النبوية في مصر وبلاد الشام: د. محمد عبدالرزاق أسود، ط ١، (١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ م)، دار الكلم الطيب: دمشق.
- (٣) أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير والاستشراق والاستعمار: دراسة وتحليل وتوجيه: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ط ٨، (١٤٢٠ هـ، ٢٠٠٠ م)، دار القلم: دمشق.
- (٤) آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره: دراسة ونقد: د. عمر بن إبراهيم رضوان، ط ١، (١٤١٣ هـ، ١٩٩٢ م)، دار طيبة: الرياض.
- (٥) الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي: د. محمد إبراهيم الفيومي، (١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م)، وزارة الأوقاف: القاهرة.
- (٦) الإسلام عقيدة وشريعة: الشيخ محمود شلتوت، ط ١٨، (١٤٢١ هـ، ٢٠٠١ م)، دار الشروق: القاهرة.

- (٧) الإسلام على مفترق الطرق: محمد أسد، ترجمة: د. عمر فروخ، (١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م)، دار العلم للملايين: بيروت.
- (٨) الاعتبار في النسخ والمسنوخ من الآثار: محمد بن موسى الحازمي (ت ٥٨٤هـ)، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، مكتبة عاطف: القاهرة.
- (٩) الاعتصام: إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: سيد إبراهيم، (١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م)، دار الحديث: القاهرة.
- (١٠) إغاثة اللفهان من مصادب الشيطان: محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد سيد كيلاي، الطبعة الأخيرة، (١٣٨١هـ، ١٩٦١م)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي: القاهرة.
- (١١) الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة: الشيخ عبد الرحمن يحيى المعلمي اليماني، (١٣٧٨هـ، ١٩٥٨م)، المطبعة السلفية: القاهرة.
- (١٢) تاريخ تدوين السنة وشبهات المستشرقين: د. حاكم عيسى المطيري، (١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م)، مجلس النشر العلمي: الكويت.
- (١٣) تحقيق معنى السنة وبيان الحاجة إليها: الشيخ السيد سليمان الندوي، ط ٢، (١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م)، المطبعة السلفية: القاهرة.
- (١٤) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضة، ط ٣، (١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م)، دار الكتب العلمية: بيروت.



- (١٥) تذكرة الحفاظ: شمس الدين محمد الذهبي، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، دار الكتب العلمية: بيروت.
- (١٦) تشنيف المسامع بجمع الجوامع: محمد بن بهادر الزركشي، تحقيق: د. عبد الله ربيع، د. سيد عبد العزيز، ط ٣، (١٤١٩هـ، ١٩٩٩م)، مكتبة قرطبة: القاهرة.
- (١٧) التعليق المغني على الدارقطني: محمد شمس الحق العظيم آبادي، تحقيق: الشيخ السيد عبد الله هاشم يافاي المدني، (١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م)، طبع المدينة المنورة.
- (١٨) تقييد العلم: أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: يوسف العش، ط ٢، (١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م)، دار إحياء السنة النبوية.
- (١٩) تميز الأمة الإسلامية مع دراسة نقدية لموقف المستشرقين منه: د. إسحاق بن عبد الله السعدي، ط ١، (١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: الرياض.
- (٢٠) تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة: علي بن محمد بن عراق الكناني، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، عبد الله محمد الصديق، ط ١، (١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م)، دار الكتب العلمية: بيروت.
- (٢١) توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار: محمد بن إسماعيل الصنعاني، تحقيق: الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر: بيروت.
- (٢٢) جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله: يوسف بن عبد البر القرطبي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، ط ٢، (١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م)، المكتبة السلفية: المدينة المنورة.

- (٢٣) حجية السنة: د. الحسين شواط، طبع الجامعة الأمريكية المفتوحة: القاهرة.
- (٢٤) حجية السنة: د. عبد الغني عبد الخالق، ط ٣، (١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م)، دار الوفاء: المنصورة.
- (٢٥) الحديث والمحدثون: الشيخ محمد محمد أبو زهو، المكتبة التوفيقية: القاهرة.
- (٢٦) دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه: د. محمد مصطفى الأعظمي، (١٤١٣ هـ، ١٩٩٢ م)، المكتب الإسلامي: بيروت.
- (٢٧) دفع الشبهات عن السنة النبوية: د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، ط ١، (١٤٢١ هـ، ٢٠٠١ م)، مكتبة الإيمان: القاهرة.
- (٢٨) دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث: د. امتياز أحمد، ترجمة: د. عبد المعطي أمين قلعجي، ط ١، (١٤١٠ هـ، ١٩٩٠ م)، دار الوفاء: المنصورة.
- (٢٩) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: د. عبد المعطي أمين قلعجي، ط ١، (١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥ م)، دار الكتب العلمية: بيروت.
- (٣٠) الرد على المستشرق اليهودي جولدتسيهر في مطاعنه على القراءات القرآنية: د. محمد حسن حسن جبل، ط ٢، (١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م)، كلية القرآن الكريم، جامعة الأزهر، طنطا: مصر.
- (٣١) الرسالة: الإمام محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر، ط ٢، (١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ م)، مكتبة دار التراث: القاهرة.



- (٣٢) السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين: د. رؤوف شلبي، ط ١، (١٣٩٨ هـ، ١٩٧٨ م)، مطبعة السعادة: القاهرة.
- (٣٣) السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام: مناقشتها والرد عليها: د. عماد السيد الشرييني، ط ١، (١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م)، دار اليقين: المنصورة.
- (٣٤) السنة النبوية وبيان مدلولها الشرعي والتعريف بحال سنن الدارقطني: الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، ط ١، (١٤١٢ هـ، ١٩٩٢ م)، دار القلم: دمشق.
- (٣٥) السنة النبوية: مكانتها، عوامل بقائها، تدوينها: د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، دار الاعتصام: القاهرة.
- (٣٦) السنة قبل التدوين: د. محمد عجاج الخطيب، ط ٢، (١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨ م)، مكتبة وهبة: القاهرة.
- (٣٧) السنة والبدعة: الشيخ عبد الله محفوظ محمد الحداد باعلوي الحضرمي، مكتبة المطيعي: القاهرة.
- (٣٨) السنة والبدعة: الشيخ محمد الخضر حسين، (١٤١٩ هـ، ١٩٩٩ م)، نهضة مصر: القاهرة.
- (٣٩) السنة والبدعة: د. يوسف القرضاوي، ط ١، (١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ م)، مكتبة وهبة: القاهرة.
- (٤٠) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: د. مصطفى السباعي، ط ١، (١٤١٨ هـ، ١٩٩٨ م)، دار السلام: القاهرة.

- (٤١) سنن أبي داود، تحقيق: الشيخ عزت عبيد الدعاس، عادل السيد، ط ١، (١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م)، دار الحديث: حمص.
- (٤٢) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد: د. عبد الكريم زيدان، ط ٣، (١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م)، مؤسسة الرسالة: بيروت.
- (٤٣) سنن الإمام ابن ماجه، تحقيق: د. بشار عواد معروف، ط ١، (١٤١٨هـ، ١٩٩٨م)، دار الجليل: بيروت.
- (٤٤) سنن الإمام النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، تحقيق: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، ط ٢، (١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م)، دار البشائر الإسلامية: بيروت.
- (٤٥) سنن الإمام محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، ط ٢، (١٤١٨هـ، ١٩٩٨م)، دار الجليل: بيروت.
- (٤٦) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها: محمد هيشور، ط ١، (١٤١٧هـ، ١٩٩٦م)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي: فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية.
- (٤٧) سنن علي بن عمر الدارقطني، تحقيق: الشيخ السيد عبد الله هاشم يماني المدني، (١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م)، طبع المدينة المنورة.
- (٤٨) شذرات من علوم السنة: د. محمد الأحدي أبو النور، (١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م)، نهضة مصر: القاهرة.
- (٤٩) شرح الكوكب المنير: ابن النجار الحنبلي، تحقيق: د. محمد الزحيلي، د. نزيه حماد، (١٤١٨هـ، ١٩٩٧م)، مكتبة العبيكان: الرياض.



- (٥٠) شرح محمد الزرقاني على موطأ الإمام مالك بن أنس، تحقيق: نخبة من علماء الأزهر الشريف، ملتزم الطبع والنشر: عبد الحميد أحمد حنفي، القاهرة.
- (٥١) شروط الراوي والرواية عند أصحاب السنن: دراسة تطبيقية: د. محمد عبد الرزاق أسود، ط ١، (١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م)، دار طيبة: دمشق.
- (٥٢) صحائف الصحابة ﷺ وتدوين السنة النبوية المشرفة: أحمد عبد الرحمن الصويان، ط ١، (١٤١٠هـ، ١٩٩٠م).
- (٥٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط ٢، (١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م).
- (٥٤) صحيح الإمام البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، محمد فؤاد عبد الباقي، ط ١، (١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م)، المكتبة السلفية: القاهرة.
- (٥٥) صحيح الإمام مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية: القاهرة.
- (٥٦) صحيح سنن أبي داود: محمد ناصر الدين الألباني، ط ١، (١٤١٩هـ، ١٩٩٨م)، مكتبة المعارف: الرياض.
- (٥٧) ضعيف سنن الترمذي: محمد ناصر الدين الألباني، ط ١، (١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م)، مكتبة المعارف: الرياض.
- (٥٨) ضوابط الرواية عند المحدثين: الصديق بشير نصر، ط ١، (١٤١٢هـ، ١٩٩٢م)، منشورات كلية الدعوة الإسلامية: طرابلس الغرب.

- (٥٩) الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية: د. ساسي سالم الحاج، ط ١، (١٤١٢هـ، ١٩٩٢م)، مركز دراسات العالم الإسلامي: مالطا.
- (٦٠) العقيدة والشريعة في الإسلام: أجناس جولدتسيهر، ترجمة: د. محمد يوسف موسى، علي حسن عبد القادر، عبد العزيز عبد الحق، ط ٢، دار الكتب الحديثة: القاهرة.
- (٦١) علوم الحديث ومصطلحه: د. صبحي الصالح، ط ١٩، (١٤١٥هـ، ١٩٩٥م)، دار العلم للملايين: بيروت.
- (٦٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، محمد فؤاد عبد الباقي، قصي محب الدين الخطيب، ط ٢، (١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م)، المطبعة السلفية: القاهرة.
- (٦٣) الفكر المنهجي عند المحدثين: د. همام عبد الرحيم سعيد، ط ١، (١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م)، كتاب الأمة، (١٦)، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية: الدوحة.
- (٦٤) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، ط ١، (١٣٨٠هـ، ١٩٦٠م)، مطبعة السنة المحمدية: القاهرة.
- (٦٥) القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط ٣، (١٤١٣هـ، ١٩٩٣م)، مؤسسة الرسالة: بيروت.



- (٦٦) كتاب التعريفات: علي بن محمد الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الريان للتراث: القاهرة.
- (٦٧) كتاب المصاحف: عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني المعروف بابن أبي داود، تحقيق: د. محب الدين عبد السبحان واعظ، ط ٢، (١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م)، دار البشائر الإسلامية: بيروت.
- (٦٨) كتابة الحديث النبوي وجمعه وتدوينه وصفاته أهله: د. كمال الدين عبد الغني المرسي، (١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٣ م)، دار المعرفة الجامعية: الإسكندرية.
- (٦٩) كتابة الحديث بأقلام الصحابة: د. ساجد الرحمن الصديقي، (١٤٢١ هـ، ٢٠٠١ م)، دار الحديث: القاهرة.
- (٧٠) كلمة هادية في البدعة وأحكامها: وهبي سليمان غاوجي الألباني، ط ١، (١٤١٢ هـ، ١٩٩١ م)، دار الإمام مسلم: بيروت.
- (٧١) لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور المصري، دار صادر: بيروت.
- (٧٢) لمحات في أصول الحديث: د. محمد أديب صالح، ط ٥، (١٤٠٩ هـ، ١٩٨٨ م)، المكتب الإسلامي: بيروت.
- (٧٣) لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، ط ٤، (١٤١٧ هـ، ١٩٩٧ م)، مكتب المطبوعات الإسلامية: حلب.
- (٧٤) ما أنا عليه وأصحابي: أحمد سلام، ط ١، (١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ م)، دار ابن حزم: بيروت.

- (٧٥) المجروحون من المحدثين والضعفاء والمتروكين: محمد بن حبان البستي، (١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م)، دار الوعي: حلب.
- (٧٦) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي، ط ٣، (١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م)، دار الكتاب العربي: بيروت.
- (٧٧) المدخل إلى علم الدعوة: الشيخ محمد أبو الفتح البيانوني، ط ٣، (١٤١٥هـ، ١٩٩٥م)، مؤسسة الرسالة: بيروت.
- (٧٨) المستدرك على الصحيحين: محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط ٢، (١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م)، دار الكتب العلمية: بيروت.
- (٧٩) المستشرقون والحديث النبوي: د. محمد بهاء الدين، ط ١، (١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م)، دار النفائس: عمان.
- (٨٠) المستشرقون: نجيب العقيقي، (١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م)، دار المعارف: القاهرة.
- (٨١) المسند: الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: الشيخ شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط ١، (١٤٢١هـ، ٢٠٠١م)، مؤسسة الرسالة: بيروت.
- (٨٢) المصنف في الأحاديث والآثار: ابن أبي شيبه الكوفي، تحقيق: مختار أحمد الندوي، ط ١، (١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م)، الدار السلفية: بومباي، الهند.
- (٨٣) المعجم الكبير: الطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، ط ١، (١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م)، مطبعة الوطن العربي: بغداد.



(٨٤) معجم علوم الحديث النبوي: د. عبد الرحمن بن إبراهيم الخميسي، مكتبة العبيكان: الرياض.

(٨٥) مفهوم البدعة بين الضيق والسعة: محمد سامر النص، ط ١، (١٤٢٢ هـ، ٢٠٠٢ م)، دار التوفيق: دمشق.

(٨٦) مفهوم أهل السنة والجماعة عند أهل السنة والجماعة: د. ناصر بن عبد الكريم العقل، ط ٢، (١٤١٢ هـ، ١٩٩٢ م)، دار الصفوة: القاهرة.

(٨٧) مناهج الاستدلال على مسائل العقيدة الإسلامية بمصر في العصر الحديث: د. أحمد قوشتي عبد الرحيم، (١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م)، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

(٨٨) منزلة السنة من الكتاب وأثرها في الفروع الفقهية: محمد سعيد منصور، ط ١، (١٤١٣ هـ، ١٩٩٣ م)، مكتبة وهبة: القاهرة.

(٨٩) منهج النقد في علوم الحديث: د. نور الدين عتر، ط ٣، (١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م)، دار الفكر: دمشق.

(٩٠) نقد المتن بين صناعة المحدثين ومطاعن المستشرقين: د. نجم عبد الرحمن خلف، ط ١، (١٤٠٩ هـ، ١٩٨٩ م)، مكتبة الرشد: الرياض.

ثالثاً: المواقع الإلكترونية:

(٩١) شبكة ابن الإسلام، www.ibnalislam.com

ابيض



الاستشراق الإسباني والسيرة النبوية

إعداد

د. سيف الإسلام بن عبد النور الهاللي

مسؤول الشؤون الثقافية بالمركز الثقافي الإسلامي بمدريد

أستاذ الماجستير بقسم الدراسات العربية والإسلامية جامعة أوتونما بمدريد

ابيض



المَقَدِّمَةُ

تعتبر عبارات (الغرب/ الشرق) و(الجهل/ العلم) و(الظلمات/ الأنوار) و(التقدم/ التأخر) نعوتاً حاولت دوائر الدراسات الإستراتيجية ربطها بجهات من العالم قصد تفسير الواقع الذي نعيش فيه وفهم الكثير من الأحداث التي تدور بعالمنا اليوم. وإذا كانت بعض هذه المصطلحات قد تم نحتها حديثاً فإن بعضها يرمي بجذوره في القرون السحيقة. وترتبط بتشكيل وعي المجتمعات البشرية بذواتها. حيث إن كل مجموعة بشرية تحاول أن تنظر إلى هويتها وكيوناتها في مرآة هوية الآخر.

من هنا كان خلق الآخر ضرورة ملحة للتوصل إلى معرفة الذات. ولم يشكل مسار العلاقات بين الإسلام والديانات الأخرى استثناء عن هذه القاعدة خاصة بالنسبة للمسيحيين واليهود الذين كانوا يشغلون نفس الحيز الجغرافي الذي ظهر فيه الإسلام أو امتد إليه في سنواته الأولى.

وإذا كانت المسيحية اعتمدت في بلورة هذه النظرة الإنتاج الثقافي والمعرفي - والقوة في الكثير من الأحيان - تروم في ذلك تأسيس الذات النصرانية وإبراز

هويتها بجعلها كيانا مناقضا للإسلام في كل شيء فإن الإسلام لم يقم بذلك وإن
تبني بعض فقهاء الجدل المسلمين بعض تلك الخطط التي استعملتها النصرانية.
ويشكل وضع إسبانيا وضعاً استثنائياً في هذه المعادلة التي حكمت العالم
منذ ظهور الإنسان. فإسبانيا المسيحية القوطية الرومانية التي احتاج نشر
المسيحية بمذهبها الروماني الكاثوليكي إلى ثلاثة قرون لم يحتج الإسلام للانتشار
فيها إلى أكثر من ثلاث سنوات. ويبدو أن الكنيسة الرسمية في روما لم تنس هذا
«الغلط» فجدت كل مسيحيي أوروبا لمساعدة إخوانهم في إسبانيا المسلمة كلما
سنتحت الفرصة لذلك. ومن أجل ذلك كان على أوروبا المسيحية التعرف على
عدوها الذي «سلب» هذه الأرض على حد تعبير التاريخ الرسمي.
ومن أجل التعرف على هذا العدو كان لزاماً التعرض بالدراسة
والتمحيص للمراجع الإسلامية من قرآن وسنة، ولهذا فإنه لا غرابة أن نجد أن
أول ترجمة للقرآن إلى اللاتينية كانت بأمر الكنيسة.

وإذا كان الوجود الإسلامي في إسبانيا قد دام زهاء عشرة قرون على اعتبار
أن خروج المسلمين من شبه الجزيرة الإيبيرية لم يكن إلا سنة ١٦٠٩ بعد توقيع
مرسوم الطرد الذي نقض معاهدة تسليم غرناطة سنة ١٤٩٢، وذلك بعد أن
يؤس الملوك الكاثوليك من تنصير المسلمين المدجنين الذين كانوا يعيشون بين



ظهرانيهم والتي كانت تحميهم معاهدة غرناطة في دينهم وأعراضهم وأموالهم. وإذا كنا قد بدأنا حديثنا بتناول موضوع بناء الذات والهوية، فكيف اختارت إسبانيا ومثقفوها بناء الذات والهوية مع العلم أن حالتها كانت تعد استثناء في أوروبا المسيحية لأن الإسلام حكم شبه الجزيرة واستمر فيها مدة طويلة من الزمن حتى أصبح رافدا من روافد الثقافة الشعبية حاضرا في الأمثال واللغة. وكيف نظرت إسبانيا الى هذا الدين وإلى نبيه؟ هل قامت بتأسيس نظرة تعتمد على تجربتها الخاصة وتعايشها معه؟ أو أنها نظرت إليه من خلال تأسيس رؤية الذات عبر خلق الآخر الغريب والمختلف مكررة ما قامت به الثقافات الأوروبية المختلفة أولا لتتبناه فيما بعد. وماذا قال المثقفون الإسبان عن نبي الإسلام؟

١ - الإسلام في التصور الغربي:

شهدت القرون الخمسة الأخيرة حركة تطور بدأت ببطء شديد لتتسارع وتيرتها مع مرور الزمن. وقد مس هذا التطور كل الميادين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية. وهذا ما جعل الكثير من رواد الفكر الغربي يعتبرون أن المشي في هذا الاتجاه قدر لا بد أن تمر منه كل المجتمعات التي تريد أن تطور نفسها، ودفع بعض منظري علم التاريخ إلى التأكيد على أن كل فترة هي أفضل

من سابقتها.

وهذا المفهوم الغربي للتطور التاريخي يستعمل كثيرا عند تناول الإسلام حقلا للدراسة، فكل ما يأتي به الإسلام لا بد وأن يكون تخلفا وجهلا ونقيضا لما جاء به عصر الأنوار وما بعده، لأن المنطق التاريخي يقول ذلك. فكيف يمكن لدين ظهر في القرن الثامن الميلادي أن يفرض نظرتة للعالم وللحياة على أناس يعيشون في القرن الواحد والعشرين ويقنعهم على أن مبادئه سوف تضمن لهم التطور المنشود. وإذا كان هذا المنطق يؤسس للكثير من الأفكار التي تدور في أذهان الغربيين في يومنا هذا فإن هناك أفكارا يتم تداولها لتطعيم هذا الفكر، وتُشكّلها مجموع المعلومات والإشاعات والخرافات التي تمت بلورتها في القرون السابقة حول حياة رسول الإسلام حيث تم إلصاق كل ما قد يخطر على البال في هذا الباب، والغريب هو أن هذه الشخصية التي تتوفر على كل تفاصيل حياتها العامة والخاصة نجدها تكاد تكون الشخصية التاريخية الوحيدة التي لم ينصفها الغرب بعد ولم يتناولها بشكل موضوعي، حتى أننا لا نجد عملا فكريا أو أدبيا حقق نجاحا وشهرة إلا وتناول شخصية النبي والإسلام عموما بشكل سلبي. وأول ما يدشن لهذه العلاقة الجدلية هو الرفض المعرفي الغربي للبعثة النبوية من البداية. مما جعل الغرب لا يعطي إجابة مقنعة واحدة عن علاقته بالإسلام.



٢- السيرة النبوية في الكتابات الإسبانية^(١):

منذ أول اتصال بين سكان شبه الجزيرة الإيبيرية والإسلام، وذلك قبل تشكل الكيان الإسباني أو الدولة الإسبانية كما نعرفها حالياً نجد من تناول حياة الرسول الكريم.

ومن بين أوائل من تكلموا عنه إيلوخيو القرطبي وهو أحد قادة حركة «الشهداء المتطوعين»^(٢) كما يسميها التاريخ الرسمي الإسباني والتي ظهرت في قرطبة عاصمة الخلافة الأموية في الأندلس في منتصف القرن التاسع الميلادي. وقد كانت الحركة محاولة لمنع انتشار الإسلام بين السكان المسيحيين الذين كانوا يعيشون بين المسلمين.

وقد قام روادها بالنيل من الرسول ونسبه على مرأى ومسمع من المسلمين ناشرين الكثير من الخرافات ومصوريه عدوا للمسيح بل المسيح الدجال بعينه.

(١) نوه هنا بالدراسة المفصلة والقيمة للدكتور محمد عبد الواحد العسري، الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني، من ريموند لولولس إلى آسين بلاثيوس، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ٢٠٠٣.

(٢) تتحدث كرين أمسترونغ ببعض التفصيل إلى هؤلاء الأشخاص في كتابها:

Karen Amstrong, Mahoma, biografía del profeta, Traducción Victoria Ordoñez, Tusquets Editoriales, Barcelona, 2005, p.p 25-30.

وهو ما أجبر الحكام المسلمين على القصاص من هؤلاء بعد تحذيرهم من أن أفعالهم تلك تشكل انتهاكا لمقدسات المسلمين ولكن رواد هذه كانوا يرومون نيل الجنة بعد مماتهم بالنيل من الإسلام والتشنيع بنبيه في حياتهم.

وما يلفت النظر هو أن المصادر التاريخية لا تشير إلى إتيان أي من هؤلاء «الشهداء» اللغة العربية، وهنا نطرح السؤال: إذا كان هؤلاء لا يتقنون العربية فكيف حصلوا على المعلومات التي تجعلهم يشنعون بالإسلام وبنبيه مع العلم على أن حركة ترجمة الكتب الإسلامية لم تكن قد نشطت بعد؟ ومن أين استقى هؤلاء المعلومات التي بنوا عليها تصوراتهم؟ أمام تعذر إيجاد مصادر تاريخية تجيب عن هذه التساؤلات لا نجد تفسيراً لذلك إلا سفر الكتب النصرانية الجدالية المعادية للإسلام والتي كتبها نصارى الكنيسة الشرقية إلى الأندلس⁽¹⁾ وتشبع سكان هذا البلد بها. ومن بين هذه الكتب التي نرى أنها قد أثرت تأثيراً بالغاً على نمط التفكير الأندلسي ما كتبه يوحنا الدمشقي.

وإن كنا لا نعرف كيف وصلت هذه الكتب إلى شبه الجزيرة الإيبيرية على وجه الدقة إلا أن كتب التاريخ تتحدث عن تبادل سفارات بين إمارة قرطبة والإمبراطورية البيزنطية بين ٨٣٩ م و ٨٤٠ م. كما أن أحد الرهبان واسمه

(1) Monferrer, Juan Pedro, Tiplogía apocalíptica en la literatura árabe cristiana, p. 69.



إيولوخيو (توفي سنة ٨٥٩ م) زار مدينة بمبلونة وأحضر منها إلى قرطبة كتباً كنسية لاتينية يتحدث في كتاباته عن حلول الراهب خورخي أو جيورجيوس بالمنطقة قادماً إليها من دير القديس سباس القريب من القدس وهو الدير الذي عاش فيه يوحنا الدمشقي الذي كان عارفاً بالإسلام ومطلعاً على القرآن. وهذا ما يفسر اطلاع كثير من الرهبان على الطروحات المعادية للإسلام رغم انعزال الكثير منهم في أديارهم مدفوعين إلى احتقار الإسلام من قبل الكنيسة الرسمية التي كانت تأمر وتنهى كما شاءت وكيفما شاءت خاصة بعد أن تقلصت سلطتها لتشمل المسيحيين فقط^(١) وهذا ما لم تكن لترضاه أو لتقبل به.

وفي هذا الاتجاه سارت جل المحاولات الفكرية التي كانت تتناول الإسلام وبداية توسعه.

وإذا كانت أغلبية المسيحيين قد اعتبرت الإسلام عند وصوله إلى بيت المقدس سنة ٦٣٤ م مخلصاً لها من السيطرة البيزنطية^(٢) فإن قياداتها الفكرية والروحية لم تكن ترى ذلك. وهذا ما دفع يوحنا الدمشقي (توفي ٧٥٤ م) الذي كان راهباً في دير القديس سباس وكرس حياته للكتابة حول الانحرافات

(1) Delgado León, Feliciano, Álvaro de Córdoba y la polémica contra el Islam, El Indiculus Luminosus, p.51-52.

(2) Jean Damascene, Ecrits sur l'Islam, ed. Raymond le Coz, Paris, p. 49 y ss.

النصرانية إلى اعتبار الإسلام في كتابه الشكل المائة من أشكال الكفر^(١)، مشيراً إلى أن شخصاً يدعى ممد (أي محمد) من ذرية إسماعيل وهو ابن إبراهيم من جاريته هاجر قام بالدعوة إلى زندقته الخاصة بعد أن تعرف على الإنجيل عند لقائه براهب يسوعي توحيدي.

وقد اعتبر مسيحيو سوريا والعراق ومصر ذلك عقاباً إلهياً سلط عليهم بما كسبت أيديهم، والمسلمون جزء من هذا العقاب وما رسوهم إلا المسيح الدجال الذي وعد عيسى بظهوره في آخر الزمان.

وسوف تشتد وتيرة الهجوم على الإسلام بازدياد عدد المسلمين الذين سيعتقونه في تلك الفترة.

ومن الكتاب الذين تناولوا سيرة الرسول الكريم أيضاً الراهب ألبارو القرطبي في كتابه **Indiculus Luminosus** الذي دافع عن حركة شهداء قرطبة ليؤكد على أن استشهادهم كان رداً لا بد منه للوقوف أمام زحف الكذب والتدليس الذي جاء به الإسلام الذي ينذر بقرب حلول يوم القيامة، وما نبي الإسلام إلا المسيح الدجال.

(١) نشكر هنا الباحث مانويل مايور برروثو الذي أطلعنا على بحث قيم له في هذا الباب ولم ينشره بعد وعنوانه «ألبارو القرطبي والنبي محمد والدجال».



وقد حاول الدفاع عن فكرته ملتجأً إلى نصوص الإنجيل وإلى الكتابات البيزنطية الجدالية المعارضة للإسلام.

وكما قلنا سابقاً فإن الكاتب حصل على معلوماته من كتابات إيولوجيو الذي حصل عليها بدوره من دير بمبلونة كما أسلفنا والتي وصلته من يوحنا الدمشقي غالباً.

ويمكن اختصار كل تلك الطروحات التي ظهرت آنذاك والتي تعارض الإسلام في ثلاث مبادئ أساسية هي: إن الإسلام «هرطقة وانحراف» والقرآن كلام الله «المزيف» بينما محمد نبي «دجال».

وعلى هذه النغمة عزفت الكتابات السابقة واللاحقة. وكما أسلفنا فإن ألبارو لم يكن صاحب فكرة أن النبي دجال، بل يظهر أنها فكرة وصلته ليطورها وليستدل عليها بالأناجيل حيث أورد ما جاء في سفر دانيال: «فقال هكذا: أما الحيوان الرابع فتكون مملكة رابعة على الأرض مخالفة لسائر الممالك، فتأكل الأرض كلها وتدوسها وتسحقها / والقرون العشرة من هذه المملكة هي عشرة ملوك يقومون، ويقوم بعدهم آخر، وهو مخالف الأولين، ويذل ثلاثة ملوك / ويتكلم بكلام ضد العلي وبيلي قديسي العلي، ويظن أنه يغير الأوقات والسنة، ويسلمون ليده إلى زمان وأزمنة ونصف زمان / فيجلس الدين وينزعون عنه

سلطانه ليفنوا ويبيدوا إلى المنتهى»^(١)، مفسرا الأحداث التاريخية حسب ذلك ليخلص إلى أن هذه الأوصاف تصدق على الرسول محمد.

وإذا كانت قد أُلصقت في السابق ببعض الجبابرة الذين سبقوه فهذا خطأ والصواب أن محمدا هو الدجال بالنظر إلى التغيير الذي أحدثه في العالم ودعوته إلى عقيدة تنافي عقيدة التثليث الكاثوليكية التي كانت قد تحولت إلى عقيدة رسمية وهذا ما تنبأ به الإصحاح المذكور.

ويستمر الكاتب في هذيانه قائلا بأن النبي يعبد إله الطبيعة^(٢) الذي أسماه المعظم والكبير والأكبر في إشارة إلى ما يقوله المسلمون في صلاتهم: (الله أكبر)^(٣). وإذا كانت هذه المحاولات هي التي أسست لتلك الصورة السلبية للإسلام في الثقافة الأوروبية فإن المحاولات اللاحقة لم تشذ عن هذه القاعدة لنجد أن بطرس المبجل أسقف دير كلوني الشهير قام بجولة بين كنائس فرنسا وإسبانيا أمرا بجمع النصوص الإسلامية بما في ذلك القرآن لدحضه والهجوم

(1) http://st-takla.org/pub_oldtest/Arabic-Old-Testament-Books/32-Daniel/Sefer-Danial-Chapter-07.html

(سفر دانيال - الإصحاح السابع ٢٣-٢٦)

(٢) في إشارة إلى ما جاء في سفر دانيال - الإصحاح ١١-٣٨

(3) Delgado León, Feliciano, Álvaro de Córdoba y la polémica contra el Islam, El Indiculus luminus, Córdoba, 1996, párrafo 25.

عليه وليس بغرض التعرف على الإسلام كما قد يعتقد للوهلة الأولى. وكانت هذه هي الرغبة المبيتة من وراء أول ترجمة للقرآن إلى اللاتينية.

وهذا ما يؤكد أن الترجمة يمكن أن تستعمل لإبعاد القارئ عن النص الأصلي بدل القيام بدورها الأساس الذي أوجدت من أجله وهو تقريب النص الأصلي من القارئ. كما أن استعمال اللاتينية كان إستراتيجية لتقوية الرهبان الرومانيي الأصل أو التكوين (ما معنى هذا؟) على حساب نظرائهم القوطيين. وقد تم التركيز على الترجمة اللاتينية عوض السعي للاطلاع على النص العربي نظرا لهامش التشويه الذي تسمح به الترجمة.

وعلى العموم، فإن جل ما وصلنا من كتب تتحدث عن الإسلام ما هو إلا وثائق معادية تبدأ من فترة يوحنا الدمشقي (٦٧٥-٧٤٥) وألبارو القرطبي الذي عاش في النصف الأول من القرن العاشر مروراً ببطرس المبجل (١٠٩٢/١١٥٦) ورودريغو خمينث دي رادا (القرن الثالث عشر) ويوحنا الشيقوبي (١٣٩٣-١٤٥٨) وديونيسوس فان ليون (القرن الخامس عشر) وسيريلو لوكارس (١٥٧٢-١٦٣٨).

وهذا ما سينعكس على القواميس والموسوعات وكتب التاريخ والأدب والشعر والمسرح والرواية والرسم والنحت وكافة النواحي الثقافية لأن الثقافة

كل متماسك وما ينتج في مجال يؤثر في المجالات الأخرى لا محالة.
وإذا كان التطرق إلى كل محاولة على حدة قد يستغرق منا أبحاثاً طويلة،
فإننا سنركز على محاولة واحدة نرى أنها كانت تكرر لكل المحاولات التي
جاءت قبلها، حيث إنها جاءت بجل ما جاء فيها، كما أنها اعتبرت فيما بعد
مرجعاً لكل الكتابات التي خاضت في الإسلام وجاءت بعدها وهي محاولة
خوان أندريس^(١) في كتابه تناقض الفرقة المحمدية والقرآن.
ويظهر^(٢) أن هذا الشخص قد ولد وعاش في بيئة إسلامية في مدينة شاطبة
ليصبح فقيهاً هناك وليتحول بعدها إلى النصرانية وليغير اسمه بعد أن اقتنع بأن
الخلاص يكمن في المسيحية. ولهذا فإنه ركز على تخليص إخوانه السابقين من
المسلمين بإقناعهم باعتناق النصرانية. فكتب في الكتب الجدالية وقام بترجمة
القرآن وكل همهم إظهار تناقضات الإسلام حتى يسهل عليه إقناع المسلمين
ببطلان دينهم وتنصيرهم بسهولة.

- (1) Juan Andrés, Confusión de la secta mahomética y del alcoran, edición y notas de Elisa Ruiz García, Mérida, Editora Regional de Extremadura, 2003.
- (2) Juan Andrés, Confusión o Confutación de la Secta Mahomética y del Alcorán. Estudio preliminar, edición y notas de Elisa Ruiz García. Transcripción del texto, M^a Isabel García-Monge. Mérida, Editora Regional de Extremadura, 2003.



ولقد كتب هذا الراهب كتابه باللغة القشتالية كما كانت متداولة سنة ١٥١٥، وتناول فيه سيرة الرسول محمد والقرآن بالنقض مكررا فيه ما كتب عن الرسول الكريم في القرون السابقة مستغلا نقص المصادر الدينية لدى المسلمين من معاصريه وجهلهم بالعربية فقام بإخراج الكثير من الأحداث التاريخية عن سياقها التاريخي وهو ما مكنه من رسم صورة لنبي الإسلام قادرة على تشويهه في عيون أهله^(١).

وقد بدأ الراهب بولادة الرسول من نسل إسماعيل ابن هاجر في وسط من الجهلة الذين كانوا يعبدون الأصنام ليقارنه بنسب عيسى الذي ولد وسط الأحبار والأنبياء - ليعرج بعد ذلك على حياته قبل البعثة لبيتسر الأحداث. وفي معرض حديثه عن الوحي نجده يكرر ما قاله سابقوه من أنه لم يكن إلا أوهاما وتخيلات سببتها عزلته لمدة طويلة في غار حراء في ظلام الليل الدامس مما أصابه بالجنون وداء الصرع.

(١) ثبت أن هذا الطرح لم يصل إلى النتائج المتوخاة منه، حيث استمر مسلمو الأندلس في تبجيل نبيهم واحترامه وتكذيب كل ما يمس شخصه. ويمكن الرجوع في هذا إلى بحث الدكتورة فدوى الهزيتي حول الموريسكيين والسيرة النبوية والذي كان تحت عنوان «عندما ينصر الرسول (ص) بالأعجمية» الذي شاركت فيه في الندوة الدولية حول السيرة النبوية، جامعة فاس سايس، المغرب، ٢٢-٢٤ أبريل ٢٠٠٨.

ولكي يضرب في مصداقية الوحي وحتى يشوه التشابه الموجود بين الإنجيل والقرآن أشار إلى أن النبي تعلم ذلك من نصارى كانوا يعيشون في مكة، مستغلا في ذلك ما تذكره كتب السيرة عن لقاء الرسول بالراهب بحيرا.

وفيما يخص الإسراء والمعراج يرى خوان أندريس أن هذه المعجزة التي يستدل بها المسلمون على صدق نبوة محمد ما هي إلا من بنات الأوهام التي كانت تكتسح الرسول والدليل على ذلك أن الكثير من المسلمين كفروا بالإسلام بعد أن سمعوا هذه القصة، متناسيا موقف الصحابة والسؤال عن القوافل التي كانت خارج مكة ومقولة أبي بكر الشهيرة.

وككل من سبقوه تعرض الكاتب إلى حياة الرسول الخاصة لينعته بالشبقية، فهم الرسول - حسب زعمه - لم يكن إلا الجري وراء النساء وما زواجه بالعديد من النساء إلا دليل على ذلك متناسيا هنا أيضا أن النبي لو كان كذلك لكان قد تزوج بأكثر من واحدة وهو في ريعان الشباب لا أن ينتظر عقده الخامس وموت خديجة ليقوم بذلك ولتزوج الشابات عوض الثيبات والأرامل^(١).

(١) للتفصيل أكثر في كتابات خوان أندريس حول السيرة النبوية نجيل على البحث الذي شارك به الدكتور محمد عبد الواحد العسري في الندوة الدولية حول السيرة النبوية في الكتابات الإسبانية التي نظمتها جامعة فاس سايس أيام ٢٢-٢٤ أبريل ٢٠٠٨ تحت عنوان =



وقد استغل الفقيه المتنصر معرفته بالإسلام وبما جاء في القرآن وكتب السنة ليتهم الرسول بخيانة زوجاته.

وهنا لا يجب علينا أن ننسى ما سقناه سابقا من أن تشكل هوية ثقافية لمجتمع ما تتوقف على الغيرية وهذا ما يفسر لنا تناول جل من كتبوا عن الرسول هذا الجانب خصوصا في العصور المتأخرة وبعد أن حرمت الكنيسة الكاثوليكية رسميا الزواج على الرهبان والراهبات على أساس أن الجنس يحط من قدر الإنسان وينزله مرتبة الحيوانية، بينما العذرية صفة من صفات الملائكة ودليل على العفة والطهارة. وعليه فإن الابتعاد عن الجنس هو اتصاف بصفة من صفات الملائكة بينما العكس هو اتصاف بصفة الشيطان.

وككل كتاب السيرة لم ينس خوان أندريس الحديث عن «عنف» الإسلام. فالانتشار السريع لهذا الدين و«غصبه» لأراض مسيحية كثيرة لم يكن مبنيا أبدا على قوة إقناعه أو منطقية مبادئه وتوافقها مع مصالح من اعتنقوه وطبعتهم، بقدر اعتماده على السيف والدم والسلب والنهب، كما يظهر في سيرة رسوله الذي لم يتوان عن حمل السيف لشن الحرب على غير المسلمين وحملهم على الإسلام والاستيلاء على أموالهم.

=«تصورات الاستشراق الإسباني لمحمد من خوان أندريس إلى خوليو كورتس».

وهذه هي الأفكار نفسها التي نجدها في العديد من كتب السيرة التي صدرت بعد خوان أندريس وساهمت في تشكيل الوعي الإسباني وتصوره للإسلام والمسلمين، لتؤكد من أن الأمر لا يعدو خطأ مستقيماً انطلق في اتجاه خاطئ منذ السنوات الأولى لظهور الإسلام وهكذا سيستمر ما لم يتم الوصول إلى قناعة تغير من اتجاهه حتى يصل إلى الحقيقة التي لا نريد أن تكون الاقتناع بالإسلام وإنما في عدم التحامل عليه والقيام بتناوله بموضوعية وعدم حساسية كما هو الحال بالنسبة للديانات الأخرى.

ولنؤكد نظريتنا سنحاول أن نعرج على آراء مترجمي القرآن وإسهامهم في السيرة حتى نرى إذا ما تم الخروج عن الخط أو أن اختلاف الحقب التاريخية والظروف الثقافية لم يغير من الطرح.

وهنا نلفت الانتباه إلى أن الاستعراب الإسباني لم يغير من ملامح الصورة التي رسمنا بل كرسها أكثر، خاصة ذلك الاتجاه الذي نشأ في أحضان الكنيسة، وعليه فقد ارتبط تصور الإسلام بتصور هذه الأخيرة لهذا الدين الذي كانت تنظر إليه بشيء من الحذر والارتياح، على اعتبار أنه تزييف لمعالم الدين الحق الذي جاء به عيسى وانحراف عن الإيمان التوحيدي الأصيل ومحاولة للالتفاف على الديانتين اليهودية والمسيحية، وعليه فإن مقاربتة للإسلام لم تخرج عن هذا

التصور. فالإسلام يمثل خطرا على الحداثة^(١) وكل جهوده كانت محاولة للتنفيذ والرد على الإسلام ونبيه.

وإذا كنا قد تطرقنا إلى حد الآن إلى السيرة النبوية في الكتابات الإسبانية القديمة فالحديث عن صورة النبي محمد (ﷺ) في الدراسات الاستعرائية الحديثة لا يختلف كثيرا. وهنا نشير إلى أن الباحثين الإسبان المهتمين بالثقافة العربية الإسلامية يسمون بالمستعربين^(٢) وليس بالمستشرقين كما هو الحال بالنسبة إلى نظرائهم في أوروبا وأمريكا الشمالية وذلك ليس تنصلا من الثقل الدلالي لكلمة الاستشراق كما صورها إدوارد سعيد^(٣) وإنما لاعتبارات معرفية صرفة

(١) غالبا ما ركز الباحثون الأوروبيون والأمريكيون فيما بعد على أن الإسلام ينافي الحداثة وهذا لم يكن وليد اليوم. وهذا قياس خاطئ يمكن أن نفرد له بحثا خاصا فإذا كانت حداثة القرن ١٨ تختلف عن حداثة القرن ٢١ وإذا كان المفهوم مفهوما نسبيا يتغير بتغير الفترة التاريخية فمن غير المعقول أن نقيس ثابتا (الإسلام) على متغير (الحداثة).

(٢) يمكن الرجوع إلى ما كتبه برنابي لوبيث غارثيا أو إنياسي غوتيريث دي طيران حول الموضوع.

(٣) للتعرف على هذا المفهوم بشكل مفصل نحيل على كتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد الذي كتب بالإنجليزية وقد اطلعنا على ترجمته الإسبانية:

Edward W. Said, *Orientalismo*, traducción de María Luisa Fuentes, Madrid, Editorial Debate, 2002

ولخصوصية هذا النوع من الإستشراق فرواده لم يشاركوا عموماً في الحركة الاستعمارية التي غدت روافد الاستشراق الغربي كما أنهم انكبوا على الدراسات الأندلسية متخذين منها محور نشاطهم.

وعلى العموم يمكن أن نقول: إن اهتمام المستعربين الإسبان بسيرة الرسول لا يرقى لما يمكن أن يتصوره البعض نظراً لارتباط إسبانيا بالإسلام خلال فترة طويلة من تاريخها. كما أن جل المؤلفات في هذا الباب يشوبها العداء الواضح حيناً والخفي حيناً آخر والكثير من التحامل. ويكفي لكي نتعرف على هذا الإشارة إلى ما قاله المؤرخ الإسباني خوسي دي مونتيرو بيدال في كتابه «محمد: حياته والقرآن» حيث يورد أنه من النادر أن تجد في كتابات رجال الدين الكاثوليك شخصية تعرضت للتشويه مثل ما تعرض له محمد.

وتحتاج مهمة كتابة وعدّ كل ما اخترعوا من أباطيل بدافع الكراهية الشديدة لشخصه وعقيدته مجلدات كاملة⁽¹⁾. ويمكن أن ينسحب هذا الوصف على جل من كتب عن السيرة منذ أول خطوة للتعرف على الإسلام عبر أول محاولة لترجمة القرآن في القرن العاشر الميلادي وحتى آخر مقال في أي صحيفة أو مجلة يكون قد صدر في أيامنا هذه.

(1) José de Montero Vidal, Mahoma, su vida y el Corán, T. 1, Madrid, Editorial Reus, 1927, p. 20.



ويمكن أن نلخص التشنيع الذي ذكره خوصي دي مونتيرو فيما قاله الراهب اليسوعي أنتوني دي مونتييرات الذي ولد في منطقة كاتالونيا التي تعد مدينة برشلونة عاصمة لها حول الموضوع.

فقد سافر هذا الراهب إلى المشرق العربي وشارك في عدة لقاءات جدالية مع علماء من المسلمين^(١) وهو ما يتحدث عنه في مذكراته التي كتبها باللاتينية حيث يصف ما جاء به النبي محمد من مبادئ على أنها مجرد أكاذيب وتخاريف اختلقها النبي المزعوم^(٢)، مضيفاً إلى أن القرآن مشحون بالكثير من الشكوك لأن محمداً خطه بنفسه. ويعتذر لقارئه إن لم يسق الدليل على هذا لأنه لا يوجد شاهد على ما فعل هذا النبي المزعوم إلا هو عينه. ويعلل التشابه الموجود بين القرآن والإنجيل بأن الرسول كان قد تعرف على المسيحية واليهودية خلال أسفاره ليشير بعد ذلك إلى تهمة نجدها في أغلب الكتابات التي تناولت الإسلام ونبيه وهي تهمة الفساد الأخلاقي وارتكاب الفاحشة.

(١) وتجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من الجدالات والسجلات كان شائعاً بين العلماء المسلمين والمسيحيين ولا يمكن أن نسمي ذلك حواراً حيث أن كل طرف كان يتمسك بآرائه إلى النهاية.

(2) Antoni de Monserrat, de. Joseph Lluís Alay, trad. Ramón Sala Gili, Viajes de un jesuita catalán del siglo XVI por la India, Paquistán, Afganistán y el Himalaya, Lérida, Editorial Milenio.

وإذا كنا قد تحدثنا عن محاولة مونتسيرات في هذا الباب فهي لا تعد استثناء بل ما هي إلا وليدة التراكمات التاريخية لأن كل الكتابات السابقة والكتابات اللاحقة أجمعت عند تناولها للإسلام ومنابعه على أنه مجموعة عقائد تستمد أصلها من المسيحية لتنفلت من الأصل وتختلط بهرطقات النبي.

٣- محمد في المعاجم والثقافة الشعبية:

إذا كان الاستعمال هو الذي يعطي للكلمة في اللغة الحياة ويحدد لها نطاق دلالاتها فإن المعجم هو الذي يحافظ لها على هذا المكسب ما دامت تستعمل وتتداول. وعليه يكون المعجم من الأهمية بمكان للتعرف على الاستعمال الذي يعطيه مجتمع ما لأي كلمة يتم تداولها في لغته. وهذا لا يعني أن واضع المعجم يكتفي بنقل هذا ويكون بعيدا عن إيديولوجيته وثقافته، بل على العكس من ذلك نجد أن المعجم يعكس إيديولوجية واضعه بالإضافة إلى نظرة المجتمع الذي يعيش فيه إلى محيطه. ومن هنا رأينا أن نتبع ما تقوله المعاجم الإسبانية عن الرسول محمد، فوجدنا كثيرا من طبعات معجم الأكاديمية الملكية الإسبانية تشير إلى كلمة **mahoma**^(١) وهو اسم النبي محمد كما يكتب بالإسبانية مع فارق

(1) Diccionario de la lengua española, Real Academia Española, Vigésimo primera edición, Espasa Calpe, Madrid, 1992.



واحد هو أن الحرف الأول من اسم الرسول يكتب كبيراً لأنه اسم علم بينما الكلمة الواردة في المعجم تبدأ بحرف صغير. وتشرحها على أنها صفة تدل على الشخص الرث الهندام والكسول، لتشير بعدها مباشرة إلى مدخل آخر هو **mahometano** وهو المحمدي أي الذي يتبع دين محمد و**mahometismo** وهي المحمدية وتعني الإسلام.

وهذا ما يجعلنا نطرح عدة علامات استفهام حول المغزى من وراء الإشارة إلى هذه المصطلحات. صحيح أن القاموس يدرج الكلمة على أنها صفة وليس اسم علم، ولكن هذا لا يعفيه من المسؤولية التاريخية والمسؤولية أمام الملايين من المسلمين وهو الذي رفض إدراج كلمات كان يتداولها المجتمع الإسباني بحجة أنها أجنبية دخيلة أو أنها أهملت.

وهنا يشارك المجتمع واضعي المعجم نفس الخطأ، لأن المصطلح لا يعكس إلا الدلالات التي تعطيها هذه الثقافة لتلك الكلمة من مفاهيم تراكت طيلة قرون طويلة.

ونفس الوضع يواجهنا عند البحث عن دلالات كلمة الإسلام حيث إن القاموس يعرفها بديانة لفرقة ضالة في الكثير من الطبقات وما هذا إلا تكرار لما تم تداوله خلال قرون طويلة وما سبق وأن تكلمنا عنه في هذا البحث،

فالإسلام ديانة ضلال ونبيه لا يمكن أن يرقى بأي حال من الأحوال إلى درجة الإنسان العادي فبالأحرى إلى مرتبة الأنبياء. وإذا كانت هذه هي وجهة نظر القاموس الذي يعكس استعمال مجتمع للغته، فالأمثال التي تعتبر الذاكرة الجماعية لذلك المجتمع وعصارة تجاربه لم تسلم هي الأخرى من تأثيرات هذه التصور المشوه وتبعاً لذلك نجد أمثالا كثيرة تتحدث عن الرسول أو تورد اسم محمد النبي الرسول للدلالة على أي مسلم وجلها تعكس صورة سلبية ومنها:

Si Mahoma no va a la montaña, la montaña va a Mahoma

ومعناه أنه «لو كان محمد لا يريد الذهاب إلى الجبل فالجبل سيذهب إلى محمد» ويضرب المثل للدلالة على اللامعقول فكيف يمكن أن يتحرك جبل ما قاصدا لشخص ما ولكن هذا -حسب المثل- يمكن أن يصدق على نبي الإسلام لأنه في واد بينما المعقول والمنطقي في واد آخر.

Reniega de Mahoma y de Fez, si no pagáis otra vez

ومعناه «أكفر بمحمد وبفاس وإلا ستدفع مرة أخرى»، ففي الابتعاد السلامة.

Ser como cristiano del Líbano que lo mismo adora a Jesús como a Mahoma

وترجمته: «أن يكون شخص ما كالمسيحي اللبناني الذي يعبد عيسى ومحمد في نفس الوقت». والمثل مليء بالإسقاطات التي لا يتسع الأمر للحديث عنها



لأنها خارج سياقنا.

Eso es lo mismo que preguntar por Mohamed en Granada

ومعناه: «أن الأمر الذي يضرب من أجله المثل صعب التحقق منه لأنه مثل السؤال عن محمد في غرناطة» والمثل يحيل إلى أيام غرناطة المسلمة التي كانت مليئة بمسلمين يسمون بمحمد ويضرب من باب السؤال عن الماء في البحر. ضفّ إلى ذلك أمثالا أخرى تتحدث عن الإسلام وعن العرب والمسلمين جلها يعكس معاني سلبية وقد نخرجنا عن السياق التحدث عنها.

٤ - مترجمو القرآن والسيرة النبوية:

يلمس القارئ الذي يطلع على بعض مقدمات ترجمات القرآن قيام المترجمين بجمع أفكار عامة والربط فيما بينها، في محاولة منهم إعادة إنتاج تلك الأفكار التي نشرت في أوروبا طيلة عدة قرون والتي تكلمنا عنها سابقا. والجديد الوحيد الذي يميزهم عن إخوانهم الذين سبقوهم للكتابة في هذا الباب هو ادعاء بعضهم الارتكاز على أهم المصادر العربية في علم السيرة متوخين في ذلك الموضوعية العلمية. ولكنهم في الحقيقة راحوا يخلطون بين الصواب والخطأ، وقاموا بتر الأخبار وإخراج بعضها عن سياقه والأخذ

بالروايات الضعيفة، مما يجعل القارئ الذي ليس له إلمام كاف في لبس من أمره. وسأحاول في هذه النقطة التحدث بعجالة عن القضايا العامة المتكررة التي ارتكز عليها المترجمون الذين تتناوهم هذه الدراسة مدرجاً ذلك في نقاط.

أ/ التشكيك في المصادر الإسلامية:

خصص المترجم بثنت^(١) Vicente عدة صفحات لسيرة رسول الإسلام، جعلها في الجزء الأخير من الكتاب، مشيراً إلى أنه ارتكز على أشهر مفسري القرآن مشيراً إلى أن الشغف الديني في مجتمع مكون من الأميين والجهلة جعل من السهل تحريف بعض الأفكار والأخبار التي جاءت في السيرة العربية. ويكون المترجم بهذه الطريقة، قد أخلى ذمته من مسؤولية ضرورة الالتزام بالمصادر العربية، لأن من غير المعقول أن نعطي القيمة العلمية لعلم ظهر في مجتمع من الجهلة والأميين.

(١) صدرت هذه الترجمة في نهاية القرن ١٩ وقد أثار انتباهي العنوان الذي اختاره المترجم: القرآن أو الإنجيل المحمدي، حيث إن العنوان يوحي للقارئ إما بأن الكتاب الذي بين يديه شبيه بالإنجيل لأنه قد لا يفهم كلمة قرآن، أو أنه إنجيل محرف لأنه لا ينتمي للإنجيل الأربعة التي يعرفها القارئ الإسباني. ويشير المترجم إلى أنه اعتمد أشهر مفسري القرآن. فماذا يقول هذا المترجم عن الرسول.



ونفس الشيء نادى به كل من خوان بيرنيت^(١) وخوليو كرطيس. ويكاد يكون هذا المرتكز، اللازمة التي صاحبت كل المقدمات التي جاء بها المترجمون. وإذا كان البعض قد صرح به علانية، فإن البعض الآخر حاول إخفاءه، ولكن رغم ذلك ظل ظاهراً في عدة جوانب منها سنة ولادة الرسول الكريم حيث يقول خوان بيرنيت: إنه وإن قبلنا بالمعلومات التقليدية - الموجودة في المصادر الإسلامية-، فإن اسم محمد -الذي يطلق عليه بالإسبانية **Mahoma** - أطلق على الرسول في الطفولة.

وقد ولد الرسول عام الفيل، وهو العام الذي قاد فيه أبرهة حاكم اليمن هجوماً على مكة على ظهر فيل ليهدم الكعبة. ولكن هذا غير صحيح - حسب زعمه- لأننا إذا أردنا أن نعرف سنة مولده الشريف، يتعين علينا الرجوع إلى مصادر أخرى كالقرآن مثلاً، فهو أحسن هذه المصادر، وأورد الآية: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَنْكُمْ بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ١٦). فكلمة عُمُر في الآية، تعني حسب المترجم أربعين سنة.

(١) للتعرف على آراء هذا المترجم يمكن الرجوع إلى تقديم ترجمته للقرآن:

El Corán, traducción de Juan Vernet, Editorial Optima, Barcelona, 2002, p.p. 9-40.

كما أن كتب السيرة تتحدث عن أن حسان بن ثابت - حسب المترجم دائماً- أكد على أن الرسول ظل في مكة عشر سنوات يدعو فيها إلى الإسلام، وبما أننا نعرف أنه هاجر منها إلى المدينة سنة ٦٢٢ فقد ولد ما بين ٥٦٢ و ٥٧٢ ميلادية، ليؤكد في الأخير على أن التاريخ الأكثر احتمالاً هو ٥٧٢، اعتماداً على أنه أمر بالجهز بالدعوة سنة ٦١٢ وهو ابن الأربعين. ونفس الشيء نلمسه في التعريف الذي جاء به بشت الذي أكد على أنه من الصعب تحديد سنة ميلاد المصطفى.

ب/ التشكيك في نزول الوحي:

حاول المترجمون الذين تناولناهم بالدراسة، الزعم بأن الوحي مرض نفسي كان يعاني منه الرسول منذ الطفولة. وهم في ذلك، أعادوا ما جاءت به الكنيسة في أول كتاباتها عن الإسلام ورسوله.

ويحكي بشت^(١) أن الرسول الكريم كان يحب العزلة في غار حراء، وأخبر كيف أنه رجع ذات يوم إلى خديجة قائلاً: «بينما كنت نائماً نوماً عميقاً، حلمت بملك يحمل قطعة من الحرير قد كتب عليها شيء ما، قام الملك

(١) يضمن هذا «المترجم» ملحقاً يتحدث فيه عن سيرة الرسول الكريم، انظر:

El Corán o la Biblia Mahometana, Vivente Ortiz de la Puebla, Ed. Juan Aleu, Barcelona, 1872.



وقدمها لي وهو يقول: اقرأ. فقلت له: ماذا أقرأ؟ ليكرر الملك أمره وأكرر الإجابة، ليحييني في الأخير: (اقرأ باسم ربك الذي خلق). واستيقظت عقب ذلك وخرجت إلى سفح الجبل، فسمعت صوتاً يقول: يا محمد إنك رسول الله^(١). وهكذا نجد أن هذا المترجم يربط الوحي بالحلم، فالرسول حلم بأن وحياً إلهياً نزل عليه، وهو بذلك يخالف كل المصادر الإسلامية التي تقول بأن الوحي كان حقيقة وليس أضغاث أحلام.

أما برنت فقد كان أكثر جرأة من بشت، واعتبر أن المدثر الموصوف في القرآن، كان مجنوناً وكاهناً وساحراً^(٢).

وفي نفس الاتجاه سار لويس كاردونا كاسترو **Luis Cardona Castro**، حين اعتبر أن الرسول بدأ نشاطه الديني عندما وصل سن الأربعين باستظهار القرآن الذي زعم أنه يأتيه به جبريل من الله الإله الأوحد^(٣). ومهد لهذا مؤكداً، على أن ذهاب الرسول إلى غار حراء للتفكير، لم يكن أمراً غريباً بالنسبة لشخص عصبي ميال إلى الخلوة والأحلام^(٤).

(١) برنت ص ١٣.

(٢) لويس ص ٨.

(٣) لويس ص ٨.

أما خوليو كورتيس **Julio Cortés** فقد كرر نفس الفرية، وقال بأن الرسول رأى في المنام أشياء غريبة، ووضع بين قوسين ما يقوله علماء السيرة المسلمون في هذا الباب.

ج/ دعوى تأثر الإسلام بالديانات التوحيدية السابقة وبالوثنية:

أجمع مترجمونا على حشد كل المعلومات التي من شأنها أن تجعل القارئ يعتقد أن الإسلام ما هو إلا نسخة مشوهة ومبتسرة من الديانات التوحيدية السابقة.

وهكذا نجدهم قد أخبروا بأن الرسول كان يكره ديانة قومه الوثنية، وأنه كان ينزل عنهم إما في الصحراء أو في جبال مكة. وفي هذا الصدد، نجد أن بشت -مثلاً- يخبر أن أول ما قامت به خديجة عندما أخبرها الرسول بما وقع في غار حراء، كان اتصالها بقريبها المسيحي ورقة بن نوفل. وما كان خوليو كورطيس ليخرج عن الخط المرسوم، فكرر نفس الفكرة، ولكنه أضاف أن ورقة هداً روعها وقال أن ذلك من الله^(١).

وقد حاول المترجم بعد هذا، التأكيد بسطور الربط بين السور المكية وبعض ما جاء في الكتب السابقة، ليشير مرة أخرى إلى شخصية ورقة بن نوفل

(1) El Corán, traducción de Julio Cortés, Herder, Barcelona, 1998, p.22.



المسيحي، حتى يجعل القارئ يعتقد أن ورقة كان يمتح من معين الأنجيل ويلقنها محمداً الذي يكرر ما يتعلمه في القرآن. وبعد ذلك، انتقل إلى هجرة المسلمين إلى الحبشة عند النجاشي، وربطه بنزول سورة مريم.

بينما برنيت أشار إلى أن الرسول وصل إلى حد الاعتراف باللات والعزى ومناة^(١) قبل الهجرة، وهي الآلهة التي كان يعبدها العرب آنذاك.

أما بعد الهجرة، فقد أجمع هؤلاء المترجمون على تقرب الرسول من يهود المدينة في مرحلة أولى متأثراً بهم، ففرض على المسلمين صوم عاشوراء وصلاة الظهر تقليدا لليهود، ولكن عددا قليلا منهم فقط اعتنق الإسلام.

وكان أن أثر فيه كثيرا حاخامان يهوديان، مما دفع الرسول إلى تغيير موقفه منهم. وأمام انتقاد اليهود له ونعته بأنه جاهل بالتوراة، فإن الرسول اتهمهم بتحريفه وتغيير ترتيب فصوله، ووصفهم وصف الحمار يحمل أسفارا، لأنهم لا يفهمون شيئا منه؛ وهذا ما نجده في القرآن.

وعندما لم يعرف اليهود كيف يردون عليه - يقول المترجم - فإن الرسول الكريم بدأ يتحين الفرصة للانقضاض عليهم، وغير اتجاه القبلة وأبدل صيام عاشوراء بصيام رمضان. أما كورطيس، فإنه قال بأن المسلمين في المدينة كانوا

(١) فيسيتي، ص ٨.

يتجهون في قلبتهم إلى بيت المقدس، على عادة اليهود وبعض المسيحيين المتواجدين في المدينة.

وفي محاولة ذكية منه لإضفاء شيء من الموضوعية والحياد العلمي على الأفكار التي يقدمها للقارئ، فإنه أكد على أنه لا يتوفر على معلومات بنصوص القبلة التي كان يتجه صوبها ورقة بن نوفل^(١).

وهو ما يجعله يدفع القارئ إلى اعتقاد ترابط الأمور وتقليد الرسول للمسيحيين، دون أن يقول ذلك صراحة. وهذه المعلومات كلها إسقاط للنظرة الغربية التي ولدت في بعض أديرة الكنيسة كما رأينا سابقا.

د/عنف نبي الإسلام:

لم يغفل المترجمون غزوة من غزوات الرسول، ولم يكن الهدف من ذلك التأريخ لها، وإنما إظهار دموية هذا الرسول الذي يدعو إلى السلم بيد بينما يرفع السيف باليد الأخرى للحصول على الغنائم.

و«تناسى» هؤلاء الحديث عن الأسباب التي حركت هذه الغزوات الواردة في كتب السيرة الإسلامية من دفاع عن النفس ونصرة للمظلوم^(٢).

(1) El Corán, traducción de Julio Cortés, Herder, Barcelona, 1998, p.25.

(٢) بل أكد أحدهم على أن كتب السيرة الإسلامية حاولت أن تجعل سيرة الرسول وتغاضت =

واعتبرها بعضهم وسيلة من وسائل الحكم التي ارتكز عليها الرسول. وقد استغل في ذلك سلطة «الوحي»، ليقوي سلطته، فأمر المسلمين بطاعة الله وطاعة رسوله، كما في الآية ٣٢ من سورة آل عمران ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾، وأن من يعصونه سوف يلقون جهنم جزاء. كما نجد في هذه الترجمات أن الرسول مارس العنف ضد المخالفين بعد أن تأكد من عدم استجابتهم لدعوته.

وكخلاصة، يمكننا القول، إن مترجمينا قد رسموا صورة لرسول حاقدا لا يتسامح مع معتنقي الديانات الأخرى، دون الرجوع إلى أي مصدر إسلامي. وعزوا كل الهجمات على اليهود إلى ظلم الإسلام ونبيه.

وقد كان من الأولى البحث في الأسباب الحقيقية التي جاءت في كتب السيرة العربية، أو إيرادها على الأقل. فالرسول هادن اليهود ووضع ما يعرف بدستور المدينة، الذي ضمن لهم حقوقهم الدينية والدنيوية، ووضعهم على قدم المساواة، مثلهم مثل غيرهم من مواطني الدولة المسلمة. وتغير موقف المسلمين منهم، لا يمكن تفسيره بتلك البساطة التي فسر بها مترجمونا الأحداث.

وعلى العموم رأينا كيف أن المترجمين الذين تناولناهم بالدراسة حاولوا

=عن كل ما يمكنه أن يضر بشخصية صاحبها.

شرح أسباب ترجمتهم للقرآن، وحاولوا تقديم سيرة رسول الإسلام بشكل بعيد عن الموضوعية العلمية التي تحدثوا عنها في الفقرات الأولى من مقدماتهم، كما أنهم ضربوا عرض الحائط بجل مصادر السيرة الإسلامية التي تتحدث عن الرسول، بل شككوا فيها بحجة أن الموضوعية العلمية تقتضي ذلك. وهم في ذلك، اكتفوا بتكرار ما قيل عن الرسول الكريم من أفكار ولدت في أحضان الكنيسة، وحاولوا إعادة صياغة معالم شخصيته وفق إيديولوجية العصور الوسطى.

٥ - سيرة الرسول في الكتب المدرسية:

تتفق المناهج التربوية الإسبانية على أن المعلومات المتوفرة عن حياة الرسول الكريم أكثر دقة من كل المعلومات التي وصلتنا عن الأنبياء الآخرين. وهذا ليس سرا فحياة موسى وعيسى لا نجد لها تفصيلا سوى تلك الإشارات الخاصة في الأناجيل، بينما نجد أن حياة الرسول توجد في مصادر أخرى بالإضافة إلى القرآن في كتب السيرة والحديث.

لكنها في نفس الوقت لا تضعه في سياقه حيث نجد أنها تبدأ حديثها عن الرسول دون الحديث عن المنطقة التي ولد فيها والظروف المحيطة بذلك مستعملة مصطلحات تكرر الصور المسبقة الخاطئة من قبيل: «العربي وتاجر



القوافل المولود في مكة والشاب الذي كان يقود القوافل في مكة في السعودية،
الرجل الذي كان يقطع الفيافي في قوافل جمال».

وتساق هذه العبارات دون التفصيل في حياة رسول الإسلام مستعملة
تلك الصور المتهالكة التي أشرنا إليها سابقا.

كما أنها لا تتحدث عن قيمته الدينية عند المسلمين، وحتى عندما أشارت
لها بعض المناهج كان ذلك عابرا. وتكرر الكتب المدرسية رفض قريش الشديد
للدعوة المحمدية لتربطه بخروج النبي من مكة مجبرا على ذلك.

بينما تشير بعضها إلى أن ذلك راجع لأسباب سياسية واقتصادية لأن تجار
مكة وكبارها قطعوا الطريق على النبي وأصحابه الفقراء كما نجد في النص التالي:
«كان أتباعه الأوائل فقراء بسطاء، وهو ما أعطى للحركة طابعا معاديا
للأرستقراطية، ولهذا فقد قام تجار مكة الأغنياء برفضها»⁽¹⁾. وهذا ما يشوش على
التلاميذ ويربط ظهور الإسلام بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للمنطقة،
ويلغي الطابع الديني العقدي للإسلام.

(1) Varios autores, Jonc: Llengua Catalana, 1º Bachillerato, Ed. 62,
Barcelona, 1993.
J. A. Álvarez, Historia de las civilizaciones y del arte, ed. Santillana,
Madrid, 1992.

وإذا كانت الكثير من جوانب حياة الرسول في مكة غائبة غير موجودة في المناهج الدراسية كخلقه النبيل وتكنيته بالأمين واحتكام القوم إليه في وضع الحجر الأسود، فإن كل هذه الكتب تتكلم عن هجرته واصفة هذا بعبارات من قبيل: «الهجرة» و«الفرار» و«النفي» و«البحث عن ملجأ»، جاعلة ذلك ثمرة مطاردة القرشيين للمسلمين. وهو ما يربط في ذهن التلميذ بين الإسلام والتشردم والفرار.

أما الفترة المدنية فالكتب المدرسية لم تتكلم عنها كثيرا وكل ما جاء عنها كان محاولة لتسليط الضوء على ما تسميه الإنجازات السياسية لمحمد. الذي اعتبرته قائدا دينيا وسياسيا⁽¹⁾ أو القائد المطلق للحكومة الدينية في يثرب⁽²⁾ الذي استطاع أن يحشد قوة عسكرية قوية قامت باجتياح مكة ووحدت شبه الجزيرة العربية تحت عقيدته.

بل إن بعض النصوص لم تخف إيديولوجية واضعيها حينما جاءت بفقرات مثل: «وهكذا نعرف كيف تصرف محمد عندما حصل على شيء من السلطة:

-
- (1) Varios autores, Mundo y sociedad, 6º Primaria, ed. Luis Vives, Madrid, 1990.
Varios autores, Activa, 2º Bachillerato, ed. Vicens Vives, Madrid, 1998.
 - (2) Equip Cruilla, Mon contemporani i fe, 2º Bachillerato, ed. Curilla, Barcelona, 2000.



يظهر لنا أنها خرق هدنة مقدسة للهجوم على قافلة... ونرى ذلك أيضا في قساوته ضد اليهود الذين لم يقبلوا برسالته^(١). وهذا أخطر مما جاءت به كتب المترجمين أو كتب رهبان القرون الوسطى لأن هذه الكتب هي التي تؤسس لنظرة تلميذ اليوم إلى محيطه وعالمه اليوم وفي المستقبل، وتزرع البذور الأولى لتصوراته حول الإسلام التي سيكون من المستحيل التخلص منها عند الكبر.

والأخطر منها هو ابتسار الأحداث من سياقها وإيرادها في سياقات تجعل التلميذ يصل إلى قناعات خاطئة يصعب التغلب عليها بعد ذلك، خاصة في علاقة الرسول بالنصارى واليهود حيث إنهم جعلوه مزاجيا لا يحتكم إلى منطق. فبعد الحديث عن أن الرسول كان قد اطلع على الديانتين التوحيديتين السابقتين في أسفاره بين مناطق الصحراء، نرى أن الكثير من الكتب قد قامت بجعل الإسلام معاديا لها كما هو الحال بالنسبة للنص التالي: «وبعد أن رفض اليهود والنصارى دعوة محمد، قام هذا الأخير باتهامهم بتحريف كلام الله وقام بتغيير القبلة من بيت المقدس إلى مكة»^(٢)، بل نجد أن بعض الكتب قد خرجت عن دورها مصدرة أحكام قيمة حول الإسلام فأسمت المسلمين بالفرقة الضالة التي تعبد إلها اسمه

(1) L. Coronas, Mundo y sociedad, 6º Primaria, ed. Luis Vives, Madrid, 1994.

(2) Gallego, J., Historia de las civilizaciones, 1º Bachillerato, ed. Magisterio Español, Madrid, 1999.

الله ويختلف عن إله موسى وعيسى، وهذا ينافي المنهجية التعليمية الموضوعية.
وإجمالاً فإن المناهج الدراسية الإسبانية لا ترسم صورة واضحة ودقيقة
لرسول الإسلام بل قامت باجتراح غالبية الصور والأفكار الخاطئة التي أشرنا
إليها في النقط السابقة والتي جاءت في جل الكتابات الإسبانية حول السيرة.
وعوض أن تؤدي هذه الكتب وظيفتها التعليمية الصحيحة نجدها تقوم
بوظيفة أخرى بعيدة تماماً وهي الشحن الإيديولوجي الخاطئ الذي يجعلنا نربي
جيلاً بل أجيالاً معادية للإسلام لأنها وببساطة تعرفه معرفة خاطئة.
وستقوم هذه الأجيال التي ستكون عماد المستقبل بإعادة كتابة مناهج
دراسية تكرر فيها الأخطاء نفسها التي تعلمتها وهكذا سنستمر في الدوران في
هذه الحلقة المفرغة إلى ما لا نهاية.

خاتمة

أثبت هذا البحث الذي حاول تتبع ملامح صورة الرسول الكريم في الكتابات الإسبانية أن تغير الكثير من النظريات والأفكار في التاريخ الإنساني متأثرة بتقدم الزمن وتطور العلوم لم ينعكس على تلك النظرة للإسلام ولنبيه والتي بدأ بناؤها في القرن الثامن الميلادي.

وهذا ما يدفع إلى التساؤل عن ما إذا كان الباحثون في هذا الموضوع يتوخون الدقة العلمية أم أنهم لا يخوضون هذا البحر إلا للوصول إلى نتائج سابقة تم بناؤها في المخيلة الجماعية واستحضارها في الأذهان قبل الشروع في عملهم، فجل الكتابات كررت الأخطاء نفسها على الرغم من أن العلوم الإنسانية عموماً قد انتقلت من ضيق التعصب الإيديولوجي إلى شساعة الموضوعية العلمية.

كانت تلكم لمحة سريعة عن السيرة النبوية في الكتابات الإسبانية كنا نرمي من ورائها إلى التأسيس إلى مرحلة جديدة في علاقة الإسلام بالغرب.

قائمة المراجع

أولاً: المراجع باللغة العربية:

- (١) د. محمد عبد الواحد العسري، الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني، من ريموند لولولس إلى آسين بلاثيوس، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ٢٠٠٣.
- (٢) د. محمد عبد الواحد العسري، «تصورات الاستشراق الإسباني لمحمد من خوان أندريس إلى خوليو كورطس»، الندوة الدولية حول السيرة النبوية في الكتابات الإسبانية، جامعة فاس سايس، ٢٢-٢٤ أبريل ٢٠٠٨.
- (٣) مانويل مايور برروثو «ألبارو القرطبي والنبى محمد والدجال»، بحث لم ينشر بعد.
- (٤) دة فدوى الهزيتي «عندما ينصر الرسول (ص) بالأعجمية»، الندوة الدولية حول السيرة النبوية، جامعة فاس سايس، المغرب، ٢٢-٢٤ أبريل ٢٠٠٨.
- (٥) النظرة إلى الآخر في الخطاب الغربي، جان جبور، دار الساقى، لندن: ٢٠٠١ م.
- (٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ط ١- ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م، دار الخير، بيروت.
- (٧) سنن النسائي، الحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، إحياء التراث العربى، بيروت، ١٣٤٨ هـ.
- (٨) صحيح البخاري، الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، ضَبَطَهُ ورقمه وذكر تكرار مواضعه د/ مصطفى البغا، ط ٤، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٠ م، البيامة للطباعة والنشر والتوزيع، ودار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.
- (٩) القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزبادي، دار الحديث، القاهرة.



ثانياً: المراجع باللغة الإسبانية:

- (10) El Coran o la Biblia Mahometana, Vicente Ortiz de la Puebla, Ed. Juan Aleu, Barcelona, 1872.
- (11) El Corán, traducción de Juan Vernet, Editorial Optima, Barcelona, 2002,
- (12) El Coran y El Talmud, Tr. Luis Cardona Castro, Editorial Mateu, Barcelona, 1965.
- (13) El Coran, Edimat Libros, Madrid, (لا يرد اسم المترجم ولا سنة النشر)
- (14) El Coran, Tr. Julio Cortes, Herder, D.L., Barcelona, 1998.
- (15) Diccionario de la lengua española, Real Academia Española, Vigésimo primera edición, Espasa Calpe, Madrid, 1992.
- (16) Antoni de Monserrat, de. Joseph Lluís Alay, trad. Ramón Sala Gili, Viajes de un jesuita catalán del siglo XVI por la India, Paquistán, Afganistán y el Himalaya, Lérida, Editorial Milenio.
- (17) Delgado León, Feliciano, Álvaro de Córdoba y la polémica contra el Islam, El Indiculus Luminosus. Córdoba, 1996
- (18) Gallego, J., Historia de las civilizaciones, 1º Bachillerato, ed. Magisterio Español, Madrid, 1999.
- (19) J. A. Álvarez, Historia de las civilizaciones y del arte, ed. Santillana, Madrid, 1992.
- (20) Jean Damascene, Ecrits sur l'Islam, ed. Raymond le Coz, París.
- (21) José de Montero Vidal, Mahoma, su vida y el Corán, T. 1, Madrid, Editorial Reus, 1927.
- (22) Juan Andrés, Confusión de la secta mahomética y del alcoran, edición y notas de Elisa Ruiz García, Mérida, Editora Regional de Extremadura, 2003.
- (23) Karen Amstrong, Mahoma, biografía del profeta, traducción Victoria Ordoñez, Tusquets Editoriales, Barcelona, 2005.
- (24) L. Coronas, Mundo y sociedad, 6º Primaria, ed. Luis Vives, Madrid, 1994.
- (25) Monferrer, Juan Pedro, Tipología apocalíptica en la literatura árabe cristiana.
- (26) http://st-takla.org/pub_oldtest/Arabic-Old-Testament-Books/32-Daniel/Sefer-Danial-Chapter-07.html
- (27) Varios autores, Jonc: Llengua Catalana, 1º Bachillerato, Ed. 62, Barcelona, 1993.
- (28) Varios autores, Mundo y sociedad, 6º Primaria, ed. Luis Vives, Madrid, 1990.
- (29) Varios autores, Activa, 2º Bachillerato, ed. Vicens Vives, Madrid, 1998.
- (30) Equip Cruilla, Mon contemporani i fe, 2º Bachillerato, ed. Curilla, Barcelona, 2000.

أبيض



صورة النبي ﷺ

في الفكر الأوربي بين الإجحاف والإنصاف

إعداد

أ.د. محمد زرمان

ابيض



مُقَدِّمَةٌ

عرف الفكر الأوروبي النبي ﷺ في وقت مبكر جدا تزامن مع الفتوحات الكبرى التي قوضت إمبراطورتي الفرس والروم، وبلغت في زمن قياسي جدا أقاصي الأرض شمالا وشرقا وغربا. وقد أدهشت هذه الحركة التي حملت أنوار الرسالة الخاتمة ساسة أوروبا وكهنتها ومفكرها وشعوبها سواء بسواء، كما أثارت لديهم في الوقت نفسه شعورا بالنقص أمام هذا المد الفتحي المتجدد، صاحبه إعجاب خفي، شابه - أحيانا أخرى - شعور غامض بالخوف من زحفه الذي لا يقف عند حد.

ثم ما لبثت هذه المشاعر أن تحولت إلى عداء قوي ضد الدين الجديد الذي يناقض دين المسيح ويكفر به، وعكفت الكنيسة - باعتبارها السلطة العليا في الدولة والمجتمع آنذاك - على تغذية هذا العداء وتكريسه، وصبت جام غضبها على رسول الله ﷺ، فنسجت له صورا مغرقة في الفظاعة والبشاعة، وانتقصت من شخصيته وأخلاقه وسيرته حتى غدا رمزا للشر في الأرض. فهو شيطان وساحر وشهواني ودموي، وله قدرة خاصة على استدعاء قوى الشر، شعاره

السيف والحرب، كما أنه كاذب ومدعٍ للنبوة، سرق نصوصاً من التوراة والإنجيل ثم عرضها على أتباعه بشكل مشوه، ورباهم على العنف، وصنع منهم رجالاتاً محاربين شرسين متوحشين يارسون النهب والتنكيل، وينغمسون في أحوال اللذة ويطلقون العنان لغرائزهم للاستمتاع بمباهج الحياة بشكل عبثي وفوضوي، وما إليها من الصور المغرقة في الحقد والسوداوية.

وظلت هذه الصورة المثقلة بالإساءات والتضليل تتداولها الأجيال الأوروبية وترسخها كتابات المؤلفين والشعراء، وينسج حولها الخيال الشعبي أكواماً من الخرافات والأساطير حتى أضحت صورة نمطية ومسلمة من المسلمين، وتغلغلت في الوعي الغربي تغلغلاً عميقاً لا يتزحزح، واستقرت فيه كحقيقة واقعة دون سند أو موضوعية.

وعلى الرغم من الأحداث الكثيرة والتطورات الفكرية والعلمية التي شهدتها أوروبا والتي غيرت ملامحها تغييراً جذرياً إلا أن صورة نبي الإسلام - عليه الصلاة والسلام - ظلت كما هي مشحونة بكل معاني الكراهية وهو ما عبر عنه إدوارد سعيد بقوله: «إن الخمر العتيقة ما زالت تصب في الجرار الجديدة»، وقد عززتها الجهود الاستشراقية، وأضفت عليها صبغة البحث العلمي والنقد الموضوعي النزيه، ولم يتخلص من تأثيرات هذه التركة السوداء سوى ثلثة قليلة



من المفكرين والفلاسفة الذين تحرروا من الفكر الكنسي الموروث فحاولوا إنصاف النبي عليه الصلاة والسلام، وامتدحوا فيه شخصيته المتميزة، وأخلاقه العالية، وجهوده في إنقاذ الناس من ظلمات الوثنية والجهل، لكن معظمهم أحجم عن الاعتراف بنبوته، ولم يجرؤ على ذلك إلا رجال يعدون على رؤوس الأصابع، أشهرهم تولستوي الذي أعلن عن إيمانه بنبوة محمد - عليه الصلاة والسلام - ورسالته؛ فعاقبه البابا بالحرمان من رحمته في الدنيا، والخسران المبين في الآخرة.

لقد اجتمعت لأوروبا جملة من العوامل التي دفعتها بكل طبقاتها وفئاتها إلى إساءة الظن برسول الله ﷺ ثم الجهر بمعاداته، أهمها على الإطلاق خوف الكنيسة على مركزها وسلطاتها، وارتعابها من المصير الذي لقيته بيزنطة حامية النصرانية في الشرق على يد جيوش الفتح، وقدرة الإسلام على التمدد والانتشار واستقطاب الأتباع؛ لوضوح عقائده وبساطتها، وملاءمتها للفطرة السليمة، واستيعابها لأشواق الإنسان الروحية وطموحاته المادية، وهو الخوف الذي مررته إلى الحكام والقادة الذين تهيئوا للدفاع عن عروشهم، وألقته في الوقت نفسه في روع الشعوب لتقف سدا منيعا في وجه المسلمين الذين وصفتهم بالوثنيين المنحرفين الذين وضعوا أيديهم على الأراضي المقدسة بعد أن افتكوها من الرومان، وانتهكوا حرمة قبر المسيح وحالوا دونه ودون الحجاج النصارى.

ومما لاشك فيه أن هذه الصورة النمطية التي تحملها الذهنية الغربية عن النبي ﷺ قد أورثت تبعات كثيرة، أهمها وأخطرها على الإطلاق أن شعوب أوروبا ابتداء بقادتها وساستها، مروراً بكهنتها ورجال الدين فيها، وانتهاء بمفكرها وإعلاميها حتى أبسط رجل فيها يصدر عن جميعا في مواقفهم وردود أفعالهم تجاه العالم الإسلامي عن هذه الصورة، ويحتكمون إليها في بناء علاقاتهم معه. فهل يستطيع المسلمون - من خلال تفاعلهم مع العالم الغربي في عصر العولمة - أن يحرروا الذهنية الغربية من أثقال الفكر الكنسي القادم من العصور الوسطى، وأن يخترقوا هذه الصورة النمطية، ويبرهنوا على زيفها وبطلانها، ويقدموا البديل المشرق لها؛ حتى يتمكن الطرفان من بناء علاقات مبنية على الحقائق الموضوعية، والفكر النظيف المتحرر.

وتهدف هذه الورقة إلى تتبع التطور التاريخي لتشكل صورة النبي، وتحديد طبيعة هذه الصورة، ثم بيان تجلياتها ومظاهرها المختلفة، ومحاولة البحث في العوامل الكامنة وراء تشكلها، ودراسة الآثار والنتائج المترتبة عنها سواء على مستوى الفكر أو الممارسة، وفي الختام نحاول اقتراح رؤية تساهم في تحسين هذه الصورة في الذهنية الغربية باستغلال ما أتاحتها العولمة للبشر من وسائل متطورة في المعلومات والاتصالات.



أولاً: التطور التاريخي لتشكل صورة النبي ﷺ في الفكر الأوروبي.

لقد خضع التشكل التاريخي لصورة الرسول ﷺ في الوعي الأوروبي لسلسلة الأحداث التاريخية التي أعقبت ظهور الإسلام في الجزيرة العربية وانتصاره على الشرك والوثنية، ثم انتشاره السريع والمذهل في أقطار الأرض، حيث كانت جيوش الفتح على موعد مع جحافل الروم والفرس التي منيت بهزائم منكرة؛ خضعت على إثرها ممالكها الواسعة للسلطة الإسلامية، وأقبلت الشعوب هناك على الدين الجديد الذي بهرهم ببساطته ووضوحه وسلاسته فدخلوا فيه زرافات ووحداً، وكان أغلبهم ممن يدينون بالنصرانية التي كان لها هناك قدم راسخة، وتاريخ طويل.

وكانت الدولة البيزنطية - وريثة الدولة الرومانية في الشرق ومثلة النصرانية فيه - ما فتئت تفقد أملاكها في الشام وشمال إفريقيا، وتراجع أمام جيوش المسلمين التي أرغمتها على الانسحاب شيئاً فشيئاً حتى حصرتها في آسيا الصغرى، بعد أن وصلت - غداة ظهور الإسلام - إلى أدنى درجات الإفلاس الديني والسياسي والاقتصادي والانحلال الاجتماعي والتفسخ الأخلاقي^(١)، حيث مزقت الخلافات

(١) راجع: أبو الحسن الندوي. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟. دار الكتاب العربي.

بيروت. ٨. ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م. ص ٢٨ - ٣٣.

الدينية أو صال الشعوب الخاضعة لها، وأرهقت كاهلها الضرائب والمكوس، وأنهكها الاستبداد المتوحش الذي كان يمارسه الرومان ضدها، وباتت تترقب بشغف معجزة من السماء تتشلها من بين أنبياهم، وقد سجل المؤرخون مقدار الكراهية والحق للذين سكنا قلوب الشعوب الشرقية تجاه حكامهم الرومان، ولم يفتهم أن يسجلوا أيضا استبشارهم بالفتح الإسلامي، بل ومسارعة كثير منهم لمساعدة جيوش الفاتحين أملا في التخلص من النير الروماني.

وتبع الفتح الإسلامي مع كل ما صحبه من رفق وتسامح وإطلاق للحريات الدينية، ووضع للمظالم السياسية والاقتصادية تحول تاريخي للمناطق المفتوحة إلى بلدان إسلامية الطابع من خلال تفاعل شعوبها القوي مع الدين الجديد: «فقد أقبل كثير من المسيحيين من أهل البلاد التي دخلها المسلمون على الإسلام فاعتنقوه، وقد رأوا في المسيحية القرآنية صورة متكاملة تغنيهم عن خلافات الفرق المسيحية نفسها، وقد كانت هذه الفرق في عراق مريير، وانقسام عنيف حول طبيعة المسيح وحقيقته، وقد أضنى المسيحيين هذا الخلاف، فلما قابل الكثيرون منهم القرآن رأوا مسيحا واحدا في صورة بسيطة تخلصه من كل هذه الخلافات؛ فأمنوا بالإسلام»^(١).

(١) علي سامي النشار. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. دار المعارف. القاهرة. ط ٥ =



والتاريخ يشهد أن النصارى الشرقيين قد دخلوا في دين الله أفواجا بسبب الإفلاس الذاتي للعقائد النصرانية^(١) بعد أن شوهتها الثقافة الهيلينية، فأخرجتها عن بساطة التوحيد وجعلتها عاجزة عن تلبية الاحتياجات الإيمانية والروحية للإنسان، حيث شهد المستشرق الإيطالي كيتاني Caetani أن: «انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة الشعور بالاستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهيلينية إلى اللاهوت المسيحي. أما الشرق الذي عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة، فقد كانت الثقافة الهيلينية وبالا عليه من الوجهة الدينية؛ لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة مخوفة بمذاهب عويصة... فلما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة... وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في

= ١٩٧١م، ص ٩٢-٩٣.

- (١) راجع: عبد المجيد الشرفي. الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. الدار التونسية للنشر. تونس. ١٩٨٦م. ص ٤١-١٠٩. وراجع أيضا: عبد العزيز الثعالبي. محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط ١. ١٩٨٥م. ص ١٢٥-١٥٠.

أحضان نبي العرب^(١).

هذه الضربات الموجعة التي تلقتها الدولة البيزنطية التي كانت تحتضر في مستعمراتها الواسعة حفزتها لمقاومة المد الإسلامي وصدّه عما تبقى من ممتلكاتها، والوقوف سدا منيعا أمام انتشاره في أقطار أوروبا التي كانت تحتضن مقر البابوية. فبدأت حملات الدعاية لتشويه صورة العدو والتفجير منه بعد أن عجزت عن منازلته في الميدان، وأخفقت في مضاهاة النظام الرباني الذي بسطه على الأراضي المفتوحة. وكان النبي الكريم عليه الصلاة والسلام - باعتباره الداعية الأول للإسلام - هو الهدف المباشر لهذه الحملات التي بدأت في وقت مبكر جدا في أوساط النصارى الذين أظلمتهم دولة الإسلام، ثم انتقلت إلى بيزنطة حيث اكتست طابعا عدائيا حادا، ولبست لبوس الحقد والكراهية، ووصلت من هذا الطريق إلى أوروبا، حيث تلقتها الكنيسة، ومنها بدأ تاريخ نبي الإسلام مع هذه القارة: «تشكلت الصور النمطية المسيحية عن الإسلام بالتدريج، وعبرت بكيفيات مختلفة عن الاهتمام المسيحي الأوروبي بالواقعة الإسلامية. انطلق هذا الاهتمام في البدء من خلال المسيحية الشرقية والنصارى

(١) محمد عمارة. إستراتيجية التنصير في العالم الإسلامي. مركز دراسات العالم الإسلامي.



الأصليين، ثم اتخذ أبعاداً أكثر جدية مع احتدام المواجهة في سياق الصراع التاريخي والحضاري على المواقع والأمكنة والرموز^(١).

ويعتبر يوحنا الدمشقي John of Damascus (٦٧٦ – ٧٤٩م) الذي عاش في الشام وجادل المسلمين وحظي باحترامهم كشخصية مثقفة، من أوائل الذين أسسوا للصورة المشوهة التي رسمتها أوروبا عن الرسول ﷺ، بما بث في كتاباته من أوصاف وإيحاءات تصور الرسول ﷺ على أنه شخص مضلل مبتدع، استقى عقيدته من فرقة نصرانية ضالة ومنشقة، وصار قائدا لعصابة من المفسدين، حيث استخلص الباحثون أن هذا الراهب قد ناقش الإسلام كبدعة فانتقلت هذه الفكرة إلى غيره وصارت حقيقة بديية لا تقبل الجدل: «إن التصورات المتكونة عن الإسلام كبدعة مسيحية، مرتدة ومنشقة، وعن محمد كنبي مزيف، انتقلت من مسيحي سوريا إلى اليبزنطيين، ومنهم إلى الأوروبيين»^(٢).

(١) محمد نور الدين أفاية. الغرب المتخيل: صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط.

المركز الثقافي العربي. بيروت. ط ١. ٢٠٠٠م. ص ١٢٩.

(٢) ألكسي جورافسكي. الإسلام والمسيحية. ترجمة: خلف محمد الجراد. سلسلة عالم المعرفة.

الكويت. جمادى الآخرة ١٤١٧ هـ. نوفمبر ١٩٩٦م. ص ٧١.

والدليل على ذلك أن المؤرخ البيزنطي ثيوفان (٧٥١-٨١٨م) في كتابه «الأحداث التاريخية» قد سار على الدرب نفسه، وشكل ملامح النبي الكريم في الإطار ذاته، وكان سابقا إلى وضع الخطوط الأولى لأسطورة محمد الذي تعلم من اليهود والنصارى ما تحتويه الكتب المقدسة، ثم تحالف مع اليهود للإضرار بالنصرانية^(١).

هذه الصورة الكاذبة المشوهة التي ترفض نبوة رسول الله وترد رسالته بعنف هي التي انتقلت إلى أوروبا، وتولت الكنيسة ومن بعدها الكتاب والمفكرون، ثم الخيال الشعبي، وأخيرا المستشرقون ترويحها وترسيخها، وإلصاق جميع النقائص والمثالب والمساوئ الأخلاقية بها دون سند علمي، أو تحليل عقلي.

نجد مصداق ذلك لدى الراهب جيورج ريس دير نوجينت (١٠٥٢-١١٢٤م)، ولدى الراهب بطرس المبجل Peter the venerable رئيس دير كلوني Cluny (١٠٩٢-١١٥٦م) الذي كان أول من فكر في ترجمة القرآن الكريم للرد عليه، وهداية المسلمين إلى محاسن الديانة النصرانية^(٢)، وجاك دي

(١) عبد الرحمن بدوي. دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقسين من قدره. ترجمة: كمال جاد الله. الدار العالمية للكتب والنشر. ص ٦.

(٢) ساسي سالم الحاج. الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية. منشورات =



فيتري، ومارتين بولونكو، والمؤرخ فانسان دي بوفيه Vincent De Buffet (١١٩٠ - ١٢٦٤م) في كتابه «المرآة التاريخية» والذي كان على علاقة حميمة مع لويس التاسع الذي قاد الحملة الصليبية السادسة، وكان أمين مكتبته ومربي أولاده، كما نجد تفاصيل هذه الأسطورة التي بدأت تكبر وتأخذ في كل مرة أبعادا جديدة لدى جايوم الطرابلسي Guillaume (١٢٧١م)، ولدى مطران غرناطة بيير باسكاسيو Pierre Pascassio (١٢٢٨ - ١٣٠٠م) في مقالته «شريعة المحمدين»، ولدى الكاتب تاما سوتو سكا (١٤٨٨م)، ولدى الراهب ريكاردو مونتكروس Ricardo Montecross (١٢٤٣ - ١٣٢٠م) في كتابه «نقد القرآن»، وكلهم أداروا كتاباتهم حول نقطة محورية هي أن محمدا - عليه الصلاة والسلام - إما راهب مسيحي طرد من الكنيسة أو انشق عنها؛ فاخترع الدين الإسلامي لينتقم من النصارى، وإما أنه تعلم على يد راهب منحرف مطرود من الكنيسة، وأنه لقنه ما في التوراة والإنجيل فحرف هذه التعاليم وأخرج منها القرآن والشريعة الإسلامية.

واللافت للنظر أن هذه الكتابات صادرة في معظمها عن رجال الدين التابعين للكنيسة، وأنها ظهرت إلى الوجود في أوج الحروب الصليبية التي كان

=مركز دراسات العالم الإسلامي. مالطا. ط ١. ١٩٩١م. ج ١. ص ٤٣.

أوارها مشتعلا بين المسلمين وجيوش أوروبا في فلسطين والشام. حيث كانت هذه الجيوش بحاجة إلى تعبئة روحية مستمرة لتقوى على الاستمرار، وقد أمدتها الكنيسة ومن سار في فلكها من المؤرخين والكتاب والقصاص بما تحتاجه من تهيج وتحريض ضد الإسلام ونبيه.

وظلت الصورة المشوهة تزداد تشوها وتترسخ أكثر فأكثر على مر القرون، حيث نقابل في القرن الرابع عشر توما الأكويني Thomas D'Aquin (١٣٧٧م) الذي يؤكد ما قاله سابقوه، ويزعم أن عقيدة محمد مقتبسة كلها من النصرانية. وعندما حاول الكاتب أليساندرا داكونا Dacona خلال هذا القرن (١٤م) أن ينقد الروايات والقصص والأساطير التي قيلت عن الرسول ﷺ طيلة القرون الأربعة السابقة عليه، انتهى بعد دراسة طويلة إلى خلاصة مفادها: «أن محمدا إما مسيحي، أو متعلم على يد مسيحي، وأن الإسلام ما هو إلا تشعب هرطقي عن المسيحية»^(١). ومضى القرنان الخامس عشر والسادس عشر على هذا الحال، حيث لم تتغير صورة النبي الكريم في الأذهان على الرغم من النهضة الفكرية والعلمية والأدبية التي شهدتها أوروبا.

(١) عبد الرحمن بدوي. دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقسين من قدره. ص ١٦.



بل إن زعيم المذهب البروتستانتي مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) الذي ناصب الكنيسة الكاثوليكية العدا، تهجم على الإسلام باعتباره انحرافا وهرطقة، واتخذ منه سبة يصم بها الكنيسة ويتهمها بأنها قد بلغت في الانحراف والفساد والبعد عن الهداية المقدار نفسه الذي بلغه الإسلام، وكان من أوائل الذين صاغوا نموذجا جديدا للموقف من الإسلام، مستخدما إياه كنموذج سلبي في جداله العنيف مع الكاثوليكية حيث يقول: «البابا والإسلام يشكلان - من حيث الجوهر - العدوين اللدودين للمسيح وللكنيسة المقدسة، ولكن إذا كان الإسلام يمثل جسد المسيح الدجال، فإن البابا هو رأسه»^(١)، ولم يتردد في الإساءة إلى رسول الله ﷺ حيث كتب في إحدى مقالاته: «إن محمدا هو الشيطان، وهو أول أبناء إبليس، وإنه كان مصابا بالصرع، وكانت الأصوات التي يسمعها كأنها وحي جزء من مرضه»^(٢)، وكان مصطلح الصرع في القرون الوسطى معناه أن الرجل تسكنه الجن، كما وصف تعاليمه بأنها سموم شيطانية، وأنه صائد المومسات الدائر في فلك الشيطان، وأن القرآن كتاب ملعون فظيع

(١) أليكسي جورافسكي. الإسلام والمسيحية. ص ٩٨.

(٢) عبد الرحمن بدوي. موسوعة الفلسفة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. ط ١.

ميؤوس منه، وهو مملوء بالأكاذيب والخرافات.

ومع إطلالة القرن السابع عشر ظهر الفيلسوف الكبير فرانسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١ - ١٦٢٦م) صاحب المنهج التجريبي الشهير ليردد بكل بساطة ما قيل عن رسول الله من أنه رجل مخادع وماكر في مقالة من مقالاته سماها «الخدعة». وتابعه في ذلك هوجو دوجروت Hugo De Groot الذي يعد من أعظم العقليات الأوروبية في زمنه، والذي أسهمت أعماله القانونية المتميزة في تغيير القانون الدولي لفترة طويلة، حيث ألف «رسالة عن حقيقة الدين المسيحي» عام ١٦٢٧م ملأها بالمطاعن والأكاذيب والسخرية المرة من الرسول عليه الصلاة والسلام، وتوصل إلى أن محمدا إذا كان قد حاز الشهرة: «فإنه قد اشتهر بسرقاته واغتصاباته وفواحشه، وأنه جاء ليتبعه الناس ليس بسلطان معجزاته ولكن بقوة جحافله، وأن دينه لم يأت إلا ليخضب الأرض بدماء مخالفه»^(١).

وبقيت هذه الصورة النمطية سائدة في جميع الأوساط، قاعدتها الأساسية خرافات شفهية وقصص مختلقة وأكاذيب لا يقبلها العقل ولا تصمد أمام المنطق، لأن الأوروبيين طيلة هذه المدة لم يجرؤوا على الاقتراب من المصادر

(١) عبد الرحمن بدوي. دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقنين من قدره. ص ٢٢.



الإسلامية والاطلاع عليها، واكتفوا بما أملت عليهم أهواؤهم وما تفتقت عنه أذهانهم من أوهام أشاعوها بين الناس ثم صدقوها، حتى غدت بمثابة حقائق لا تقبل الجدل ولا تخضع للنقض.

أما كتاب هوتنجر J.H.Hottinger «تاريخ الشرقيين والآثار الشرقية» الذي ظهر عام ١٦٥١ م، فقد مثل تحولا في الكتابات التي تتناول حياة رسول الله ﷺ وأعماله؛ لأنه ترك القصص والأساطير والحكايات المتداولة جانبا، وحاول الاعتماد على مجموعة من المصادر الإسلامية لسبر حقيقة الدين الإسلامي وتجليه سيرة نبيه. وعلى الرغم من اطلاعه على جملة من المصادر التي كان يفترض أن تجلي له الحقيقة الإسلامية كما هي لا كما صورتها له بيئته الثقافية، إلا أن ذلك لم يحدث، وظل رافضا لنبوة رسول الله ﷺ واصفا إياه في كل مرة بالنبي الكاذب، ومدافعا عن كاثوليكيته ضد البروتستانتية التي اتهمها بالاعتباس من الهرطقة الإسلامية. وسار على دربة هامفري بريدو Prideaux الذي ألف كتاب «حياة محمد المخادع» أو «محمد طبيعة الدجل الحقيقية»، ووضع قائمة طويلة بالكتب الإسلامية التي استفاد منها في تأليف كتابه، وأشار إلى أنه سيعمل جاهدا على القيام بعمل تاريخي دقيق للإسلام والطريقة التي تأسس بها في العالم دون أن يخلط بهذا التاريخ أيا من الأشياء العاطفية أو الأحكام المسبقة التي

انتشرت بين الأوروبيين^(١).

وعلى الرغم من أنه هاجم القصص الساخرة التي كان يتداولها الأوروبيون حول النبي الكريم، ووصفها بأنها: «يتنازعها المسيحيون البسطاء المتحمسون الذين يجهلون حقيقة الحدث ولذلك يلجأون إلى الأكاذيب بدافع التقوى العمياء لأولئك الذين يبحثون عن أسلحة خيالية لمهاجمة عدوهم»^(٢)، إلا أنه ملأ كتابه بالأضاليل والأكاذيب التي تدين رسول الله وتثبت خداعه للناس وزيف رسالته وتفاهة شريعته وتحالفه مع اليهود للقضاء على النصرانية، ولم يتردد في اتهامه بالشهوانية المفرطة والعنف المتوحش حيث يقول: «كان الشطر الأول من حياة محمد يتسم بالإباحية الشديدة والآثام العظام الباغية، وكان يجد متعة كبيرة في السلب والنهب وإهراق الدماء. كانت النزعتان اللتان تملكان لبه هما الطموح والشهوة، وكان السبيل الدموي الذي سلكه لبناء الإمبراطورية دليلاً ساطعاً على النزعة الأولى، وكانت زوجاته الكثيرات دليلاً قاطعاً على النزعة الثانية، والواقع أن النزعتان تسيطران على إطار دينه برمته. ولا يكاد فصل من فصول القرآن يخلو من ذكر قانون من قوانين إراقة الدماء، أو ينص

(١) المرجع نفسه. ص ٣٢.

(٢) المرجع نفسه. ص ٣٧.



على الحرية المطلقة في معايشرة النساء»^(١).

لكنه لم يستطع في خاتمة كتابه أن ينكر الأثر العظيم الذي تركه محمد ﷺ، كما لم يستطع أن ينكر دماثة أخلاقه وخصاله الحميدة، فاضطر رغم أنفه للاعتراف بأن رسول الله قد: «امتاز بشجاعته وفطنة عقله، وعدم غروره بانتصاراته، وبدرجة عالية من المجد مما أغراه بأن يكون له مكان بين أعظم الثوار الذين عرفهم العالم، وقد أنشأ إمبراطورية في أربعة وعشرين عاما امتدت لتشمل المناطق التي تحتلها الإمبراطورية الرومانية منذ خمسمائة عام بل وأكثر منها، وقد استمرت تلك المملكة الواسعة لقرون عديدة وهي في أوج عظمتها»^(٢).

وظهر هذا الميل نحو كتابة سيرة النبي بشكل علمي أكثر وضوحا لدى أدريان رولاند Roland Adrian (١٦٧٦ - ١٧١٨ م) الذي ألف كتاب «عن الدين المحمدي وكتابه القرآن وخلاصة العقيدة الإسلامية»، وقد بدا الكاتب مدفوعا بحب الحقيقة والشعور بالعدالة التاريخية فحاول رسم صورة صادقة للإسلام ونبيه، ومناقشة الآراء الفاسدة السائدة عنهما في أوروبا، مقدما بين يديه

(١) كارين أرمسترونج. محمد: سيرة النبي. ترجمة: فاطمة نصر ومحمد عناني. شركة سطور. القاهرة.

(٢) عبد الرحمن بدوي. دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقسين من قدره. ص ٣٨ - ٣٩.

هذا التساؤل: إذا كان الإسلام دينا عابثا كما يصفه المسيحيون، فهل من الممكن أن يجد ملايين الأتباع عبر العالم؟^(١)، واقترح على قرائه أن يتركوا الفرصة للمسلمين أن يصفوا لهم دينهم بأنفسهم؛ لأنه لا يمكن أن يعاد تشكيل دين حسب أوصاف أعدائه، ثم دعا إلى نبذ جميع الأكاذيب والأحكام المسبقة التي نسجها الكتاب الأوروبيون حول محمد والقرآن، واستبدالها بحقائق واضحة حتى يتسنى للنصارى مهاجمة هذا الدين المبتدع وكشف عوراته والوقوف على المواطن التي تبين سرقاته من العهدين القديم والجديد، وبعده عن الديانة الصحيحة التي تمثلها المسيحية: «حتى نكون في حالة جيدة ووضع سليم نحن - المسيحيين - في حوارنا مع المسلمين بطريقة منطقية ومقنعة، وحتى نهاجمهم من الآن فصاعدا بشكل أكثر وضوحا وثقلا بعدد من الحجج والأدلة»^(٢).

وعلى الرغم من أن النظرة إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - وإلى الإسلام لم تتغير، إلا أن ركाम الخرافات والأساطير والقصص الساخرة والأكاذيب التي لا يقبلها العقل باتت مستبعدة - على الأقل - لدى النخبة المثقفة في أوروبا بعد هذه المرحلة، وإن ظلت على حالها عند الطبقات الشعبية

(١) المرجع نفسه. ص ٤١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٧.



الواسعة: «لذلك لم يكن بمقدور أحد بعد ذلك أن يجرؤ على ترديد الأساطير المتراكمة والأكاذيب التي نسجت في أوروبا منذ عشرة قرون دون أن يخاطر بأن يصبح أضحوكة المثقفين الأمناء»^(١).

بعد ذلك ظهرت على الساحة الفكرية الأوروبية طائفة المستشرقين الذين يمثلون مرحلة متميزة جدا في تشكيل صورة رسول الله ﷺ في الذهنية الغربية؛ بما سلكوه من أساليب ومناهج ألبسوها لبوس العلم. فقد مثل الاستشراق بحق الساعد الأيمن الذي شد أزر الكنيسة بقوة وعضدها في حربها ضد الإسلام، وفي تعمدتها تشويه صورة النبي الكريم؛ لأن ظهوره منذ البداية كان بقصد إيقاف التأثير الإسلامي في العالم الغربي، ثم تطور ليخدم مشروع تنصير المسلمين^(٢). حيث تفرغ المستشرقون الذين كانوا بمثابة جند النصرانية الشمالية ولسان الصليبية الأوروبية لدراسة الإسلام وتقديم نبيه للإنسان الغربي في صورة مشوهة بالغة الزيف: «وتعاونت الكنيسة مع ملوك أوروبا على شد أزر المستشرقين والتمكين لهم في مهمتهم التي كان نصفها الأول سياسيا ونصفها

(١) المرجع نفسه، ص ٤٨.

(٢) عبد الله محمد الأمين النعيم. الاستشراق في السيرة النبوية. منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي. فرجينيا. الولايات المتحدة الأمريكية. ط ١. ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م. ص ١٨.

الآخر تبشيراً تعصبياً»^(١).

وتواتر سيل المؤلفات الاستشراقية حتى باتت تعد بالآلاف، وقد بلغت في الفترة من ١٨١١ إلى ١٩٥٠ م: «ستين ألف كتاب تعنى بالشرق العربي وحده»^(٢)، وقد أسهمت جميعاً في ترسيخ المفاهيم الخاطئة التي تشبع بها الغربيون عبر العصور. ولا عجب في ذلك، فقد كان المستشرقون في غالبيتهم العظمى رباب الكنيسة وتلامذتها المخلصين، ومن أشد الناس تعصباً للنصرانية، وقد ورثوا منذ طفولتهم كره الإسلام واحتقار نبيه، ومن الطبيعي أن تؤثر هذه الموروثات جميعاً في مواقفهم وتوجهاتهم، وأن تضغط على اللاوعي الباطني فتحول دون علميتهم وموضوعيتهم، ومن هنا اكتسبوا مصداقيتهم لدى الشعوب الأوروبية، فكل مستشرق: «مأمون عند كل أوروبي من أول طبقة الرهبان والساسة إلى آخر رجل من جماهير الناس، مأمون على ما يقوله، مصدق فيما يقوله»^(٣). وبذلك كان للاستشراق: «أكبر الأثر في صياغة التصورات

(١) نجيب العقيقي. المستشرقون. دار المعارف. القاهرة. ط ٤. ١٩٨١ م. ج ٣. ص ٦١٣.

(٢) مصطفى نصر المسلاقي. الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين. دار اقرأ. طرابلس. ليبيا. نوفمبر ١٩٨٦ م. ص ٧٣.

(٣) عبد العظيم محمود الديب. المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي. سلسلة =



الأوروبية عن الإسلام وفي تشكيل مواقف الغرب إزاء الإسلام على مدى قرون عديدة^(١). أما المستشرقون اليهود فإن عداءهم للإسلام وللرسول - عليه الصلاة والسلام - معروف ومشهور، وجهودهم في هذا المضمار مفهومة ومعلومة.

لذلك فإن الموجة الاستشراقية التي تسلحت بالعلم والمناهج الحديثة في الدراسة والتحليل والاستنتاج لم تأت بجديد، بل إنها استبدلت الحكايات الخرافية والقصص الساخرة التي كانت تتداول عن النبي الكريم والتي ثبتت أسطوريتها وسذاجتها، بنسيج جديد من الاتهامات العدائية، والهجوم الشرس الذي يتستر بالمنهج العلمي ويختبئ تحت عباءة الحقيقة، لذلك كان أشد فتكا من سابقه لأنه يجادل بالباطل ليدحض به الحق: «إن المستشرقين على الرغم من مظهريتهم العلمية والموضوعية كانوا أكثر تشبعا بالأحكام المسبقة. إن مسؤوليتهم في هذا الصدد لأثقل ألف مرة من مسؤولية أسلافهم في القرون الخوالي في أوروبا والذين لم يتوفر لديهم أي مرجع أصلي ومؤكد بينما كان في متناول أيدي هؤلاء تقريبا كل المصادر القادرة على إرشادهم كما أن جانباً كبيراً

= كتاب الأمة. رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية. قطر. ط ١. ربيع الثاني ١٤١١هـ. ص ٤٠.

(١) عبد العظيم محمود الديب. المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، ص ١٤.

من تلك المراجع نشره أقرانهم من الأوروبيين بكثير من العناية^(١).

ومن أشهر المستشرقين الذين درسوا السيرة النبوية والحديث الشريف (جولدزيهر E.G. Goldziher) و(جوزيف شاخت J. Schacht) والمستشرق البريطاني (وليم منتغومري وات W.Montgomery Watt) الذي أكد ما أشاعه سابقوه من أن الإسلام مجرد تلفيقات يهودية ونصرانية استقاها الرسول ﷺ من ورقة بن نوفل المسيحي، ثم - لاحقاً - من الجالية اليهودية بالمدينة، وأن نبوته لا تعدو أن تكون من إبداع خياله الخلاق الذي استطاع أن يبتكر أفكاراً لها صلة عميقة بقضية الوجود البشري، وأن لجوءه إلى غار حراء الذي ادعى أنه نزل عليه الوحي فيه إنما كان فراراً من حر مكة، وعندما استجاب له العرب رأى أن حل المشكلة الاقتصادية يتمثل في التوسع على حساب الدول المجاورة فاخترع قصة عالمية الدعوة، وهو في عرضه لجميع أحداث السيرة النبوية: «يشك فيما هو أقرب إلى الصدق، ويصدق ما هو أقرب إلى الكذب، والموقفان في حقيقة الأمر وجهان لعملة واحدة هي عملة النقد الذي يتجاوز حده الإيجابي إلى الهدم والنفي والتشكيك»^(٢).

(١) عبد الرحمن بدوي. دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقذين من قدره. ص ٤.

(٢) مجموعة من المؤلفين. مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية. مكتب التربية =



ومنهم - أيضا - المستشرق الألماني (كارل بروكلمان Carl Brokelmann) الذي زعم بدوره اقتباس النبي لأصول دعوته من اليهود والنصارى، وأضاف إليها تأثيرات الفرس والآراميين والبابليين، وفسر نبوته بأنها فكرة اختمرت ونضجت في نفسه ثم أيدها بما أعلن للناس من أنه سمع شيئا عزاه إلى الوحي السماوي، وأن هدفه الأكبر والنهائي كان السيطرة على بلاد العرب، ثم تطلع إلى أبعد من ذلك فخرج على أتباعه بفكرة عالمية الدعوة، وأنه أعلن الحرب على مخالفه ليحل المشكلة الاقتصادية التي كانت تعصف بأتباعه في المدينة، حتى أنه استحل القتال في الأشهر الحرم بعد أن عجزت أطماعه عن مقاومة إغراء الغنائم العظيمة التي جعل لنفسه منها نصيبا مهما، وعندما فشل في تحقيق أهدافه في الحديبية قاد المسلمين في حملة عسكرية على المستعمرة الغنية خيبر^(١).

ومنهم المستشرق الفرنسي (كلود إتيان سافاري Claude Etienne Savary) الذي كتب (حياة محمد) كتمهيد لترجمة للقرآن الكريم إلى الفرنسية، وهو يقرر بكل ثقة أن الرسول ﷺ بعد أن رأى أحوال جزيرة العرب المتردية

=العربي لدول الخليج. الرياض. ١٩٨٥ م. ج ١، ص ١٥٩.

(١) عبد الله محمد الأمين النعيم. الاستشراق في السيرة النبوية. منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ص ٤٨-٥١.

عكف على إرساء أسس مجده المستقبلي بأن فكر في الخروج على قومه بكتاب إلهي مثل توراة موسى وإنجيل عيسى؛ فألف القرآن وأداره على نظم بديع أدهش العرب بصوره البيانية بدل أن يقارعهم الحجة بالحجة، ودبر حيلة أصبح بمقتضاها يظهر عددا محدودا من آيات القرآن، واستمر على ذلك مدة ثلاث وعشرين سنة، وبهذا الاحتياط أصبح يتحكم في حديث السماء ليجعل الآيات تتساق مع الظروف والملابسات، كما أنه تظاهر بأنه لا يعرف القراءة والكتابة، واعتمد في ذلك على مواهبه المتدفقة، وتصنع لهجة النبي المؤثرة، وأعلن للناس أن معلمه هو جبريل، وقد ساعدته مواهبه المتميزة وعبقريته الفذة في أن يسيطر على العقول والنفوس ويوهمهم بنبوته واتصاله بالسماء، وظل يمثل هذا الدور بكل براعة حتى وهو في سكرات الموت^(١).

إن الدور الخطير الذي لعبه المستشرقون في تثبيت عداء الأوروبيين للنبي ﷺ، وتغذية مخزون الحقد والكراهية الذي تجمع خلال قرون عديدة في أعماق نفوسهم قد أسهم إسهاما كبيرا في إبعاد أوروبا عن المصادر العلمية الحقيقية التي تكشف لهم عن عظمة رسول الله، وثبت لهم دلائل صدق نبوته

(١) راجع: محمد عبد العظيم علي. السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون. دار الدعوة للنشر والطبع والتوزيع. الإسكندرية. ط ١. ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.



وعالمية دينه وسمو قرآنه، ولا غرو: «فمن الصعب على معظم المستشرقين النصارى المشتغلين بدراسة الإسلام - وأكثرهم متدينون - أن ينسوا أنهم يدرسون ديناً ينكر عقائد أساسية في النصرانية، ويهاجمها ويفندها، مثل عقيدة التثليث، وعقيدة الصلب والفداء. كما أنه من الصعب عليهم أن ينسوا أن الدين الإسلامي قد قضى على النصرانية في كثير من بلاد الشرق وحل محلها»^(١). وهي الحقيقة التي يسجلها أليكسي جورافسكي حين يصرح أنه: «في الوقت الذي يؤكد فيه (علم الإسلاميات) الغربي سعيه الحثيث لتفكيك (الأساطير) و(الحكايات الخرافية) و(القصص السخيفة) المتداولة في التراث الديني الشرقي، نجد أن (علم الإسلاميات) هذا شكّل بدوره عدداً ضخماً من الأساطير والخرافات الغربية الجديدة حول الإسلام، ولم يفعل شيئاً مهماً سوى أنه أضفى صبغة علمية على الأضاليل القديمة، والخرافات والقوالب النمطية الغربية العتيقة عن الإسلام. ومن هنا يلاحظ أي باحث موضوعي أن الأغلبية المطلقة من مستشركي القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لم يتخلصوا من المواقف المسبقة الموجهة ضد الإسلام، سواء أكان عداؤها صريحاً مباشراً

(١) محمود حمدي زقزوق. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. سلسلة كتاب الأمة. رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية. قطر. ط ٢. صفر الخير ١٤٠٤ هـ. ص ٧٢.

وعنيفا، أم كان يتسم بعدم الارتياح تجاه الشعوب الإسلامية^(١). ويمكن اعتبار موجة الاستشراق هي آخر مرحلة انتهى عندها التشكيل التاريخي لصورة الرسول ﷺ، بسبب كثرة مؤلفاتهم في هذا المجال، وامتداد جهودهم لفترة طويلة تجاوزت النصف الثاني من القرن العشرين، واكتفاء أوروبا بما ورثت من ذاكرتها الشعبية التي تأسست خلال القرون الوسطى، وبما قدم لها المستشرقون من معلومات ترضي غرورها وتروي حقدتها على الرسول الكريم، وتعطي الشرعية الكاملة لأعمالها العدوانية ضد المسلمين. لقد أصبح الأوروبيون - بعد هذه المرحلة - مفعمون عن بكرة أبيهم بالاستشراق، وهم لا يفتأون ينهلون من مكتبته الصلبة والصلدة التي كونها عن الإسلام بعامة ونبيه ﷺ بخاصة.

(١) أليكسي جورافسكي. الإسلام والمسيحية. ص ١٠٥.



ثانياً: صورة النبي ﷺ في الفكر الأوروبي، تحليلاتها ومظاهرها.

إن الشكل الذي اتخذته صورة الرسول ﷺ في المخيلة الأوربية نابع في أصله من نظرة أوروبا إلى الإسلام. ذلك أن الأوروبيين - منذ اللحظة الأولى - التي تعرفوا فيها إلى هذا الدين أنكروا - جملة وتفصيلاً - مصدره الإلهي، ونفوا نفياً قاطعاً أن يكون هناك وحي نزل من السماء بعد المسيح ﷺ؛ لأن العقيدة الراسخة التي تسكن قلوبهم أن النصرانية هي الدين الوحيد الذي يملك الحقيقة المطلقة لأن مصدره هو ابن الله الذي تجسد في المسيح عيسى ﷺ، وكل ما يخالفه فهو ضلال وباطل.

لذلك كان من الطبيعي أن أول انطباع يأخذونه عن الرسول ﷺ هو أنه كاذب في ادعاء النبوة. وقد مثل هذا المفهوم المحور الأساس الذي بنيت عليه جميع المفاهيم التي شكلت في مجملها صورة النبي في أوروبا. وقد نشط خيال النصارى من الرهبان في المقام الأول - إذ كانوا هم الطلائع الذين قادوا حملة التكذيب والتشكيك - لشرح الظاهرة الإسلامية التي انبثقت فجأة من قلب الصحراء العربية، وتبرير انتصار أتباعها الساحق على القوى العالمية، وإحكام سيطرتهم على أقطار شاسعة من العالم في زمن قياسي. وقد تفتق عن هذا الخيال عدد كبير من القصص التي حاولت رسم مسيرة رسول الله ﷺ، وتفسير

اندفاع المد الإسلامي واستقراره في قلب العالم، بهدف توفير إجابات شافية لمئات التساؤلات التي ملأت العقول والأذهان الحائرة والمتخوفة والمتربكة.

إن المعلومة الأساسية التي حرص أقطاب النصرانية على غرسها في نفوس الشعوب والحكام على السواء هي أن الإسلام ليس ديناً مثل بقية الأديان السابقة، بل هو محاولة شيطانية من بعض النصارى المنحرفين لشق الصف النصراني وإحداث البلبلة بين المؤمنين، فهو لا يعدو أن يكون هرطقة نصرانية تزعمها راهب فاسق أراد أن ينتقم من البابا الذي أهانه فعلم محمداً تعالىم العهدين القديم والجديد، وأضاف إليهما بعض الأكاذيب والأساطير ثم خرج على الناس بالقرآن.

وقد اتخذ هؤلاء من قصة الراهب بحيرى الذي قابله رسول الله ﷺ في إحدى رحلاته التجارية إلى الشام وتوسم فيه سمات نبي آخر الزمان منطلقاً لتأكيد ادعاءاتهم، وألصقوا بهذا الراهب جميع المساوئ الأخلاقية والصفات الدنيئة والسلوكات الشاذة المنحرفة، ونسجوا حوله ركائماً من الأساطير التي تصوره تارة راهباً مطروداً من الكنيسة بسبب فجوره، وتارة أخرى عالماً واسع المعرفة بالدين وعندما حُرِمَ من كرسي البابوية سلم علمه إلى محمد ليشوش على النصارى وينتقم منهم، وتارة أخرى راهباً طرده بطريرك الإسكندرية فتوجه إلى



الجزيرة العربية ليخترع هذا الدين الجديد، وفي كل الأحوال فهو المصدر الذي ألهم النبي العربي وأرشدته إلى ما يقول ويفعل، بل إن أحد الرهبان الإسبان ذهب إلى أن الشيطان أدرك أن قدراته الذاتية عاجزة عن وقف انتشار النصرانية في الشرق، فاخترع كتابا يمثل حلقة وسطى بين العهدين القديم والجديد، واستخدم لأجل هذه الغاية الشريرة وسيطا من طبيعة الشيطان ذاته، أما الكتاب فهو القرآن، وأما الوسيط فهو محمد الذي يجسد دور المسيح الدجال^(١).

وبذلك استقرت في أعماق الأوروبيين حقيقة لا تقبل الجدل، هي أن الإسلام دين زائف، تعاون المنحرفون والفساق والشياطين على صياغته للوقوف في وجه النصرانية الحققة ومحاربتها حتى لا تسود العالم: «إن المسيحيين الذين يعتقدون أن لديهم وحدهم العقيدة الصحيحة، والذين كان يحكى لهم أن هذا الراهب الهرطقي قد ساهم في ميلاد الإسلام كان لا بد أن يعتبروا الإسلام ليس كدين جديد، ولكن كانشقاق جديد عن المسيحية، وأنه إغراءات شيطانية وبواعث بشرية لأطماع نهمة وغرور لا حدود له»^(٢).

(1) Philippe Hitti. Islam and the West. A historical survey. London. 1962. p 50

(٢) عبد الرحمن بدوي. دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقسين من قدره. ص ١٨.

وبعد أن وقرت هذه المعلومات في العقول والقلوب، وجد الخيال الأوروبي متنفسا واسعا لتصوير الرسول ﷺ كما تسول لهم أهواؤهم المريضة. وكان لابد أن يعطوا تفسيراً واضحاً لكثرة أتباعه، وانتشار دينه، والقوة العسكرية والسياسية والاقتصادية التي اكتسبها في أقل من قرن؛ فأرجعوا إيمان الناس به إلى ما كان يتميز به من قدرة فائقة على السحر واستدعاء قوى الشر والخداع، فهو ساحر شرير، وخداع ماهر، وماكر خبيث درب حمامة لتقع على كتفه وتنقر الحب من أذنه ليوهم الناس أنها ملك يوحى إليه، وأخرج لهم ثورا أبيض روضه منذ زمن بعيد قرب عين ماء ووضع بين قرنيه كتابا هو القرآن، يقول جورافسكي إن الأوروبيين قد: «ألبسوا محمداً قوة ماردة جبارة ذات منشأ جنى أو سحري عظيم، أكسبته قدرات فائقة على خلق عجائب خيالية وهمية؛ لجذب الجهلة وعامة الناس ومحدودي الأفق»^(١).

وعندما اندهش الناس من هذه المعجزات آمنوا به واتبعوه فوضع لهم شريعة منحرفة أحل لهم فيها كل الموبقات والفواحش والشهوات المحرمة. وكان مسكونا بالشياطين، لذلك كانت تتباه حالات إغماء وصرع، يزعم أنها

(١) أليكسي جورافسكي. الإسلام والمسيحية. ص ٧٥.



أعراض اتصاله بالسماء. وقد كيف المستشرقون هذه الحكاية لتبدو أقرب إلى العقل وأسهل للتصديق. حيث استغلوا أحداث السيرة التي تصور حالة الرسول ﷺ حينما يأتيه الوحي، واستنتجوا بخيالهم المريض أن هذه الأعراض تؤكد إصابته بمرض الصرع. وحتى لا يظهر أمام أتباعه بمظهر الضعف؛ أو همهم أنه أثناء هذه النوبات يغيب عن الوعي ليتلقى وحي السماء^(١).

إن تأملنا في ركام القصص والروايات التي حيكت حول الرسول ﷺ في الخيال الأوروبي تدلنا على وجود ثلاثة محاور كبرى تدور حولها، ولا تفتأ تكررهما. أولها الوثنية، وثانيها الشهبانية، وثالثها العنف. أما بالنسبة للوثنية، فقد استقر في أعماق الغربيين أن المسلمين طائفة وثنية تعبد الأصنام ولا تعرف الخالق، وأن النبي ﷺ قد صنع له الشيطان تمثالا من ذهب، يخرج له بين الحين والآخر ليسجد له، وأنه نبي مزيف لا يملك سوى الادعاءات والأضاليل، وهو ساحر ومعاد للمسيح: «بل هو الشيطان ذاته، وصُورَ الإسلام على أنه نوع جديد من الهرطقة (اليهودية أو المسيحية) أو على أنه ضرب جديد من الوثنية»^(٢).

(١) راجع تفاصيل ذلك في: محمد حسين هيكل. حياة محمد. دار المعارف. القاهرة. ط ١٤. ص ٥٧ وما بعدها.

(٢) أليكسي جورافيسكي. الإسلام والمسيحية. ص ٦٠.

أما اتهام النبي بالعنف، فقد وجد له متسعا فسيحا في كتابات الأوروبيين. وقد صوروه متجولا في أرجاء الجزيرة العربية مع أتباعه الغلاظ الشداد يبحثون عن المعارك والغنائم والأسرى والمزيد من الزوجات. ثم رأوا أن الدليل الدامغ على دموية الرسول ﷺ، وتعطشه إلى الحرب والقتال قد توفر لديهم حينما صوروا جيوش الفتح التي نشرت الإسلام في ربوع العالم على أنها جحافل الظلام المتوحشة، وأن جنودها قد رباهم محمد (أمير الظلمات) على الخشونة والفظاظة والشراسة، وأطلقهم على الشعوب الآمنة فنهبوا ونكلوا بها، وزرعوا في طريقهم التعاسة والشقاء، ودنسوا قبر المسيح، وقتلوا أعداد غفيرة من النصارى شهداء الإيمان الذين سقطوا ضحايا الغزو الإسلامي^(١)، وبذلك اعتبر العنف واستعمال القوة الطاغية: «عنصرا مؤسسا للديانة الإسلامية، وعلامة بديهية على الضلال»^(٢). وقد صور (دانتي Dante) في الكوميديا الإلهية الرسول - عليه الصلاة والسلام - تركيبا ساليا متصلبا من الشرور، وجعله يقبع في الخندق التاسع من الجحيم وبرر ذلك بأن: «هذا الجزء قد تم تخصيصه لمثيري

(١) محمد نور الدين أفاية. الغرب المتخيل، صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط.

(2) Norman Daniel. Islam et Occident. traduit par: Alain Spiess. Ed du Cerf.Paris. 1993. p 151



الصدامات والانشقاقات الدينية والسياسية، ولمن يزرعون الفتن فيحصدون الأوزار، ولناشري الفضيحة والفتنة، وعقابه ومصيره الأبدى أن يقطعه الحارس الشيطان إلى نصفين مثل برميل تمزقت أضلاعه»^(١).

وصور المؤرخ إدوارد جيبون Edouard Gibbon المسلم الذي رباه الرسول ﷺ في صورة بدوي يركب حصانا، ويحمل في إحدى يديه سيفاً وفي الأخرى كتاباً هو القرآن، مخيراً ضحاياه بين الاثنين: إما الإسلام وإما القتل بحد السيف^(٢). بينما أكد الفرنسي فولني Volny أن محمداً لم ينشر في العالم سوى عمليات القتل والاغتيال والتعصب والعنصرية والتي هي مصادمة لكل معاني العدل^(٣)، وذهب المستشرق سبرنجر Sprenger بعيداً في التعبير عن حقه الدفين ومشاعره العدائية فقال: «إن الإسلام مجموعة إلحاد من عمل الشيطان، وإن نبي الإسلام العربي الماكر الوسخ أفاق وخادع، ولص نياق خليع وساحر،

(١) باسم خفاجي. لماذا يكرهونه؟ الأصول الفكرية لعلاقة الغرب بنبي الإسلام ﷺ. كتاب

البيان. الرياض. ط ١. ١٤٢٧ هـ. ٢٠٠٦ م. ص ٢٩.

(2) Edouard Gibbon. Decline and fail of the Roman empire.ed by J.B. Bury.London. 1909 – 1914.vol 5. p 3321

(٣) محمد محمد أبو ليلة. محمد بين الحقيقة والافتراء. دار النشر للجامعات. القاهرة. ط ١.

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م. ص ٤٤.

كان رئيس عصابة من قطاع الطرق، وكان مصابا بالهستيريا والجنون، مات في نوبة سكر وأكلت جثته الخنازير، وإن المسلمين مجموعة من الوحوش»^(١).

وجاء البابا بنديكت السادس عشر Benedict XVI في القرن الواحد والعشرين (٢٠٠٦ م) ليلقي محاضرة على مسامع جمع من العلماء الألمان استهلها بنص اقتبسه من إحدى الكتب يقول فيه صاحبه: «أرني ماذا قدم محمد من جديد وسوف لن تجد إلا أمورا شيطانية وغير إنسانية، مثل أوامره التي دعا إليها بنشر الإيمان عن طريق السيف»^(٢). ولم يتوان رئيس حزب التقدم المسيحي النرويجي كارلي هاغن عن ترديد ما قاله أسلافه وما يتداوله معاصروه من أن الرسول ﷺ داعية للعنف ولنشر الإسلام بحد السيف؛ حيث استشهد في اجتماع موسع لجمعية الكلمة الحية بقول المسيح ﷺ: «دعوا الأطفال الصغار يأتون عندي» ثم أضاف: «أنا لا أعرف قولا مشابها لمحمد، فهو قال دعوا الأطفال يأتوا إلي لكي أستطيع استخدامهم في الحرب لأسلمة العالم»^(٣). ولم تكن الصور

(١) سيرنجر. حياة محمد وعمله. ج ١. ص ٢٠٧. نقلا عن: عبد الحليم محمود. أوروبا والإسلام. المكتبة العصرية. بيروت. ص ٨٩.

(٢) باسم خفاجي. لماذا يكرهونه؟ الأصول الفكرية لعلاقة الغرب بنبي الإسلام ﷺ. ص ٣٩.

(٣) منتديات صوت فلسطين. موسم التحامل على الرسول محمد ﷺ في الغرب.



الكاريكاتورية التي نشرتها الصحيفة الدنمركية - في شكلها العام - سوى تعبيراً عن رسوخ هذه الصورة في عمق الإنسان الأوروبي، حينما جناح أغلب الرسامين إلى تصوير الرسول ﷺ في صورة الإرهابي المقاتل العنيف الذي يحمل القنابل والسيوف والبنادق.

ومثلما وجد الأوروبيون ذرائعاً للإصاق تهمته العنف بالنبي ﷺ وأتباعه وجدوا، مرتعاً خصباً لاتهامه بالشهوانية والشبقية، والمغالاة في طلب اللذة الجنسية، وإطلاق غرائزه في التمتع بالنساء بلا حدود؛ مستغلين بذلك زواجه بعدد من النساء، وإباحة الشريعة للرجال أن يجمعوا أربع نساء في عصمتهم: «وقد جعلت الآلة الدعائية من هذا الموضوع الحجة الجوهرية على عدم مقبولية ادعاء الإسلام بأن يكون نتيجة وحي رباني، وتم التعامل معه بوصفه الدليل الأكثر أهمية للرفض المسيحي للإسلام»⁽¹⁾. وعمل رجال الكنيسة ومن ورائهم الكتاب والشعراء على بناء سيرة للنبي - عليه الصلاة والسلام - من وحي أوهامهم، وانتزعوا من أحداث السيرة بعض الوقائع انتزاعاً، ووضعوها في قالب خيالي وأضفوا عليها مقداراً كبيراً من التهويل والتضخيم لتوليد النفور والاشمئزاز في النفوس، وانخرطوا إلى أبعد مدى في معمعة التجريح والانتقاص والتشويه.

(1) Norman Daniel. Islam et Occident.p 115.

والأمثلة على ذلك كثيرة، ولا تكاد تحصى، نذكر منها أنموذجا واحدا يتمثل فيما رواه (بيير باسكاسيو Pierre Pascassio) من أن محمدا قد وقع في حب امرأة يهودية، وقد دعته في إحدى الليالي إلى مخدعها، ثم قامت هي وأهل ملتها بقتله، وبترت يده اليسرى واحتفظت بها، ورمت جثته وليمة للخنازير^(١)؛ لذلك حرم المسلمون على أنفسهم أكل لحم الخنزير إكراما لذكراه. وكل هذه القصة المختلقة مأخوذة من حادثة المرأة اليهودية زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم التي أهدت إلى رسول الله ﷺ شاة مصلية بعد عودته منتصرا من غزوة خيبر وحشتها بالسّم وأكثرته منه في الذراع لعلمها بحب رسول الله ﷺ لهذا العضو، فلما ذاقه عليه الصلاة والسلام لفظه وقال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم، ثم دعا بالمرأة فاعترفت بفعلتها وبررت ما أقدمت عليه برغبتها في الانتقام من النبي لما لحق قومها من اليهود من هزيمة على يديه، لكن رسول الله ﷺ عفا عنها، على الرغم من أن الصحابي بشر بن البراء قد مات بعد أن أكل من الشاة المسمومة^(٢)، فتحوّلت هذه القصة على أيدي المستشرقين إلى مجموعة من الافتراءات والبهتان.

(١) عبد الرحمن بدوي. دفاع عن محمد ﷺ ضد المتقصين من قدره. ص ١٢.

(٢) راجع: ابن هشام. السيرة النبوية. ج ٣ - ص ٣٥٢-٣٥٣.



وعندما تطورت الدراسات التي تهتم بالإسلام ونبيه على يد المستشرقين وأخذت طابعا علميا، بقيت التهمة هي نفسها ولكنها أخذت أبعادا أخرى عندما تم استغلال أحداث السيرة بشكل مفتعل يدل على سوء النية وخبث الهدف، ومن ذلك قصة زواج الرسول ﷺ من ابنة عمته زينب بنت جحش، حيث حولتها مجموعة من المستشرقين إلى رواية عاطفية حينما صوروا رسول الله قاصدا بيت زيد ابنه بالتبني فلم يجده هناك، ولمح زوجته زينب في بيتها عارية ومغرية فعشقها، وتناقل الناس الحكاية، فاضطر زيد إلى تطليقها، وحتى يجد النبي مبرا للزواج منها تدخل الوحي لإلغاء التبني وإلقاء زينب بين ذراعي النبي^(١)، ولم يفت هؤلاء - المفترين - أن يعلقوا على ذلك قائلين إن محمدا قد جعل الوحي في خدمة شبقه الجنسي^(٢).

واستخلصت الذهنية الأوروبية من ركام الأقاوص التي تدور حول علاقة النبي عليه الصلاة والسلام بالمرأة ونظرته إلى الجنس أنه: «رجل شبق ينغمس في عوالم اللذة بشكل عبثي، يقول بتعدد النساء وبالتمتع بالحياة معهن. وفي عرف المسيحي الداعي إلى الورع والتقشف والتعالى عن اللذة والامتناع عن

(١) عبد الرحمن بدوي. دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقنين من قدره. ص ٨٠ - ٨١.

(٢) المرجع نفسه. ص ٧٣.

الزواج، يمثل هذا السلوك قمة التفسخ والانحلال الأخلاقي»^(١)، لذلك لا نستغرب حين يتهم الكاهن السويسري رينار سوغارد Runar Sögaard في تصريح لجريدة أفتون بلادت Aftonbladet عام (٢٠٠٦م) الرسول ﷺ بأنه مرتبك المزاج، ومزواج يجب النساء، وخاصة الصغيرات منهن، وأنه تزوج فتاة في التاسعة من عمرها، وأن كتب التاريخ تحدثنا عن وله بهذا النوع من الفتيات^(٢)؛ لأنه يعبر عن موروث تناقلته الأجيال النصرانية عبر القرون، وعدته حقيقة تاريخية لا تقبل النقض.

وقد لخص المستشرق الفرنسي إرنست رينان Ernest Renan في سطور قليلة بشاعة الصورة التي رسمها الأوربيون للنبي الكريم، وزيف التاريخ الذي كتبوه عنه فقال: «لقد كتب المسيحيون تاريخاً غريباً عن محمد... إنه تاريخ يمتلئ بالحق والكراهية له، لقد ادعوا أن محمداً كان يسجد لتمثال من ذهب كانت تحبته الشياطين له، ولقد وصمه دانتي بالإلحاد في رواية الجحيم، وأصبح اسم محمد عنده وعند غيره مرادفاً لكلمة كافر أو زنديق، ولقد كان محمد في نظر

(١) محمد نور الدين أفاية. الغرب المتخيل، صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط.

(٢) منتديات صوت فلسطين. موسم التحامل على الرسول محمد ﷺ في الغرب.



كتاب العصور الوسطى تارة ساحرا، وتارة أخرى فاجرا شنيعا، ولصا يسرق الإبل، وكاردينالا لم يفلح في أن يصبح بابا؛ فاخترع دينا جديدا أسماه الإسلام لينتقم به من أعدائه، وصارت سيرته رمزا لكل الموبقات وموضوعا لكل الحكايات الفظيعة»^(١).

ومما سبق ندرك أن الأوروبيين عندما تصدوا للتعريف بالإسلام ونبهه لم يكونوا ينشدون الحقيقة لوجه الحق، ولم يكن فضولهم المعرفي هو قائدهم، بل كانوا يتعمدون تشويه الحقائق وقلبها وتزييفها عن سبق إصرار واضح؛ حتى يحموا أنفسهم وشعوبهم من غائلة الامتداد الإسلامي الذي بدا لهم كالبيع الذي يلتهم كل شيء في طريقه: «لم يكن الأمر يتعلق بفضول معرفي أو بإرادة للمعرفة، وإنما بخضوع الآخر - الإسلام - إلى أكثر معايير المتخيل قدرة على قلب الأمور وتشويه الوقائع والتشويش على العقل»^(٢).

وقد صور جورافسكي رد الفعل الأوروبي على الدعوة الإسلامية التي تكفل رسول الله بتبليغها، وبين أنها اتخذت منذ أول لحظة طابع العدائية والميل

(١) إرنست رينان. دراسات في التاريخ الديني، باريس. ١٨٥٩.

(٢) محمد نور الدين أفاية. الغرب المتخيل، صور الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط.

الجارف إلى الإقصاء والتدمير: «كان موقف المسيحيين من الإسلام انفعاليا وغير متسامح روحيا؛ لأن الإسلام كان في تصورهم (تحديا) تطلب ردا ومقاومة، واهتماما دائما به»^(١)، لذلك عملوا جاهدين على تفكيك آلياته الفكرية، وكان تشويه صورة الرسول ﷺ جزء أساسيا من هذا المشروع.

وحتى لا ننساق مع هذه اللوحة القائمة فنقع في التعميم الذي ينافي المنهج العلمي، فإنه تجدر الإشارة إلى أن هناك من الأوروبيين - وبخاصة الفلاسفة والمؤرخين والكتاب - من تجرد من خلفياته التاريخية واقترب من الحقيقة الإسلامية، واستوعبها بعمق وشغف؛ فتجلت له أسرارها الجميلة، وحقائقها الناصعة، ومعالمها التي تنبض بالحق والخير والجمال. وهذه القلة - على سمو مكانتها العلمية وتميز موقعها الثقافي في المجتمع - تمثل أقلية خافتة الصوت، لا تكاد تجد لها صوتا يسمع وسط الضجيج الذي تثيره الكنيسة ورجال السياسة والغالبية العظمى من أفراد المجتمع.

غير أن شهاداتهم دلتنا على مواقع العظمة التي بهرتهم في حياة النبي عليه الصلاة والسلام، فقد عبروا عن إعجابهم العميق بالشرعة الإسلامية في جميع جوانبها؛ لانسجامها العجيب مع احتياجات الفرد والمجتمع والدولة وقدرتها

(١) أليكسي جورافسكي. الإسلام والمسيحية. ص ٤١.



على إيجاد علاقات متوازنة بينها جميعا كما هو الحال مع الدكتور شبرك النمساوي الذي قال: «إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها؛ إذ إنه على رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع، سنكون نحن - الأوروبيين - أسعد ما نكون إذا توصلنا إلى قمته»، كما لفت انتباههم شخصية الرسول المتميزة في جميع جوانبها الإنسانية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والتربوية، وثنوا جهوده العظيمة التي أسفرت عن القضاء المبرم على الوثنية في جزيرة العرب، وعن توحيد القبائل المتناحرة المشتتة، وسجلوا بكثير من الإعجاب نشره لفضائل الأخلاق، وإعلاءه من شأن القيم، واحترامه لكرامة الإنسان وتقديره لحرية، وما إليها من الاعترافات التي أرجعت ذلك كله إلى عبقرية الفذة عليه الصلاة والسلام؛ لأن أغلبيتهم الساحقة لم يجرؤوا على الاعتراف بنبوته. ولا غرو فالرجل العظيم يحترم الرجل العظيم، والنفوس الفياضة تنو إلى نظيراتها.

ومن هؤلاء الشاعر والمؤرخ الفرنسي لامارتين Lamartine الذي وصف رسول الله قائلا: «إن محمدا أقل من الإله وأعظم من الإنسان العادي، أي: إنه نبي»، وحتى يدل على عظمة رسول الله عرض سيرته وأعماله على ثلاثة مقاييس هي: عظمة الغاية، قلة الوسائل، نتائج رائعة، ثم علق على ذلك قائلا:

«فيلسوف، وخطيب، ورسول، ومشرع، ومحارب وهادم للأفكار الباطلة، ومحبي للمعتقدات العقلانية، وعبادة بلا أصنام ولا صور، ومؤسس لعشرين (٢٠) إمبراطورية دنيوية، وإمبراطورية واحدة روحية، ذلك هو محمد. وبالنظر إلى كل المقاييس التي يمكن أن تقاس بها عظمة البشر يحق لنا أن نسأل: هل يوجد أي إنسان أعظم منه؟ لم يحدث قط أن إنسانا اتخذ لنفسه - متطوعاً أو مكرهاً- هدفاً أجل وأروع من هذا الهدف: أن يمحى الخرافات التي حالت بين الإنسان وخالقه، وأن يقرب الإنسان إلى الله، وأن يرسي دعائم فكرة الألوهية، هذه الفكرة المشرقة المقدسة بين فوضى آلهة الوثنية، المادية المسوخة إذ ذاك»^(١).

ومنهم الكاتب الإيرلندي الذائع الصيت جورج برنارد شو George Bernard Shaw الذي اعترف بالأيدي البيضاء التي أسداها رسول الله للبشرية من خلال العقائد الراقية التي جاء بها، والتشريعات السامية التي أقام عليها دعوته، وتنبأ بيوم تؤول فيه أوروبا كلها إلى الإسلام، بعد أن تتجاوز مرحلة الجهل وتعرف هذا الرجل العظيم على حقيقته، فقال: «إن العالم أحوج ما يكون إلى رجلٍ في تفكير محمد، هذا النبي الذي وضع دينه دائماً موضع الاحترام

(١) لا مارتين. تاريخ الأتراك. طبعة باريس. ١٨٥٤ م. ج ١١. ص ٢٧٦ - ٢٧٧.



والإجلال، إنه أقوى دين على هضم جميع المذنيات، خالداً خلود الأبد. وإني أرى كثيراً من بني قومي قد دخلوا هذا الدين على بينة، وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح في هذه القارة. إنّ رجال الدين في القرون الوسطى، ونتيجةً للجهل أو التعصب، قد رسموا الدين محمدٍ صورةً قاتمةً، لقد كانوا يعتبرونه عدوًّا للمسيحية، لكنني اطلّعت على أمر هذا الرجل، فوجدته أعجوبةً خارقةً، وتوصلت إلى أنّه لم يكن عدوًّا للمسيحية. لا بد أن نطلق عليه لقب منقذ الإنسانية. وأعتقد لو وجد رجل مثله وتولى قيادة العالم المعاصر لنجح في حل جميع مشاكله بطريقة تجلب السعادة والسلام المطلوبين»^(١).

والفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل Thomas Carlyle الحائز على جائزة نوبل الذي يقول في كتابه الأبطال: «لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متحدث في هذا العصر أن يصغي إلى ما يقال من أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خدّاع مزوّر. وقد رأيناه طول حياته راسخ المبدأ، صادق العزم بعيداً كريماً بَرّاً، رؤوفاً، تقياً، فاضلاً، حراً، رجلاً، شديد الجد، مخلصاً، وهو مع ذلك سهل الجانب، ليّن العريكة، جم البشر والطلاقة، حميد العشرة، حلو الإيناس،

(1) George Bernard Shaw. The Genuine Islam. Singapore. Vol 1. N° 8. 1936

بل ربما مازح وداعب. كان عادلاً، صادق النية، ذكي اللب، شهم الفؤاد، لودعياً، كأنما بين جنبه مصايح كل ليل بهيم، ممتلئاً نوراً، رجلاً عظيماً بفطرته، لم تثقفه مدرسة، ولا هذبه معلم، وهو غني عن ذلك... هكذا تكون العظمة، هكذا تكون البطولة، هكذا تكون العبقريّة»^(١).

والروائي الروسي الشهير ليون تولستوي Léon Tolstoi الذي قال في مقدمة كتابه «حكم محمد»: «مما لا ريب فيه أن النبي محمداً من عظام المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة، وكيفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تنجح للسكينة والسلام وتفضل عيش الزهد، ومنعها عن سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام»^(٢)، وقال في موضع آخر متنبئاً: «يكفي محمداً فخراً أنه

(١) محمد عزت الطهطاوي. في الدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين. مكتبة دار التراث. القاهرة. ١٣٩٩ هـ. ١٩٧ م. ص ٣٤. نقلاً عن كتاب: الأبطال لتوماس كارليل. ترجمة: علي أدهم.

(٢) تولستوي. حكم النبي محمد. نقله إلى العربية: سليم قبعين. مصرية للنشر والتوزيع. القاهرة. ط ٣. ١٩٨٧ م. ص ١٠.



خَلَّصَ أُمَّةً ذَلِيلَةً دُمُويَّةً مِنْ مَخَالِبِ شَيَاطِينِ الْعَادَاتِ الذَّمِيمَةِ، وَفَتَحَ عَلَى وَجُوهِهِمْ طَرِيقَ الرُّقِيِّ وَالتَّقَدُّمِ، وَأَنَّ شَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ سَتَسُوذُ الْعَالَمَ؛ لِانْسِجَامِهَا مَعَ الْعَقْلِ وَالْحِكْمَةِ.

وَجَمَعَ الْمُسْتَشْرِقُ سَتْرَسْتِنُ الْأَسُوجِي K.V. Zettersteen - مُحَرَّرَ مَجْلَةَ (العالم الشرقي) - فِي كِتَابِهِ (تاريخ حياة محمد) جَمْلَةَ الصِّفَاتِ الْمُمْتِزَةِ الَّتِي شَدَّتْهُ إِلَى شَخْصِيَّةِ النَّبِيِّ فَقَالَ: «إِنَّمَا لَمْ نَنْصِفْ مُحَمَّدًا إِذَا أَنْكَرْنَا مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ عَظِيمِ الصِّفَاتِ وَحَمِيدِ الْمَزَايَا، فَلَقَدْ خَاضَ مُحَمَّدٌ مَعْرَكَةَ الْحَيَاةِ الصَّحِيحَةِ فِي وَجْهِ الْجَهْلِ وَالْهَمْجِيَّةِ، مَصْرًّا عَلَى مَبْدِئِهِ، وَمَا زَالَ يَحَارِبُ الطُّغَاةَ حَتَّى انْتَهَى بِهِ الْمَطَافُ إِلَى النُّصْرِ الْمُبِينِ، فَأَصْبَحَتْ شَرِيعَتُهُ أَكْمَلَ الشَّرَائِعِ، وَهُوَ فَوْقَ عَظَمَاءِ التَّارِيخِ»^(١).

أَمَّا مَايْكِلُ هَارْتُ Michael Hardt فَقَدْ وَضَعَ فِي كِتَابِهِ (الخالدون مائة..) أَعْظَمَهُمْ مُحَمَّدٌ) رَسُولَ اللَّهِ عَلَى رَأْسِ الشَّخْصِيَّاتِ الْمِائَةِ الَّتِي رَأَى أَنَّهَا قَدْ تَرَكَتْ أَثْرًا وَاضِحًا فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ، وَقَدْ بَرَّرَ حُكْمَهُ هَذَا بِقَوْلِهِ: «لَقَدْ اخْتَرْتُ مُحَمَّدًا ﷺ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْقَائِمَةِ... لِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ الْإِنْسَانُ الْوَحِيدُ فِي التَّارِيخِ الَّذِي نَجَحَ نَجَاحًا مُطْلَقًا عَلَى الْمُسْتَوَى الدِّينِيِّ وَالدُّنْيَوِيِّ، وَهُوَ قَدْ دَعَا إِلَى الْإِسْلَامِ وَنَشَرَهُ كَوَاحِدٍ مِنْ أَعْظَمِ الدِّيَانَاتِ وَأَصْبَحَ قَائِدًا سِيَاسِيًّا وَعَسْكَرِيًّا وَدِينِيًّا، وَبَعْدَ ١٣

(١) سَتْرَسْتِنُ الْأَسُوجِي. تَارِيخُ حَيَاةِ مُحَمَّدٍ. ص ٤٦.

قرناً من وفاته، فإن أثر محمد ﷺ ما يزال قويا متجددا^(١)، ثم فسر طبيعة هذا الأثر الديني والديني فقال: «فعلى المستوى الديني كان أثر محمد ﷺ قويا في تاريخ البشرية، وكذلك كان عيسى ﷺ، وكان الرسول ﷺ على خلاف عيسى ﷺ رجلا دنيويا؛ فكان زوجا وأبا... وكان يعمل في التجارة ويرعى الغنم... وكان يحارب ويصاب في الحروب ويمرض... ثم مات. ولما كان الرسول ﷺ قوة جبارة لا يستهان بها فيمكن أن يقال أيضا إنه أعظم زعيم سياسي عرفه التاريخ، فلم يعرف العالم كله رجلا بهذه العظمة قبل ذلك، وما كان من الممكن أن تتحقق كل هذه الانتصارات الباهرة بغير زعامته وهدايته وإيمان الجميع به»^(٢).

(١) مايكل هارت. الخالدون مائة... أعظمهم محمد ﷺ. ترجمة: أنيس منصور. ص ١٣.

(٢) المرجع نفسه. ص ١٨.



ثالثاً: العوامل الكامنة وراء تشكل صورة النبي ﷺ في الفكر الأوروبي.

لقد كان تاريخ رسول الله ﷺ عند الأوروبيين غريباً وعجيباً بكل المقاييس؛ لأنه كان تاريخاً يطفح بالحقد والكراهية والجهل والتحامل والاتهام الباطل، ولم تقتل أوروبا بكل أطرافها الدينية والسياسية والفكرية لمحاربة نبي ومقارعة دين كما تكتلت لمحاربة رسول الله ﷺ ومهاجمة الإسلام. بل إن بعض الباحثين يؤكدون أن أوروبا لم تعرف ذاتها، ولم تحدد هويتها إلا بعد أن حاصرها الإسلام من الشرق والغرب والجنوب؛ لأنها كانت غارقة في الفوضى، والجهل، والتمزق العنيف وقد لعب العداء المتأجج للإسلام: «دور اللحمة التي أعطت للمجتمع المسيحي الوسيط وحدته ضد ما مثلته الواقعة الإسلامية من اختراق وتهديد واختلاف»^(١). هذه الحرب الشعواء، والسيل الطامي من الغل والكره الذي لم تحبُ حدته، ولم تهدأ سورتها - منذ ظهور الإسلام إلى يوم الناس هذا - يخفي وراءه أسباباً خاصة تبرره، وتفسر مسيرته الطويلة في هذا الاتجاه، وهي أسباب تخضع في أغلبها إلى رد فعل عنيف وغير عقلائي يعتمد على حماية الذات من شيء مجهول لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه لمعرفته، وإلا فلماذا

(١) محمد نور الدين أفاية. الغرب المتخيل: صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط.

تعادي أوروبا الرسول ﷺ؟ وقد كان حربا على الوثنية والظلم والاستبداد، وداعيا إلى العدل اعترف بجميع النبوات التي سبقته وأعلن عن ضرورة الإيمان بها، ودعا إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ووادع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وترك لهم حرية البقاء على دينهم وممارسة شعائهم، وشملت هذه المعاملة الرحيمة حتى المجوس وعبد الكواكب والنجوم؛ لأنه كان رحمة للعالمين، بُعثَ على فترة من الرسل ليقود الناس إلى ربهم في رفق ولين، ولم تكن الحروب التي قادها وأتباعه من بعده سوى إزاحة لقوى الشر التي أبت إلا أن تطفئ نور الهدى وتستأصل شأفته، وتحرم العالم من نوره وخيره.

ومن أهم الأسباب التي نرى أنها كانت الدافع الأقوى لمناصفة أوروبا العداء للنبي الكريم نذكر:

١ - خوف الكنيسة على سلطانها:

كانت الكنيسة غداة ظهور الإسلام هي المؤسسة الدينية والثقافية الوحيدة التي تشرف على تنظيم المجتمع وتشارك بقوة في سياسة الإمارات والممالك الأوروبية، وتسيطر سيطرة كلية على الحياة الروحية للشعوب. وقد أثار ظهور الإسلام واكتساحه للعالم واقترابه من أوروبا اقترابا كاد يخترقها من الشرق والغرب على السواء مخاوفها، وزرع الرعب في أوساطها، واستتفر فيها عوامل



الدفاع عن الذات ضد الخطر القادم من المجهول لتفادي المصير المشؤوم الذي لقيته الكنائس الشرقية التي طواها المد الإسلامي، واستقطب أتباعها؛ فأصبحت أثرا بعد عين.

لذلك كانت الكنيسة من أهم وأول المؤسسات الأوروبية التي تولت بجدارة مهمة إدارة الصراع مع الإسلام، وهي التي أشرفت إشرافا مباشرا ومستمرًا على صياغة الصورة المتخيلة عن النبي الكريم، وظلت حريصة على تجذرها وترسيخها في النفوس والعقول على مر القرون، وقد نجحت في ذلك إلى حد بعيد؛ بسبب سيطرتها التامة والكاملة أثناء العصور الوسطى على الحياة الثقافية في أوروبا، فقد كان: «رجال الكنيسة والرهبان والكهان وموظفو الكنيسة الكبار هم الذين يمتلكون مفاتيح المعرفة، ويتكفلون بتربية المؤمنين بكتاباتهم ودعواتهم»⁽¹⁾، بل إنها ظلت تتحكم في تشكيل العقلية الغربية إلى ما بعد عصر التنوير.

هذه المكانة الدينية والثقافية والسياسية المتميزة مكنتها من قيادة حملة تعبئة واسعة لإيجاد أكبر عدد ممكن من الصور المشوهة، والتأويلات الزائفة، والحكايات الخرافية، والأساطير، والإشاعات حول رسول الله ﷺ؛ لتلقي بها

(1) Simon Jargy. Islam et chrétienté. Ed Labor et Fides. Genève. 1981. p 9

إلى الشعوب كبادرة ضرورية لتنظيم هجوم مضاد على التوسع الإسلامي الجارف الذي شكل أكبر تهديد للوجود النصراني في البحر المتوسط: «بل إنه أحدث قطيعة حاسمة بين المرحلة الرومانية التي كانت ترى في المتوسط مركز العالم والفضاء الاستثنائي للمسيحية، وبين عهد جديد أعطى للعلاقات بين الشرق والغرب - جراء التنافس الإسلامي المسيحي - أبعادا عميقة في العقل والوجدان، جعلت المؤسسة المسيحية تشعر بحسرة لا متناهية على فقدان وحدتها الجغرافية والروحية»^(١).

وقد أكد المستشرق مونتغمري وات W.Montgomery Watt هذه الحقيقة حينما درس رد فعل اليهود والكنيسة على ظهور الإسلام، وانتهى إلى أنه مثل لهما تحديا دينيا خطيرا استوجب الرد والمقاومة والتدمير: «كان ظهور الإسلام بالنسبة للديانتين اليهودية والمسيحية نوعا من التحدي الديني والتاريخي، لقد حطم الإسلام النظام البنيوي اللاهوتي لأوروبا»^(٢).

إن الإحساس المرير الذي انتاب الكنيسة جراء المد الإسلامي المندفع في

(١) محمد نور الدين أفابة. الغرب المتخيل: صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط.

ص ١٣٣.

(٢) أليكسي جورافيسكي. الإسلام والمسيحية. ص ٣٩.



جميع الاتجاهات وما يقابله من تراجع مستمر للوجود النصراني قد جعلها تضرب على هذا الوتر بقوة، وتستثير به مشاعر الكراهية والحقده ضد الإسلام ونييه حينما تردد على أتباعها أن محمداً ودينه هما السبب في إيقاف تطور الإنسانية باتجاه النصرانية، وبالتالي إيقاف تطور التاريخ: «لأن تطور الإنسانية يجب أن يفضي حتماً إلى ملكوت المسيح، وهو تطور يجب أن يستوعب في داخله العالم كله وفي الوقت ذاته... فإن مَلِكَنَا على حق، أما غير المسيحيين فهم ليسوا على حق»^(١).

وقد تحولت هذه الفكرة إلى حقيقة لا تقبل الجدل، فساقها المؤرخون والمفكرون في كتاباتهم وهم يسردون الأحداث التي تلت ظهور الإسلام مغلفة بالسب والشتم والالتهام للرسول ﷺ، ومنها أن محمداً كان ساحراً كبيراً، استطاع عن طريق السحر والخداع تحطيم الكنيسة في إفريقيا والشرق، وأنه سمح بالدعارة والفسق لكسب المزيد من الأتباع^(٢). ولا يفتأ الأوروبيون يرددون هذه المقولة التي تعبر عن الحسرة التي انتابتهم جراء سقوط الإمبراطورية الرومانية في الشرق وشمال إفريقيا. فهذا هو فولني يقول بمرارة: إن

(١) المرجع نفسه. ص ١٩

(2) Western views of Islam in the Middle Age. R.W. Southern. Cambridge. 1962. p 19

محمدًا قد نجح في تشييد إمبراطورية سياسية ودينية على حساب كهان أو ممثلي موسى وعيسى^(١). وبعد عقود طويلة جاء ريتشارد نيكسون ليؤكد أن الغربيين حين يذكر الإسلام لا يتبادر إلى أذهانهم سوى أن سيوف محمد وأتباعه هي السبب في انتشار الدين الإسلامي في آسيا وإفريقيا، وحتى أوروبا^(٢).

ولم تراجع هذه الفكرة على الرغم من التطورات المذهلة التي هزت العالم وغيّرت أشكال علاقاته تغييرًا يكاد يكون جذريًا، بل إنها اتخذت شكلًا آخر يتمثل في العمل الجاد لتحقيق رؤيا القديس يوحنا التي تبشر بعودة المسيح ليحكم العالم من جديد لمدة ألف سنة، والنصارى المخلصون مطالبون بتمهيد هذه العودة له بتنصير العالم بعد إبادة المستعصين منهم على التنصير. والقائمون على المدارس التبشيرية يضعون تنصير المسلمين على رأس الأولويات التي تشغلهم وهم يؤكدون «أن كل العلامات تشير إلى أن عودة المسيح قريبة جدًا، وقد شعر حتى السياسيون والفلاسفة بأن معاناة هذا العصر تتصاعد باتجاه أهم حدث في العصور، وفي ضوء هذه الحقيقة لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وأولوية

(١) محمد محمد أبو ليلة. محمد بين الحقيقة والافتراء. ص ٤٣.

(٢) ريتشارد نيكسون. الفرصة السانحة. ترجمة أحمد صدقي مراد. القاهرة. ١٩٩٢ م.



من موضوع التنصير، وخاصة فيما يتعلق بالهدف الذي نحن بصددده ألا وهو تنصير المسلمين»^(١).

ومن شروط تمام العودة المادية للمسيح: تنصير العالم، وفي مقدمته كل المسلمين، وعودة اليهود إلى أرض فلسطين؛ وهو ما يفسر التحالف اليهودي النصراني الذي تكون في العقود الأخيرة لتحقيق هذه الغاية، والذي عبر عنه أحد المبشرين في أواخر السبعينيات من القرن العشرين بقوله: «إنه خلال السنوات العشر الماضية أصبح آلاف من اليهود يهودا مسيحيين، وتقوم إحدى مدارس اللاهوت الآن بتدريب حاخامات نصارى للعمل في ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ كنيس نصراني، خطط لإنشائها خلال السنوات القليلة القادمة في أمريكا»^(٢)، وهو ما يفسر أيضا قول ريتشارد نيكسون إن الغربيين ينظرون بارتياح إلى الحروب الدائرة في الشرق الأوسط^(٣)؛ لأنها تمثل بالنسبة إليهم جزاء من الأحداث التي تقود إلى الهدف الأكبر.

ومما سبق نستخلص أن الرعب الذي أثاره انتشار الإسلام في العالم في زمن

(١) محمد عمارة. استراتيجية التنصير في العالم الإسلامي. ص ٥٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٦٠.

(٣) ريتشارد نيكسون. الفرصة السانحة. ص ١٣٨-١٣٩.

قياسي كان عاملا هاما وأساسيا من عوامل تشكل الصورة المشوهة للرسول ﷺ في الذهنية الأوروبية عن طريق النشاط الكنسي الدائب، والتي لا تزال تلقي بظلالها القاتمة على الأفكار والمواقف إلى يومنا هذا، بل إن هذا الخوف قد تصاعدت وتيرته خلال السنوات القليلة الماضية التي شهدت فيها أوروبا انتشارا غير مسبوق للإسلام على أراضيها، وأصبحت ترى بأم عينها كيف يدخل أبناؤها في دين الله أفواجا، وتراقب الكنيسة بقلق بالغ «انحسار الهوية النصرانية» لصالح المد الإسلامي، وهي تبذل قصارى جهدها لتحجيمه وصدّه بشتى الطرق والأساليب.

٢ - قدرة الإسلام على التمدد والانتشار:

لقد أثبت الإسلام - بما لا يدع مجالا للشك، ومنذ أول يوم ظهر فيه - طابعه العالمي وحيويته المذهلة وقدرته العجيبة على التوسع والتأقلم، والتفاعل والتأثير والتأثر، والامتداد الدائم والقدرة على المقاومة في حالات الضعف والتراجع، والاستعادة السريعة لمؤهلات الجذب والاستقطاب كلما وجد الوسط الملائم. وما زالت الوقائع تثبت للملاحظين العالمين هذه الحقائق التي تتكرر كلما تهيأت الظروف المناسبة، وتؤكد لهم أن الإسلام لم يفقد شيئا من إمكانياته الفذة واستعداداته للتمدد على الرغم من الضربات الموجهة التي



تلقاها، وما يزال يتلقاها من غريمه التاريخي في أوروبا. يقول المستشرق غاردنر Gardner: «إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا»^(١) التي يتساءل خبراءها وسياسيوها: «عما إذا كان يمكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلماني؟ أم أنه على قدر من الرسوخ في المجال السياسي والاجتماعي يجعله رافضا لأي تمييز بين ما لله وما لقيصر؟»^(٢).

إن هذه الحقائق التي ما فتئت الأحداث التاريخية تؤكد وتزيدها مصداقية وقوة، قد أدركها الأوروبيون بعمق منذ أن وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام جيوش الفتح التي لم يمض قرن واحد على انطلاقها من الجزيرة العربية حتى طوت تحت أجنحتها أكثر المناطق أهمية وإستراتيجية: «منذ أن جمع محمد أنصاره في مطلع القرن السابع الميلادي، وبدأ أول خطوات الانتشار الإسلامي، كان على العالم الغربي أن يحسب حساب الإسلام كقوة دائمة وصلبة تواجهها عبر المتوسط»^(٣).

(١) مصطفى خالدي وعمر فروخ. التبشير والاستعمار في البلاد العربية. المكتبة العصرية.

بيروت. ط ٥. ١٩٧٣ م. ص ٣٦.

(٢) ريتشارد نيكسون. الفرصة السانحة، ص ٨.

(٣) وليم بولك. الولايات المتحدة والعالم الغربي - القومية والغزو الفكري. ص ٤٢.

فكان من الطبيعي أن يدب الخوف في أوساط الأوروبيين على اختلاف طبقاتهم وانتماءاتهم، وقد مثل هذا الخوف عاملاً أساسياً آخر من عوامل تشكيل صورة النبي - عليه الصلاة والسلام - بذلك الشكل المشوه والمقزز والباعث على تربية الحقد والكراهية في النفوس والقلوب؛ لتهيئتها للمقاومة الطويلة والشرسة؛ لإنقاذ أوروبا من براثن الأسد الإسلامي الذي يترصد بها، فهذا الإسلام الذي ينمو في كل الظروف، وتحت كل الضغوط والتغيرات الاجتماعية المختلفة، وفي كل العصور، إنما ينمو بالتأكيد على حساب الكنيسة في عقر دارها، ويستهدف المجتمعات نفسها التي تحاول الكنيسة تنصيرها، وتحويلها إلى دينها، كما ينمو أيضاً على حساب الملوك والأباطرة والساسة الذين يخافون أن يفقدوا عروشهم وشعوبهم وأراضيهم.

وبذلك اكتسب الإسلام العداوة على جميع الصعد الدينية والسياسية والفكرية، وتكتلت الفعاليات الأوروبية في جبهة واحدة لتحقيق الأمن الأوروبي ضد الخطر الإسلامي القادم. وعلى الرغم من أن الدائرة قد دارت على المسلمين في العقود الأخيرة بعد أن استرخى العالم الإسلامي: «وظن أن الوضع الدولي قد استقر لصالحه، واطمأن إلى أن أوروبا لن تعاود الهجوم، وأنها بحاجة إلى وقت طويل لتنسى سقوط القسطنطينية - عاصمة بيزنطة المسيحية - وتحويلها



إلى عاصمة للسلطنة العثمانية الإسلامية^(١)؛ فأصبحوا نهبا مباحا للحركة الاستعمارية الحديثة، إلا أن ذلك الخوف الذي وقر في القلوب لم يزل يمارس تأثيره الخفي على الأوروبيين حتى وهم في أوج قوتهم، وتعاضم سلطانهم، وامتلاكهم الواسع للتكنولوجيا الحديثة.

لقد ظل هذا الخوف قابعا في أعماق الذات الأوروبية يغذي فيها مشاعر الحقد على الإسلام، ويربي فيها العداء المتزايد والمتوارث له، وما يزال إلى يومنا هذا جزءا صميما من تكوينها النفسي، ومصدرا لردود أفعالها كلما كان الإسلام هو موضوع الدراسة والنقاش. بل إن وتيرته قد تصاعدت وعلت حتى بلغت مداها وطفحت، ولم تعد أوروبا تجد غضاضة في الجهر بأن الخوف من الإسلام إحساس مشروع له ما يبرره في الواقع، ويجب أن يظل موجودا؛ لتمكن أوروبا من المحافظة على ذاتها والدفاع عنها ضد التعصب والتطرف والعنف الإسلامي. يقول لورانس براون Lawrence Brown: «لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة، ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبررا لمثل هذا الخوف. لقد كنا نخوف بالخطر اليهودي، والخطر الأصفر (اليابان والصين)، وبالخطر البلشفي، إلا أن هذا التخوف كله لم نجده كما تخيلناه؛ لأننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا،

(١) محمد عمارة وآخرون. العالم الإسلامي والنظام الدولي. ص ٦١.

وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد، ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا أثناء الحرب العالمية الثانية، أما الشعوب الصفراء فإن هناك دولا ديمقراطية كبرى تتكفل بمقاومتها. ولكن الخطر الحقيقي كامن في المسلمين وفي قدرتهم على التوسع والإخضاع، وفي الحيوية المدهشة العنيفة التي يمتلكونها. إنهم السد الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي»^(١).

وعلى الرغم من الانفتاح الثقافي الواسع لدول العالم على بعضها، وتوفير فرص الحوار وتبادل الرأي لإخضاع الصورة المشوهة للإسلام ونبيه للدراسة التحليلية والكشف عن ملابساتها، والظروف التاريخية التي ساعدت على تكوينها، إلا أن الطرف الأوروبي ظل يحتضن هذا الشعور العدائي بقوة، ويرفض بإصرار التخلي عن قناعاته تجاه الإسلام، ويعلن مفكروه وكبار رجال السياسة فيه، ووسائل إعلامه أن عدو أوروبا الأول هو الإسلام؛ لأنه دين العنف والبدائية، وهو المسبب الأولي والنهائي لكل الانحرافات الإيديولوجية، ومظاهر العنف والتعصب الشائعة حاليا في المجتمعات التي تدين به، وأن الدعوة الإسلامية حركة ثورية عدائية استبدادية، تعادي الديمقراطية والعلمانية، وترفض الحضارة الغربية، وتسعى إلى تحطيمها والقضاء عليها؛ لأنها تمثل قمة

(١) جودت سعيد. لم هذا الرعب كله من الإسلام؟. ص ٢٠-٢١.



التطور البشري، والمصير النهائي للإنسان. وهذا الوضع يتطلب من أوروبا أن تكون على حذر دائم، وأن تعد العدة لتأديب الإسلام وتحضيره بإجباره على تقبل الحضارة الغربية^(١)، وأن تسارع إلى وأد كل حركة تهدف إلى إعادة الإسلام إلى مجده وتحكيمه في الحياة، وأن الإسلام يجب أن يكون كبش الفداء والقربان الذي يقدم على مذبح التقدم الأوروبي^(٢)، وهو ما يؤكد المبرر ولیم مویر William Muir قائلاً: «إن سيف محمد والقرآن هما أكثر الأعداء الذين عرفهم العالم حتى الآن عنادا ضد الحضارة والحرية والحقيقة»^(٣).

ونشطت وسائل الإعلام الأوروبية في الترويج بقوة لهذا التوجه العدواني، وتأكيده وتداوله كحقيقة ثابتة، وظهر من خلال تحليلاتها وطروحاتها إدراك أوروبا العميق لِكُنْهِ المنظومة الثقافية الإسلامية التي استمدت خطوطها الكبرى من مرجعيتها المعصومة المتمثلة في الكتاب والسنة، مشيرة إلى ما تمثله من تهديد مستقبلي للوجود النصراني والكيان الحضاري الغربي، حيث انتهت بعض هذه

(١) تركي علي الربيعو وزكي الميلاد. الإسلام والغرب: الحاضر والمستقبل. دار الفكر. دمشق.

ط ٢. ٢٠٠١م. ص ٣٢.

(٢) محمد عابد الجابري. مسألة الهوية: العروبة، الإسلام والغرب. مركز دراسات الوحدة

العربية. بيروت. ١٩٩٩م. ص ١٧٠.

(٣) إدوارد سعيد. الاستشراق. ص ١٦٨.

الدراسات إلى أن الإسلام: «هو الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلي وحقيقي لمجتمعات الغرب... ولذلك فإنه من بين الثقافات الموجودة في الجنوب، هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة»^(١)، وهو أيضا: «الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية. والنظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيا وسياسيا»^(٢)، ولأن الإسلام أخيرا هو: «الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلي وحقيقي لمجتمعات تسودها اللاأدرية وفتور المهمة واللامبالاة»^(٣)، وهو استثناء تام ومدهش في مقاومة العلمنة، وفي قدرة تعاليمه على الإفلات من محاكاة الغرب؛ لأنه يمتلك أنموذجا بديلا أكثر أصالة وثراء وقدرة على التجدد.

إن قدرة الإسلام على التمدد والانتشار بسبب طبيعته الربانية، وانسجامة مع الكينونة الإنسانية في حالتها المادية والروحية على السواء، وتجاوبه مع الفطرة

(١) محمد عمارة. «حضارة أم حضارات». مجلة المسلم المعاصر. س ١٩، ع ٧٣ - ٧٤، أغسطس ١٩٩٤ - يناير ١٩٩٥ م. ص ٨ - ٩.

(٢) زينب عبد العزيز. «أبجدية الحوار بين الحضارات». مجلة المسلم المعاصر. س ١٩، ع ٧٣ - ٧٤. أغسطس ١٩٩٤ - يناير ١٩٩٥ م. ص ١٠٥.

(٣) محمد عمارة. إستراتيجية التنصير في العالم الإسلامي. مركز دراسات العالم الإسلامي. مالطا. ط ١. ١٩٩٢ م. ص ١٥.



السليمة، وتقديمه الحلول الحقيقية لمعضلات الوجود التي تؤرق الإنسان وترميه في غياهب الشك والضياع؛ شكلت عاملا حاسما من عوامل العداء المستعر الذي حملته أوروبا للنبي الكريم، وسببا رئيسيا دفعها للإمعان في تشويه صورته، والمبالغة في إلصاق الأوصاف التحقيرية به، في محاولة يائسة لصد تأثير الدين الخالد الذي بشر به بين العالمين.

٣- الجهل المطبق للأوروبيين بحقيقة النبي عليه الصلاة والسلام:

إن جهل الشعوب الأوروبية بحقيقة النبي ﷺ أمر واقع، وحقيقة معروفة. فهذه الشعوب لم تتمكن على مر القرون من الاقتراب من الحقيقة الإسلامية، ولم تتح لها فرصة حقيقية لمعرفة نبي الإسلام في صورته الرائعة التي أذهلت العالم، وأدهشت أرباب الفكر والسياسة. إن حياة رسول الله ﷺ قبل البعثة، وبعد البعثة بكل ما تحمله من معان سامية وخلال جليلة ومواقف عظيمة قد تم حجبها حجباً تاماً عن هذه الشعوب، وتم استبدالها بالصورة التي ألحنا إليها سابقاً، والتي انطوت عليها جوانح الفرد الأوروبي، واعتبر الإيمان بها جزءاً من الإيمان بعقيدته؛ لأن لعن نبي الإسلام وسبه وإهانته جزء من التعبير عن منتهى إخلاصه للنصرانية، وقمة الإيمان بيسوع المخلص.

غير أن اللافت للنظر أن هذا الجهل لا يقتصر على عامة الشعب الذين

كانوا خلال القرون الوسطى غارقين في أوحال الأمية، وإنما ينسحب أيضا على الطبقة المثقفة من الكتاب والشعراء والفلاسفة والمفكرين الذين استناموا هم أيضا لما روجته الكنيسة من أباطيل واتهامات، واطمأنوا إلى نسيج الخرافات التي تصادم العقل وتحالف أدنى بديهيات المنطق. يقول أحد الباحثين: «خلال تتبعي للمفاهيم التي تبناها الأوروبيون حول نبي الإسلام انتابني الذهول من جهلهم المطبق، وعدوانيتهم الواضحة، وأحكامهم المسبقة المتأصلة، وتحزبهم الطاغى ضد خصومهم. وهذا لا ينطبق على الشعب الجاهل والساذج ولكنه ينطبق أيضا على أكبر علمائهم وفلاسفتهم ورجال الدين والمفكرين والمؤرخين، حتى إنه خلال القرون التي شهدت انطلاق الفكر الأوروبي من القرن الثاني عشر وحتى القرن السابع عشر لم يكن لدى أي من هؤلاء المفكرين الشجاعة في تحري المعرفة والموضوعية عن الإسلام ومؤسسه»^(١). ويقول بودلي مستغربا ضراوة الهجمة على النبي ﷺ: «إنه من الغريب أن نلاحظ دون أسباب ثابتة وطيدة أن هناك سوء فهم عام لمحمد أكثر من أي مؤسس آخر من مؤسسي الديانات العظيمة»^(٢).

(١) عبد الرحمن بدوي. دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقسين من قدره. ص ٥.

(٢) بودلي. ر. ف. الرسول: حياة محمد. ترجمة: محمد محمد فرج، و: عبد الحميد جوده السحار. =



لقد كانت إمكانيات اللقاء والتبادل والاطلاع بين أوروبا والإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف متاحة، إلا أن الإدراك الأوروبي فضل أن يستمد عناصر معرفته للرسول ﷺ من مخيلته المريضة التي ترفض النظر إلى الواقع كما هو، وإلى الحقائق كما تتشكل على الأرض، والتي تعيش داخل: «عالم مغلق، تنقصه المعلومات، منكفىء على ذاته كما على معرفته الخاصة. عالم حيث المعلومات الخارجية تتسرب بشكل مشوه، حتى وإن كانت مختزلة وفقيرة»^(١)، مقتنعا بالصور النمطية المتخيلة التي تقدم له نبي الإسلام في شكل مشوه ومشوش لتعزيز الوعي بالذات، والتأكيد على خصوصية الهوية النصرانية الأوروبية المهددة.

وكثيراً ما يصطدم هذا الجهل المطبق بقوانين الطبيعة ونواميس الحياة، لكن هذا الاصطدام لا يستطيع أن يزيل الغشاوة عن الأعين التي لا ترى إلا ما ترغب هي أن تراه. فهذا هو جورج سيل راعي كنيسة نيوانجلند في كتابه (قصة محمد) يعترف أن الإسلام يدين به عشرات الملايين عبر العالم، وأن أتباعه

=مكتبة مصر. القاهرة. ص ٧.

- (1) Philippe Sénac. L'image de l'Autre. histoire de l'occident médiéval face à l'islam. Ed. Flammarion. Paris. 1983. p 17

يزيدون يوماً بعد يوم، وبدلاً من أن يقوده هذا الاعتراف إلى البحث في أسباب ذلك، يعبر عن تعجبه من قدرة الرسول ﷺ على تحقيق هذا الأمر الغريب على الرغم من كل الصفات السيئة التي يرى أنها تطبعه، فيقول في استفهام عجيب: «كيف استطاع مثل هذا المجرم، مثل هذا المخاتل الكبير، أن يخلق ديانة يدين بها اليوم ثلاثمائة مليون مؤمن، وبدلاً من أن تأخذ في الزوال كما حدث لكثير من ديانات العالم فإنها اليوم أقوى مما كانت، ويزداد معتقدوها يوماً بعد يوم؟»^(١)، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(٢).

وعندما عكف العقلاء من الأوروبيين على دراسة الظاهرة الإسلامية التي أدهشتهم وحيرت ألبابهم، اهتموا بعد لأي إلى أنها عقوبة ربانية عادلة للنصارى بسبب خطاياهم وذنوبهم^(٣)، واستناموا إلى هذا التفسير الذي حاولوا من خلال إشاعته واستخدامه القضاء على الاضطرابات والانشقاقات والخلافات اللاهوتية الخطيرة التي استفحلت بين الفرق النصرانية. وقد رأى بريدو

(١) بودلي. ر. ف. الرسول: حياة محمد. ص ١٣.

(٢) سورة الحج، آية (٤٦).

(3) G. Zananiri. L'Eglise et l'Islam. p 242 - 243



Prideaux في المسلمين (سلاح الغضب الرباني) وحذر النصارى في أوروبا من أن مصيرهم سيكون ماثلاً لمصير الكنائس الشرقية إذا لم يوقفوا هذا الصراع المستعر فيما بينهم، وهددهم بظهور محمد ثان يعاقبهم على تفرقهم كما فعل محمد الأول بالنصارى الشرقيين، وفي ذلك يقول: «هل فقدنا حقاً عقولنا لكي لا نفهم أن الرب باستطاعته أن يرسل في ظرف ماثل محمداً آخر ليربكنا ويعكر حياتنا؟»⁽¹⁾.

من هنا، يتبين لنا أن الأوروبيين لم يستطيعوا - على الرغم من كل بذلوه من جهود - أن يخرجوا من الشرقة التي دفنوا أنفسهم فيها أول مرة، والتي تصور لهم الإسلام هرطقة وإلحاحاً وانشقاقاً عن المسيحية الحقّة، ولم تتسامهمهم إلى أفق أعلى، يمكنهم من إزالة هذا الضباب الكثيف عن أعينهم ليروا الحقيقة المجردة أمامهم، ويدرسوا الواقع بعقول صافية.

(1) M.P. Holt. The Treatment of Arab History by Prideaux.Ockley and Sale – Historians of the Middle East (London. 1962)

رابعاً: آثار الصورة النمطية المشوهة، وانعكاساتها على مستوى الفكر والممارسة.

من البديهي أن تتمخض المعركة الشرسة التي خاضتها أوروبا بكل أطرافها الدينية والفكرية والسياسية ضد الرسول ﷺ طيلة أربعة عشر قرناً عن آثار وانعكاسات بالغة الخطورة، ظلت تتظاهر في أشكال مختلفة على مر العصور، وتعبّر في كل مرة عن المبلغ العجيب الذي وصلت إليه درجات الكره والحقد للنبي الكريم في أعماق الشخصية الأوروبية. ونستطيع أن نسجل جملة من هذه الآثار التي بدت واضحة للعيان، وأعلنت عن نفسها بقوة، ومنها:

١ - الحروب الصليبية:

لقد شكلت الحروب الصليبية - بحق - التجسيد القوي والواقعي للكرهية البالغة التي أصبحت أوروبا تحملها للرسول ﷺ ودينه. وتكتسي هذه الحروب أهميتها من كونها مثلت بالنسبة لأوروبا الذروة القصوى التي بلغها العداء المتمكن للإسلام ونبيه، وهي من أبرز آثار العملية الدعائية التي رسمت النبي الكريم وشريعته وأتباعه في أقبح صورة وأبغضها، كما هددت الوجود الإسلامي في أكثر الأمكنة قرباً من قواعد انطلاقه، وكان التحدي الصليبي بالنسبة إليه كبيراً وموجعاً.



وقد تم شحن نفسية الجنود الصليبيين بأقصى درجات الكراهية والحقن على المسلمين الوثنيين المنحرفين الذين وضعوا أيديهم على الأراضي المقدسة بعد أن افتكوها من الرومان، وانتهكوا حرمة قبر المسيح وحالوا دونه ودون الحجاج النصاري^(١). وهذا ما يفسر مبلغ العنف والوحشية التي اتسمت بها الحروب الصليبية، وفظاعة المجازر التي ارتكبت ضد المسلمين؛ لأن الجندي الصليبي كان يعتقد اعتقاداً راسخاً أنه يحارب قوى الظلام والشيطان التي دنست مقدساته، وهو مطالب باستعادتها منها مهما كلفه ذلك من ثمن: «ولم يكن من الممكن انتظار شيء آخر، ذلك أن العملية الدعائية الرهيبة التي قادتها المؤسسة الكنسية، والصور النمطية التي لقنتها لمؤمني أوروبا المسيحية عن الإسلام، والتعبئة الهائلة التي نظمتها لإنجاز فعل تحريري للأمكنة المقدسة، ولربح رضا

(١) يقول ميخائيل زابوروف: «إن الأقاويل عن آلام المسيحيين الشرقيين في ظل حكم السلجوقيين وعن العقبات التي أقاموها في وجه الحجاج هي بقدر كبير اختلاقات باطلة، تفتق عنها خيال كتاب كنسيين. فأحياناً كثيرة كانوا قصداً وعمداً ينشرون الإشاعات عن مآثم السلجوقيين من كل شاكلة وطراز ضد المسيحية... لكي تسهم الإشاعة عن الخطر الذي يشكله (الكفار) على الأماكن المقدسة في تدفق قوات مسلحة جديدة من الغرب». راجع: ميخائيل زابوروف. الصليبيون في الشرق. ترجمة: إلياس شاهين. دار التقدم. موسكو. ١٩٨٦م. ص ٣٥.

الرب والتمتع بالغفران... ما كان يمكن أن تتمخض عنه سوى أفعال من الصنف الذي سجله التاريخ على الحضارة الغربية مع الظاهرة الصليبية ضد المسلمين^(١).

ولعل في الشهادات التاريخية التي سجلها الرهبان والمؤرخون الذين رافقوا الحملات الصليبية ما ينبئ عن ذلك. فقد أثبتوا في كتبهم كيف ذبح الصليبيون سكان القدس المسلمين واليهود والنصارى الذين تجاوز عددهم ستين ألفا في ثمانية أيام حتى خلت المدينة تماما من سكانها، وكيف دخل قائد القوات الصليبية (ريموند أجيل) لزيارة المعبد فلم يستطع الوصول إلى ساحته لكثرة الجثث المتناثرة ودمائها التي وصلت إلى ركبتيه، وكيف كان الجنود يتفننون في القتل والشنق وبقر البطون، وحرق الناس أحياء وتقطيع الأطراف والتمثيل بالجثث، والسير بخيولهم في شوارع المدينة التي كانت تجري فيها الدماء كالأنهار، وكيف كانوا يرفهون عن أنفسهم بشيِّ أطفال المسلمين كما تُشوى النعاج.

وقد ظلت هذه التجربة التاريخية بكل ما تحمله من المآسي والآلام - وما زالت إلى يومنا هذا - تشكل عاملا حاسما من عوامل تكييف العلاقات بين

(١) محمد نور الدين أفاية. الغرب المتخيل. ص ١٦٠.



أوروبا والمسلمين، لأنها لم تغب عن وعي الإنسان الأوروبي ولم تح من ذاكرته، بل إن تعامله مع المسلمين مبني بشكل أساسي بوحى منها. وكلما تأزمت العلاقات بين الطرفين كلما قفزت إلى الواجهة، وراحت تغذي مخزون الحقد والكراهية المترسب في الأعماق، وهي ظاهرة تنسحب على كافة شرائح المجتمع الأوروبي ابتداء من رجل الدين والسياسي والعسكري والمثقف والإعلامي، وانتهاء برجل الشارع البسيط. ويكفي للتدليل على ذلك أن نذكر حادثة دخول القائد الإنجليزي للنبي عام ١٩١٧ م إلى القدس، وإعلانه على رؤوس الأشهاد أن الحروب الصليبية قد انتهت اليوم^(١) باستيلاء أوروبا على أورشليم التي كانت حلم الأجداد الأولين، وعبارة الجنرال غورو المشهورة التي قالها عند قبر صلاح الدين الأيوبي: «ها قد عدنا يا صلاح الدين»^(٢).

ولم تقو الأحداث الكثيرة، والتطورات الفكرية والعلمية التي شهدتها أوروبا، والتي غيرت ملامحها تغييرا جذريا على تجاوز آثار الحروب الصليبية، أو التخفيف من قوة حضورها في الوعي الأوروبي. لذلك لم يكن غريبا - في بداية

(١) جلال العالم. قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أيدوا أهله. دار الاعتصام. القاهرة.

ص ٢٥.

(٢) المرجع نفسه. ص ٢٥.

التسعينات من القرن العشرين - أن يتصدر عنوان ضخم في الصفحة الأولى من جريدة (هيرالد تريبون) (HERALD TRIBUNE) الشهيرة والواسعة الانتشار في بريطانيا يقدم إحدى رحلات البابا إلى إفريقيا باعتبارها «حملة صليبية لمحاربة انتشار الإسلام»، ولم يستطع خطاب البابا الودي في المغرب في ختام هذه الرحلة الإفريقية أن يمحو الآثار التي بشرت بها الجريدة^(١)، والتي أحالت على تاريخ قديم لا تريد أوروبا نسيانه.

وخلال العقود الأخيرة حين حاول أنور عبد الملك تفسير اتجاه شريحة واسعة من القوى السياسية المحافظة في أوروبا إلى التحالف مع الأقليات اليهودية - التي طالما اضطهدوها - لمحاربة العدو المشترك وهو الصحوة الإسلامية، وجد أن الدافع القوي الذي يقف وراء ذلك هو أن هؤلاء السياسيين الأوروبيين المحافظين ليسوا سوى أحفاد الفرسان الصليبيين الذين قادوا الحملات الصليبية ضد البلاد الإسلامية: «فسجل ألقاب الطبقة الأرستقراطية الحاكمة في أوروبا الإقطاعية، وامتدادها في أسر البيوتات الغربية حتى اليوم يعبران حقيقة عن إرث أسر الضباط وصف الضباط الذين استبسلوا

(١) الشريف كامل. حوار الحضارات. ضمن أعمال الملتقى الدولي حول «الحوار بين الحضارات، التنظير والتنفيذ». تونس.



في ساحات القتال ضد المجتمعات الإسلامية أيام حروب الفرنجة، وقد أصبحوا بعد ذلك من صفوة من أراد ملوك وأمراء أوروبا المقاتلة أن يميزوهم عن ذويهم. أي أن أرستقراطية اليوم وريثة أشد محاربي الأمس ضد حضارتنا وديارنا»^(١).

٢- الكتابات ووسائل الإعلام:

ونجد تداعيات وآثار التشويه المتعمد لصورة الرسول ﷺ ودينه بارزة بشكل واضح لدى النخبة الأوروبية المثقفة التي لم تستطع - أو لم ترد - أن تتخلص من الموروث الثقيل الذي انتقل إليها عبر العصور من الكتاب والروائيين والشعراء. بل إن الكتب المدرسية التي تتناول الإنسان منذ الصغر فتغرس فيه أساسيات المعرفة وألف باء العلم قد أسهمت هي الأخرى بقسط وافر في تدعيم هذه الصورة، وإعطائها الشرعية العلمية لدى الأجيال الأوروبية المتعاقبة. ففي كتاب مدرسي فرنسي ظل يدرس منذ (١٩١٩ إلى ١٩٦٦ م) انتهى المؤلف إلى أن الإسلام: «دين مسخ ابتكره محمد الذي ادعى أنه نبي»^(٢)، وأن

(١) أنور عبد الملك. «الغرب والعالم الإسلامي: جدلية التاريخ ونظرة للمستقبل». مجلة العربي

ع ٥١٩. فبراير ٢٠٠٢ م. ص ١٠٥.

(٢) مارلين نصر. صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية. مركز دراسات =

الحروب الصليبية قد تم تنظيمها لأن أتباعه المتعصبين المتوحشين قد منعوا الحجاج النصارى من الوصول إلى بيت المقدس، وقتلوا منهم أعدادا كبيرة، فوجب على النصارى المخلصين أن يستعملوا القوة لتخليص قبر المسيح من أيديهم^(١).

وقد غامر بعض المفكرين العرب الذين سلخوا سنوات طويلة من أعمارهم في بلاد الغرب، وتبوأوا فيها مناصب علمية هامة بطرح إشكالية الجهل بنبي الإسلام، وضرورة الاقتراب من المصادر الأصلية لمعرفة على حقيقته، مستفيدين من شعارات حرية الفكر والتعبير، فإذا برد الفعل الأوروبي التلقائي القادم من أعماق القرون يتمثل أمامهم في أقصى صورته، وأشدّها عنفا يدافع عن هذه الصورة المتوارثة، ويرفض - في إصرار عجيب - كل بديل عنها، حتى ولو كان الوصول إليه عن طريق المنهج العلمي والأكاديمي.

ولعل في تجربة محمد أركون الباحث في الإسلاميات والأستاذ في جامعة السوربون الفرنسية ما يؤكد ذلك. فهو يعترف أن أكاديميته وتنويريته وراдикаليته لم تشفع له داخل الحرم الأكاديمي، وعند أجهزة الإعلام الأوروبية

=الوحدة العربية. بيروت. ١٩٩٥ م. ج ١. ص ٩٣.

(١) المرجع نفسه. ج ١. ص ٨٤.



عندما أقدم على انتقاد سلمان رشدي الذي أساء إساءات بالغة وجارحة إلى الرسول ﷺ: «على الرغم من أنني أحد الباحثين المسلمين المعتنقين للمنهج العلمي، والنقد الراديكالي للظاهرة الدينية إلا أنهم يستمرون في النظر إلي وكأني مسلم تقليدي. فالمسلم في نظرهم - أي مسلم - شخص مرفوض، ومرمي في دائرة عقائده الغريبة، ودينه الخاص، وجهاده المقدس، وقمعه للمرأة، وجهله بحقوق الإنسان وقيم الديمقراطية، ومعارضته الأزلية والجوهرية للعلمنة... هذا هو المسلم ولا يمكنه أن يكون إلا هكذا. والمثقف الموصوف بالمسلم يشار إليه دائما بضمير الغائب: إنه الأجنبي المزعج الذي لا يمكن تمثله أو هضمه في المجتمعات الأوروبية؛ لأنه يستعصي على كل تحديث أو حادثة، فكيف له إذن أن يلعب الغرور برأسه ويتنطح ليس فقط لدراسة العقل الغربي وإنما لنقده أيضا؟ ينبغي أن يعرف حدوده ويلتزم الصمت فلا يتدخل فيما لا يعنيه... ومن هذا المفكر المسلم حتى يجرؤ على أن يشمل بمشروعه النقدي عقل عصر الأنوار بنسخته: أي عقل الحادثة وما بعد الحادثة؟ كيف يمكن للأوروبي أن يقبل ذلك من شخص مسلم؟ هذا شيء لا يطاق»^(١).

(١) محمد أركون. الإسلام، أوروبا، الغرب. ترجمة هاشم صالح. دار الساقي. بيروت. ١٩٩٥.

وهو يؤكد أن هذا العائق الذي نسجته الثقافة الأوروبية، وأشبعته بمعاني العدا من الصعب جدا تجاوزه على مستوى النخبة الجامعية المثقفة، فما بالك بعامة الناس: «يعلم الله أني أخوض صراعات لا تحصى على جبهة الجامعات الأوروبية، وكذلك على جبهة الملتقيات والندوات في برلين أو بروكسل أو أوكسفورد أو السوربون أو أمستردام أو برنستون أو هارفارد... الخ، وكل ذلك من أجل شرح حقائق الإسلام بشكل تاريخي وموضوعي دقيق، ولكن العملية صعبة جدا، هذا أقل ما يقال»^(١).

وتمارس وسائل الإعلام الغربية ضد الإسلام والمسلمين عملية فكرية يسميها علماء النفس Deshumanization، تتمثل في رسم صورة سلبية منفرة تضع الإنسان المسلم وعقيدته في مرتبة متدنية، وتجرده من صفاته الإنسانية؛ وذلك بهدف تبرير وتسهيل العدوان عليه باعتباره إما كائنا أدنى في المرتبة، لا يتمتع بها للكائن الإنساني من حقوق وحرمانات.. وإما عدوا مخيفا يجب حشد ما في الوسع والطاقة لمواجهته وإخضاعه^(٢).

ولا تعدو سلسلة الرسوم الكاريكاتورية التي نشرت في عدد من الصحف

(١) المرجع نفسه. ص ٤٥.

(٢) عطية فتحي الويثي. حوار الحضارات، إشكالية التصادم وآفاق الحوار. ص ٦٥.



الأوروبية، والتي تسيء بشكل صارخ وطريقة جارحة إلى الرسول ﷺ، وتحمل في طياتها الكثير من دلالات العدوانية والتعصب أن تكون هي - أيضا - أثرا ثقافيا من آثار الصورة المشوهة التي تناقلها الأوروبيون جيلا بعد جيل، والتي أضحت عندهم حقيقة واقعة لا تشوبها شائبة الشك؛ لذلك استغرقت طائفة كبيرة من الشعوب الأوروبية التي نشأت على اللادينية والعبثية رد فعل الشعوب الإسلامية، وغضب المسلمين العارم في كل مكان على الإساءة البالغة التي لحقت برسول الله ﷺ؛ لأن أفقها المعرفي في هذا المجال لم يتعد حدود الموروث الملوث الذي استوعبته من بيئتها بكل نقائصه ومساوئه.

وبالرجوع إلى البدايات الأولى التي أفرزت هذه المجموعة من الرسوم نجد أنها دعوة من رئيس تحرير صحيفة (مورجينسفين يولاندس بوستن) الدانماركية موجهة إلى أعضاء اتحاد رسامي الكاريكاتير لرسم محمد كما يروونه. وقد رسمت هذه الطائفة من الدانمركيين التي تحسب على الطبقة المثقفة في المجتمع محمدا ﷺ كما تراه - فعلا - من خلال ثقافتها وموروثها الكنسي الممتد في أعماق التاريخ؛ فخرجت صورة تكاد تكون مطابقة لما كان يعتقد الأوروبي في القرون الوسطى: محمد العنيف، الإرهابي الدموي، الشهواني الذي يستغل النساء لإشباع نزواته ورغباته. ففي إحدى الصور رسم رجلا ملتحيا يحمل خنجرا،

وخلفه امرأتان منتقبتان. وفي صورة أخرى رجلا ملتحميا وعلى رأسه عمامة كتب عليها (لا إله إلا الله)، والعمامة تمثل قبلة كروية يتدلى منها فتيل. وفي صورة ثالثة رجلا ملتحميا يرفع يده لرجلين ملتحميين يعدوان، أحدهما يحمل سيفاً والآخر يحمل قبلة وبندقية، ورسم رابع يصور رجلا ملتحميا بعمامة يقف فوق غيمة، وأمامه طابور من الرجال يقول لهم: «توقفوا، توقفوا، لقد نفدت لدينا العذراوات». وهكذا، فقد بدأت الحملة العدائية في صحيفة دنهاركية، ثم أعيد النشر، بل وأضيفت رسوم أخرى بذئنة في صحف النرويج، والنمسا، وفرنسا، وألمانيا، وأيضا في عدد غير قليل من مواقع الانترنت الأوربية كتعبير قوي على وحدة التصور والتفكير.

فالصورة التي ترسم الآن في الرأي العام الأوروبي حول الإسلام ونبيه تستمد جذورها من القرون الوسطى التي أججت مشاعر العداء ضدهما، وأشعلت نيران الحروب الصليبية، ومن التاريخ الحديث الذي عزز سلبيتها عندما تمت صياغة العالم انطلاقا من مركز أوروبي قائم على ازدراء الآخر، والاعتقاد في دونيته وانحطاطه، وضرورة إقصائه. وهذه الصورة الأنموذج بكل زيفها وتشوهاتها والتي استقرت في أعماق اللاوعي الجماعي الأوروبي ما زالت تنتشر عبر تنشئة ثقافية موجهة، ترعاها الدولة وترسخها وسائل الإعلام، وهي



ثابتة ومكينة ومسؤولة إلى حد بعيد عن اتجاهات الرأي العام الأوروبي في تفاعلاته مع الأحداث السياسية والعسكرية إلى درجة جعلت أحد المفكرين العرب يتساءل في جزع وتشاؤم يدفع إلى اليأس: هل بإمكان الغرب الخروج من هذه الشرنقة التي نسجتها - جيدا - الأحكام القروسطية حول الإسلام؟^(١).

(١) هشام جعيط. أوروبا الإسلام: صدام الثقافة والحداثة. ص ١٥.

خامساً: نحو إستراتيجية شاملة لتحسين صورة النبى .

لقد تبين لنا مما سبق أن عداوة أوروبا لرسول الله ﷺ لها تاريخ طويل يمتد مع التاريخ الإسلامى كله، وأن هذه العداوة المفتعلة قد طرحت ثمارا مرة، وبنت لنفسها قاعدة مكيئة فى النفوس والعقول على اختلاف مستوياتها. ولم تكن الإساءات الجارحة التى تفجرت فى الآونة الأخيرة فى أوروبا سوى تعبيراً صريحاً عما كان يتم تداوله فى صمت وهذوء. فقد أيقظت الصحوة الإسلامية التى غطت بتيارها الهادر العالم الإسلامى كله، ثم ألقى بكلكلها فى قلب أوروبا وأمريكا الخوف القديم من الإسلام، والذى هداً قليلاً وانزوى فى ركن مظلم بعد الانتصارات الباهرة التى حققتها أوروبا فى جميع الميادين العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية، وأحكمت بها قبضتها الحديدية على العالم الإسلامى، وأهوت به إلى قعر التخلف والهوان والدونية والاستلاب الحضارى الكاسح.

وقد واجه العالم الإسلامى هذه الموجة من الإساءات التى بلغت حد الابتذال بموجات غضب عارمة امتدت لأسابيع طويلة، وأثارت لدى المسلمين بعامة تساؤلات كثيرة حول مصدر الجرأة الزائدة التى اتسمت بها، كما أثار استغرابهم أيضاً تحالف الأوروبيين مع بعضهم بعضاً فى هذه الحملة الحاقدة، لأن



الغالبية العظمى منهم تجهل تاريخ أوروبا مع رسول الإسلام. وعلى الرغم من أن الإساءات قد أصابت المسلمين جميعاً في الصميم، وعز عليهم أن يتجرأ السفهاء على المقام السامي لنبينا الكريم عليه الصلاة والسلام، إلا أن ردود الفعل الإسلامية إزاءها أثبتت قصورها وعفويتها وارتجالها، بل إن بعض هذه الردود التي بالغت في التعبير عن الغضب الإسلامي قد اتخذها كثير من المغرضين الأوروبيين كذريعة لترسيخ المفاهيم الخاطئة الرائجة عن النبي ﷺ عندهم، وتجديد الهجوم من خلالها على شخصه الكريم، وعلى الدين الذي بشر به.

كما أن التحركات التي شهدتها النخب المثقفة بقيت في غالبيتها العظمى حبيسة البيئة الإسلامية. فكلما هاجم الأوروبيون الرسول الكريم بتهمة معينة، وألصقوا به صفة بذينة سارع كتابنا إلى ردها وتفنيدها في الوسط الإسلامي، وكأنهم يحاولون أن يقنعوا المسلمين ببطلان التهمة وزيفها، بينما الذين يجب أن تتوجه إليهم هذه الردود هم المهاجمون، ثم الشعوب الأوروبية التي تتلقى هذا السيل من الإساءات بما يتناسب مع ما تحمله في أعماقها من ترسبات سلبية فيزداد يقينها بصدقه.

لقد وضعنا الأحداث الأخيرة أمام مسؤوليتنا الحضارية، وأثبتت لنا أن الوقت قد حان لنستعد لخوض المعركة الفكرية الشاقة التي تتمخض عن تبرئة

- رسول الله ﷺ - من كل التهم والأراجيف التي ألصقت به ظلما وعدوانا طيلة أربعة عشر قرنا في أوروبا، كما علمتنا السنوات القليلة الماضية - والتي شهدت تصاعدا غير مسبوق في الهجوم على رسول الله ﷺ في أوروبا - أن نتجاوز ردود الفعل السريعة والمرجلة، والمظاهرات الصاخبة التي ترافقها أعمال شغب ممجوجة كحرق السيارات، وتدمير الأملاك، والاعتداء على الأشخاص، وما إليها من التصرفات التي لا تليق بالعقلاء، وأن نكون في مستوى الحدث بما يتطلبه من تثبت، وتروٍّ يحتم علينا أن ندرس الأرضية التي نقف عليها؛ لنتمكن من كسب القضية المصيرية التي نعمل على نصرتها، وأن ننبنى خيار المواجهة الفكرية والحضارية، والعمل الجاد المنظم طويل الأمد بمختلف الوسائل والأساليب المتاحة والممكنة، فهذا هو السبيل الوحيد - في الوقت الراهن - للوصول إلى الهدف.

إن نصره رسول الله ﷺ وكف الألسنة الحاقدة عن الخوض في عرضه والظعن في أخلاقه بمختلف أساليب الإهانة والتجريح تتطلب منا إعداد إستراتيجية واضحة المعالم، يتم من خلالها تجنيد طاقات الأمة في جميع القطاعات والميادين، وتوظيف المواهب والكفاءات في عمل مثمر، منظم ومدرّس، وموجه نحو أهداف مسطرة على المستويين القريب والبعيد حتى لا تذهب



الجهود سدى، ولا تستنزف الأعمال الاستعراضية - التي لم تعد تخيف أحدا - أوقاتنا، وحماس شبابنا، وعواطف شعوبنا.

وهذه الإستراتيجية التي غدت مطلبا حيويا أكثر من أي وقت مضى، يجب أن ترسم أهدافها وبرامجها بحيث تكون موجهة في الأساس إلى أوروبا بكل أطيافها، لأن الإساءات والإهانات صدرت من هناك عن حقد أو عن جهل أو عن سفاهة واستهتار أو لأسباب أخرى، بحيث تأخذ كل المبادرات هذه القضية بعين الاعتبار، فالمسلمون مهما ابتعدوا عن منابع دينهم، وغفلوا عن إقامة شعائره، والالتزام بأوامره ونواهيه ليسوا بحاجة إلى من يذكرهم بعظمة رسول الله وسمو مكانته؛ لأنهم فعلا يحبونه، ولا يدور بخلد أحدهم أن يتجرأ على مقامه السامي، وقد رأينا من عجائب هذا الشعور العفوي الذي يسكن في أعماق كل مسلم أثناء مظاهرات الغضب والاحتجاج ما يكفينا. لذلك فإن جهود النصرة يجب أن تتوجه كما أسلفنا إلى الآخر لسد الشغرات المفتوحة في جدارنا.

ومن نافلة القول التأكيد على أن تكون أبجديات هذه الإستراتيجية مبنية على معرفة تامة وعميقة بالمجتمع الأوروبي، واطلاع واسع على ثقافته في مصادرها التاريخية والتطورات التي مرت بها والاتجاهات التي تتجاذبها اليوم وتأثير ذلك كله في ذهنيات شعوبها على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم، ودراسة

شاملة للدوافع التي تقف وراء موجة الإساءات، وردود الفعل الأوروبية تجاهها سواء الإيجابية منها أم السلبية، حتى يجد الخطاب الموجه إليهم صдаه ويقع موقع التأثير المطلوب.

ومما لا شك فيه أن هذا المشروع العلمي الطموح يتطلب تكاتف وتآزر جميع فعاليات الأمة، وكفاءاتها، وأموالها تحت شعار نصرة الرسول ﷺ، وتعريف أوروبا ومن ورائها كل أمم الأرض بسيرته العطرة، وشأله الرقيقة وفضله العظيم على البشرية؛ حينما قضى ثلاثة وعشرين عاما من عمره الشريف يناوئ الكفر والشرك ويحرر الإنسان من قيود الخرافة، وأغلال الطبقة المقيتة، وشعوذة رجال الدين وسطوتهم الظالمة، ويطلق العنان لملكاته العقلية ومواهبه الدفينة لتتحرر وتنطلق في أرجاء الأرض تملؤها خيرا وحقا.

والعبء الأكبر من هذا المشروع يقع على عاتق النخب المثقفة في العالم الإسلامي، فهي التي بمقدورها أن تنهض بهذه المسؤولية الثقيلة، وتتصدى لهذا التحدي الكبير الذي يتطلب منها أن تكون في مستوى الأحداث، وتجتهد في امتلاك الآليات الفعالة التي تتيح لها ولوج الفضاء الأوروبي ومخاطبته باللغة التي يفهمها، والأسلوب الذي يتقبله، والطريقة التي تتناسب مع نسق ثقافته ليكون للمواجهة الثقافية أثرها الواضح وصداها المقصود.



إن الحلول والمقترحات التي تفرضها علينا هذه الحالة من الحرب الثقافية والإعلامية المعلنة تبين بما لا يدع مجالا للشك أن الأمل معقود بالمتقنين بالدرجة الأولى، ثم الحكومات والدول، والمؤسسات الرسمية والشعبية، وأصحاب الأموال الذين يتعين عليهم أن يمولوا هذا المشروع؛ لينصروا نبيهم، ويحفظوا للأمة كرامتها وكبرياءها. ومن جملة هذه الحلول والمقترحات ما يلي:

- الاستفادة القصوى من البث الفضائي المباشر بإطلاق قناة، أو عدة قنوات فضائية تتبنى مشروع نصره رسول الله ﷺ بطريقة عقلانية هادئة، وتتوجه إلى المشاهد الأوروبي بجملة من البرامج المدروسة التي تستعمل خطابا إعلاميا عصريا ونقديا وموضوعيا يبتعد عن رتابة الإعلام الإسلامي السائد اليوم والذي لا يتقبله العقل الأوروبي، على أن تشرف عليها كفاءات عالية في مجال اللغات، وأخرى في مجال الإبداع الإعلامي تمتلك مهارات التحكم في استخدام رموز الصورة، وإلمام كاف بالكيفيات العلمية التي يتم بها شحن الصورة بالرموز والمعاني والإيحاءات المطلوب إيصالها إلى المتلقي، وهذا مجال فسيح لاقتحام الفضاء الأوروبي؛ لأن ثورة المعلومات والاتصالات الحديثة قد حولت الإعلام الفضائي ليتبوأ مكانة مركزية يستطيع من خلالها أن يوجه

الثقافات، ويغير الذهنيات، ويقلب القيم، ويزرع القناعات التي يريدها القائمون على الآلة الإعلامية في عصر السموات المفتوحة.

- استغلال مجال الاتصالات غير المحدود الذي تتيحه لنا الشبكة العنكبوتية لإطلاق عشرات بل مئات المواقع بمختلف اللغات الأوروبية يتم تخصيصها للحديث عن رسول الله ﷺ بلغة علمية رصينة ودقيقة، مؤيدة بالشواهد التاريخية، ومعززة بالدراسات العلمية الموثقة، تقدم سيرته، وتؤرخ لمسيرته الدعوية، وتعرض للشبهات المثارة حوله، وترد عليها في هدوء ومنطق بعيدا عن العاطفة الجياشة واللغة الخطابية الحماسية، وتحمل المتخصصون من أبناء المسلمين في هذا الميدان مسؤولية الاتصال بالمواقع الأوروبية التي يلمسون فيها ميلا نحو نشدان الحقيقة، والبحث عنها؛ لعرض محتويات المواقع ودعوتهم لمناقشتها وإثرائها بتدخلاتهم وآرائهم واقتراحاتهم؛ حتى تتضح الجوانب الضبابية وتخرج التساؤلات إلى العلن، ويتم طرحها على بساط البحث بعيدا عن التشنج والانفعال. ومما لا شك فيه أن هذه الخطوة التي يجب أن تخضع للتخطيط والدراسة ستتبعها خطوات أخرى، وتوسع دائرتها بدخول أطراف جديدة مؤيدة أو معارضة، ولا نستبعد



أن تنجح في تحريك الوضع الراكد، وإثارة الشك والحيرة والتساؤلات في النفوس التي تبحث عن الحق، وتحب أن تعرف الرأي الآخر بعيدا عن تهويلات الصحافة العالمية والخطاب النمطي السائد.

- السعي لمواكبة الأحداث بإنشاء مرصد إسلامي توكل إليه مهمة رصد وتحليل جميع ما يكتب وينشر ويذاع عن الإسلام ونبيه في العالم، ثم دراسة هذه الإصدارات وتحديد القضايا التي تحمل بين طياتها سوء فهم عن الإسلام ونبيه، أو شبهات مثارة، أو محاولة للطعن والتشويه المتعمد، ثم تهيئة الرد عليها وتوضيح جوانبها ونشرها بمختلف اللغات العالمية التي تتيح لهذه الردود الوصول إلى أكبر شريحة من القراء والمستمعين والمشاهدين الذين يجدون أمامهم صيغة الهجوم وصيغة الدفاع فيستطيعون الفصل في القضية وإتباع الحق الذي تدلهم عليه عقولهم.

- تتحمل الجامعات في مختلف بلدان العالم الإسلامي نصيبا وافرا من مسؤولية نصررة رسول الله ﷺ، باعتبارها المحضن الذي تتكون فيه النخب المثقفة وتخرج منه الكفاءات العلمية. لذلك يتعين عليها أن تفتح في مجال الدراسات العليا المتخصصة فروعاً لدراسة الخلاف

الحضاري الأوروبي الإسلامي بطريقة علمية أكاديمية، وتتبع التطور التاريخي لهذا الخلاف، ورصد آثاره، واقتراح الحلول المناسبة للتعامل معه في ضوء النتائج العلمية المتمخضة عن هذه الدراسات التي يشترط فيها أن تكون جادة ودقيقة، وهذه الخطوة هامة وضرورية؛ لأنها ستساعد أطرافاً كثيرة في إعداد خططها وبرامجها لتكون موجهة في الاتجاه السليم الذي يضمن لها إصابة الهدف والوصول إلى الغاية المرجوة.

- تعبئة الجاليات والمؤسسات الإسلامية في أوروبا لتقوم بواجبها لإنجاح مشروع نصره رسول الله ﷺ، والذب عن عرضه والدفاع عن سيرته الطاهرة التي تناولها أقلام وألسنة السوء. ويتمثل هذا الواجب في التحرك النشيط المدروس والهادئ لتنظيم حملة التوعية والتعريف بالإسلام، ونبهه الكريم في مختلف وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة حسب ما يتاح لها من إمكانيات، على أن تكون المادة التعريفية مشوقة ومؤثرة، وموجهة إلى الأوروبيين بما يتناسب مع عقلياتهم وينسجم مع طرق تفكيرهم، بحيث تتصيد مواقع التأثير فتركز عليها. كما يقع على عاتق الجاليات والمؤسسات الإسلامية في أوروبا مهمة الاتصال بالفعاليات الأوروبية ذات الاتجاهات المعتدلة، والشخصيات



السياسية والثقافية التي ترفض الأسلوب الهابط الذي استعمله المهاجمون للنيل من النبي الكريم، وتحبذ الأسلوب الحضاري الراقي القائم على محاولة اكتشاف الآخر من خلال محاورته والتواصل الحي معه. وهذه الطائفة لها وجودها المميز في الساحة الأوروبية، ولها كلمتها المسموعة في محافل عديدة، وإشراكها في حملة التعريف بالرسول - عليه الصلاة والسلام - بمخاطبة الجانب العلمي والحضاري فيها سيكون له تأثيره الخاص على نجاح المشروع.

إن التيار الرافض للحملة المسيئة لرسول الله ﷺ له موقعه المتميز في النسق الثقافي الأوروبي، لكنه يعاني من التعقيم، والتغيب عن الساحة الإعلامية في الوقت الذي يتم فيه تسليط الضوء على نحو مريب على الطائفة الحاقدة على الإسلام بتشجيعها على إبراز عدوانيتها ونفث سموم كراهيتها. والمسلمون - هناك - مطالبون بأن يبادروا إلى إجراء حوار مستمر مع هذا التيار، وعقد لقاءات وندوات متواصلة مع أصحابه دعماً لمواقفهم المؤيدة لحوار حضاري بناء، يتعرف فيه كل طرف على الآخر من خلال تبادل المعارف، ولا نستبعد أن يكون لذلك أثره في تغيير المزاج الثقافي الأوروبي وتعديل إدراكه الفكري تجاه الإسلام ونبيه.

ومن جملة النشاطات المهمة التي تستطيع الجاليات والمؤسسات الإسلامية في أوروبا مباشرتها، والاعتماد عليها في تقوية حملة نصرة النبي - عليه الصلاة والسلام - العمل على استئجار بعض الأوقات في القنوات والإذاعات الأوروبية؛ لعرض ومضات عن الإسلام ونبيه، تشرف على صياغتها كفاءات إسلامية ذات مواهب متميزة في مجال الإعلان، ولها تجربة وخبرة رائدة في استعمال التقنيات الإعلامية الحديثة التي تتوخى الأساليب النفسية الناجعة التي تضمن وصول الرسالة السريعة إلى المستمع والمشاهد بنجاح.

ويندرج في هذا الإطار - أيضا - إقامة معارض دولية متنقلة، ودائمة في المطارات والأسواق والأماكن العامة، وأسابيع ثقافية عبر مختلف الدول الأوروبية بالتنسيق مع الجهات المسؤولة. ومما لاشك فيه أن هذه المبادرات ستلقى معارضة شديدة من الطائفة العنصرية المتشددة، ومن الحاقدين على اختلاف انتماءاتهم الدينية والسياسية، إلا أن ذلك ليس داعيا لليأس والخذلان، وعلى المؤمنين بالقضية أن يستمروا في عملهم في الإطار القانوني الذي يُسَمَح لهم به، والله لا يضيع أجر المحسنين.

- ينبغي على الهيئات والمؤسسات الكبرى في العالم الإسلامي (منظمة المؤتمر



الإسلامي، رابطة العالم الإسلامي، الجامع الأزهر، الندوة العالمية للشباب الإسلامي...) أن تهتم بإرسال وفود رسمية عنها تتكون من نخبة من العلماء الذين جمعوا إلى المعرفة العميقة بالإسلام ومقاصده اطلاعا واسعا واستيعابا قويا للحضارة الغربية في كل تجلياتها، وتكون مهمة هذه الوفود التي تجوب أقطار القارة الأوروبية برحلة جملة من اللقاءات الصحفية والمتلفزة، وإقامة الندوات والمؤتمرات والمحاضرات، والمشاركة في الحوارات العلمية، وتنظيم اللقاءات مع الجمهور في كل مكان للتعريف بالإسلام، وتاريخه وشريعته، وسيرة نبيه ومبادئه، وكل ما يمكن أن يساهم في توضيح هذه الجوانب للإنسان الأوروبي، وتلقي التساؤلات والإجابة عليها، وتنشيط جلسات المناقشة، وتبادل الرأي في جو علمي هادئ بعيدا عن التشنجات والانفعالات.

- إصدار مجلات تتخصص في عرض سيرة الرسول ﷺ بطريقة حديثة وعلمية بمختلف اللغات الأوروبية، وتمكين الهيئات الرسمية والشعبية والمؤسسات الثقافية والجامعات والمعاهد في أوروبا من الحصول عليها.
- استنهاض همم جميع أفراد الأمة وتعبئتهم؛ لتخصيص صناديق تبرع لتمويل هذه الحملات التي تهدف إلى نصره رسول الله ﷺ، ودفعهم

إلى المساهمة في إنجاحها بالإنفاق المستمر عليها ولو بأقل القليل، واعتماد الأسلوب الجاري الذي عرف نجاحا متميزا في هذا المجال مثل: ادفع دولارا تكفل يتيما. وقد دعا أحد الكتاب المسلمين إلى مثل هذا حينما أطلق حملة مليار ونصف مليار أورو على أن يدفع كل مسلم أورو واحدا ليساهم في نصرة نبيه. وهذه مبادرة ضرورية وحيوية لكي ترى المشاريع والمقترحات المطروحة النور، وتدخل حيز التنفيذ، فالمال هو عصب الحياة، وهذه القضية لا تخص الحكومات فقط، بل هي قضية الشعوب بالدرجة الأولى.

- يقع على عاتق رجال القانون الدولي المسلمين التعاون والتنسيق فيما بينهم لاستغلال ما يتيح الغرب من قوانين لمعاقبة القائمين على الرسوم الكاريكاتورية، وكل من سار على دربهم وساندهم. وحسب ما نشره بعض المدافعين عن النبي - عليه الصلاة والسلام - فإن في القوانين الأوروبية جملة من المواد القانونية التي تخدم قضيتنا، وعلى المسلمين أن يستغلوها ليردوا الاعتبار لنبيهم مما لحقه من إهانات وتجريح. ومنها قانون جيسو Gaysso الفرنسي الذي حوكم به روجيه غارودي؛ عندما شكك في محرقة اليهود، والذي ينص على تجريم ومعاقبة من يعادي



السامية، بالإضافة إلى قمع التصرفات العنصرية وكرهية الأجانب،
وعدة قوانين أخرى في الدساتير الأوروبية المختلفة ضد العنصرية
والتمييز والتشهير، وبلي ذلك تكوين آليات للضغط الدولي المستمر من
أجل سن تشريعات وقوانين دولية تمنع الإساءة إلى الأنبياء بعامة وإلى
رسول الله ﷺ بخاصة. ومن جملة المهام التي تناط برجال القانون في
مثل هذه الحالة تفنيد دعوى حرية الرأي والتعبير التي يختفي وراءها
المجرمون ومن يناصرهم والتأكيد على: «أن كل القوانين تُجرّم سبَّ
الأشخاص والقذف في حقهم، حيث لا يمكن أن يعد ذلك نوعاً من
حرية التعبير، لأنَّ السَّبَّ في هذه الحالة يعد عدواناً على شخص آخر،
ومن ثمَّ فإنَّ الأولى بالتجريم هو من يسب نبي الإسلام الذي يؤمن
بنبوته ورسالته ربع سكان الكرة الأرضية»^(١).

(١) خالد بن عبد الرحمن بن حمد الشايع. موقف المسلم من الرسوم السويدية المسيئة للنبي
الكریم ﷺ. جريدة الرياض. الأربعاء ٢٣ شعبان ١٤٢٨هـ - ٥ سبتمبر ٢٠٠٧م - العدد
١٤٣١٧.

الخاتمة

إن الصورة النمطية التي نسجتها أوروبا عن الإسلام وعن الرسول ﷺ - بعدما فاجأها المد الإسلامي في عقر دارها - قد غلب عليها الإجحاف، وطغت عليها السلبية المفرطة، وأحاطتها مشاعر الحقد والكراهية من كل جانب، وعزز وجودها الجهل المطبق تارة، والتجاهل المتعمد للحق تارات كثيرة، ولم نجد في طيات الفكر الأوروبي على امتداد القرون وتقلبات الظروف سوى أصوات هزيلة تصدر من هنا وهناك عن مفكرين وفلاسفة وكتاب اقتربوا من منبع النور فأضاء دواخلهم، فرفضوا في قوة توجهات أقوامهم، وأعلنوا عن الحقيقة الناصعة التي اكتشفوها في شخصية رسول الله - ﷺ - بكل عظمتها وشموخها، وفندوا ما شاع عنه من مثالب وضلالات وأكاذيب، وهذا هو الجانب المنصف الذي حاول أن يرسم بعض معالم الصورة الحقيقية للنبي الكريم وسط أمواج متلاطمة من الرفض والاستنكار والجحود.

لقد تبين لنا - من خلال تأريخنا لتشكّل صورة النبي ﷺ في الفكر الأوروبي، وعرض تجلياتها وأبرز معالمها، والتطرق إلى أهم الآثار المترتبة عن



الاعتقاد في صدق هذه الصورة المشوهة - أن العضلة التي يعاني منها الفكر الأوروبي في تعامله مع النبي ﷺ، ومن ثم المسلمين في كل أقطار الأرض منشؤها ديني ثقافي. وإذا كانت تداعياتها قديما محدودة بالزمان والمكان، فإنها اليوم قد برزت بشكل سافر وقبيح، وأصبحت مثارا للجدل، وداعية لاحتدام الصراع بين المسلمين والغرب، وذريعة لكل من يرغب في التنفيس عن أحقادهم، أو في الحصول على منصب سياسي، أو في استدراج عطف الجماهير الأوروبية، وجلب نصرتها بعد كل عدوان غاشم على البلدان الإسلامية.

ومما لاشك فيه أن هذا التماهي في الإساءة إلى الإسلام ونبيه سيأخذ أبعادا أخطر، وبخاصة في عصر السموات المفتوحة، وفي خضم ثورة الاتصالات والمعلومات التي لا زالت تمز العالم في كل آن، وتقرب البشر بكل اختلافاتهم الإثنية واللغوية والدينية والثقافية أكثر فأكثر، حتى لتكاد تصهرهم في بوتقة واحدة بعد أن ربطتهم المصالح والتبادلات بشبكة عالمية لا انفكاك منها. لذلك يتعين على المسلمين جميعا - سواء المقيمين في بلدانهم أو المهاجرين في أوروبا والذين أصبحوا يشكلون أقلية لها وزنها واعتبارها الخاص - أن يأخذوا هذه القضية الحيوية بعين الاعتبار، ويحولوها إلى مشروع حضاري هدفه الاستراتيجي البعيد تحريك الفكر الأوروبي الذي تكوّن حول الرسول الكريم،

وحلحلته، ووضع على بساط البحث لتسريحه وتقييمه، ومواجهة أصحابه بالحقائق المغيبة، ومجادلتهم في قناعاتهم ومسلماتهم التي ظلوا خاضعين لها دون أن يكلفوا أنفسهم عناء نقدها وتمحيصها، ودحض الأحكام المسبقة وتقديم البديل الثقافي الصحيح لكل ذلك الركام الزائف.

وهذا يتطلب جهودا مخلصه ومستمرة؛ لأنها معركة ثقافية طويلة الأمد، وتحذ شاق. فليس من السهل أن يغير الإنسان عقليات شعوب درجت على جملة من الاعتقادات حتى أضحت من البدييات، واستبدالها بمنظومة مغايرة تماما لها. لكنها من جهة أخرى مطلب أساسي وضرورة ملحة، ولعل مما يخفف من عبء هذه المهمة النبيلة ما توفره التقنية الحديثة لبني البشر من فرص ثمينة للتواصل والثقاف، وما يطبع كثيرا من الناس في عصرنا من الميل نحو معرفة الآخر واكتشافه، وهذا الفضاء المتحرر من القيود يحتم على المسلمين أن يستثمروه إلى أقصى حد، وأن يستثمروا معه جميع الإمكانيات التي تقدمها لهم الثورة العلمية والتقنية، وأن يوطنوا أنفسهم على أن يكونوا هم المبادرين باقتحام فضاء الآخر، بأخذ زمام المبادرة، وتبني أساليب جديدة ومتنوعة في طرق الخطاب، حتى يخرجوا من الدائرة الضيقة التي حشروا أنفسهم فيها منذ لحظة الاصطدام بالغرب، والتي تتمثل في ردود الأفعال، وانتظار الهجوم للتأهب



بعده للدفاع، ثم الركون إلى الهدوء والغفلة، إلى أن تبدو في الأفق بوادر هجوم جديد آت من هناك، فتتحفز الهمم من جديد؛ لأن ردود الأفعال لا تصنع التاريخ ولا تغير الواقع.

قائمة المراجع

أولاً: المراجع العربية:

- (١) إدوارد سعيد. الاستشراق. ترجمة: كمال أبو ديب. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. ١٩٨١م.
- (٢) إرنست رينان. دراسات في التاريخ الديني، باريس. ١٨٥٩م.
- (٣) ألكسي جورافسكي. الإسلام والمسيحية. ترجمة: خلف محمد الجراد. سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. جمادى الآخرة ١٤١٧ هـ. نوفمبر ١٩٩٦م.
- (٤) باسم خفاجي. لماذا يكرهونه؟ الأصول الفكرية لعلاقة الغرب بنبي الإسلام ﷺ. كتاب البيان، الرياض. ط ١. ١٤٢٧ هـ. ٢٠٠٦م.
- (٥) تركي علي الربيعو وزكي الميلاد. الإسلام والغرب: الحاضر والمستقبل. دار الفكر. دمشق. ط ٢. ٢٠٠١م.
- (٦) تولستوي ليون. حكم النبي محمد. نقله إلى العربية: سليم قبعين. مصرية للنشر والتوزيع. القاهرة. ط ٣. ١٩٨٧م.
- (٧) بودلي. ر. ف. الرسول: حياة محمد. ترجمة: محمد محمد فرج، و: عبد الحميد جوده السحار. مكتبة مصر. القاهرة.

- (٨) جودت سعيد. لم هذا الرعب كله من الإسلام؟
- (٩) جلال العالم. قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أيدوا أهله. دار الاعتصام. القاهرة.
- (١٠) ريتشارد نيكسون. الفرصة السانحة. ترجمة أحمد صدقي مراد. القاهرة. ١٩٩٢ م.
- (١١) ساسي سالم الحاج. الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية. منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي. مالطا. ط ١. ١٩٩١ م.
- (١٢) الشريف كامل. حوار الحضارات. ضمن أعمال الملتقى الدولي حول «الحوار بين الحضارات، التنظير والتنفيذ» تونس. ٢٠٠١ م.
- (١٣) عبد الحليم محمود. أوروبا والإسلام. المكتبة العصرية. بيروت.
- (١٤) عبد الرحمن بدوي. دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقسين من قدره. ترجمة: كمال جاد الله. الدار العالمية للكتب والنشر. القاهرة.
- (١٥) عبد الرحمن بدوي. موسوعة الفلسفة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. ط ١. ١٩٨٤ م.
- (١٦) عبد العزيز الثعالبي. محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط ١. ١٩٨٥ م.
- (١٧) عبد العظيم محمود الديب. المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي. سلسلة كتاب الأمة. رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية. قطر. ط ١. ربيع الثاني ١٤١١ هـ.

- (١٨) عبد الله محمد الأمين النعيم. الاستشراق في السيرة النبوية. منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي. فرجينيا. الولايات المتحدة الأمريكية. ط ١. ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- (١٩) عبد المجيد الشرفي. الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. الدار التونسية للنشر. تونس. ١٩٨٦م.
- (٢٠) عطية فتحي الويثي. حوار الحضارات، إشكالية التصادم وآفاق الحوار. مكتبة المنار الإسلامية. الكويت. ط ١. ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- (٢١) علي سامي النشار. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. دار المعارف. القاهرة. ط ٥. ١٩٧١م.
- (٢٢) لامارتين. تاريخ الأتراك. طبعة باريس. ١٨٥٤م.
- (٢٣) مارلين نصر. صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ١٩٩٥م.
- (٢٤) مايكل هارت. الخالدون مائة.. أعظمهم محمد ﷺ. ترجمة: أنيس منصور.
- (٢٥) مجموعة من المؤلفين. مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية. مكتب التربية العربي لدول الخليج. الرياض. ١٩٨٥م.
- (٢٦) محمد أركون. الإسلام، أوروبا، الغرب. ترجمة هاشم صالح. دار الساقي. بيروت. ١٩٩٥م.



صورة النبي ﷺ في الفكر الأوروبي بين الإجحاف والإنصاف

- (٢٧) محمد حسين هيكل. حياة محمد. دار المعارف. القاهرة. ط ١٤.
- (٢٨) محمد عبد العظيم علي. السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون. دار الدعوة للنشر والطبع والتوزيع. الإسكندرية. ط ١. ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- (٢٩) محمد عابد الجابري. مسألة الهوية: العروبة، الإسلام والغرب. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ١٩٩٥ م.
- (٣٠) محمد عزت الطهطاوي. في الدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين. مكتبة دار التراث. القاهرة. ١٣٩٩ هـ. ١٩٧٩ م.
- (٣١) محمد عمارة. إستراتيجية التنصير في العالم الإسلامي. مركز دراسات العالم الإسلامي. مالطا. ط ١. ١٩٩٢ م.
- (٣٢) محمد عمارة وآخرون. العالم الإسلامي والنظام الدولي: الخلفية التاريخية والتحديات المعاصرة. مركز دراسات العالم الإسلامي. مالطا. ط ١. ١٩٩٢ م.
- (٣٣) محمد محمد أبو ليلة. محمد بين الحقيقة والافتراء. دار النشر للجامعات. القاهرة. ط ١. ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- (٣٤) محمد نور الدين أفاية. الغرب المتخيل: صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط. المركز الثقافي العربي. بيروت. ط ١، ٢٠٠٠ م.
- (٣٥) محمود حمدي زقزوق. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. سلسلة كتاب الأمة. رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية. قطر. ط ٢. صفر الخير ١٤٠٤ هـ.

- (٣٦) مصطفى نصر المسلاقي. الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين. دار اقرأ. طرابلس. ليبيا. نوفمبر ١٩٨٦ م.
- (٣٧) مصطفى خالدي وعمر فروخ. التبشير والاستعمار في البلاد العربية. المكتبة العصرية. بيروت. ط ٥. ١٩٧٣ م.
- (٣٨) ميخائيل زابوروف. الصليبيون في الشرق. ترجمة: إلياس شاهين. دار التقدم. موسكو. ١٩٨٦ م.
- (٣٩) نجيب العقيقي. المستشرقون. دار المعارف. القاهرة. ط ٤. ١٩٨١ م.
- (٤٠) هشام جعيط. أوروبا الإسلام: صدام الثقافة والحادثة. سلسلة السياسة والمجتمع. دار الطليعة. بيروت. ١٩٩٥ م.
- (٤١) ابن هشام. السيرة النبوية. حققها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي. دار القلم. بيروت.
- ثانياً: الدوريات.
- (٤٢) مجلة المسلم المعاصر. س ١٩، ع ٧٣ - ٧٤، أغسطس ١٩٩٤ - يناير ١٩٩٥ م.
- (٤٣) مجلة العربي ع ٥١٩. فبراير ٢٠٠٢ م.
- (٤٤) جريدة الرياض. الأربعاء ٢٣ شعبان ١٤٢٨ هـ - ٥ سبتمبر ٢٠٠٧ م - العدد ١٤٣١٧.



ثالثاً: المراجع الأجنبية:

- (45) Philippe Hitti. Islam and the West. A historical survey. London. 1962. p 50
- (46) Norman Daniel. Islam et Occident. traduit par: Alain Spiess. Ed du Cerf.Paris. 1993. p 151
- (47) Edouard Gibbon. Decline and fail of the Roman empire.ed by J.B. Bury.London. 1909 – 1914.vol 5. p 3321
- (48) George Bernard Shaw. The Genuine Islam. Singapore. Vol 1. N° 8. 1936
- (49) Philipe Sénac. L'image de l'Autre, histoire de l'occident médiéval face à l'islam. Ed. Flammarion. Paris. 1983. p 17
- (50) G. Zananiri. L'Eglise et l'Islam. Paris. 1969
- (51) M.P. Holt. The Treatment of Arab History by Prideaux.Ockley and Sale – Historians of the Middle East (London. 1962)

ابيض



صورة النبي ﷺ في كتاب غونزال

« محمد وإنجازه MAHOMET ET SON ŒUVRE »

أصول عناصرها وأدوات بنائها

إعداد

د. محمد الحافظ الروسي

أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

تطوان - المملكة المغربية

ابيض



- ١ -

ظهر كتاب إينياس لويس غوندال ignace louis gondal (١٨٥٤ - ١٩٢٠)^(١):

«محمد وإنجازه. MAHOMET ET SON ŒUVRE» بياريس سنة:

١٨٩٧ م، ضمن سلسلة (مكتبة الدراسات الجديدة). وهي سلسلة أراد أصحابها

منها أن تكون ممهدة لجميع طبقات القراء بغاية الدفاع عن الدين المسيحي

ومواجهة أعدائه الذين كانوا يرددون عبر كل الأجهزة التي يملكونها أن هناك

تعارضاً بين حقائق العلم الحديث وبين الاعتقادات النصرانية.

ولكي تكون ميسرة لجميع القراء فقد اشترط أصحاب هذه السلسلة أن

تكون الأبحاث المنشورة فيها مميزة بصفات هي: الاختصار والوضوح وأن

تكون جذابة مفهومة، ووضعوا شرطاً خامساً ميزوه عن غيره وزعموا التشدد

فيه وهو شرط أن تكون هذه الأبحاث علمية.

وجعلوا هدفاً لكل هذه الأبحاث - بزعمهم - أن يدلُّوا في كل موضوعٍ

مَوْضُوعٍ على الحالة الراهنة الدقيقة لكل إشكال يتعرضون له، وأن يعطوا كلمة

(١) كان غوندال أستاذاً لمادة التاريخ وإثبات عقائد النصرانية بمدرسة سان سوليس - saint-

sulpice الإكليريكية.

العلم الأخيرة في الموضوع. وزعموا أنهم بذلك يساهمون في حدود قدراتهم في الجمع بين الإيمان والعلم، عملاً بتعليمات البابا ليون الثالث عشر الذي حث الكاثوليكين على استعمال المعارف والمناهج العلمية في الدفاع عن عقيدتهم^(١).

فهذا هو الإطار العام الذي ظهر ضمنه هذا الكتاب. ولا يخفى على المتأمل أن هذا الإطار موقع للباحث في ثلاثة أنواع من الخلل:

أولها: متعلق بالمنهج؛ لأن الدارس لن يكتب باحثاً عن الحقيقة، وإنما سيكتب مستعملاً صورة العلم لا حقيقته للدفاع عن النصرانية بإثبات عدم صحة ما سواها.

وثانيها: متعلق بالباحث نفسه؛ لأن البحث هنا لن يكتب بقلم باحث محايد، وإنما سيكتب بقلم رجل دين غايته إثبات صحة عقيدته بتمويه ما سواها. وثالثها: متعلق بالمقصد والغاية؛ لأن البحث، من قبل أن يكتب، موضوع في إطار عام يخضع له وينظر إليه. فهذا البحث جزء من مشروع كبير يستضيء أصحابه - كما ذكروا - بمصباح الإرشادات الكاثوليكية والتعليمات البابوية، فلا سبيل إلى الخروج عما قرره الكنيسة؛ فالباحث لهذا السبب ليس أكثر من ملخص لما استقر عليه رأي الكنيسة في زمانه.

(١) ن. مقدمة ناشر الكتاب.



وإذا كان هذا الإطار العام الذي ذكرناه قد أفسد على الباحث غوندال بحثه منذ البداية فإن مما زاد بحثه فسادا طبيعة تفكيره، فقد كان الرجل يرى أنه يكتب في إطار صراع مميت بين الإسلام والنصرانية لا بد أن ينتهي بانتصار إحدى الديانتين، ويكتب تحت وطأة خوف واضح من الإسلام جعله يستنكر قبول وجود مسجد بباريس أو وجود نشرة تتحدث عن الإسلام، ولو من وجهة نظر غير إسلامية، ويكتب بعقلية تقديس الحروب الصليبية وترفض أن يأبى المسلمون الاضطهاد. وكأنه لخص ما يميز طبيعة تفكيره هذه في التوطئة القصيرة الغربية التي وضعها لكتابه، حيث يقول فيها: «إن نصف ساكنة إفريقيا وثلث ساكنة آسيا وجزءا من ساكنة أوروبا تتبع قانون محمد.

إن الإسلام والمسيحية يتقاتلان قتالا مميتا منذ أكثر من ألف عام، من أجل السيطرة على الضمائر وسيادة العالم.

واليوم هناك أكثر من مائتي مليون من المخلوقات العاقلة تحيا وتموت على أفكار النبي العربي.

فباسم الإسلام هناك عشرون مليون صيني على استعداد للتمرد على ابن السماء.

وباسم الإسلام هناك ثلاثون مليون هندي يعلنون بأعلى صوت نهاية

الاضطهاد البريطاني.

وباسم الإسلام هناك خمسون مليون إفريقي يخلصون بإبادة (الرومي).

وباسم الله ذبح عبد الحميد ثلاثمائة ألف مسيحي.

إن محمدا هو رجل الساعة. فاسمه يملأ المجالات، وأتباعه يحصلون، في

قلب باريس نفسها، على هذا النجاح الغريب في العثور على مسيحيين – وبينهم

أبناء صليبيين – يكتبون من أجل رفع دعائم مسجد.

إن الكتب التي تتحدث عن إنجازاته تتضاعف. وبعد إنجلترا وألمانيا،

هاهي فرنسا لها نشرتها الإسلامية.

إن هذا أكثر مما يجب من أجل تسويق نشر هذا الكتيب المؤلف من قسمين:

القسم الأول يعرف بمحمد، والقسم الثاني يعرض إنجازاه⁽¹⁾.

إن هذا التعصب الذي نراه في هذه التوطئة يبدو أشد في متن البحث حيث

تضيق مقومات البحث الضرورية في سبيل بناء صورة مشوهة لرسول الإسلام.

فليس في بحث غوندال إحالة على النصوص، وليس فيه موازنة بينها، وليس

هناك تمحيص لها، فالنص الصالح هو النص النافع في سياق التحليل وليس هو

النص الصحيح، بل إنه إذا لم يوجد هنالك نص فإنه لا يرى بأسا في الاستدلال

(1) MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.4.

LIBRAIRIE BLOUD ET BARRAL - PARIS - 1897



بنص لم يرد في أي من مصادر المسلمين، ولو كان مما وضعه دهاقنة التنصير ونسبوه لرسول الله ﷺ.

فمن الضرب الأول حديثه عن الطريقة التي انتقلت بها دعوة رسول الله ﷺ من مرحلة السر إلى مرحلة الجهر حيث ذكر أن سبب إعلان الدعوة أنه في بعض الحفلات الخاصة (!) التي كان يقيمها الرسول ﷺ لأصحابه، قال النبي، بعد أن عرض آماله وأعلن عن نيته في الانطلاق بشغف نحو تحقيق حلمه: «من منكم يريد أن يكون أخي ولوائي ووزير؟». فأجابه علي: «أنا ذلك الرجل يا رسول الله، فمن قاومك كسرت أسنانه، وفقأت عينيه، وبقرت بطنه، وكسرت رجليه». قال غونزال: «فانطلاقاً من ذلك اليوم انطلق أنصار محمد في دعوة جهرية أصبحت مع توالي الأيام أكثر جرأة»^(١). ولك أن تتصور دعوة تنطلق في حماية طفل عمره ثلاثة عشر عاماً، لتعرف كيف كان هذا الباحث يستعمل النصوص، ولتدرك مدى قدرته على التمحيص والتحليل والفهم.

ومن الضرب الثاني استدلاله على عدم صحة نبوة رسول الله ﷺ بدليل يراه جوهرياً وهو أنه كان نبياً بدون معجزات، بزعمه أن النبي ﷺ قال: «أيها الناس. إن الدلائل تتوالى لإقناعنا بالحقيقة. أنا لن أستعمل المعجزات إلا

(١) المصدر نفسه. ص. ١١.

لتخويف الأشرار. ألسنت رجلا كالأخرين؟. إذن فلأي شيء تصلح المعجزات؟. لقد أرسلت إليكم لدعوتكم إلى معانقة الخير الذي منح لكم، واتقاء الشر الذي يهددكم. أنا أقول فقط ما يملئ علي. والشقاء لمن يرفض الاستماع إلي^(١). ولو أن غوندال كان يدل على مصادره لكفانا مؤونة الاستغراب من استشهاده بمثل هذا النص الذي لا أصل له، ولكن كتابه تكاد تنعدم فيه الإحالات، مع العلم أنه لا يخفى علينا أن هذا النص فيه رائحة آيتين قرآنيتين أخرجتا من سياقهما، وهما قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢)، وقوله عز من قائل: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾^(٣).

ويبدو أن الكاتب كان محتاجا إلى مثل هذا النص لأنه كان حريصا غاية الحرص وهو يكتب ما اعتبره سيرة لرسول الله ﷺ على السكوت عن أمرين من أمور السيرة وإخفائهما جحودا وإنكارا، مع العلم أنه لا سبيل إلى إنكارهما

(١) المصدر نفسه. ص. ٢٩.

(٢) سورة الأنعام، آية ٥٠.

(٣) سورة الإسراء، آية ٥٩.



بغير السكوت عنهما، وهما: قضية معجزاته ﷺ، وقضية إسلام مجموعة من النصارى واليهود على يديه، عليه أفضل الصلاة والسلام. فكان هذا النص المكذوب عليه ﷺ هو حجته الوحيدة. ولهذا السبب نراه من جهة أولى يسكت عن إسلام النجاشي وإسلام عبد الله بن سلام وصفية بنت حبي بن أخطب وأمثال هؤلاء^(١)، ويحاول إعطاء تفسير آخر لإسلام أهل يثرب غير ما ذكره هم عن أنفسهم، وذكره أهل العلم، من مخالطتهم أهل الكتاب من اليهود وسماهم منهم قرب ظهور النبي الخاتم، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام^(٢). وهذا التفسير الغريب هو أنه كان من بين غير القرشيين «جمع كبير لا يتحمل إلا بصعوبة التدخل القرشي المتعالي شيئاً ما في جميع الأمور الدينية والتجارية في جزيرة العرب... وفي مقدمة هؤلاء الحساد كان سكان يثرب الذين كانوا يرغبون باستمرار في جذب أمواج التجار والحجاج، الذين كانت مواسم مكة تجمعهم حول الكعبة، إلى أسواقهم ومعابدهم. وبالتوجه إلى الغرباء وخاصة إلى أهل يثرب كان محمد متيقناً أنه سيلاقي على الأقل أنصاراً مهتمين برؤاه

(١) ن. السيرة النبوية لابن هشام. ٥١٦/٢ - ٥١٩.

(٢) ن. في سبب إسلام الأنصار. السيرة النبوية لابن هشام. ٤٢٨/٢ - ٤٢٩. تحقيق: مصطفى

السقا - إبراهيم الأبياري - عبد الحفيظ شلبي - المكتبة العلمية - بيروت.

السياسية، وحلفاء حذرين يوثق بهم في مواجهة أخطر أعدائه^(١). ولك أن تقدر تمكن مثل هذا الرجل من موضوعه، وهو يزعم لك هذا الزعم، وهو أنه كان في العرب، من غير أهل الكتاب، من يرغب عن البيت إلى صرف الناس إلى معابد في دياره. وهو يذكر لك أن الحسد كان هو سبب نصره الأوس والخزرج لمولانا رسول الله ﷺ.

ونراه من جهة ثانية يسكت عن سائر معجزات رسول الله ﷺ وإن استدعاها السياق. ومثال ذلك حديثه عن حصار الشعب إذ زعم أن الحصار إنما رفع بسبب جوار أبي طالب^(٢)، كأن أبا طالب لم يكن محاصرا مع من حوصر، وذلك تجنبنا لذكر أكل الأرضة للصحيفة لما في ذلك من إعجاز ومن دلالة على نبوته ﷺ.

والواضح أنه لو لم يكن مع هذا التعصب شيء آخر سواه لكفى ذلك سببا لكي يصبح هذا البحث غير ذي شأن. غير أنه كان مع هذا التعصب أشياء أخرى جعلت من كتيب غوندال آية في الكذب والتدليس والجهل، وهذه الأشياء هي:

(1) MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.12.

(٢) المصدر نفسه.



أولاً: جهل المؤلف بالعربية جهلاً تاماً، مع أن العربية هي لغة نبي الإسلام ولغة القرآن، وهي اللغة التي دوت بها السير، وهي لغة الذين قامت على أكتافهم الدعوة. فلا سبيل إلى كتابة سيرة لرسول الله ﷺ مع الجهل بها. وقد أوقعه هذا الجهل في عدة أمور منها سوء فهمه لكلام رسول الله ﷺ الناتج عن سوء الترجمات التي اعتمدها. إلى حد أن القارئ يحتاج في أحيان كثيرة إلى ضرب من التأمل ليتوصل إلى معرفة أصل الحديث، لما بين الترجمة والأصل من تباعد. وذلك كنسبته لرسول الله ﷺ قوله: «شرفوا هؤلاء الرجال واحترمواهم فقد أعطوا ملجأ للنبي الهارب، وأسسوا لنجاح دعوته»^(١). فهذا الكلام عنده هو ترجمة لقوله ﷺ: «أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشى وعييتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»^(٢). ومثل ذلك قوله: «قام محمد وقال: «أيها المسلمون، إن محناً قاسية في انتظاركم. إنها ستهطل عليكم كسحاب عاصفة. ليكن القرآن مرشدكم دائماً. افعلوا ما يأمركم

(١) المصدر نفسه، ٢١.

(٢) الحديث أخرجه البخاري عن أنس بن مالك في كتاب مناقب الأنصار. باب قول النبي ﷺ:

اقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم. صحيح البخاري بشرحه الفتح. رقم

الحديث: ٣٧٩٩. ٧/ ١٣٩.

به أو ما يبيحه لكم. وتجنبوا ما ينهاكم عنه»^(١).

فهذا عنده هو مدلول قول الرسول ﷺ: «أيها الناس سعرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وإني والله ما تَمَسُّكُون عليَّ بشيءٍ، إني لم أُحَلَّ إلا ما أحل القرآن، ولم أُحرم إلا ما حرم القرآن»^(٢). ويصبح الأمر أكثر طرافة عندما يتطوع غوندا ل بشرح بعض الكلمات أو العبارات العربية. ومن أمثلة ذلك شرحه لقول رسول الله ﷺ عند وفاته: «اللهم في الرفيق الأعلى»^(٣)، بوضعه

(١) المصدر نفسه. ٢١.

(٢) حديث مرسل أورده ابن هشام في السيرة من طريق ابن إسحاق. السيرة النبوية. ٤/٦٥٣-٦٥٤. ورواه البيهقي في الدلائل. رقم الحديث: ٣١٩٣. ٧/١٤٩. إلى قوله: كقطع الليل المظلم، من طريق محمد بن إسحاق بإسناد ضعيف فيه أحمد بن عبد الجبار العطاردي، وهو ضعيف الحديث. ن. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم: ٢/٢٠. رقم الترجمة: ٩٩.

(٣) الحديث أخرجه البخاري عن عائشة ؓ وعن أبيها في كتاب المغازي. باب مرض النبي ﷺ ووفاته. رقم الحديث: ٤٤٣٦ و ٤٤٣٧ و ٤٤٣٨. صحيح البخاري بشرحه الفتح. ٨/١٦٠. وفي كتاب الدعوات. باب دعاء النبي ﷺ: اللهم الرفيق الأعلى. رقم الحديث: ٦٣٤٨. صحيح البخاري بشرحه الفتح. ١١/١٦٩. وفي كتاب الرقاق. باب سكرات الموت. رقم الحديث: ٦٥١٠. صحيح البخاري بشرحه الفتح. ١١/٤٠٩. ومالك في الموطأ عن عائشة أيضا. كتاب الجنائز. باب جامع الجنائز. رقم الحديث: =



بين قوسين كلمة: الملك جبريل^(١). والمعتمد عند علماء الإسلام أن معناها: «ألحقني بجماعة الأنبياء الذين يسكنون أعلى عليين. وهو اسم جاء على فَعِيل، ومعناه الجماعة كالصديق والخليط يقع على الواحد والجمع»^(٢). وفي شرح هذه العبارة أقوال أخرى جمعها ابن حجر في الفتح^(٣)، ليس من بينها ما ذكره غونزال. ومع هذا الجهل بالعربية فإن غونزال يسمح لنفسه بأن يفتي في أدبها، وفي مدى ما في القرآن من الفصاحة، وفي ما فيه من تناسب أو تماسك، إلى غير ذلك من الأمور التي لا يكفي فيها معرفة لسان معين، بل يقتضي الحديث فيها أن يكون الباحث في أعلى طبقات المعرفة بذلك اللسان، وبأدبه وأسرار الجمال فيه، ثم أن يكون على اطلاع واسع على علوم القرآن وعلوم إعجازه، وعلى معرفة قوية بعلوم البلاغة عند العرب. فيقول غونزال: «يقولون إن القرآن هو رائعة النثر في الأدب العربي. فلتأسف، في هذه الحالة، من أجل الأدب العربي»^(٤). ويبين الكاتب سبب تأسفه بقوله بعد: «.. عندما نمر بسرعة بهذا الخليط المتنافر

= ٥٦٤ و ٥٦٥. كتاب الموطأ بشرح الزرقاني. ١/ ١١٩-١٢٠.

(1) MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.22.

(٢) اللسان. مادة (رفق). ١٠/ ١٢٠. دار صادر - بيروت.

(٣) فتح الباري. ٨/ ١٦٠.

(4) MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.24-25.

من الأدعية والشتائم والحكايات القصيرة، حيث أجمل مدائح الله.. ممزوجة بالأنظمة القانونية المتعلقة بالزواج أو بالصحة، وبالحكايات الهزلية، واللعنات المتوحشة، لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من تذكر ملايين الكائنات البشرية التي لا مرشد لها في الحياة إلا هذا الركام المشوه الذي يخفي عنها إلى الأبد نور الإنجيل الخالص»^(١).

ثانيا: جهل المؤلف بالإسلام جهلا مطبقا، فإن معرفته بالإسلام لا تبلغ معرفة عوام المسلمين مهما يبلغ جهلهم. فإن الرجل من عوام المسلمين لا يقول مثل ما قال غوندال في التعريف بمعنى الصوم في الإسلام إذ قال: «إنه يمنع ليس فقط الأكل والشرب بل ويمنع أيضا تدخين التبغ، وغسل الوجه، (!) واستنشاق العطور، وبلع الريق إراديا الخ (!)»^(٢). وهذا الجهل مما أوقعه في أخطاء كثيرة، وهو يكتب ما ظنه سيرة للنبي ﷺ فزعم مما زعم أن الرسول ﷺ «كان همه الأول بعد وصوله المدينة، بعد أن أمر بإقامة مسجد حيث توقفت ناقته، أن ينظم بدقة عبادات الدين الحق. وهكذا ألزم كل مسلم نهائيا، منذ ذلك الوقت، بتأدية الصلاة خمس مرات في اليوم ووجهه إلى مكة، وبجعل الجمعة عيدا،

(١) المصدر نفسه. ٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ٥٥.



وبصوم شهر رمضان، وبتأدية الزكاة للفقراء»^(١). وهذا كلام أقل ما يقال في التعليق عليه أن الصلاة إنما فرضت بمكة، بعد الإسراء به ﷺ، لا في المدينة، وأن القبلة الأولى كانت هي بيت المقدس لا الكعبة، وأن المسلم يقصد في صلاته التوجه نحو الكعبة لا نحو مكة. ولكن الرجل كان يظن غير ذلك فقد كان يرى، بادي الرأي، أن النبي ﷺ أراد أن يجعل الناس يصلون نحو مدينته التي فيها ولد ونشأ، أما الكعبة فقد كان للكاتب فيها رأي آخر، فقد كان يرى أنها ليست بتلك المكانة التي نعرفها لها، وأنه كان من خطة النبي ﷺ أن يفقدها اعتبارها. وذلك إذ يقول: «إن محمدا لم يكن يستطيع تثبيت سلطته بجدية على مكة إلا على أنقاض سلطة أعند أعدائه وهم القرشيون»^(٢). مع العلم أن قريشا ترجع قوتها، كما نتذكر، إلى تميزها المزدوج بأمرين هما: حنكتها في التجارة، وخدمتها للبيت الحرام. إن الوسيلة الأضمن لتدميرها كانت هي حرمانها من التجارة وإفقاد الكعبة اعتبارها. إن الوسائل المستعملة من النبي من أجل الوصول إلى هذا الهدف المزدوج تعطي قيمة وشأنا لحدة ذهنه ونفاذ بصره أكثر

(١) المصدر نفسه. ١٤.

(٢) يقول هذا كأن الرسول ﷺ ليس من قريش، فهو لا يميز بين مطلق قريش وبين مشركي قريش.

مما تعطيها لنبل مشاعره. وبما أنه كان يقيم في مدينة يسمح موقعها بإعاقه التجارة بين سوريا وبلاد العرب فقد كلف أنصاره بإقلاق جميع القوافل، وبإبادة قوافل أعدائه الأقوياء بدون رحمة. ومن أجل قطع الطريق على كل تردد، جعل من الحرب الشرسة ضد المشركين أقدس الواجبات، وأعلن أن عاقبة السرقة والقتل ثواب أبدي إذا كان الضحايا من المشركين»⁽¹⁾.

وإذا كان هذا رأيه في مكانة الكعبة عند المسلمين، وفي معنى الصوم عندهم، وفي كيفية فرض الصلاة عليهم، وهي كيفية لعله أراد بها السكوت عن حادثة الإسراء، لأن النبي ﷺ في رأيه لم تكن له معجزة، على ما سبق أن ذكرناه؛ فإنه من الطريف أن نذكر هنا أن الكاتب، وهو يتحدث عن العبادات الإسلامية، لم يكن يستطيع التخلص من تصويره الكنسي لطريقة العبادة إلا بصعوبة، لذلك تراه، مثلا، وهو يتحدث عن زيارة النبي ﷺ لأهل البقيع، قبل وفاته، عليه أفضل الصلاة والسلام، يقول: «.. وفي ليلة بينما كان محمد مضطجعا في بيت عائشة وقد منعه قلق من النوم، نهض وأيقظ أحد خدمه، وهو أبو موهبة، وانطلقا معا نحو مقابر بقيع الغرقد. وهناك قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر. ليهنَ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع

(1) MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.15.



الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، والآخرة شرُّ من الأولى^(١). ثم صلى بعد ذلك عدة ساعات من أجل أرواح المسلمين الذين دفنوا في هذا المكان^(٢). فبالإضافة إلى أن الأمر لم يحدث بهذا الشكل، فلم تكن هناك صلاة لعدة ساعات، فإن الذي في الإسلام هو الدعاء للميت لا غير^(٣).

وأصل هذا الجهل المطبق في نظرنا أن الرجل لم يكن له سابق معرفة بالإسلام، إذ ليس له - فيما نعلم - إلا هذا الكتاب عن الإسلام وعن سيدنا رسول الله ﷺ^(٤)، وليس بين كتبه ما يدل على أنه كان يجعل حسن الاطلاع على

(١) هكذا قال رسول الله ﷺ. أما ترجمة الكاتب لهذا الكلام الجامع فهو: «سلام يا سكان المقابر. ارقدوا بسلام بمنجاة من المحن التي تنتظر إخوانكم».

MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.20.

والحديث أخرجه الحاكم في المستدرک عن أبي مويهبة، رقم الحديث: ٤٤٤٤. ٦١/٣. وصححه على شرط مسلم، والبيهقي في الدلائل. رقم الحديث: ٣١٥١. ١١٨/٧. كلاهما من طريق محمد بن إسحاق.

(٢) المصدر نفسه. ٢٠.

(٣) ن. على سبيل المثال، زاد المعاد. ١٨٤. فصل في أن مقصود الصلاة على الجنائز الدعاء للميت وذكر ما حفظ عنه ﷺ منه.

(٤) هذا مع أن هذا الكتاب كان - فيما يبدو - من مؤلفاته الأولى. فقد صدر له بعد صدور كتابه الأول الذي سماه: من الروحانية إلى المسيحية (الدين) ١٨٩٤م بثلاث سنوات. ثم ترك=

الإسلام من شواغله، أو يدل على أنه قدم ما يجعل من مثله باحثاً في الإسلام والسيرة النبوية، ولكنه انتقى من كتابات المستشرقين ما راقه، وركب ذلك في كتاب يزعم بعض الزاعمين في الغرب اليوم أنه بمثابة المغني في هذا الباب. وإنما هو كتاب تخاليط ففيه ما هو عبارة عن ملاحظات رحالة أجنب، وفيه ما هو تسجيل لعادات شعبية خاصة بأمة إسلامية معينة، وفيه ما هو كلام لا أصل له يوجد في بعض تصانيف الشيعة أو غيرهم، وفيه ما هو كلام طائفة من المستشرقين اضطلعوا بمهمة كتابة تقارير لدولهم الاستعمارية، وفيه ما هو ترجمة محرفة لنصوص من القرآن الكريم، إلى غير ذلك من التخاليط الغريبة التي صنع

= هذا الموضوع ليصدر جزءاً ثانياً لكتابه الأول وهو: من الروحانية إلى المسيحية. (الأنجيل

- مصادر النصوص). ١٨٩٩ م. ثم تابعت كتبه، وهي:

- حياة الكنيسة أيام الرسل؛ من صعود المخلص إلى وفاة القديس يوحنا. ١٩٠٤ م.

- السر الخفي والوحي. ١٩٠٥ م.

- لتتحدث هكذا عن الصوت والإشارة: دراسة نظرية وتطبيقية لآليات الكلام. ١٩١٢ م.

- من أجل مواعظي للأحاد والأعياد. (من عيد الميلاد إلى عيد العنصرة: نصوص إنجيلية،

إشارات تفسيرية، استيحاءات خطبية). الجزء الأول. ١٩١٣ م.

- من أجل مواعظي للأحاد والأعياد. (من عيد العنصرة إلى عيد الميلاد: نصوص إنجيلية،

إشارات تفسيرية، استيحاءات خطبية). الجزء الثاني ١٩١٣ م.



منها إينياس لويس غوندال ignace louis gondal كيمياء فكرية خاصة به توهم الرجل الغربي بالتفوق وتعدده به، غير أنها في ميزان العلم الرصين، والبحث الجاد ليست أكثر من تحاريف ضارة، وتحاليل شديدة الاضطراب والغرابة، يصّر كثير من الغربيين اليوم على التمسك بها وترويجها والدعوة إلى قراءتها وتدبرها.

ومع هذا الذي ذكرناه من جهل هذا القس بالعربية، وعجزه عن الاطلاع على مصادر الدين الإسلامي وعن فهمها، فإنه لا يتردد في أن يدعي ادعاء واسعا بزعمه أنه حرصاً منه على الإنصاف، فإن اعتماده سيكون على القرآن والسنة والتاريخ والفقه. وفي ذلك يقول: «في الحقيقة، إن هذا الإنجاز مزدوج، إذ أنه يضم، بالإضافة إلى المؤسسات والقوانين التي أسست القومية العربية، الأركان العقدية والعبادات التي ألّفت الديانة الإسلامية.

وبعبارة أخرى فإن الملك النبي محمداً اخترع تشريعاً ولاهوتاً، فأصبح — بناء على ذلك — من المستحيل أن نضع حكماً واضحاً ومنصفاً عن الإسلام دون أن يكون لنا اطلاع جاد على الأنظمة القانونية والتعليقات اللاهوتية التي جاء بها مؤسس الإسلام.

— من أين نستمد هذه المعرفة؟

- من القرآن الذي وضع أسس علم المسلمين القانوني واللاهوتي.
 - ومن السنة التي رسخت بإتمامها له الأسس الأولى لهذا العلم المقدس.
 - ومن التاريخ الذي يشهدنا على تطور هذا العلم.
 - ومن كتابات الفقهاء الذين عرضوا بمنهج الأصول والفروع.^(١)
- غير أنه ما أن يشرع غوندال في الخوض فيما وعد به حتى يظهر لنا رجلا شديد الجهل بالتشريع الإسلامي: طبيعته وأصوله، شديد الجهل بالعبادات الإسلامية، شديد الجهل بالقرآن والحديث، ضعيف المعرفة بتاريخ الإسلام.
- فمن جهله بأصول التشريع قوله: «إن مجموع التشريع المدني والديني عند المسلمين المسمى بالشريعة يتألف من أربعة أقسام: القرآن والسنة وإجماع الأمة، وهو مجموعة من القرارات التي اتخذها الخلفاء الأوائل بخصوص بعض القضايا القانونية أو الدينية، والقياس وهو عبارة عن مجموعة واسعة جدا من الأحكام القضائية»^(٢).

(1) MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.32-33.

(2) MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.33.

قلت: أما تعريف الإجماع فهو «اتفاق جميع المجتهدين من المسلمين في عصر من العصور بعد وفاة الرسول على حكم شرعي في واقعة». علم أصول الفقه. عبد الوهاب
خلاف. ٤٥.



ومن جهله بطبيعة التشريع زعمه أن التشريع الإسلامي يتميز بأمرين:
أولهما: الجمود الذي أساسه أنه يطابق بين سلطتين روحية وزمنية،
ومجتمعين ديني ومدني^(١). وهذا في رأيه خطأ جوهرى «لأنه بجعل نظام قانوني
موجه لتنظيم العلاقات المدنية أو السياسية للبشر فيما بينهم مسألة باردة
وجامدة.. نكون قد أخطأنا كلية حول طبيعة القانون نفسه الذي بما أنه موجه
لاحتواء الحياة العملية وتوجيهها ينبغي أن يكون مثلها مرنا ومتغيرا

=وأما القياس فهو» إلحاق واقعة لا نص على حكمها بواقعة ورد نص بحكمها، في الحكم
الذي ورد به النص، لتساوي الواقعتين في علة هذا الحكم». علم أصول الفقه. عبد الوهاب
خلاف. ٥٢. دار القلم - الكويت. ط. ١٠ - ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م.

ون. في تعريف الإجماع والقياس: الموجز في أصول الفقه للشيخ محمد عبيد الله الأسعدي.
٢١٥ و ٢٢٥. دار السلام. ط. ١ - ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م.

ونثر الورود على مراقبي السعود شرح الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي. ٤٢٥
و ٤٤٢. دار المنارة - جدة / دار ابن حزم - بيروت. ط. ٣. ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م.

وإرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني.
١ / ٢٣٣ - ٢٣٤ و ٢ / ٥٧٧. بتحقيق: د. شعبان محمد إسماعيل. دار السلام - ط. ٢.
١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.

والمستصفي من علم الأصول لأبي حامد الغزالي. ٢ / ٢٩٤ و ٣ / ٤٨١. بتحقيق: د. حمزة بن
زهير حافظ. الجامعة الإسلامية. المدينة المنورة.

(1) MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.33.

ومتحركا»^(١).

وثانيهما: أنه عبارة عن قوانين بدائية تعود إلى حضارة عرب القرن السابع الميلادي قام النبي - كما يقول - «بتعديلها وإتمامها باسم الله وإلى الأبد»^(٢). فأصبحت مقدسة بذلك.

وهذه نظرة منه سببها أمران: جهل مطبق بطبيعة التشريع الإسلامي، وجهل مثله بأصول التشريع الإسلامي؛ تعضد ذلك كله عصبية مقبنة، ونظرة كنسية لا ترى للدين مكانا خارج الكنيسة. لذلك تراه يقول مستغربا: «إن المجتمع الإسلامي الذي هو مجتمع تيوقراطي أساسا، لم يميز في يوم من الأيام الكنيسة عن الدولة: إذ الكل عندهم مصدره الله: المؤسسات والقوانين المدنية، وأركان العقيدة، ومبادئ الدين، وبناء عليه فإن الكل مقدس، جامد، ثابت»^(٣).

ومن جهله بالعبادات قوله متحدثا عن الصلاة عند المسلمين، ومعلما غيره ما يجهلونه من أسرارها: «الصلاة الأولى هي صلاة الصبح، وأول من أداها - كما يقول المسلمون - آدم^(٤)، والثانية هي صلاة الظهر، ويقول المسلمون أيضا بأن

(١) المصدر نفسه. ٣٤.

(٢) المصدر نفسه. ٣٦.

(٣) المصدر نفسه. ٣٤.

(٤) إن المسلمين لا يقولون بهذا الذي يزعمه، وإنما هو من بعض تحاريف قوم من الشيعة =



أول من أداها إبراهيم، والثالثة هي صلاة العصر ويقولون بأن النبي يونس هو الذي صلاها أول مرة، والرابعة هي صلاة المغرب، وأول من صلاها عيسى، والأخيرة هي صلاة العشاء وقد أخذت عن موسى^(١).

ثم انتقل إلى الحديث عن صوم رمضان فزعم أن التكليف فيه مرتبط بالسن لا بالبلوغ حيث قال: «إن كل مسلم بلغ سن الرابعة عشرة ملزم بالصوم طيلة شهر رمضان»^(٢). ثم زعم أن الإسلام لا يبيح بعد صوم نهار رمضان إلا وجبتين: وجبة واحدة عند المغرب، ووجبة أخرى خفيفة عند السحور، مع وجوب أن تسود روح التوبة والندم هاتين الوجبتين^(٣).

ومن جهله بالقرآن والحديث زعمه أن في القرآن: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»^(٤). وأن في الحديث قوله ﷺ: «أيها المسلمون احترموا البطون التي

=جعله مما يعتقده المسلمون جميعا.

(1) MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.53-54.

(٢) المصدر نفسه. ٥٥.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه. ٤٢. وهذا الذي زعمه قرأنا حديث أخرجه البخاري في كتاب المغازي. باب

كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر. رقم الحديث: ٤٤٢٥. صحيح البخاري بشرحه الفتحة ٨/١٤٩. وفي الباب الثامن عشر من كتاب الفتن. رقم الحديث: ٧٠٩٩. صحيح البخاري بشرحه الفتحة ١٣/٦٣. وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا الحديث يوقف به =

حملتكم، إن القُبلة التي يُقبَّلُها الابن أمه هي في عذوبة تلك التي سنطبعها على مدخل الجنة، إن الابن يفوز بالجنة تحت قدمي أمه»^(١).

ومن جهله بتاريخ الإسلام، وطبيعة الشورى فيه، ومفهوم النبوة والحكم، وطبيعة الخلاف بين المسلمين وسببه؛ ما زعمه من أن النبي ﷺ كان يجمع بين ثلاث سلط هي: سلطة النبي، وسلطة الملك، وسلطة الحبر. وبناء على هذا التصور الخاص به الذي يزعم أنه استقاه من القرآن يقول: «إن الكتاب المقدس (يقصد القرآن) يكرر لنا بمختلف الصيغ أن مؤسس الإسلام هو رسول الله، وإمام الصلاة، وقائد الشعب»^(٢). وهنا ظهر لغونداً أنه وقع على إشكال، فعنده أن هذه المناصب الثلاثة منها ما هو ذو طبيعة خارقة، وهو منصب النبي، ومنها ما هو ذو طبيعة انتخابية غالباً، وهو منصب الحبر، ومنها ما هو ذو طبيعة وراثية

=عند سبب وروده ولا يؤخذ به على عمومته، وأن المقصود هنا الولاية الكبرى أو الإمامة العظمى لا غير.

(١) المصدر نفسه ٤١. وليس في هذه التخاريف شيء إلا قوله: إن الابن يفوز بالجنة تحت قدمي أمه؛ فلعله أراد حديث: الجنة تحت أقدام الأمهات، وهو حديث موضوع، كما نص على ذلك الشيخ الألباني. وفي معناه ما هو صحيح، وهو حديث: فالزم رجليها. ن. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة. محمد ناصر الدين الألباني. رقم الحديث: ٥٩٣.

(٢) المصدر نفسه ٣٦.



عادة وهو منصب الملك. فقال حينئذ: «فهل سيكون على رأس الإسلام نبي وحبر وملك بصفة مستمرة؟.. وهل سيكون بعد محمد أنبياء فقط؟.. وهل ستكون المهمة الدينية السياسية لهذا الأخير مستمرة عن طريق وريث واحد له مثل قوته أو عن طريق عدد من الوارثين؟. وهذا الموروث من سيحدد طريقة نقله؟ هل الأمر الإلهي، أم الاختيار الحر لجمهور المؤمنين، أم حق الوراثة؟»^(١).

وقد ظهرت له هذه الأسئلة على غاية من الخطورة وهي الأسئلة التي تقوم على تصور فاسد لشخصية رسول الله ﷺ، ولطبيعة الإسلام، ولمنهج الشورى، وعلى جهل ليس له قرار بما ورد في القرآن الذي زعم أن النبي ﷺ قد وُصف فيه بأنه قائد الشعب، وإمام الصلاة، فقال: «هل وضع محمد هذه الأسئلة الخطيرة؟»، ثم أجاب نفسه قائلاً: «لا! وعلى الأقل فإن سكوت القرآن عنها يسمح لنا باعتقاد هذا. ومع ذلك فإنه لا يمكن لمجتمع أن يعيش دون أن يحل بطريقة أو بأخرى مشاكله الأساس»^(٢).

وقد اختلطت عنده الأمنيات الاستعمارية بطبيعة الخلاف بين المسلمين وحجمه وسببه وأثره في الأمة. ونسي أن أشد منه وأوسع يوجد بين الطوائف

(١) المصدر نفسه. ٣٦ - ٣٧.

(٢) المصدر نفسه. ٣٧.

النصرانية دون أن يكون السبب في ذلك مثل هذه الأسباب التي ادعى أن مرجعها كون «محمد لم يشأ أن يتوصل إلى حل لهذه الأسئلة، أو إنه لم يتوصل إليها أصلاً، فترك الباب مفتوحاً على مصراعيه للبدع والانشقاقات»^(١). وجهل أن مسألة الإمامة في الإسلام أعمق من أن تعالج بهذه السداجة البالغة.

ثالثاً: عدم اطلاع الكاتب على السيرة النبوية اطلاعاً يؤهله للحديث فيها، مما جعله يقع في أخطاء كثيرة جداً يتعذر استقصاؤها، إلا أننا نذكر هنا بعضها على سبيل التمثيل لا غير. فمن ذلك قوله: «لقد خلب النبي، بسطوة عبقريته فقط، أوائل من جاءوا جماعة يصطفون تحت لوائه، وهم سعداء باتباعه وفخورون بذلك، حيث كان أكثرهم شهرة وهم: ورقة وعشمار (!) وعمر وزيد وخالد، يتنافسون في مدح فضائله ومآثره»^(٢). ولك أن تعلم أن الرجل يتحدث عن صحابة النبي ﷺ بعد الهجرة وقبل معركة بدر. وأن المقصود بورقة ورقة بن نوفل الذي توفي قبل هذا التاريخ بنحو ثلاثة عشر عاماً، وبعثمار عثمان بن عفان، وبخالد خالد بن الوليد الذي كان يومئذ على كفره، فإن خالداً إنما أسلم بعد أحد، وليس بين هؤلاء الذين ذكرهم، كما ترى، أبو بكر الصديق ﷺ وعلي بن

(١) المصدر نفسه. ٣٧.

(٢) المصدر نفسه. ١٤.



أبي طالب ﷺ وبقية كبار الصحابة. أما زيد الذي يذكره هنا فهو زيد بن حارثة، ولغونزال في قصة زيد رأي دل عليه في قوله: «ولد محمد بمكة سنة: ٥٧٠. حيث نشأ يتيماً، إذ توفي جده عبد المطلب وأبوه عبد الله وأمه آمنة في طفولته الأولى. ولم يرث في كل ما ورث عنهما إلا العبد زيداً، وقطيعاً من الغنم، وأربعة من الجمال»^(١). وبهذا يصبح ما ذكره علماء السير من أن زيداً كان في ملك خديجة ﷺ وأن النبي ﷺ استوهبه منها، وأعتقه، وتبناه، قبل أن يوحى إليه^(٢)، مما لم يسمع به غونزال، وهو من الشهرة بمكان، وهو من الأشياء التي يستغرب، مع الجهل بها، التعرض لكتابة سيرة رسول الله ﷺ.

ومن هذه الأخطاء أيضاً زعمه أن خديجة ﷺ ربطت سيدنا محمداً ﷺ بتجارتها لعدة سنوات قبل أن تتزوجه^(٣). وأن عبد المطلب لم يحفر بئر زمزم، وإنما أصلحها ورممها، لأن زمزم، في رأي الكاتب، ماء مقدس عند العرب، كانت قريش مكلفة، منذ أزمان، باعتبارها عائلة كهنوتية، بتوزيعه على الناس. لذلك فإن عبد المطلب لم يحفره وإنما أصلحه فقط. أما قصة ظهور ماء زمزم فهي، في

(١) المصدر نفسه. ٦. ون. ص. ١٠.

(٢) ن. السيرة النبوية لابن هشام. ٢٤٧/١.

(3) MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.9.

رأيه، أسطورة^(١). وهو في حديثه عن عبد المطلب يزعم أنه حارب الحبشة، وأن الله أعانه بمعجزة^(٢). والمعروف أن عبد المطلب لم يحارب الحبشة، ولم يكن يستطيع ذلك لو أراد، ولم يعنه الله بمعجزة. وإنما كانت المعجزة في رد الحبشة عن بيت الله لا عن عبد المطلب الذي قال لأبرهة: «إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه»^(٣).

ومن غرائب شروح المؤلف قوله: «لقد كان يشاهد (أي النبي ﷺ) في زمن رمضان خاصة، أي أثناء وقت الحج والهدنة المقدسة، يتجنب الوسط الصاخب في المدينة المقدسة، المملوءة بالعُباد والبائعين المنهمكين في أشغالهم، ليعيش منفردا في غار بجبل حراء»^(٤). والظاهر أنه يقصد بالهدنة المقدسة الأشهر الحرم، وهذه أشهر وليست شهرا، وليس من بينها شهر رمضان. فالأشهر الحرم هي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب.

وفي حديثه عن زوجات النبي ﷺ زعم الكاتب أن الرسول ﷺ «حقق

(١) المصدر نفسه. ص. ٦.

(٢) يقصد معجزة الطير الأبايل ورد الفيل. ولكنه لم يستطع أن يقول ذلك، لأنه من دلائل النبوة، ولم يستطع إنكاره أيضا، فسكت عن هذا الأمر بطيه في العبارة.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام. ٥٠ / ١.

(4) MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.9.



سلسلة من الوحدات المشينة، النافعة لمصالحه، بأن كسب إلى قضيته رؤساء أهم القبائل، الذين كانوا يرون من الشرف العظيم أن يزوجه، إما ابنة أخ، أو ابنة أخت، أو أختا، أو بنتا. وفي وقت من الأوقات كان لمحمد من هذا الوجه فقط: خمس عشرة زوجة. متحدرة، جميعها تقريبا، من الأسر الأكثر تأثيرا في بلاد العرب^(١). يقصد أنه كان له من غير هذا الوجه زوجات أخر، تهويلا في العدد، وتمهيدا لإشاراته العديدة التي تحدث فيها عن شهوانية الدين الإسلامي. ولو أن الكاتب عدد هؤلاء الزوجات، وهو غير مستطيع ذلك لأن هذا العدد غير صحيح، أو ذكر أسماء بعض رؤساء القبائل الذين أصهر إليهم رسول الله ﷺ كان هناك مجال للمناقشة، ولكنه لا يفعل لأن ما يقوله هو محض خيال؛ فالثابت أن زواج النبي ﷺ كله كان لأهداف إنسانية واجتماعية ليس هذا مكان تفصيل القول فيها^(٢).

(١) المصدر نفسه. ١٤ - ١٥.

(٢) ن. الرسول وتعدد الزوجات. عبد الرحمن النجار. (محمد نظرة عصرية جديدة. ص. ٧٥ - ٨٢). المؤسسة العربية للدراسات والنشر - ط. الأولى - مايو - ١٩٧٢ م. والسر العجيب في تعدد زوجات الحبيب. طنطاوي جوهري. دار صادق - الإسكندرية. ط. ٣. ١٣١٨ هـ / ١٩٩٤ م.

ويبدو أن الكذب واستعمال الخيال كانا من الأدوات العلمية الضرورية في بحث غوندال. ذلك أنه وضع فصلا قصيرا تحت عنوان: الجَمَّال. (le chamelier) روى فيه قصة غريبة عن رسول الله ﷺ عندما اختير قبل بعثته قائدا لقافلة، وذلك بعد ما أظهره من ذكاء وبرودة أعصاب وشجاعة، حيث كسب القلوب وأصبح روح المشاريع الأكثر جرأة. فأظهر - حسب الأحوال - مواهب إدارية وسياسية وقيادية. ثم شرح كيف تأثر ذكاء الرسول ﷺ، بالاحتكاك بالشعوب المختلفة التي مرت تحت نظره الملاحظ، بانطباعات وأفكار ومشاعر، دخلت رأسه، تبعا للصدقة، مختلطة على غير نظام. وكيف أن النبي ﷺ كان صاحب فضول فيما يتعلق بالأمور الدينية، إذ لم يكن يدع محادثة أصحاب الاعتبار في قافلته، وسؤال ممثلي الديانات المختلفة في البلاد التي كان يمر بها، رهبانا وأخبارا ومجوسا⁽¹⁾.

إن وضع مثل هذا الفصل يراد به الربط بين شبابه ﷺ وبين مرحلة نبوته ورسالته عليه أزكى السلام للقول بأن هذه المواهب إنما كانت جبلة فيه لا علاقة لها بالنبوة والرسالة والوحي، وأن كل ما جاء به هو نتاج هذه التخاليط التي اجتمعت له بعد طول الرحلة وإدمان السماع. وغوندال في سبيل هذا الربط

(1) MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.7-8.



يضع هذه الأسطورة ويسكت عما صح عنه ﷺ بأنه لم يرحل لغير الشام، ولم يرحل إلى الشام غير رحلتين. إحداهما كانت وهو غلام صغير^(١). وهما الرحلتان اللتان لا يتعرض لهما غونداال ولا يتعرض لما ظهر فيهما من دلائل نبوته ﷺ.

رابعاً: جهل الكاتب بطبيعة العرب وطبيعة تفكيرهم وطبيعة تدينهم. وهو ما أوقعه في جملة من الأخطاء الغريبة. فمن جهله، مثلاً، بمكانة البيت عند العرب جاء زعمه أن أهل يثرب كانوا يطمحون إلى جذب أمواج الحجاج إلى معابدهم وصرفهم عن التوجه نحو الكعبة^(٢). ومن جهله بطبيعة التفكير القبلي عند العرب وبطبيعة ما جاء به الإسلام جاء حديثه الطريف عن سعي النبي ﷺ إلى تحقيق الوحدة الوطنية، وعلى ذلك بنى قوله: «كانت بلاد العرب الحرة في عصر محمد، لا تعرف غير سلطتين هما: سلطة الشيوخ، رؤساء القبائل، وسلطة الشعراء. وكانت بلاد العرب الخاضعة تدعن لأمراء اليمن، وملوك الفرس، ولأباطرة القسطنطينية. فمن أجل تحقيق الوحدة الوطنية كان من الضروري إرضاء الشعراء، وكسب الشيوخ، ومصانعة أو إخافة الملوك

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٨٠.

(2) MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.12.

الأجانب»^(١).

خامساً: عجز الكاتب عن التخلص من النظر بالمنظار الغربي والمسيحي إلى حضارة مختلفة. فهو يرى أن قريشا عائلة كهنوتية^(٢)، وأن زمزم ماء مقدس^(٣)، وأن الرسول ﷺ كان ينظم لأصحابه الحفلات الخاصة^(٤). وعندما يتحدث عن قلة من أسلم في السنوات الأولى من الدعوة يقول: «لقد كان عدد أتباعه قليلا إلى حد أنه كان يمكنه جمعهم حول طاولته»^(٥). فقد كان الكاتب يعتقد أن الرسول ﷺ كانت له طاولة يجمع أصحابه حولها لتدارس المستجدات. وكان يظن أن النبي ﷺ كان يرفع شعار: بلاد العرب للعرب، كما كان يرفع دعاة القومية في أوروبا أمثال هذه الشعارات في زمن المد القومي الأوربي. وفي مثل ذلك يقول غوندا: «.. وأخيرا عبر مجموعة من المراسلات الديبلوماسية أعقبتها سلسلة من العمليات العسكرية عبر كل حدود بلاد العرب المستقلة، جد(النبي) في إفهام إمبراطور اليونان، وملك الفرس، وأمراء اليمن، بأن ساعة

(١) المصدر نفسه. ١٤.

(2) MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.6.

(٣) المصدر نفسه. ٥.

(٤) المصدر نفسه. ١١.

(٥) المصدر نفسه. ١٠ - ١١.



إرجاع بلاد العرب للعرب قد حانت، وبأنه يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار
وبجدية القوة المرعبة لصاحب الرؤى الذي سبق أن سخرُوا من طموحاته»^(١).

(١) المصدر نفسه. ١٥.

- ٢ -

ينطلق غوندال بالاعتماد على هذه الأدوات المنهجية والمعرفية الضعيفة
للتحدث عن رسول الله ﷺ وتركيب صورة له، وهي الصورة التي يمكن
رَجْعُ عناصرها إلى خمسة أصول هي:

أولاً: انهيار محمد ﷺ بالحضارة النصرانية. وفي ذلك يقول الكاتب:
«أصبح محمد وهو في سن الرابعة والعشرين شخصية شهيرة. حيث أصبح
يعرف بلاده (بلاد العرب) معرفة تامة. وشاهد البلاد الخارجية. وأقلقته عظمة
الحضارة المسيحية التي واجهها في بصرى. وأحس بالإهانة وهو ينظر إلى مكة.
إن منظر البؤس الذي لا حد له الذي تسببه لعرقه الحروب الأهلية بالإضافة
للسيطرة الخارجية، كل ذلك يغضبه. فلازمت روحه فكرة ثورة اجتماعية
ودينية..»^(١).

وعلى هذا فإن الإسلام في نشأته هو نتاج انهيار محمد ﷺ بالحضارة
النصرانية، وموازنته بينها وبين تخلف العرب. فهو، بأسلوب آخر، نتاج صدمة
حضارية عميقة. فحلم محمد ﷺ بتحدي الحضارة النصرانية هو الذي أوجد

(١) المصدر نفسه. ٨.



الإسلام. غير أن الحلم بتحدي هذه الحضارة، في نظر الكاتب، حالة غير طبيعية، لأن أقصى ما يستطيعه المتحدي الإتيان بهلوسات مصروع. وهو ما يبينه الأصل الثاني الذي نذكره.

ثانياً: كون ما جاء به محمد ﷺ ناشئاً عن شر غامض. والذي يقصده غوندا ل بالشر الغامض هو ما يسميه المسلمون وحياً. وهو يعالج هذا الموضوع ابتداءً بربطه بالوسط الذي عاش فيه رسول الله ﷺ، وقد كان وسطاً مناسباً، في رأي الكاتب، لتطور الأحاسيس الدينية المرضية المتحمسة^(١). بمعنى أن ما جاء به الرسول ﷺ هو نتاج عادي لما كان يجري في هذه البيئة، وتطور طبيعي لما يدفع إليه هذا الوسط. وهو لا يبين لنا في تحليله هذا كيف كانت هذه المسألة مسألة تطور طبيعي للأشياء مع محاربة النبي ﷺ لقريش والعرب في دينها، وتسفيهه لأحلامها، وكيف أنه لم يسجد لصنم قط، والتطور الطبيعي يقتضي أن يبدأ بعبادة الأصنام، ثم تنضج الفكرة مع التقدم في السن والتجربة، ومع دوام المخالطة والتعلم، فينتقل إلى التوحيد درجة درجة، وتبين له الأمور أمراً أمراً. وبدلاً من ذلك فإنه يفضل أن يستعمل مجموعة من التعابير الإنشائية التي لا قيمة لها في نفسها وإنما قيمتها في قدرتها على التأثير في القارئ الغربي لا غير.

(١) المصدر نفسه. ٧.

وذلك من مثل قوله: «مرت بروحه الزاهدة رؤى غريبة»^(١). وقوله: «تلقت حساسيته المرضية هزات غريبة»^(٢). وقوله: «كانت أحلامه تلازمه»^(٣). والمقصود بهذه العبارات كلها الوحي الذي يسميه شرا غامضا. وهو يتحدث عن أبعاد هذا الشر فيقول: «.. وكان، ربما، يحس بالأعراض الأولى لهذا الشر الغامض الذي سيمارس في حياته، وربما، في موته أيضا، وفي جميع الأحوال في أفكاره الدينية تأثيرا حاسما..»^(٤). ثم ينتقل لوصف الطريقة المؤلمة التي كان محمد ﷺ يتعرض بها لهذا الشر، فيقول: «إن قراءنا لا يجهلون (القارئ الغربي يجهل هذا فعلا كما يجهل غيره) أن محمدا كان معرضا طيلة حياته لهلوسات مؤلمة كان لا يخرج منها إلا وهو يتصبب عرقا، وقد علا فاه الزبد، وهو يرتعد بكل أعضائه»^(٥).

وهو يريد هنا وصف طريقة تلقي الوحي، وهي طريقة اختص غونداو بمعرفتها، لأن المسلمين لم يسمعوا عن نبهم أنه كان يعلو فاه الزبد. ومع أن

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.



الكاتب كان يذكر هنا روايته الخاصة في طريقة تلقي الرسول ﷺ للوحي إلا أنه كان عاجزا عن أن يربط ذلك بصورة تلقي الوحي، ذلك أن بقية الصور ممتعة عن التأويل. إذ كيف يربط بين مرض الصرع والهلوسة وبين نزول جبريل على صورته، ونزوله في صورة بشرية يراها مع الرسول ﷺ أحيانا جمع من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين^(١).

ومع هذا الكذب والعجز فإنه لا يتردد في أن يقول: «إن (محمدا) غالبا ما يعلن أنه قد أوحى إليه، بعد الخروج من بعض هذه الأزمات، وهي أزمات

(١) ن. السيرة النبوية لابن هشام. ٢٣٦/١. وانظر، في تفنيد هذه الشبهة، على سبيل المثال،

كتاب مونثغومري وات:

W.M.WATT.MAHOMET.P.19.traduit de l'anglais par odile mayot. Payot. Paris.1980.

- وكتاب ر. ف. بودلي: الرسول: حياة محمد. ترجمة: عبد الحميد جودة السحار - محمد

محمد فرج. ص. ٧١-٧٢. دار الكتاب العربي - مصر.

- ومن كتب الدارسين المسلمين انظر كتاب عبد الله محمد الأمين النعيم: الاستشراق في

السيرة النبوية: دراسة تاريخية لأراء وات. بروكلمان. فلهاوزن. مقارنة بالرؤية الإسلامية.

ص. ٧٠-٧٥. ط. ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧ م.

- وكتاب د. محمد محمد أبو ليلة: محمد بين الحقيقة والافتراء: في الرد على الكاتب اليهودي

الفرنسي مكسيم رودينسون. ص. ١١٣- ١١٧. دار النشر للجامعات - القاهرة. ط. ١.

١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩ م.

صرع على وجه الاحتمال، ويملي بعد ذلك أجمل سور القرآن^(١). وهذا يعني أن القرآن هو نتاج حالة مرضية خاصة. والحضارة الإسلامية القرآنية حالة مرضية كونية ناشئة عن حالة مرضية خاصة. لذلك فالآخر لا اعتبار له عنده لأنه شر ومرض يجب إنقاذ العالم منه. والبحث في الآخر هو في سبب مرضه، دون الشك في كونه مريضاً. والرسول لا يعدو، في أحسن الاعتبار عنده، كونه عبقرية، ولكنها عبقرية مريضة قلقة. وفي بعض ذلك يقول: «.. وهكذا غاب عن (مشرح) العالم، في سن الثالثة والستين^(٢) أحد أكثر العبقرات القلقة التي ذكرها التاريخ»^(٣).

ثالثاً: كون ما ظهر من دلائل لا ترد على صدق النبي ﷺ ناشئاً عن قدرته الكبيرة على الكتمان. وهو كتمان كان في حاجة إلى مثل هذا الكاتب لفضحه وتبيينه، بما أن الأقدمين عجزوا عن التنبه لذلك. وأصل هذا الكتمان عنده حب الرسول ﷺ «إحاطة نفسه بالغموض، وهو ما أثار اهتمام الرأي العام (القرشي)، فأخذ يتحدث بإبهام عن رؤى غريبة، ومعجزات شاذة كان غار حراء مسرحاً لها ومحمد بطلها والشاهد عليها. وقد كانت فضائله الطبيعية،

(1) MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.7.

(٢) لم يتبته إلى أن هذه السن بالتاريخ الهجري وهو يؤرخ بالتاريخ المسيحي.

(3) MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.22.



وجاذبية أخلاقه، وفصاحته، ولطفه، مما هياً سلفاً لتأويل الإشاعات الغريبة التي كانت تجري بصده تأويلاً فيه من حسن الظن»^(١).

أما مدة هذا الكتمان في نظر الكاتب فهي خمسة عشر عاماً «أعد فيها محمد لمشاريعه في صمت مطلق، لأنه كان يجب إنضاج هذه المشاريع وتعميقها. وعندما قرر صياغة وهمه المتصلب أو دجله ومكره المهيأ له طويلاً تردد ولم يستطع إلا عبر مراحل أن يبوح بسر»^(٢). ومدة الخمسة عشر عاماً عنده هي المدة الفاصلة بين أمر زعم أن النبي ﷺ توصل إليه في رحلاته قبل سن الخامسة والعشرين وبين بداية نزول الوحي. وبعد انتهاء مدة الكتمان، التي لا يعبأ غونزال بالتدليل على وجودها، انتقل النبي، في رأيه، إلى مرحلة أخرى هي مرحلة الخداع، حيث زعم أن مواضع ثقة الرسول ﷺ، «وهم المقربون منه وأصدقاءه وزوجه، وعبد زید، وابن عمه علي، وصهره المستقبلي أبو بكر، والشاعر (!) ورقة، فتنوا بعبقريته، وأملوا مخدوعين بالدور المجيد الذي كان النبي يحتفظ لهم به في الملحمة العظيمة التي بسطها تحت أعينهم عن طريق اندفاع وحماة عراف يرى المستقبل منذ تلك اللحظة متممياً للتاريخ، فأمنوا برسالته

(١) المصدر نفسه. ٩.

(٢) المصدر نفسه. ٩ - ١٠.

الإلهية وكانوا أول أتباعه^(١).

وهكذا بدأ الإسلام في رأيه عن طريق عملية خداع كبرى كان ضحيتها أعلام الصحابة في نظر المسلمين، الذين يرون فيهم أفضل جيل من جهة الإيمان والحكمة والتضحية وكمال العقل. بينما هم ليسوا عنده أكثر من جماعة من المخدوعين المصللين السذج.

رابعاً: كون الرسول ﷺ رجلاً دمويًا يبيد أعداءه دون رحمة، وهذا هو أصل حربه على المشركين وعلى قريش التي يرى أنها هوجمت ظلماً من أنصار النبي ﷺ فاضطرت إلى الدفاع عن نفسها. وبذلك فإن ما يقوله المسلمون ويقولوه القرآن الكريم من أن القتال إنما أحل بسبب أن المسلمين ظلّموا لا أصل له^(٢). والصحيح عنده أن قريشا كانت مظلومة وأن أنصار النبي كانوا مجموعة

(١) المصدر نفسه. ١٠.

(٢) قال تعالى، عندما أذن للمسلمين بالقتال دفاعاً عن أنفسهم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ تَصَرُّفِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ] [الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ] وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ [الحج: ٣٩-٤١]. أي أنني إنما أحللت لهم القتال لأنهم ظلّموا، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله، وأنهم =



من قطاع الطرق الأفظاظ^(١). وأن النبي نفسه لم يكن أكثر من رجل يعيش حياة زعيم عربي. وهو يشرح ماهية تلك الحياة بقوله: «.. حياة مغامرات وأخطار ونهب ودم. وهي حياة كانت ترفع صاحبها وتشرفه في عين أهل البلاد العربية. وقد كان يتمتع بصفات هذه (المهنة) السيئة منها والحسنة. وتلك هي: الإقدام، وسرعة الضربات، والفعالية، وفن اختيار الميدان، وتهيئ الهجوم، وتنظيم الدفاع، وإلهام الجنود حماسة الشجاعة واحتقار الموت، مع غياب مطلق للفضيلة في استعمال الوسائل (الخاصة) المؤدية للنصر، حيث استعمال القساوة المشرعة للمذابح ببرود، وحيث المكر الأسود الذي يستحسن الاغتيالات ويهيئها أو يقودها، والطمع البالغ الذي يجعل الإنسان عنيفا عند النهب، وفظا عند اقتسام الغنائم»^(٢). وبعد أن انتهى الكاتب من رسم هذه الصورة التي اجتهد أن تكون بشعة بقدر الإمكان قال ساخرا: «لقد أخذ الوحي نفسه في هذه المرحلة طبيعة

=إذا ظهروا أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر. يعني النبي ﷺ وأصحابه، ﷺ أجمعين. ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، أي: حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾، أي: حتى يعبد الله، لا يعبد معه غيره». السيرة النبوية لابن هشام. ٤٦٧/٢ - ٤٦٨.

(1) MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.15-16.

(2) المصدر نفسه. ١٦.

محبة للحرب أساساً^(١). ويبدو أن هذا الأسلوب راقه جدا فعاد لاستعماله قائلا: «إن السماء كانت تبعث له أوامر عسكرية، وكان جبريل يملي عليه بيانات النصر. سواء كان منتصرا كما في بدر والأحزاب. حيث كان النبي قد تنبأ بهذا النصر. أو كان على العكس من ذلك مهزوما بخزي، بعد أن أعلن بصوت عال أن النصر قادم، كما في معركة جبل أحد. فالنصر كان مؤكدا ووعد النبي كان حقيقة، وإذا كان قد تحول إلى هزيمة فيجب مؤاخذه المسلمين، لأن الله أراد بها معاقبة ترددهم وعدم طاعتهم. لقد كان الملك هناك حيث وعد باسم الله المنتصرين بغنيمة وافرة، والموتى بجنة أمانهم. إنه بتضليل وقح ومدنس قام محمد بجعل الله شريكا له في جرائمه، وجعل جبريل محرضا على مشاريعه أو موافقا عليها^(٢)». والمعلوم عند أهل الإسلام أن النبي ﷺ كان قد رأى رؤيا دعتة إلى أن يطلب من أصحابه عدم الخروج من المدينة وأن يقاتلوا فيها، وهو ما كان سيحدث لولا أن نفرا ممن لم يشهد بدرا رغب في البروز إلى العدو، فعمل ﷺ بمشورة أصحابه في درس عظيم من دروس الأخذ بالشورى^(٣). فهذا يدل

(١) المصدر نفسه. ١٦ - ١٧.

(٢) المصدر نفسه. ١٧.

(٣) ن. السيرة النبوية. ٣/ ٦٢ - ٦٣.



على غير ما زعمه غونزال من أنه أعلن بصوت عال أن الانتصار لا شك فيه. وقد عاد الكاتب للكذب مرة أخرى عند حديثه عن فتح مكة، حيث صور لنا فتحاً دمويًا رهيبًا بقوله: «قرعت قریش ناقوس الخطر بعد أن أصبح محمد على باب مكة على رأس عشرة آلاف رجل، فُقُتِلَ القرشيون. ولما احتج رؤوس المواطنين أذن محمد لجيشه بقتلهم»^(١). فقد أبت عليه نفسه أن يذكر عفو رسول الله ﷺ الشامل عن أهل مكة، بل وعفوه عن بعض من كان قد أهدر دمه من المشركين، بعد أن أسلم وتاب. ومن هؤلاء عكرمة بن أبي جهل ابن أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ. حيث خاطب أهل مكة ﷺ بقوله: «ما تظنون أني فاعل بكم؟ فقالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم. فقال: لا تثريب عليكم، اليوم يغفر الله لكم!»^(٢).

وهو يصور ما حدث بعد ذلك بقوله: «لقد أصبحت مكة تحت حكمه، وبقيت الكعبة، حيث سارع إلى تسلم مفاتيحها، وتقبيل الحجر الأسود بورع شديد (يقصد بهذه العبارة الإشارة إلى ما يعتبره أصولا وثنية للدين الإسلامي)

(١) المصدر نفسه. ١٧-١٨.

(٢) ن. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث. علي محمد محمد الصلابي. ٥٠٧/٢. دار ابن كثير - دمشق. ط. الثالثة. ٢٠٠٥ م.

بعد الطقوس المعهودة. وسلم لأصحابه الأصنام الثلاثمائة والستين التي كانت تملأ المعبد مع الأمر بهدمها. (جاء الحق وزهق الباطل). وفي الوقت نفسه انتشر أهم قواده في مكة ونواحيها يكسرون الأصنام، ويهدمون المعابد، ويهيجون جمهور الناس ويروعونهم، ويدفعونهم نحو الصفا حيث كان النبي ينتظرهم ليصافحهم متلقيا بيعتهم. وفي أقل من خمسة عشر يوما كانت الحجاز كلها خاضعة للسلطة الدينية والملكية لمحمد^(١).

وبعد أن ظن الكاتب أنه قد انتهى من هذا الجانب من الصورة وفصل القول فيه، قال ملخصا رأيه في النبي ﷺ: «نحن نعلم أنه لم يكن خلوا من العيوب التي تفضحه أمام الله وأمام التاريخ. لقد كان بسبب المصلحة، إذا عنت له مصلحة، قاسيا ودمويا إلى حد الأمر العنيف بالقتل، أو التلميح به غدرا إلى المنفذين المطيعين لرغباته المطلقة. لقد كان، مهما نُقِلَ عنه، مخادعا وكتوما إلى حد التدنيس الأكثر إجراما للمقدسات، جاعلا من الله وملائكته شهودا على تضليلاته ومشاركين له فيها»^(٢).

خامساً: اقتران النقائص بالنقائص في طبيعة الرسول. فهو فصيح، لطيف،

(1) MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.18.

(٢) المصدر نفسه. ٢٣.



جذاب الأخلاق، صاحب فضائل طبيعية^(١)، وهو دموي كتوم مخادع^(٢)، وهو زاهد ورع، وهو شبق وشهواني. يقول غوندا ل: «وأخيرا فإن حياته كلها تعطينا هذا الخليط البشع بين الزهد والورع وبين الشبق. وهو ما أصبح الطابع الأساس لدين يسمح للرجال أن يضعوا الحريم في ظل المسجد»^(٣).

ولا شك أن الكاتب يتحدث عن شخص لا وجود له إلا في ذهنه، لأن هذه الصفات لا توجد إلا في ذهن رجل متطرف في تعصبه يكتب بمداد استعماري، ويعتقد أن العالم الإسلامي سيتحول نحو النصرانية حيث سيصبح المسيح سيد الشعوب التي أخذها منه محمد. وحيث سيتراجع الهلال أمام الصليب. بل ويعتقد أن أيام سيطرة الإسلام على مسرح الفتوحات المسيحية الأولى أصبحت معدودة^(٤). وهي قراءة بينت الأيام أنها كانت محض وهم من الأوهام. غير أن هذه الأوهام في زمان غوندا ل كانت غاية في الخطورة لأنها كانت تعطي شرعية للاستعمار تحت دعوى أن الحضارة الإسلامية حضارة

(١) المصدر نفسه. ٩.

(٢) المصدر نفسه. ٢٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه. ٥٩ - ٦٠.

متخلفة لتعلقها بالقرآن^(١)، الذي هو كتاب مشوه و(فقير). يقول غوندال: «ومع ذلك فهذا الكتاب، على شدة فقره وتشوّهه، كان وما يزال بالنسبة لمائتي مليون من المخلوقات البشرية قاعدة الإيمان، وقانون الأخلاق، ومختصر التاريخ. وعلى مدى أكثر من اثني عشر قرناً جعلت منه أمم قوية قاعدة لقوانينها الإدارية والسياسية»^(٢). وبذلك فإن هذا الآخر المتدني لا مرشد له^(٣). والمسؤول عن ذلك هو نبي الإسلام الذي ينبغي إدانته. بل هو «أدان نفسه عندما كتب: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]»^(٤).

ويتفرع عن هذا التصور الشديد البشاعة والقبح جملة فروع هي في مجموعها صورةٌ لعنصرية غوندال واستعلائه وأوهامه واحتقاره للحضارات الأخرى وخوفه الشديد من الإسلام، وهذه الفروع هي:

أولاً: اعتباره أن الإسلام ليس أكثر من دين محلي، وأن العنصر الوحيد

(١) المصدر نفسه. ٢٧.

(٢) المصدر نفسه. ٢٦.

(٣) المصدر نفسه. ٢٥.

(٤) المصدر نفسه. ٣١.



الذي يعطيه قيمة أخلاقية ودينية عالية مصدره اليهودية والنصرانية، فهو كما يقول: «صورة متدنية للمسيحية كيفية لتناسب حجم الشعوب السامية وحاجاتها، هذه الشعوب التي لا تعدو ثقافتها أن تكون نصف ثقافة»^(١).

وكأنه انتبه في آخر كتابه أن صفة المحلية تناقض صفة الانتشار المتواصل للإسلام في العالم، فقدم لذلك تفسيراً يبينه قوله: «كيف نفسر - خاصة - نجاح الإسلام في الانتشار بطريقة متواصلة في آسيا وإفريقيا؟».

إن سبب ذلك يرجع إلى أن دين محمد فيه كل ما يعجب الأرواح الفظة: الحقيقة الجزئية التي تكفي لتهدة رغباتها الضعيفة الصبر في حل مشكلة القدر؛ والفضائل الطبيعية التي ترضي رغباتها الفطرية في العدالة والشرف، والتسامح المتعجرف الذي يترك مساحة حرة لرغباتها العنيفة، وشهواتها الحسية، ولكبرياتها خاصة.

إن هذا الدين يكتسح كل القوى الحية في الطبيعة الإنسانية ويكبلها ويسيطر عليها، وهي: الذكاء، والإرادة، والحواس»^(٢).

وقد اقترح غونزال سبيلاً يجعل من الإسلام ديناً عالمياً، وهو أن يتنصر

(١) المصدر نفسه. ٦٠.

(٢) المصدر نفسه. ٥٩.

المسلمون جميعاً، وذلك في قوله: «إنه لا سبيل إلى استمرار الإسلام وبقائه إلا بإعادة تشكيله، وهذا بانسلاخه من طبيعته القديمة، وتلقيه دفقا جديدا من الروح المسيحية. فهو لن يكون عالميا إلا بقدر ما سيقرب من المبدأ الأخلاقي المسيحي حتى يصبح، في نهاية الأمر، شيئا واحدا»^(١).

ثانياً: اعتبره أن كل المساوئ قد اجتمعت في الإسلام، وأن كل المحاسن قد اجتمعت في النصرانية، حتى إنه نسب إليها شعار الثورة الفرنسية وهو: المساواة والحرية والإخاء^(٢). ونسب إلى الإسلام نظام العبودية فقال: «إن نظام العبودية هو، تقريبا، النتاج الطبيعي لعجرفة وحسية أتباع النبي الحقيقيين»^(٣). وذكر أن الإسلام جعل من المرأة أداة متعة لا غير فقال: «لم ننس أمثلة الفجور الحزينة التي أوصى بها النبي نفسه أتباعه تسويغا لأفجر رغباتهم»^(٤). ثم قال بعد ذلك، متحدثا عن المكانة التي أعطاها الإسلام المرأة بعد المكانة التي كانت عليها في الجاهلية: «لقد كانت المرأة قبله تعامل كحيوان فجعل منها أداة متعة وقطعة

(١) المصدر نفسه. ٦١.

(٢) ن. المصدر نفسه. ٤٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه. ٤١.



أثاث من أثاث الحریم»^(١).

ثالثاً: اعتقاده أن الإسلام إلى زوال. وهو يعبر عن ذلك بقوله: «كل ما هو سليم وقوي في الإنسانية سيكسر، عاجلاً أو آجلاً، بمعونة الله، سلاسل الإسلام النجسة»^(٢).

رابعاً: اعتقاده أن الإسلام ليس أكثر من تركيب مشوه لعناصر من اليهودية والنصرانية. وهو يشرح ذلك بقوله: «إن الإسلامية هي رائعة أكبر عبقرية شريرة عرفت في البشرية: فهي يهودية في عقيدتها، عربية بممارساتها، وشيطانية بالمهارة الجهنمية التي اعتمدها منشؤها في الدمج بين العناصر المستعارة التي تؤلفها وتحريفها وبتورها»^(٣). وقد تحدث عن سبب ذلك وأثره فقال: «لقد بدا لمحمد أن المثال الأخلاقي اليهودي والمسيحي غاية في العلو، فأنزله إلى مستوى قلبه، بمعنى أنه ألغاه وعوضه بخليط خادع من عنف وتسامح متعجرف، ومن زهد وشهوانية. فكان هذا الخليط كفيلاً بإخماد أنبل ميول الروح الإنسانية، وإرضاء أماني القلوب الفظة، وتشجيع أحقر غرائز طبيعتنا

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه. ٥٩.

(٣) المصدر نفسه.

الضعيفة»^(١). وكأنه اطمأن إلى هذا الذي يقوله فأكثر من تردادده في أماكن من كتابه وذلك كقوله: «يمكن أن نقول بجرأة بأن عالم الدين لا يدين لمحمد بفكرة ولا شعور ولا عبادة»^(٢). وقوله: «والحاصل أن محمداً كان صدى أكثر مما كان صوتاً»^(٣).

ولم يجعل المؤلف هذه اللغة التحقيرية مقصورة على وصف الإسلام ونبيه ﷺ بل هي تشمل المجتمع الإسلامي أيضاً، ففي أحد أطول فصول كتابه، وهو الفصل الذي جعله تحت عنوان: تعدد الزوجات والعبودية، يقول: «نضيف إلى الأخطاء والثغرات التي تشوه الحق العام الإسلامي وتنزع عنه الشرف، أخطاء أخرى أو ثغرات تتعلق بحقل الحق الخاص، لم تكن أقل من سابقتها مساهمة في جعل المجتمع الإسلامي أحد أحقر المجتمعات التي سيذكرها التاريخ وأبأسها، نذكر منها: تعدد الزوجات والعبودية»^(٤). لذلك فإن هذه المجتمعات التي لا يتردد غوندال في وصفها بالحقارة لا تستحق منه أكثر من خطاب تحريضي غاية في السطحية والسذاجة يقول فيه مخاطباً هذه الأمم

(١) المصدر نفسه. ٥٨.

(٢) المصدر نفسه. ٥٦.

(٣) المصدر نفسه. ٥٧.

(٤) المصدر نفسه. ٤٠.



المسلمة التي كانت تحتلها أوربا أو تستعد لاحتلالها: «إن المؤسسات الإسلامية المفروضة بالعنف على الشعوب المختلفة فيما بينها اختلافا كبيرا، كان من نتائجها إصابة هذه الشعوب جميعها بالعقم.

إن شعوب إفريقيا الشمالية، وآسيا الغربية، وشبه جزيرة البلقان، وهي شعوب كانت قوية قديما، ماتت أو هي في طور الاحتضار في سجن ضيق ومظلم هو سجن المجتمع المسلم.

إن شعوبا موهوبة على نحو مبهر، وقادرة على النهوض بثبات وسرعة إلى أعلى مراتب الحضارة، وهي: العرب والفرس والبربر والأتراك، فقدت فجأة، بعد فترة قصيرة من الرخاء العسكري، كل طاقة ومبادرة، بل وفقدت مفهوم الحيوية والتقدم، وذلك بسبب الصعوبات البالغة التي سببها المؤسسة التيوقراطية والتشريع الجامد الذي فرضه محمد على أتباعه»^(١).

خامساً: اعتقاده أن الشعوب إلى ثلاثة أقسام: شعوب قوية متمدنة وهذه هي شعوب أوربا، وشعوب موهوبة قادرة على النهوض لولا الإسلام وهذه هي أمم العرب والفرس والبربر والترك، وشعوب منحطة وهؤلاء هم: السود والملايو وأهل الهند والصين. وفي بعض ذلك يقول: «إن الشعوب المتخلفة أو

(١) المصدر نفسه. ٣٥.

المتدنية وهم: السود والملايو والهنود والصينيون هي دون غيرها من تقدم خطوة إلى الأمام بدخولها في المجتمع المسلم. ومع ذلك فقد كانت هذه هي الخطوة الأولى والأخيرة التي خطتها في طريق التقدم^(١).

وهذا تصنيف بغض للبشر عمدته كراهية الإسلام، وإحساس غير سليم بالتفوق العرقي، جعله يزعم أنه ليس بين الإسلام وبين مطلق التخلف والبدائية إلا درجة واحدة لا غير. وقد نسي غوندال وهو يكتب هذا الكلام البغيض في تصنيف الشعوب كل ما كان يزعمه من أن شعار الثورة الفرنسية مستمد من النصرانية، وهو الشعار الذي يجعل من المساواة إحدى أسسه الثلاث.

سادساً: ادعائه أن الخطاب القرآني موجه لغير النصارى. وهذا زعم متوقع مثله من مثله. ولكنه يستدل بالقرآن على زعمه هذا محرفاً كلام الله ﷻ في قوله عز من قائل في سورة المائدة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٢٠ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝١٢١﴾. حيث حرف غوندال هاتين

(١) المصدر نفسه. ٣٥-٣٦.

(٢) سورة المائدة، آية ٤٦ - ٤٧.



الآيتين الكريمتين إلى قوله هو، فيما زعمه ترجمة: «إن الإنجيل هو مشعل الإيمان، وهو الذي يشهد بصحة الكتابات القديمة (الكتب السابقة). إن هذا الكتاب يهدي الذين يخافون الله ويعلمهم. إن المسيحيين سيحاسبون اعتمادا على ما في الإنجيل، وإن الذين سيحاسبونهم اعتمادا على غيره سيكونون من المارقين الخارجين عن القانون الإلهي»^(١).

وبناء على هذه الترجمة، التي لا أصل لها في القرآن، يكون غونزال قد أقنع النصراني أن القرآن نفسه يطمئنهم أنه لا حاجة لهم إلى الشك فيما عندهم، أو الدخول في غير دينهم، لأن حسابهم، هم خاصة، سيكون اعتمادا على ما في الإنجيل لا اعتمادا على ما في القرآن. ولذلك فالخطاب القرآني موجه لغيرهم لا لهم، ومن زعم غير هذا فقد خرج عن القانون الإلهي.

وهذا خطاب، عند التأمل، يعتبر وجها من وجوه الخوف الشديد من الإسلام يضاف إلى وجوه أخرى تستنبط من كتابه كاعتماده التحريف والوضع والكذب، وإنكاره لصحة هذا الدين وأصله الإلهي، غير أن هذه الوجوه وأمثالها ظاهرة بينة، وهذا الوجه مضمّر خفي.

وبهذا التصور المتعالي، والمحترق للآخر، والمشوه لصورة حضارته، يكون

(1) MAHOMET ET SON ŒUVRE. p.46.

غوندا ل قد أَرْضَى جَمِيعَ مَنْ يَعِيشُ فِي وَهْمِ التَّفَوُّقِ فِي الْغَرْبِ عَلَى عَهْدِهِ وَبَعْدِهِ؛
حيث نجد اليوم أبرز المواقع الإلكترونية المتخصصة في مهاجمة الدين الإسلامي
تدعو إلى قراءة هذا الكتاب - على تفاهته - وتسميه (اللؤلؤة الصغيرة). وبهذه
النظرة التي ترى أن الآخر شر خالص، وأن محمدا ﷺ لم يأت إلا بما هو شرير،
يكون غوندا ل قد عبر عن رأي الكنيسة النصرانية في الإسلام. وهو الرأي الذي
لم يتردد رأس الكنيسة الكاثوليكية في العالم اليوم في القول به، على خطورة
التصريح بذلك في عصرنا الحاضر. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



قائمة المراجع

أولاً: المراجع العربية:

- (١) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني. تحقيق: د. شعبان محمد إسماعيل. دار السلام - ط. ٢. ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.
- (٢) أنوار كواكب أنهج المسالك بشرح موطأ مالك. محمد بن عبد الباقي الزرقاني. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد. مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة. ط. ١. ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م.
- (٣) الجرح والتعديل. أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم التميمي الحنظلي الرازي. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية - بيروت. ط. ١. ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م.
- (٤) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة. لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: سيد إبراهيم. دار الحديث - القاهرة. ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م.
- (٥) الرسول: حياة محمد. ر. ف. بودلي. ترجمة: عبد الحميد جودة السحار - محمد محمد فرج. دار الكتاب العربي - مصر.
- (٦) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام. أبو القاسم السهيلي. ط. الأولى - دار الكتب العلمية - بيروت.

- (٧) زاد المعاد في هدي خير العباد. ابن قيم الجوزية. دار ابن حزم. ط. ١. ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- (٨) السر العجيب في تعدد زوجات الحبيب. طنطاوي جوهري. دار صادق الإسكندرية. ط. ٣. ١٣١٨هـ / ١٩٩٤م.
- (٩) السيرة النبوية لابن هشام. تحقيق: مصطفى السقا - إبراهيم الأبياري - عبد الحفيظ شلبي - المكتبة العلمية - بيروت.
- (١٠) السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث. علي محمد محمد الصلابي. دار ابن كثير - دمشق. ط. الثالثة. ٢٠٠٥م.
- (١١) علم أصول الفقه. عبد الوهاب خلاف. دار القلم - الكويت. ط. ١٠. ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.
- (١٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. عن الطبعة التي حقق أصلها: عبد العزيز بن عبد الله بن باز. ورقم كتبها وأبوها وأحاديثها: محمد فؤاد عبد الباقي. دار الحديث - القاهرة. ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
- (١٣) لسان العرب. ابن منظور. دار صادر - بيروت.
- (١٤) محمد بين الحقيقة والافتراء: في الرد على الكاتب اليهودي الفرنسي مكسيم رودينسون. محمد أبو ليلة. دار النشر للجامعات - القاهرة. ط. ١. ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- (١٥) محمد نظرة عصرية جديدة (الرسول وتعدد الزوجات. عبد الرحمن النجار). المؤسسة العربية للدراسات والنشر - ط. الأولى - مايو - ١٩٧٢م.



- (١٦) المستدرك على الصحيحين. أبو عبد الله الحاكم النيسابوري. وبذيله: تتبع أوهام الحاكم التي سكت عليها الذهبي. لأبي عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي. دار الحرمين - القاهرة. ط. ١. ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- (١٧) المستصفي من علم الأصول لأبي حامد الغزالي. تحقيق: د. حمزة بن زهير حافظ. الجامعة الإسلامية. المدينة المنورة.
- (١٨) الموجز في أصول الفقه للشيخ محمد عبيد الله الأسعدي. دار السلام. ط. ١ - ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- (١٩) نثر الورود على مراقبي السعود شرح الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي. دار المنارة - جدة / دار ابن حزم - بيروت. ط. ٣. ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

- (20) I.L.GONDAL .MAHOMET ET SON ŒUVRE
LIBRAIRIE BLOUD ET BARRAL - PARIS - 1897
- (21) MAHOMET. W.M.WATT P.19.traduit de l'anglais par odile mayot.
Payot. Paris.1980.

تم بحمد الله





شخصية الرسول ﷺ

في كتاب « محمد : حياته وعقيدته »

للمستشرق السويدي : تور أندريه

(١٣٠٢ . ١٣٦٦ هـ / ١٨٨٥ . ١٩٤٧ م)

إعداد

عبد الحق التركماني

رئيس مركز البحوث الإسلامية في السويد



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، المبعوث رحمة للعالمين، صلى الله وسلّم عليه وعلى إخوانه أنبياء الله ورسله أجمعين، وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن مما لا يخفى أن كل قوم يثق في علمائه ومثقفيه أكثر من ثقته بغيرهم، ليس فقط بدافع الشعور بالانتماء العقيدي والجمعي، بل - أيضًا - للتوافق المعرفي في منهجية البحث والخطاب واللغة والتفكير. لهذا نجد الكتب المؤلفة بأقلام المستشرقين عن الإسلام والمسلمين هي الأكثر رواجًا وانتشارًا بين القراء في الغرب، ومهما حاول المسلمون التعريف بدينهم ونبيهم ورسالتهم؛ فإن كتبهم العلمية والدعوية تبقى في إطار التداول المحدود من خلال المساجد والمراكز والمؤسسات الإسلامية، أما كتابات المستشرقين والباحثين الغربيين فهي المعتمدة عندهم في الجامعات والمؤسسات العلمية والمكتبات العامة، وإليها يرجع

علية القوم وصناع القرار وأصحاب الفكر والثقافة، فلها التأثير الأكبر في رسم معالم التصور العام عن الإسلام في أذهان أولئك. ومن هنا فإن التعرف على تلك الكتب مما يعين المسلمين على استكشاف جذور ذلك التصور، وما تحويه خلفياته من شبهات ومغالطات وأخطاء علمية. ولا شك أن توفر مثل هذه المعرفة يعين على جعل الخطاب الإسلامي الموجه إلى المثقف الأوربي أكثر استجابة لتصوراته ومفاهيمه.

وبحكم اهتمامي بالاستشراق السويدي؛ رأيت أن أشارك بجهد متواضع في هذا المجال من خلال هذا البحث عن (شخصية محمد ﷺ) في كتاب: (محمد: حياته وعقيدته) للمستشرق السويدي تور أندريه، فإنه يتميز بذلك التأثير الذي أشرت إليه آنفاً؛ فقد طبع سنة (١٩٣٠م) وبقي حياً رغم مضي هذه العقود الطويلة، فتتابعت طبعاته، وآخرها في سنة (٢٠٠٨)، وترجم إلى أشهر اللغات الأوربية.

ونظراً لقصر البحث؛ اكتفيت بتمييز مباحثه بالعناوين الجانبية، وذكرت معلومات المصدر في أول موضع يذكر فيه، إلا كتب الحديث لأنني ذكرت عند العزو إليها الأرقام المعتمدة في أكثر الطبعات شهرة، ومن الله تعالى العون والتوفيق.



نبذة عن المؤلف تور أندريه^(١):

ولد تور يوليوس إفرام أندريه في ٩ / ٧ / ١٨٨٥ م في أبرشية (فيينا) في محافظة (كلمر)، ومات في مدينة (لينشوينغ) في ٢٤ / ٢ / ١٩٤٧ م، ودفن في (أبسالا). حصل على البكالوريوس في الفلسفة - تخصص اللغات السامية وتاريخ الآداب - من جامعة أبسالا: ١٩٠٦ م، وحصل على ليسانس في علم اللاهوت: ١٩١٢ م، وعيّن قسيساً في (ديلسبو): ١٩١٣ م، وحصل على الدكتوراه: ١٩١٧، وأصبح راعي كنيسة في (أبسالا القديمة): ١٩٢٤، وعمل أستاذاً في تاريخ الأديان بالمعهد العالي في ستوكهولم: ١٩٢٧-١٩٣٣، وعمل بعد ذلك أستاذاً في جامعة أبسالا، إلى أن عيّن أسقفاً في أبرشية (لينشوينغ). ولما مات أستاذه ناتان سودربلوم؛ اختير عضواً في الأكاديمية السويدية: ١٩٣٢، وفي أكاديمية الآداب:

(١) ترجم له نجيب العقيقي في المستشرقون، دار المعارف، القاهرة: ١٩٨١ م، ٣ / ٣٣، وهذه

بعض التراجم والدراسات عنه باللغة السويدية:

Georg Wallin: «Resor, forskningar och öden» 1936.

Svenska Dagbladets årsbok 1947, s. 255

Windengren, Geo: «Tor Andrae» 1947.

Svensén, Bo. De Aderton: «Svenska Akademiens ledamöter under 200 år». Norstedts 1992, s. 190

Otto Cantzler: «Prelater & Potentater», Noteria förlag 1995, ISBN 91-85694-82-7.

Christer Hedin «Tor Andrae och orientalismen» Swedish Science Press, Uppsala: 2005.

١٩٣٥. وخلال صيف ١٩٣٦ عُيِّنَ وزيرًا للكنائس ومستشارًا للحكومة.

نشأ تور أندريه في أحضان أسرة نصرانية محافظة، فقد كان والده راعي كنيسة، وظهر أثر ذلك على حياته حيث حافظ على العمل الكنسي منذ شبابه وحتى وفاته، رغم إمكانية استغنائه عن ذلك بوظائفه الأكاديمية، لكنّه كان - كما ذكر العارفون به - متدينًا، له ميل شديد إلى التصوف، يلاحظ ذلك في أخلاقه وسلوكه.

اهتماماته العلمية ومؤلفاته:

يمكن تلخيص الاهتمامات الدينية والعلمية والفكرية لتور أندريه في

المحاور التالية:

١ - النصرانية: وذلك من خلال وظائفه الكنسية، وله بحوث وكتابات في هذا

المجال، نشر بعضها في أعداد مختلفة من (الدورية التاريخية الكنسية

السوية) *Kyrkohistorisk Årsskrift*، وله كتاب: (النصرانية: الدين

الكامل؟) *Kristendomen den fullkomliga religionen?*، و(أنا

أؤمن بالله) *Jag tror på Gud*، و(مجموع خطب ومواعظ) *Det*

gryr en morgon: predikningar och tal.

٢ - التحليل النفسي للدين: أي البحث في الدين وشخصياته من خلال

تتبع الجوانب النفسية ورصد أبعادها في العقائد والسلوكيات، وقد



أصدر أندريه بحوثاً عديدة في هذا المجال، منها: كتابه الكبير (علم النفس والتصوف) **Mystikens psykologi**: ١٩٢٦، و(التحليل النفسي والدين) **Psykanalys och religion**: ١٩٢٨.

٣- **التصوف**: لقد كان أندريه من مجذوبي التصوف، معجباً بسير الصوفية، وصاحبه ذلك حتى آخر حياته، حيث عكف على تأليف كتابه: (في روض الرياحين) **I myrträdgården: studier i sufisk mystik**، وطبع بعد وفاته: ١٩٤٧، وهو دراسة متعمقة في التصوف الإسلامي من خلال الأخبار والحكايات الواردة في المراجع العربية^(١). وله دراسات عن التصوف بشكل عام، ومنها كتابه: (التصوف المعاصر) **Modern mystik**: ١٩٣٠.

٤- **الإسلام**: كان أندريه على معرفة جيدة بدين الإسلام، وقد تيسّر له

(١) وترجمه د. عدنان عباس علي عن الترجمة الألمانية، وصدر عن دار الجمل في ألمانيا (٢٠٠٣)، بعنوان: (التصوف الإسلامي)، وقد أساء المترجم إساءة بالغة عندما عمد إلى إسقاط جزء كبير من الفصل الأول من الكتاب لاحتوائه على مقارنات بين الإسلام والنصرانية! والحقيقة أنّ ما أهمل ترجمته هو أهم مباحث الكتاب حيث يحاول المؤلف أن يُرجع الإسلام والتصوف إلى أصول نصرانية.

ذلك من خلال إتقانه للغة العربية ورجوعه إلى المصادر الأصلية، على أن بحوثه في هذا المجال تركّزت في ثلاثة جوانب: التصوف، وأثر النصرانية في الإسلام، والسيرة النبوية.

أما الجانب الأول فقد تقدم ذكر كتابه في التصوف.

أما الجانب الثاني: فقد حاول أندريه جاهداً أن يرجع الإسلام إلى أصول نصرانية، زاعماً أن النبي ﷺ قد أخذ عن أحد النصارى - كما سيأتي شرحه -، وكتب في ذلك سلسلة من البحوث نشرت في (الدورية السنوية للتاريخ الكنسي) *Kyrkohistorisk Årsskrift*: ١٩٢٣-١٩٢٥ م، ثم جمعت وترجمت إلى الفرنسية، ونالت اهتماماً وانتشاراً واسعاً.

أما الجانب الثالث: فيرجع اهتمام أندريه به إلى وقت مبكر من نشاطه العلمي، حيث كان بحثه لشهادة اليسانس في اللاهوت (١٩١٢): حول حقيقة الوحي الذي ظهر للنبي ﷺ في غار حراء من خلال تحديد العلاقة بين سماعه لنداء جبريل، ورؤيته له في الأفق الأعلى. وقد خاض أندريه في هذه المسألة بالتحليل النفسي المبني على الظن والتخمين والدعاوى الباطلة، لينتهي إلى القول بأن محمداً ﷺ سمع صوت إلهامه الداخلي، وتحيل ذلك صورةً في الأفق. أما أطروحته لنيل درجة الدكتوراه فكانت بعنوان: (شخصية محمد والاعتقاد فيه



عند المسلمين)، كتبها بالألمانية: ١٩١٧^(١)، وهي ليست في السيرة، لكنها بحث مبتكر في مكانة النبي ﷺ عند المسلمين واعتقاداتهم في منزلته وعصمته وخصائصه وشأله، وما يتعلق بذلك من التطور أو التغير أو الاختلاف خلال العصور المتعاقبة، وعند الفرق المختلفة. يقول المستشرق يان ييربه **Jan Hjärpe**: (إن هذا البحث يتعلق بفهم الدين وسيورته وتطوره، وكيف تتغير المفاهيم عن مؤسس الدين بمضي الوقت)^(٢). وتَوَجَّ أندرية اهتمامه بشخصية النبي ﷺ بكتابه الذي نحن بصدد التعريف به.

قصة كتاب (محمد حياته وعقيدته) وطبعاته وترجماته:

لما عمل تور أندرية أستاذًا في المعهد العالي لتاريخ الأديان في ستوكهولم (١٩٢٣-١٩٣٣) ألقى سلسلة من المحاضرات عن النبي ﷺ، ثم جمعها في هذا الكتاب: (محمد حياته وعقيدته) **Muhammed: hans liv och hans tro**.

- (1) «Die Person Muhammeds in Lehre und Glauben seiner Gemeinde» Norstedt, Stockholm: 1918. 401 p.
- (2) «Religionsvetenskap och teologi i ett 100-årsperspektiv - Nathan Söderblom, Tor Andrae och vår tid. » Föredrag av professor Jan Hjärpe vid Religionsvetenskapliga sällskapets 100-årsjubileum den 14 oktober 2006, Stockholm.

ويان ييربه أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة لوند جنوب السويد، ومن أشهر المستشرقين

السويديين المعاصرين، ولد سنة (١٩٤٢).

وصدرت الطبعة الأولى منه في ستوكهولم: ١٩٣٠، في مجلد لطيف، في (٢٤٣) صفحة، من القطع المتوسط، وبحروف صغيرة، وتضمنت عددًا من التصاویر لشخص النبي الكريم ﷺ وللملائكة والبراق والصحابة أخذت من الكتب واللوحات الفارسیّة، وتمّ إسقاط تلك الصور من الطبعة الحديثة: ٢٠٠٥.

وترجم الكتاب في وقت مبكر؛ فترجم إلى الإيطالية: ١٩٣٤ و ١٩٨١، والإنكليزية: ١٩٣٦ و ١٩٥٦ و ١٩٦٠ و ١٩٧١ و ١٩٩٠، والألمانية: ١٩٣٢ و ١٩٧٧ و ٢٠٠٢، والفرنسية: ١٩٤٥ و ١٩٨٤، والإسبانية: ١٩٣٣ و ١٩٦٦ و ١٩٨٠^(١).

(١) وهذه بيانات تلك الترجمات حسب الترتيب السابق:

Maometto, la sua vita e la sua fede: Trad. Italiana di Francesco Gabrieli.

Mohammed: the man and his faith: transl: [from the German] by Theophil Menzel.

Mohammed: sein Leben und sein Glaube.

Mahomet, sa vie et sa doctrine: traduit de l'allemand par Jean Gaudefroy-Demombynes.

Mahoma, su vida y su religión: Traducción del alemán por José Gaos.

وليس للكتاب ترجمة عربية فيما علمت، وفي مجلة الأزهر، عدد (١١)، محرم: ١٣٨٧، ص: (١١٩-١٢٤)؛ مقال بعنوان: (ما يقال عن الإسلام: محمد الرجل وعقيدته. عرض للدكتور أحمد فؤاد الأهواني). ولم أقف عليه، ولا بد أنه اعتمد في تعريفه بالكتاب على الترجمة الإنكليزية أو الفرنسية، فقد كان الأهواني خبيرًا باللغات الأجنبية، متخصصًا في الفلسفة والتربية، عمل أستاذًا في جامعة الأزهر، ولد سنة (١٩٠٨)، وتوفي سنة (١٩٧٠) رحمته الله.



وكانت جميع تلك الترجمات عن الطبعة السويدية الأولى، بينما حصل - في وقت لاحق - تغييرٌ مهم في مسيرة هذا الكتاب، وذلك عندما قام تلميذ المؤلف، وخلفه في جامعة أبسالا: (غيو ويدينغرين) **Geo Widengren**^(١) بإخراج الكتاب في سنة (١٩٥٠) بطبعة (محدّثة)، حيث أعمل قلمه في نص الكتاب ببعض الزيادة والحذف والتغيير، ويبيّن في مقدمته القصيرة لطبعته أن أهم أهداف عمله: (تخفيف بعض حدة التعبير لدى المؤلف)، ولهذا عمد إلى إسقاط خمسة أسطر من آخر الكتاب، وإبدالها بصفحتين من تأليفه، مؤكّدًا على أن عمله لم يؤثّر في الفكرة التي عرضها أندريه عن النبي ﷺ، وأنه لم يفعل إلا ما ظنّ أن أندريه كان سيرضى به لو اطلع عليه، وقد انتشرت هذه الطبعة، فطبعت مرات كثيرة، أولها: طبعتان في سنة: ١٩٥٠، وآخرها طبعة فاخرة بإخراج جديد، وبمراجعة وتقديم المستشرق السويدي يان ييربه **Jan Hjärpe**: ٢٠٠٥ و ٢٠٠٨، ومع ذلك فقد ذكر ييربه في مقدمته أنه ليس من المؤكد أن أندريه كان سيرضى بصنيع

(١) ولد في استوكهولم (١٩٠٧) ومات فيها (١٩٩٦)، يعدّ من أخص تلاميذ تور أندريه وألف في ترجمته كتابًا، تخصص في الأديان الفارسية، وكتب فيها كثيرًا، من كتبه: (محمد: رسول الله وظهره) بالانكليزية، أبسالا: ١٩٥٥؛ ولم يشتهر، وكتاب: (عالم الأديان) بالسويدية، استوكهولم: ١٩٧١.

تلميذه لو قدّر له أن يطلع عليه، وذكر لي المستشرق كريستوفر تول Christopher Toll بأنّ ويدينغرين قد أساء إلى الكتاب بعمله^(١). لهذا اعتمدتُ في هذا البحث على طبعة المؤلف الأولى.

جعل أندريه كتابه: (محمد حياته وعقيدته) في مقدمة قصيرة وسبعة فصول:

الأول: الجزيرة العربية في زمن محمد.

الثاني: من الطفولة وحتى الدعوة.

الثالث: الرسالة الدينية لمحمد.

الرابع: الوحي.

الخامس: الصراع مع قريش.

السادس: الحاكم في المدينة.

السابع والأخير: شخصية محمد.

وستتطرق في بحثنا هذا إلى عرض وتحليل ومناقشة هذا الفصل.

وطريقة أندريه في التأليف أنه لا يضع عناوين جانبية لفصول الكتاب مهما طالت، بل يذكر موادها في سياق متناسق متصل، ولا يوثق اقتباساته بذكر المصادر، رغم أنه رجع إلى أصولها العربية، ولعله فعل ذلك لأن المادة التي

(١) مقابلة شخصية في منزله بستوكهولم سنة ١٤٢٢ هـ.



يتناولها مشهورة مبذولة، لكن تبقى الحاجة إلى التوثيق قائمة ليعرف القارئ مصادر ما يذكره على وجه التفصيل^(١).

لقد اعتمد أندريه على المصادر المعتمدة عند المسلمين، ورجع إلى أصولها العربية، مثل كتب السنة كالصحيحين والسنن وغيرها، وكتب السيرة كسيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد وغيرهما، وهذا الاعتماد شرط للاقتراب من الحقيقة ثم الوصول إليها، خلافاً لمن اتجه من المستشرقين إلى التشكيك، بل إسقاط الاحتجاج بجميع مرويات السنة والسيرة. لهذا قال لي المستشرق يان ريتسو **Jan Retsö** - أستاذ اللغات السامية بجامعة غوطبورغ -: (إن كتاب أندريه لا قيمة له، لأنه يعتمد على المصادر الإسلامية التقليدية، وهي كتب ملفقة لا يمكن الاعتماد عليها، وتحتاج إلى نقد تاريخي حديث)^(٢). فقلت له: إنني لا أخالفك أن جزئيات مرويات السنة وحوادث السيرة تحتاج إلى نقد وتمحيص، وهذا ما يقوم به علماء الحديث، لكن ألا ترى أن كتب الحديث والآثار والسير والتاريخ والتفسير والفقه وغيرها كثير - وهي بالآلاف - تكفي لإثبات المعالم العامة لدعوة النبي وأخلاقه وسلوكه بالعلم الضروري القطعي الذي لا سبيل إلى إنكاره؟!

(1) Hedin, Christer: «Tor Andrae och orientalismen», Swedish Science Press, Uppsala: 2005. s. 20.

(2) مقابلة شخصية بمكتبه في جامعة غوطبورغ: ١٤٣١ / ٢ / ٢٤.

أهمية الكتاب وما يميّز به:

لم أطل في التعريف بطبعات وترجمات الكتاب إلا للتنويه بأهمية الكتاب لدى المثقفين الأوروبيين، وسعة انتشاره وتداوله، ولا يرجع هذا لقلّة الكتب عن النبي ﷺ في اللغات الأوروبية، وإنما لتمييز هذا الكتاب بمنهج مبتكر في عرض السيرة النبوية وتحليل أحداثها، بأسلوب أدبي رفيع، وبأفكار متسلسلة مشوّقة. وأيضًا: فإن المؤلف حاول - حسب وجهة نظره - أن يكون منصفًا في حكمه، بعيدًا عن التعصب والتحامل، فعرض صورةً عن النبي ﷺ تعدُّ بالنسبة إلى كثير من كتابات المستشرقين جيدة ومنصفة. ويمكن ملاحظة هذا بمقارنة ما كتبه بكتابات المستشرقين السويديين قبله، وهم ثلاثة: فريدريك كروسينستولب J. F. S. Crusenstolpe: ١٨٤٣، وتورنبيغ C. J. Tornberg: ١٨٧٤، وزيتشتين K. V. Zetterstéen: ١٩١٧؛ كل واحد منهم في مقدمته لترجمته لمعاني القرآن الكريم. وباعتراف يان ييربه Jan Hjärpe فإن صورة النبي ﷺ في تلك التراجم: (صورة سلبية - حتى عند زيتشتين - ومرتبطة إلى حدٍّ ما بموقفٍ متكبرٍ، وهو ما يبدو مزعجًا للقراء المسلمين المعاصرين - بل ليس فقط لهؤلاء! -). إنها تعطي انطباعًا أكثر سلبية مما يعطيه الكتاب الدانمركي الكبير: (حياة محمد) لفرانتز بوهل Frantz Buhl (١٨٥٠-١٩٣٢م)، والذي صدر



سنة ١٩٠٣، وهو كتاب علميٍّ، مع العودة بدقة إلى المصادر، ولكن مع إعطاء انطباع سيِّء عن شخصية محمد. ومن الواضح أن الكتاب أعطى تأثيراً مستمراً في الدانمرك، وهذا ما يلاحظ من خلال الحوارات التي تقام هناك، رغم مضي أكثر من مئة سنة على صدور الكتاب). ثم قال يان ييريه: (كتاب أندريه مختلف. منهجه في النقد، ومقارناته، ومعرفته المتعمّقة باستخدام مادة علم النفس الديني؛ أنتج صورة أخرى عن محمد غير تلك الصورة التي خيِّمت على الاستشراق وتاريخ الأديان في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين).^(١)

هذه الشهادة من هذا المستشرق السويدي الكبير، الواسع الاطلاع؛ لها قيمتها، وقد سبقته إلى مثلها (سيغريد كاهلي) Sigrid Kahle في مقدمة ترجمتها لكتاب إدوارد سعيد: (الاستشراق) إلى السويدية: ١٩٩٣م، وقد ربط فيه مؤلفه الاستشراق بالاستعمار، مؤكداً على أن الاستشراق في الغرب قد قدّم تفسيراً خاطئاً تماماً عن الإسلام، وحاول تقديم تسويغ أخلاقي للاستعمار؛ فردّت عليه كاهلي بذكر أسماء من تكلموا عن الإسلام: (بشكل ممتاز)؛ فذكرت أربعة، اثنان منهم سويديان: نيبيرغ H. S. Nyberg (١٨٨٩ - ١٩٧٤)، وتور أندريه.

(1) Jan Hjärpe «Förord till nya upplagan: Tor Andrae och Muhammedboken» i «Muhammed: hans liv och hans tro», Hjalmarson & Högberg, Stockholm: 2008. s. 8.

هذه الإشارة في مقدمة كاهلي أوحت إلى المستشرق السويدي (كريستر هيدين) - أستاذ الأديان بجامعة ستوكهولم حالياً - فكرة معارضة كتاب إدوارد سعيد بنموذج أندريه السويدي، فألف في ذلك كتابه القيم: (تور أندريه والاستشراق) **Tor Andrae och orientalismen** (أبسالا: ٢٠٠٥)، طارحاً في صدره السؤال التالي: (هل البحث الإسلامي السويدي كان أيضاً بدافع استعماري؟ وهل هو متأثر برؤية الاستشراق إلى الإسلام والمسلمين؟) ثم قال: (المراد من هذا الكتاب إلقاء الضوء على هذه المسألة من خلال دراسة عن البروفسور الأسبق في جامعة أبسالا: تور أندريه). ثم يبين أنه سيركّز في دراسته على كتاب: (محمد حياته وعقيدته)، ثم بدأ باستعراض مادة الكتاب، محاولاً إبراز ما يتعلق بالسؤال الذي طرحه، ليتحقق مما إذا كان أندريه مستشرقاً - بالمعنى الذي طرحه إدوارد سعيد - أم كان باحثاً متجرداً منصفاً؟ وليس بإمكانني في هذا البحث القصير أن أتطرق إلى تفاصيل ما ذكره هيدين في كتابه، لكنني سأحاول الاستفادة منه في بيان المآخذ على أندريه، المهم هنا أن هيدين قد خلّص إلى أن أندريه كان باحثاً منصفاً وإن ظهرت في ثنايا كتابه النزعة الاستشراقية.

لعلنا نكون أكثر تقديرًا لعمل أندريه إذا استحضرنا أنه تربّى في أحضان

الكنيسة، وكان لأستاذه وموجّهه: ناتان سودربلوم **Nathan Söderblom**



(١٨٦٦-١٩٣١م) أكبر الأثر في بناء شخصيته العلمية والفكرية، وكان سودربلوم مستشرقاً متخصصاً في الأديان الفارسية، ومن علماء اللاهوت والفلسفة، وعُيِّن رئيساً لأساقفة الكنيسة السويدية، وحصل على جائزة نوبل للسلام لمساعيه في جمع كلمة الكنائس النصرانية في العالم. لقد تأثر أندريه بأستاذه هذا، خاصة في مجال التحليل النفسي للأديان الذي كان موضع اهتمام سودربلوم، ومع ذلك لم يظهر عليه كبير تأثر بالموقف المتعصب لسودربلوم ضد الإسلام، لقد كان له موقف كريم ومتسامح تجاه الأديان الأخرى؛ إلا الإسلام، الذي خصّه بنظرة سيئة تجاهه^(١). لهذا يُفهم من بعض انتقادات أندريه لظاهرة التعصب ضد الإسلام؛ أنه يعرّض بأستاذه هذا ويردُّ عليه^(٢).

فإذا كان هذا موقف رئيس الكنيسة السويدية؛ فإمكاننا أن ندرك التوجه العام الذي لم يكن ليقبل أيّ رأي متسامح ومنصف في الحديث عن الإسلام ونبيّه ﷺ، لهذا كان أندريه يجد معارضةً مباشرةً، وسجّل في كتابه (عالم الغيب) مثلاً لذلك، فقال: (تلقيتُ مرةً - بعد محاضرة لي عن الإسلام - رسالةً مثيرةً

(١) ذكر هذا المستشرق كريستر هيدين في بحثه: (آراء ناتان سودربلوم حول الإسلام).

Hedin, Christer: «Nathan Söderbloms uppfattningar om Islam» i Tidskrift för mellanöstern studier nr 1, 1997. S. 32-62.

(2) Hedin, Christer: «Tor Andrae och orientalismen» s. 52.

للإزعاج من شيخٍ منصّرٍ، يخبرني بأنه شعر بالإهانة حتّى أعماقه عندما استمع لوصف الثناء والمديح للدين الذي تعرف عليه - خلال ثلاثين سنة - عن قرب، ووجد نقائصه الروحية والأخلاقية صارخةً حتى عنان السماء). وأجابه أندريه بأنه يوافق على أن بعض المسلمين يقدم صورة مرعبة عن الإسلام، لكن النصرارى يمكن أن يجعلوا أنفسهم مدانين بأفعال مثيرة للكرهية، وفيهم أيضًا من (نقائصه الروحية والأخلاقية صارخةً حتى عنان السماء)، وقال أندريه: (إنه بإمكانى أن أحكم على النصرانية - بعد ثلاثين سنة من الخبرة الشخصية - من خلال فلاحى صقليّة، أو الوعاظ السود الأمريكيين)^(١).

إن ذلك الانزعاج من منهج أندريه في الحديث عن نبي الإسلام لم يقتصر على (شيخ منصر) في السويد، بل أخذ طابعًا عالميًا، فما أن ظهرت الترجمة الإنكليزية من كتاب: (محمد حياته وعقيدته) سنة (١٩٣٦م)؛ حتى سارع المنصّر

(1) Tor Andrae «Det osynligas värld» J.A. Lindblads förlag, Uppsala: 1934. S. 134.

فلاحو صقلية من الكاثوليك، وكانوا يعتقدون في قبور القديسين، وأن أثرًا من رفاتهم يشفي المرضى.

أما الوعاظ السود: فكانوا معروفين بالخطب الحماسية والتحذير الشديد من المعاصي بطريقة ساذجة.



الأمريكي الحاقد زويمر S. M. Zwemer (١٨٦٧-١٩٥٢) إلى كتابة مقال في مجلته: (العالم الإسلامي) بعنوان: (محمد تور أندريه)؛ حاول فيه أن يقتبس كلّ الشبهات التي أوردها أندريه ضد النبي ﷺ ويركّز عليها، وسخر من أجوبة أندريه عنها خاصة جوابه حول تعدد زوجاته ﷺ، وتنبهه بمنهج الإسلام في تنظيم الزواج والأسرة واحترام المرأة...؛ خاتماً مقاله بقوله: (سيرة ابن هشام القديمة والمحفوظة تحدثنا بالكثير عن محمد؛ أن نقبل من غير ارتياب كلّ ظلال الصورة المرسومة من قبل الفنان المثقف في أبسالا)^(١)!

لهذا كله؛ يمكننا أن نعدّ كتاب أندريه ضمن الكتب المعتدلة والمنصفة نسبياً في الحديث عن النبي ﷺ، رغم وجود جملة من الأخطاء المنهجية والتفصيلية - سنشير إلى بعضها لاحقاً - . والرجل لم يقده بحثه إلى الإيمان بالدين الحق، ولا شك أن عدم الإيمان هو الذي دفع أندريه للوقوع في شبهات ومغالطات؛ كانت السلامة منها لمثله يسيرة لو أنه خضع لنداء الفطرة والعقل ودلائل النبوة وحقائق التاريخ.

الجوانب الجيدة في بحث أندريه حول شخصية الرسول ﷺ:

تُرى هل يوجد في كلام أندريه ما يمكن حقاً أن يشعر بعض المنصرين بالإهانة، ويثير غضب شيخهم الأكبر زويمر؟ نعم؛ يوجد الكثير من العبارات

(1) S. M. Zwemer: «Tor Andrae's mohammed» in «The Moslem World» vol. xxvi, No. 3, July 1936, p. 218-221.

التي فيها قدر كبير من الإنصاف والعدل، بل المدح والثناء، ويمكن للقارئ أن يستشعر من خلالها أن أندريه قد أعجب بشخصية محمد ﷺ بعد أن تعرف عليها من خلال المصادر الأصلية، لكنه استطاع أن يقاوم جاذبيتها وتأثيرها، وهو في ذلك من القلة الذين سيشير إليهم في بعض كلامه الآتي.

لقد سخط أولئك على أندريه لأنه ركّز في كلامه على تقرير إخلاص النبي في دعوته، وصدقه مع نفسه ومع الناس، وعلى تعبده وتواضعه ومحاسبته لنفسه، وعلى أخلاقه واستقامته. لقد رفض أندريه الاحتقار والإهانة والافتراء والكذب والتشويه الذي أطلقته الكنيسة والكتاب في العصور الوسطى، وذكر - في صدر كلامه في الفصل السابع: (شخصية محمد) - رأيي دانتي أليغييري **Dante Alighieri** (١٢٩٥-١٣٢١م)، وهو شاعر وأديب إيطالي، اشتهر بكتابه: (الكوميديا الإلهية)، وهو في قسمين: الفردوس والجحيم، وقد ذكر نبينا الكريم ﷺ: (في الفقرة (٢٨) في (الجحيم) في مقدمة أولئك الأشرار الذين أحدثوا شقاقاً في الدين، والشيطان يقطعه نصفين من رأسه وحتى منتصف جسده. وجناية محمد أنه أتى بدين باطل). ثم علق أندريه بقوله: (ادعائه منح الناس رسالة جديدة غير النصرانية لم يكن ليفهم - في العصور الوسطى - إلا أنه خداع أثيم. ففيما يتعلق بالجدل النصراني البسيط في ذلك الوقت؛ كان محمد -



وقبل كل شيء - متنبئًا كذَّابًا). وهذا ولوج جيد في الموضوع يكشف عن بعض تلك الصورة القاتمة الحاقدة التي كانت تنشرها الكنيسة والكتاب الأوربيون في العصور الوسطى عن الإسلام ورسوله ﷺ، ودانتي مثال واحد وليس هو بالمثال الوحيد. ثم ذكر أندريه عصر التنوير، وأنه: (امتلك معطيات أكثر عدالة لتقييم شخص محمد)، وعلل ذلك بقوله: (أولئك المفكرون يظهرون غالبًا تقديرًا ساذجًا للتعاليم الرائعة والفضائل عند واضعي القوانين القدامى ومؤسسي الأديان، ولموافقة العقل لدى تلك الأديان الغريبة عنهم؛ التي يُعلى شأنها على حساب النصرانية. هذا التقييم الجيد لتلك الأديان غير النصرانية يشمل الإسلام أيضًا). ومراده بهذا: أن ما أبداه عدد من مفكري عصر التنوير من التقدير والإنصاف للنبي ﷺ، ومن الشناء البالغ على شخصه وتعاليمه؛ إنما كان بدافع غير مباشر من صراعهم مع الكنيسة وسلطانها، فكان في الشناء على غير النصرانية من الأديان نكاية بالكنسية. وهذا صحيح إلى حدٍّ بعيد، لهذا نجد في عبارات أولئك الاهتمام بالجانب الإنساني والأخلاقي والحضاري في دعوة النبي ﷺ، مع التصريح بالكفر بالجانب العقيدي منها - كما سيأتي -. إن أندريه قد لاحظ الخلفية النفسية والفكرية التي انطلق منها الأوربيون في كتاباتهم عن النبي ﷺ في المرحلتين السابقتين، ولكن هل تجردوا عن تلك الخلفيات في

العصر الحديث؟ هذا ما سنجد بعض الجواب عليه إذا ما انتهينا من تحليلنا لبحث أندريه نفسه؛ إن شاء الله تعالى.

وضرب أندريه بعض الأمثلة من عصر التنوير، فذكر كلام جورج سيل

George Sale (١٦٩٧م - ١٧٣٦م)، وسافاري **Claude-Étienne Savary**

(١٧٥٠ - ١٧٨٨م)، ودي بولانفيلي **Henri de Boulainvilliers** (١٦٥٨ -

١٧٢٢م)، وكارلايل **Thomas Carlyle** (١٧٩٥ - ١٨٨١م)، وكلام هؤلاء

يتضمن ثناءً على شخصية النبي ﷺ باعتباره مصلحاً ومفكراً وقائداً عظيماً، وهو

يعبر عن عقلية مفكري عصر التنوير في تعظيم الإنسان والتنويه بأعماله وإنجازاته

من حيث كونه إنساناً بغض النظر عن العقيدة والدين. وذكر أندريه أيضاً أن بعض

مفكري عصر التنوير - منهم: فولتير **Voltaire** (١٦٩٤ - ١٧٧٨م)، وديدروت

Diderot (١٧١٣ - ١٧٨٤م)؛ رفضوا ذلك التقدير العالي لشخص النبي ﷺ،

وطعنوا فيه، إلا أن فولتير: (اعترف في عمل متأخر له بعظمة محمد وعبقريته لكنه انتقد

قسوته وعنفه، ورأى أن لا جديد في دينه سوى التركيز على أن محمداً رسول الله).

ثم شرع أندريه في عرض شخصيته ﷺ في ضوء نتائج دراساته

وتحليلاته، وسأذكر هنا جملة من عباراته الجيدة في هذا المجال^(١):

(١) جميع ما سأذكره هنا من الفصل السابع والأخير: (شخصية محمد) من كتابه: (محمد حياته =



١ - قال أندريه - بعد دراسة نفسية مطولة :- (إنَّ إلهام محمد كان من الناحية النفسية أصيلاً - كما سبق تأكيده -؛ فمن الصعب تصوُّر أن شخصاً ما قد تمكَّن من الحصول على مثل هذه الثقة غير المحدودة، ويحدث تأثيراً في محيطه؛ إذا لم يكن يملك الاعتقاد الأسر والمقنع لرسالته).

قلتُ: وهذا حقُّ، وهو شاهد حال على صدق نبوته، يتأكَّد بثباته ورسوخه على مدى ثلاث وعشرين سنة من الآلام والشدائد والصعوبات والتغيُّرات، فلو كان الأمر إلهاماً مجرداً، أو تجربة ذاتية؛ لظهرت في دعوته وسلوكه آثار التردد والضعف والإنهاك والتغير والاضطراب. لكنَّه مكلف من عند ربِّه، وهو رَجُلٌ يمدّه بالقوة والصبر والثبات.

٢ - وقال: (أخذ دعوته على أشد محامل الجد، لقد شعر بقلبه وهو يرتعش أمام سلطان يوم القيامة، وأدَّى وظيفته النبوية كاملة بتقوى وخوف: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]. الله يجعل رقباء على رسوله من أمامه ومن خلفه حتى يتأكد أنه أدى الرسالة. لا يحتاج المرء أن يكون

=وعقيدته)، وهو بترجمتي عن الأصل السويدي الذي صدر في حياة المؤلف سنة (١٩٣٠)

ص: ٢١٦-٢٣٩.

حَسَّاسًا جَدًّا لتلك النبوة الشخصية في وعظه الديني حتى يكشف خطوات أولئك الرقباء الصَّارمين في كلماته الوعظية المؤثرة، وفي تعبيراته المؤثرة - عندما لا يراقب أحد موعظته - عن حزنه وألمه).

قلت: هذا كلام حسن عمومًا، لكن يحسن التنبيه هنا إلى أن من المآخذات على أندريه أنه يركّز في مواضع متفرقة من كتابه على شدة خوف النبي ﷺ من يوم القيامة، وأن ذلك الخوف هو الذي سيطر على تفكيره ووجهه إلى حمل الرسالة بجدية بالغة. وهذا التركيز يعطي انطباعًا بإغفال جانب الحب والرجاء والغفران والرحمة. وقد تنبه كريستر هيدين إلى هذه النقطة؛ فذكر أن القرآن الكريم مليء بذكر رحمة الله ومغفرته ومحبته، لهذا فصنّع أندريه يجعل من السَّهل - كما قال هيدين - أن تُعرَّض صورة الإسلام للتحريف^(١).

٣ - وقال: (امتنع محمد عن أي فعل يظهره كمعجز، ورفض قطعًا أي غلو في شخصه. إنه ليس سوى رجل من الرجال الآخرين، لا يعلم الغيب، ولا مدخل له في سلطان السماء، ولا يتحكم في قدر نفسه ولا في قدر الآخرين. في الحقيقة ترجع هذه الأقوال إلى العهد المكّي، لكن لا يوجد شيء يمكن أن يشير إلى أن محمدًا حاول استغلال التعظيم الخرافي لشخصه الذي أظهره المؤمنون به

(1) Hedin, Christer: «Tor Andrae och orientalismen» s. 52.



في المدينة، لإظهار منزلته،...

٤ - وقال: (على أي حال؛ هو لم يحاول بشكل كبير أن يقوي سلطته، ويضمن مكانته من خلال خوارق زائفة).

٥ - وقال أندريه: (العقيدة الإسلامية وصفت النبي بأنه معصوم: أنه بالتأكيد لم يرتكب أي ذنب متعمداً، وبمنزلته العالية ارتكب خطأ ما يمكن أن يُعدّ من قبيل الذنوب الصغيرة. إنها ميزة جذابة لمحمد أنه نفسه لم يكن يريد أن يتصرف كشخص له الكمال أو البراءة من الخطأ، بل اعترف دائماً بوضوح بأنه مثل باقي البشر تكتنفه العيوب والأخطاء. وفقاً للسورة (٤٨) كان الفتح المبين - يعني: فتح مكة - علامة على أن الله قد غفر للنبيّ ذنوبه المتقدمة والمتأخرة^(١). القصة المثيرة لعقد اللؤلؤ الذي أعطاه محمدٌ لعائشة، وتسبّب ذلك في عدم استطاعته النوم في تلك الليلة^(٢)؛ تُظهر جلياً أنه - رغم وعيه لمنزلته العالية بكونه

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١-٢].

(٢) لم أقف على هذه القصة التي يشير إليها، ولم يذكر أندريه مصدره على عادته في عدم توثيق نقولاته. وقد ورد ذكر عقد عائشة ؓ في قصة نزول آية التيمم، حيث فقدت عائشة عقدها، فأقام رسول الله ﷺ في التماسه، وأقام الناس معه، وكانوا في موضع لا ماء فيه،=

رسول الله - احتفظ بشيء من براءة روحه، وهذا ما يؤكّد إخلاصه الديني. حتّى في دعوته لم ير نفسه بريئاً تماماً من الأوهام والأخطاء، إنه يرى حفظه من الخيانة في الوظيفة التي كلف بها مجرد أثر رحمة خاصّة من الله تعالى (سورة: ١٧: ٧٣-٧٥)^(١). مع أنبياء آخرين دعا محمد: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧]. وبشكل عامّ

=فأنزل الله آية التيمم، فتيّموا. لكن في القصة نفسها: أنّ عائشة كانت استعارت ذلك العقد من أختها أسماء رضي الله عنها. وهي في صحيح البخاري (٣٣٤) و(٣٣٦)، وصحيح مسلم (٣٦٧). وورد ذكر عقدها - أيضاً - في قصة الإفك المشهورة، وقالت عائشة في وصفها أنها: (عَقْدٌ مِنْ جَزَعِ ظَفَارٍ)؛ كما في صحيح البخاري (٤٧٥٠)، وصحيح مسلم (٢٤٤٥). وظفار: موضع باليمن قرب صنعاء، ينسب إليه الجرّع وهو خرزٌ من ضربٍ من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان. المعجم الوسيط (مادة: جزع). وفي كتاب المغازي لمحمد بن عمر بن واقد الواقدي (ت: ٢٠٧هـ)، تحقيق: مارسدن جونس، تصوير عالم الكتب بيروت، ٢/ ٤٢٨: أن عائشة قالت في خبر ذلك العقد: (وكانت أمّي أدخلتني به على رسول الله ﷺ). فبقى ما ذكره أندريه مشكلاً، ولعله قد دخل عليه خطأ أو سوء فهم عند الترجمة، والله أعلم.

(١) يشير إلى قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا ۖ وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئِنَّاكَ لَقَدْ كَدَتِ تَرَكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۖ إِذَا لَا دَقْنُوكَ ضَعْفَ الْحَيَوةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ۖ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۖ ﴾.



يمكن أن يقال: إن محمدًا احتفظ بالكثير من التواضع ومحاسبة النفس، مما يحقُّ للمرء أن ينتظره من رسولٍ لله قد تتَّوجَّ عمله بها لا مثيل له من النجاح. يُظهر لنا وقوفه ضد إغراءات التفاخر، وحب الذات التي تدفع إليها منزلته؛ أنه كان شخصيةً بأخلاقٍ أصيلة^(١).

٦ - وقال أيضًا: (ويتعلق أيضًا بمسألة الإخلاص الشخصي لمحمد مدى التزامه السلوكي بتلك المبادئ الدينية والأخلاقية التي كان يقررها. إنه لم يتردد في أن يجعل نفسه مثالاً للمؤمنين: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، مثلما يتمنَّى بولس أن يكون النصارى مثله في كل شيء؛ عدا الأغلال^(٢). هذا الوعي الأخلاقي الذاتي يتطلب في الأحوال كلّها أن لا يكون هناك أي تناقض صارخ بين المثل الدينية والسلوك الشخصي عند محمد. الأخلاق الدينية التي دعا إليها كان لها إلى حد كبير منحنى زهديّ: إن الدنيا ليست في حدّ ذاتها شرًّا، ولكن من السهل أن

(١) لقد كان أندريه على اطلاع جيّد بما في السيرة الشريفة من معالم تواضع النبي ﷺ، وأدبه بين يدي ربّه، وكل ذلك لا ينافي العصمة المتقررة في العقيدة الإسلامية، إذ العصمة في تحمل الرسالة وتبليغها، ومن كل ما يرجع إلى القدح فيها، فلا تقتضي الغلو في شخصه ﷺ.

(٢) العهد الجديد: رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي: ١٧/٣.

تصبح فتنة تجعلنا ننسى الحياة القادمة. هل فهم محمد نفسه أن يأخذ حذره أم سقط في المدينة - أحياناً كما يقال - ضحية للإغراءات الدنيوية: السلطة والشرف والمتعة؟ المجاميع التراثية القديمة تعطينا غالباً عن النبي صورة الخاشع القانت الذي يرى عليه أثر الجوع. عادة الأكل حتى الشبع - كما يقول أحد الكتاب - شيء جديد، لم يكن صالحو الأجيال السابقة يعرفونها. لقد قال النبي: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه»^(١)، وتصرف هو وفق ذلك: تحكي عائشة «أنه لم يأكل قط حتى الشبع»^(٢)، وأنه عندما كان يكون عند زوجاته لا يسألهم طعاماً، ولا يتشبهاه عليهم، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب^(٣). عائلة

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٣٣/٤، والترمذي في الجامع (٢٣٨٠)، وابن ماجه في السنن (٣٣٤٩) من حديث المقدام بن معدى كرب. وهو في صحيح الجامع الصغير للألباني (٥٦٧٤).

(٢) هذا غير صحيح على إطلاقه، فلفظ حديث عائشة قالت: «ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض». أخرجه البخاري في الصحيح (٥٤١٦)، وأخرجه مسلم في الصحيح (٢٩٧٠)، بلفظ: «لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين». ولفظ آخر: «ما شبع آل محمد ﷺ يومين من خبز بر إلا وأحدهما تمر».

(٣) هذا من الأحاديث التي لا أصل لها كما قال ابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى، =



محمد عاشوا في فقر من هذا القبيل بمعاناتهم من النقص الفعلي: أنس بن مالك - الذي كان خادماً للنبي - يحكي أنه عندما جاءت فاطمة إلى أبيها بكسرة خبز؛ قال لها: «أما إنَّه أول طعام دخل بطنَ أبيك منذ ثلاثة أيام»^(١)، وأبو هريرة - المحدث لعدد كبير من الأحاديث التي تعطي انطباعاً لمفهوم زهديٍّ وورعٍ قويٍّ - يحكي «أن النبي كان يجوع حتى أنه كان يشدُّ صُلبه بالحجر ليمنع ألم الجوع»^(٢). نفس الرجل يدَّعي أنه «كانت تمضي شهور دون أن يُوقد في بيت النبي نارٌ للخبز ولا لطبخ. فسأله الراوي: على ماذا كانوا يعيشون؟ فأجاب أبو هريرة: على الأسودين: التمر والماء»^(٣)، وتحكي عائشة كيف «أنها حصلت في أحد الأيام من

= ٣٢٦/٦، ط: دار هجر. وقد صحَّ في أكثر من حديث أنه سأل عن الطعام، ودعا مرة بطعام فأُتي بخبز وأدم من أدم البيت، فقال: «ألم أرَ برمةً على النار فيها لحم؟» أخرجه البخاري في الصحيح (٥٠٩٧)، ومسلم في الصحيح (١٥٠٤).

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٣٠٦/١، ط: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، وأخرجه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٤٨٧٣)، وقال: ضعيف.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣٠٧/١، وهو ضعيف، والذي صحَّ «إنما كان في واقعة خاصة وهي أثناء حصار المدينة في غزوة الخندق، فعصَّب رسولُ الله ﷺ بطنه بعصابة من الجوع»؛ كما في صحيح مسلم (٢٠٤٠).

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣٠٧/١، وأحمد في المسند ٤٠٤/٢، وله تكلمة مهمة جداً، =

والدها أبي بكر على قائمة شاةٍ ليلًا، فحاولت هي ورسول الله تقطيعها في الظلام. فسأل الراوي: في الظلام! ألم يكن عندكم مصباح؟ فأجابت عائشة: لو كان عندنا مصباحٌ لائتدمنّا به^(١). وفي مرة أخرى «شرعت عائشة فُجاءةً في البكاء، فسألها الحاضرون عن سبب ذلك؟ فأجابت: بلغني أن الرجل منكم يأكل من ألوان الطعام حتى يلتبس لذلك دواءٌ يُمرؤه، فذكرت نبيكم ﷺ، فذاك الذي أبكاني، خرج من الدنيا ولم يملأ بطنه - طوال حياته قطً - من طعامين، كان إذا شبع من التمر لم يشبع من الخبز، وإذا شبع من الخبز لم يشبع من التمر، فذاك الذي أبكاني^(٢)». و«عندما مات النبي كانت درعه مرهونة عند يهوديٍّ بثلاثين صاعًا من شعير^(٣)». عن تواضعه وبساطته يخبرنا حديث آخر: لما بعث الله محمدًا

= حيث قال أبو هريرة: وكان له جيران من الأنصار، جزاهم الله خيرًا، لهم منائح يرسلون إليه بشيء من لبنٍ. وقد أخرج البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢) هذا الحديث بتمامه عن عائشة رضي الله عنها.

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٣١٠، وأحمد في المسند ٦/ ٩٤ و٢١٧. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٧٦).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٣١١، وإسناده ضعيف.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (٢٩١٦)، ومسلم في الصحيح (١٦٠٣) من حديث عائشة رضي الله عنها. وقد وهم أندريه فكتب (ثلاث) مكان (ثلاثين).



قال: (هذا نبيي، هذا خيارى، ائسوا به، وخذوا في سنته وسبيله، لم يكن تغلق دونه الأبواب، ولا تقوم دونه الحجة، ولا يُغدى عليه بالجفان، ولا يراح عليه بها، ويجلس بالأرض، ويأكل طعامه بالأرض، ويلبس الغليظ، ويركب الحمار، ويردف بعده، ويلعق أصابعه، وكان يقول: «من يرغب عن سنتي فليس مني»^(١). ثم علّق أندرية: (بعض هذه السمات تبدو لنا ملموسة حقيقة، وتشعر أنها تحمل معها أثر صبغة الواقع،...) وأورد إشكالاً ستتطرق إليه عند بيان المآخذ عليه.

٧- وأورد أندرية بعض الشبهات حول تغيير سلوك النبي ﷺ بعد الهجرة؛ ثم أجاب ببرهانٍ ضروريٍّ مهمٍّ فقال: (ورغم ذلك يشير كلُّ شيء - وبشكل كبير - إلى أن محمداً قد عاش حتى في المدينة حياة بسيطة نسبياً، وأنه اتّبع في حياته نموذج الزهد المعتدل الذي طالب به في دعوته. نسمعه في القرآن يدافع عن نفسه ضدّ كل الاتهامات المحتملة من اليهود أو المنافقين؛ أولئك المترددون من أهل المدينة. ولا نجد شيئاً حول أي ادعاء للترف أو التبذير أو الحياة الفخمة؛ وبالتالي يحقُّ لنا أن نقرّر أن حياة النبي في هذا الخصوص لم تعطِ أيّ مسوغٍ للوم).

(١) طبقات ابن سعد ١/ ٢٨٠ عن الحسن البصري مرسلًا.

٨ - وقال - مقدّمًا برهانًا آخر في غاية الأهمية -: (يجب أن لا ننسى أن الطائفة المتشددة ضدّ التوسع الدنيوي، خصوصًا في العهد الأمويّ، تشبّثَ بمنهج الزهد والورع القديم، وكانوا بشكل واضح الورثة الشرعيين للطبقة المقرّبة من أصحاب النبي الذين أُعجبوا بالنبي واتبعوه ليس فقط لمقاصده السياسية بل أيضًا لمقاصده الدينية؛ رجال مثل: عمر، وأبو هريرة، وابن مسعود، والتابعين لهم. تلك الروحانية التي تميز بها الأتقياء الجادّون من الجيل الأول ترجع بلا شكّ إلى الحالة الأساسية عند النبي نفسه).

٩ - وقال أندريه: (الأصالة والجدية في تقوى محمد، والإخلاص في إيمانه بدعوته الدينية أمور لا شكّ فيها).

١٠ - وأورد بعض الشبهات ثم قال: (على أن التحليل لأخلاقيات محمد يُظهر بشكل كبير ما يمكن وما يجب أن يقال دفاعًا عنه)؛ وأورد في ذلك تحليلًا نفسيًا ستتطرق إليه لاحقًا.

١١ - وقال أيضًا: (من الواضح أن محمدًا قد امتلك قدرة خارقة على كسب تأييد الناس، وتمكن - غالبًا - من خلال سحرٍ أن يحوّل المعادة إلى متابعة، والكرهية إلى مودّة. لقد كان يُظهر مودّة خاصة للذين كانوا من أعدائه سابقًا، ويعاملهم بلطف، مما كان يثير أحيانًا رفض أصدقائه. يبدو أن محاولة كسب



الناس من خلال اللطف والمجاملة كانت السلوك الأكثر فطرية لدى محمد، والقلة هي التي تمكنت من مقاومة جاذبية شخصيته).

١٢ - وأورد أندريه شبهة تعدد زوجات النبي ﷺ، فقال: (الملمح الذي بدا للغرب المسيحي الأكثر إثارة للاشمئزاز في شخصية محمد هو - بلا شك -: شهوانيته. افتقاره إلى الاعتدال وضبط النفس في هذا المجال؛ يبدو لنا أكثر سوءاً، لأن من الأخلاق المسيحية المشتركة لدينا - وهي إرث زهدي قديم - المبالغة في مفهوم الخطيئة الجنسية، ما يدعى بالحياة الجنسية الحرّة يعدُّ في الغالب خطيئة بالمعنى المطلق والحقيقي. منذ ذلك الوقت وجد اليهود في المدينة سلوك محمد في هذه النقطة مثيراً للإزعاج، وتسألوا: أيُّ نبيٍّ هذا الذي لا يفكر إلا في أن يتزوج؟^(١) مما لا شك فيه أن رسولاً يعلن أن النساء والأطفال من فتن الحياة الدنيا، ومع ذلك لا يكتفي من الحريم بتسع زوجات بل يتخذ جوارٍ أيضاً، لا

(١) ذكر بعض أئمة التفسير من السلف عند قوله تعالى: ﴿أَمْرًا يُحْسِنُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]؛ أن اليهود قالوا للمسلمين: زعم محمد أنه أوتي ما أوتي في تواضع، وله تسع نسوة، وليس همه إلا النكاح؛ فأَيُّ ملك أفضل من هذا؟ فنزلت هذه الآية، قال السُّدِّي: فما باله حلَّ لأولئك الأنبياء - وهم أنبياء - أن ينكح داود تسعاً وتسعين امرأة، وينكح سليمان مئة امرأة، ولا يحلُّ لمحمد أن ينكح كما نكحوا! انظر: الدر المنثور للسيوطي ٤/ ٤٨٧ طبعة دار هجر.

شك أن هذا من وجهة النظر الأخلاقية يعدُّ ظاهرة مشبوهة. ولا يصبح هذا التصور أفضل بذكر حقيقة أن محمدًا وحتى وفاة خديجة - أي: إلى الخمسين من عمره - قد اكتفى بزوجة واحدة؛ لأنه قد أطلق العنان لرغباته الشهوانية في ذروة مسيرة حياته، بعد أن أصبح رجلاً مسنّاً).

وهكذا نرى اعتراف أندريه بأن اهتمام الغرب بهذه القضية مبنية على الرؤية النصرانية إلى مسائل الزواج والطلاق، فالرهبانية المبتدعة قد جعلت الانصراف عن النساء من شروط التعبد والتزهد والتقرب إلى الله تعالى، وخالفت الفطرة السليمة في نظرها إلى المتعة الجسدية المشروعة، لهذا قال أندريه: (ومع ذلك؛ فإننا لا نحاكم نبيَّ الإسلام وفقاً لمعاييرنا الأخلاقية، ولكن وفقاً لما أقرَّ به هو نفسه. وقبل كل شيء، وحتى نفهم موقفه في هذه النقطة؛ يجب علينا أن ندرك التربية الجنسية والتقاليد المتَّبعة في الجزيرة العربية في زمنه).

ثم بدأ أندريه بتقديم توضيح تاريخي من خلال بيان مظاهر الفساد الأخلاقي عند العرب في زمن البعثة، فذكر صور الزواج المختلفة، والاستخفاف بأمر الطلاق، وانتشار الزنى، وإهانة المرأة وهضم حقوقها، وارتباط الزواج بالاعتبارات القبلية من حيث الحماية والنصرة والترابط الاجتماعي، وذكر وصفاً طويلاً جيداً لا يمكننا نقله هنا لطوله، ثم قال: (إن النظر إلى خلفية هذا التصور



لأخلاقيات وعادات الزواج عند العرب يُظهر شهوانية محمد برؤية أخرى: إنه يبدو من غير المؤكد فيما إذا كان سلوكه في هذه المسألة قد أثار - بشكل ما - الانتباه، أو كان أقل ملائمة. تذكر الروايات القديمة - برضى واضح - إشارات عائشة القوية إلى ضعف زوجها أمام الجنس^(١)، وتنقل - براءة - قولاً عن النبي يبيّن فيه أنه حُبّب إليه من الدنيا ثلاث: النساء، الطيب، والصلاة^(٢). من الاحتمالات التي يمكن أن تصورها أن نقدًا من طرف المؤمنين هو الذي أدى إلى تحديد الحرية الجنسية، الأمر الذي ألزم محمد به نفسه في سورة الأحزاب (٣٣) الآية (٥٢):

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾؛ لكن يبقى الاحتمال الأقوى

(١) لعل أندرية فهم هذا من مجموع الأحاديث الواردة في قوته ﷺ على الجماع، وحبه لعائشة، وأشبه ذلك، وهي صحيحة في الجملة لكنها لا تدل على (الضعف أمام الجنس) بالمفهوم المذموم الذي يتبادر إلى الذهن من هذا السياق.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٣٠٤، وأحمد في المسند ٣/ ١٢٨ من حديث أنس رضي الله عنه. ولفظه: «حُبّب إلي من الدنيا: النساء، والطيب، وجعلت قرّة عيني في الصلاة». وهو حديث حسن لكن زيادة (ثلاث) لا أصل لها في الحديث كما بيّنه الحافظ العراقي والزرکشي وابن حجر. انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ٣/ ٤٩٠، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١٥هـ.

أن هذا الحكم قد جاء كتضحية مصالحة من أجل زوجات النبي، وكان حينئذٍ قد حصل خلاف - لسبب لا نعرفه بشكل مؤكد - فأظهر نيَّته في أن يطلقهن جميعاً^(١). ثم ختم أندريه بحثه في هذه المسألة بهذه الكلمة - وهي مما أثارت غضب زويمر في مقاله الذي أشرنا إليه سابقاً -: (في الدفاع عن محمد ينبغي - أيضاً - أن نذكر أنه نفسه قد حافظ بدقة على الحدود التي وضعها، وأنه أراد من خلال تشريعاته أن يقيّد الحرية المطلقة المتعلقة بالقضايا الجنسية. لقد حاول بطرق شتى أن يغرس مفهومًا للزواج أكثر انضباطًا، وأن يرفع من مكانة المرأة، ومن ذلك إعطاؤها حقَّ الميراث - بينما لم تكن ترثُ قبل ذلك إلا أحيانًا - وأمره بأن تعامل المرأة - وجوبًا - بطيبة، ومودة، وعدل).

إنَّ تعدُّد زوجات النبي ﷺ مما يخوض فيه المستشرقون كثيرًا، وليس بإمكاننا - هنا - تفصيل القول فيه، وقد أُفردَ بالبحث والتأليف، لكنني أكتفي بهذه الإلماحة الموجزة:

(١) هذا الاحتمال الثاني له وجه قوي يمكن أن يخرج على بعض الأقوال في تفسير الآية، انظر: الدر المنثور للسيوطي ٩٩/١٢. أما الاحتمال الأول فدعوى مجردة، وظن فاسد، فلو كان للمؤمنين اعتراض في ذلك لاعترضوا على زواجه ﷺ من تسعٍ وقد حرّم عليهم ما زاد على الأربع!



في الحديث الذي أورده أندريه: (حُبَّ إِلَيَّ) بالبناء للمفعول، فلم يقل ﷺ: (أُحِبُّتُ)، ولهذا دلالتة؛ فَإِنَّ محبته للنساء والطيب من عطاء الله تعالى واختياره له لما في ذلك من الحكم العظيمة، لهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يتحدثون «بأنه ﷺ أُعْطِيَ قُوَّةَ ثَلَاثِينَ رَجُلًا، فكان يدور على نسائه في الساعة الواحدة - من الليل والنهار - وهنَّ تسع نساء»^(١). ومن تلك الحكم:

١ - إن الإسلام لا رهبانية فيه، والنبى ﷺ هو الأسوة والقُدوة في ذلك، فلو لا أنه استكثر من النساء؛ لظنَّ كثيرٌ من أتباعه المؤمنين أن الأقرب للتقوى هو ترك النكاح، ولوقعوا في مثل ما وقع فيه كثير من النصارى، لهذا كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «تزوَّجُوا، فإن خير هذه الأمة أكثرها نساءً»^(٢). ومع وضوح هذا وشهرته فقد وُجد في المسلمين بعد الصدر الأول من يرى أن من كمال التدين والتوجُّه إلى الله تعالى ترك النكاح!

٢ - إن نساء النبي ﷺ قد تيسَّر لهنَّ الاطلاع على ما لا يمكن لغيرهنَّ الاطلاع عليه من شؤونه في بيته وأموره الخاصة وما يكون بين الرجل وامرأته، فحصل لهنَّ من ذلك معرفة كبيرة بالأحكام الشرعية المتعلقة بتلك الأمور،

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٢٦٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٥٠٦٩).

فقمّن بنقلها لغيرهنّ، فتحقّقت مصلحة حفظ تلك الأحكام الشرعية ونقلها وتبليغها، وكان لأمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها الحظّ الأوفّر في هذا.

٣- إنّ تعدد زوجات النبي ﷺ من دلائل صدق نبوّته، ذلك لأنّ المرأة تكتشف من سلوك الزوج وأخلاقه ما لا يمكن لغيرها الاطلاع عليه، وكم من رجل مشهور بين الناس بالعلم والفضل وحسن الأخلاق؛ تشتكي منه امرأته أشدّ الشكوى، لهذا كان النبي ﷺ يقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهله»^(١). وقد ثبتت خيريّته هذه بشكل قطعيّ بما أخبرت به نساؤه رضي الله عنهن من حسن أخلاقه ﷺ، وكمال أدبه، واستقامة سلوكه؛ في أحواله كلها.

٤- وأخيراً: إذا أردنا أن نستخدم التحليل النفسي على وجه المحاجة والجدل فسنقول: إنّ رغبته ﷺ في النساء من قوة رجولته، وصحة بدنه، وسلامة غريزته. والعقلاء من سائر الأمم يعدّون الانصراف عن النساء، وعدم الرغبة فيهنّ، أو النّفار من جنسهنّ؛ من ظواهر المرض النفسي والانحراف السلوكي. وإنّ من المعلوم من سير الأذكياء والمبدعين أن الجانب الذي برّزوا فيه يطغى على سلوكهم بل حياتهم كلها، فيصيبهم بخلل ظاهر في شخصيتهم وفي

(١) أخرجه الترمذي في الجامع (٢٨٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير



علاقاتهم الاجتماعية، إذ ينزع بعضهم إلى ترك الزواج أو يكون فاشلاً فيه، ويصاب بعضهم بالكآبة ويرغب في العزلة، ويعجز بعضهم عن الوفاء بمتطلبات رعاية الأسرة والتواصل الاجتماعي، بينما يظهر على آخرين منهم عدم الاهتمام بالزي والمظهر والنظافة. ومن هنا فإن قدرة محمدٍ على الاحتفاظ بالتوازن الشخصي والاجتماعي بحيث لم تمنعه هموم دعوته ورسالته عن ممارسة حياته اليومية على أفضل وجه، وقدرته على الوفاء بجميع التزاماته ووظائفه: نبياً، وإماماً، وقائداً، ومعلماً، وناصحاً، وزوجاً، وأباً، وصديقاً؛ لمن أعظم دلائل تأييد الله تعالى له، واختصاصه بتلك القوة والنشاط والاتزان مع طمأنينة القلب وهدوء النفس والبركة في الوقت، فهو رسول الله المصطفى، ونبِيُّه المجتَبى، عيله أفضل الصلاة والسلام.

أخطاء ومغالطات في بحث أندريه:

تلك هي كلمات أندريه المنصفة في حقّ النبيّ الكريم ﷺ، لكن لأندريه كلمات أخرى بعيدة عن الحق والإنصاف، والتحامل فيها واضح، وبعضها سيئة جيداً، على أننا سنحاول فهمها في سياقها، والكشف عن جذورها، ومناقشتها بعلم وعدل، فالحماسة الإيمانية للباحث ومحبه العظيمة للنبي ﷺ لا تحمله على الوقوف عند ظاهر تلك العبارات حسب - وإن كان يرفضها رفضاً قاطعاً،

ويشعر بالغضب والإهانة البالغة منها -؛ بل يستحضر كل ما سبق ذكره عن المؤلف الذي نشأ في بيئة نصرانية، وخالف التوجه العام لأساتذته وأقرانه ومجتمعه في موقفهم من الإسلام، وخطى خطوات جيدة لتقديم رؤية متّصفة بكثير من الإنصاف والاعتدال، ولم يعبأ بالانتقادات التي وجهت إليه، ولم يرص أن يُشيد بالنصرانية على حساب الإسلام، بل قالها صراحةً في مقدمة كتابه هذا: (نوع الدين المحمدي^(١) أصبح حتى اليوم وبشكل عام معرّضاً للتقييم غير العادل من قبل باحثي الأديان الغربيين).

لقد حاول أندريه أن يقدّم: (تقييماً عادلاً)، فجاء تقييمه - على وجه العموم -: عادلاً نسبياً؛ إذا ما أخذنا في الاعتبار عقيدته النصرانية، وارتباطه الديني بها تديناً ووظيفةً، ثم عدم إيمانه بنبوة محمد ﷺ. هذه الأمور وغيرها لم تكن تترك أندريه في سلامة من التحامل والمغالطة والتفسير المتكّلف لبعض الجزئيات للشغب على الكليّات القطعية. وقد اعترف المستشرق يان ييربه بأن تور أندريه: (وإن كان لا يمكن تصنيفه كمُدافع أعمى عن النصرانية ضد الأديان الأخرى؛ إلا أن تساؤلاته - في الغالب - محدّدة في إطار قيم أخلاقية،

(١) يوافق أندريه هنا أهل عصره في تسمية دين الإسلام بـ: (المحمدية)، وهو اسم من اختراع الكنيسة في العصور الوسطى، وكان مستعملاً حتى منتصف القرن الماضي.



وإشكالات لاهوتية^(١).

إن مغالطات أندريه ترجع أساسًا إلى عدم إيمانه بالدين الحق، وهذه إشكالية عميقة لا يمكننا معالجتها هنا، لأن الرجل قد قامت قيامته منذ أكثر من ستين سنة، وإنما أشرنا إليها هنا حتى ندرك سبب بعض الأخطاء المنهجية التي وقع فيها، فإنه لما لم يؤمن بالوحي المحمدي، ولم يرتض لنفسه - أيضًا - أن يسلك طريق أسلافه من أهل القرون الوسطى الذين وصفوا النبي الكريم بكل قبيحة؛ لم يجد بُدًا من اختلاق تفسيرٍ يرضي به نفسه القلقه وفكره المتحير، فزعم أن رسالة محمد ﷺ تستند في مصدرها إلى شيئين:

الأول: ما أخذه النبي ﷺ من أهل الكتاب - النصارى على وجه التحديد - وخالف أندريه هنا عامة المستشرقين الذين يزعمون أنه ﷺ أخذ عنهم في بلاد الشام، فزعم أنه أخذ عن بعض وعَاط النصارى الذين قدموا من الشام إلى مكة للتجارة والتبشير!

الثاني: الإلهام الداخلي للنبي ﷺ، وهو ثمرة قوة إحساسه، ورقة نفسه، وصفاء روحه، وعلو همته. لقد زعم أندريه أن ذلك الإلهام كان نداءً صادقًا من

(1) Hjärpe, Jan: «Det svenska studiet av Islam» i Magnus Bengt och Veronica Trépagney (red.), I andra länder. Lund: Historiska media, 1999. S. 43.

أعماقه ﷺ ظنّه وحيّاً، وتشكّل له في صورة ظنها جبريل. وكان في كل ذلك صادقاً مخلصاً، معبراً عن تجربته الذاتية الأصيلة.

لقد ظلّ أندريه محكوماً بهذه الفكرة في ثنانيا كتابه كلها، فكلُّ ما عند محمد ﷺ لا بدّ أن يُرجع إلى أصوله النصرانية، فالإسلام ليس إلا فرعاً منها، ورغم ذلك فما عند محمد ﷺ: (أصيل ويعبر عن تجربة ذاتية صادقة). أي: أنه لم يكن مجرد ناقل عن غيره، بل كان يحفظ تلك الأفكار ويعيد صياغتها بعبقريّة فذة.

وليس غرضي في هذا البحث مناقشة وإبطال هاتين الشبهتين، وهي من الشبهات التي كررها كثير من المستشرقين، لكن ما يميز به أندريه أنه لا يرجع ما يسميه بالإلهام إلى مرض أو جنون أو اضطراب نفسي، وما شابه ذلك، بل يرجعه إلى (التجربة الذاتية الصادقة)، إنه: (إلهام من أعماق النفس)، وقد عاش النبي ﷺ تلك التجربة بصدق وإخلاص. ولم يحاول أندريه أن يعيننا على فهم حقيقة ذلك، بل اكتفى بتخفيف حدة غموضه بادعاء أنه يستند إلى المعرفة المكتسبة من خلال مواظب عابرة سمعها النبي ﷺ في بعض أسواق العرب من أحد وعاظ النصراني، ثم نسي تلك الكلمات التي استقرت في أعماقه لتفجّر من بعدُ إلهاماً مبدعاً: فإذا هو كتابٌ مبين يذهل العرب والعجم بإعجازه، ودينٌ يقيم التوحيد الخالص، وشريعةٌ تامّة جامعة للمحاسن، وأمّةٌ تخرج من أرض



الجزيرة لتبلغ بالحق والهدى والعدل إلى مشارق الأرض ومغاربها!!

إن هذه الدعوى المجردة من أيّ برهان علمي لا تستحق أن تردّ إلا بالسخرية والتهكّم، وهذا ما فعله المستشرق السويدي كريستر هيدين في دراسته عن أندريه، وأذكر هنا نص كلامه لأهميته: (يؤكد أندريه دائماً على صدق محمد، وبهذا يظن أنه يخفف من الاستخفاف بالإسلام، وهو ما يتهم به الباحثين الآخرين. لقد بشر محمد برسالة نزلت عليه بواسطة جبريل. هكذا يقول القرآن والإسلام. قرأ جبريل على محمد بصوت عالٍ من القرآن السماوي، ثم قام محمد بإملاء خبر الوحي أو كتابته. هكذا كانت قناعة محمد. لكن تور أندريه أعلم! إنه درس علم النفس الديني المعاصر ونال علومًا عن القوة الذاتية والإلهام مما أدخله في كتابه: (التصوف وعلم النفس). لقد استطاع محمد أن يفهم صوتًا من داخله، وهو ما ظهر من خلال نوع من القوة الداخلية. بهذه الطريقة حصل على انطباع أن جبريل هو الذي كلمه)⁽¹⁾.

لقد كتبتُ إلى كريستر هيدين أسأله عن مراده من قوله: (لكن تور أندريه أعلم)؛ فكتب إلي يقول: (إنني هنا ساخر! كان ينبغي أن أكتب: (يرى أندريه نفسه أنه يعلم أكثر). إن عنده صفة خطيرة - إلى حدٍّ ما - هي أنه يرى أنه يستطيع

(1) «Tor Andrae och orientalismen» s. 28.

- معرفته بعلم النفس - أن يكتشف الآخرين، ويرفع النقاب عما لا يعرفه أولئك أنفسهم. إنني أقصد أنه يدعي - فحسب - أنه يعرف أكثر^(١).

إن هذا يظهر لنا مشكلة منهجية ثانية لدى أندريه، وهي اعتماده على التحليل النفسي في دراسة السيرة النبوية. وقد ذكرنا - سابقاً - اهتمامه بعلم النفس، وكتاباته في التحليل النفسي للدين والتصوف، وهذه المنهجية هي من آثار نظريات فرويد النفسية - وإن لم يتبنَّ أصحابها الجانب الإلحادي من فكر فرويد -، وبرز استخدامها في أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى، حيث توجه عدد من الباحثين إلى دراسة حياة الأنبياء وكبار الشخصيات العالمية من خلال النظريات النفسية، لهذا نجد هذا الاهتمام عند أشد الناس تأثيراً في شخصية أندريه وهو أستاذه وموجهه: ناتان سودربلوم. والرجلان نصرانيَّان كنسيَّان ديانةً ووظيفةً؛ فحوضهما في دراسة ظاهرة الوحي بهذه الطريقة النفسية ينعكس على إقرارهما بالوحي والنبوءات، فلمُلحِدْ أن يلزمهما بما ألزما به في نظرهما إلى نبوة محمد ﷺ، وليس لهما مفرٌّ من ذلك إلا بالاعتراف بفساد هذه الطريقة وافتقارها إلى منهج علمي ينتج برهاناً صحيحاً، فالخوض في دراسة الأديان

(١) رسالة جوابية من الدكتور كريستر هيدين - أستاذ تاريخ الأديان بجامعة ستوكهولم -



بالتحليل النفسي يفتح مجالاً واسعاً لدراسة الحقائق التاريخية بالظن والتخمين والآراء الشخصية، وكما قال لي يان ريتسو: (إننا ملزمون بالحقائق التاريخية، أما أن نقوم بدراسة بواطن شخصيات عاشت قبلنا بمئات السنين فهي محاولة فاشلة لاكتشاف المجهول، ولو أن شخصاً من أولئك كان بين يدي لكان بإمكانه أن أخضعه لجلسة نفسية، أما وهو غائب عني؛ فلا^(١)).

ومن الإنصاف لأندرية أن نذكر كلامه في التحليل النفسي لشخصية النبي ﷺ ليتبين القارئ مما ادعينا عليه من الخلل المنهجي:

قال أندرية: (قضية النزاهة الذاتية والإخلاص في هذا الإلهام الديني هي قبل كل شيء قضية نفسية. وبطبيعة الحال؛ فإنه لا يقال: إن أي شخص حصل له وحيٌ حقيقي لا يمكن أن يقوم عن عمدٍ بتزييف الرسالة، أو انتحال صفة النصابين الدينية مع عجائب ومعجزات مزعومة^(٢)). ليس من النادر أن يظهر أن

(١) أ. د. يان ريتسو، أستاذ اللغات السامية بجامعة غوطبورغ، ومتخصص في تاريخ العرب قبل الإسلام، مقابلة شخصية بمكتبته بتاريخ: ٢٤/٢/١٤٣١.

(٢) وهنا يقال لأندرية: إن القضية النفسية لا يمكن الحكم عليها إلا من خلال ظواهرها وآثارها في أقوال وأفعال صاحبها، لهذا وجدناك مضطراً إلى بحث السلوك العملي للنبي ﷺ. أما دعوى إمكانية تزييف الوحي الحقيقي؛ فيبطلها إقرارك بالربوبية والوحي والنبوة، فالوحي الحقيقي لا يكون إلا من عند الله ﷻ، وهو كفيلاً بحفظه من التحريف والتزييف - كما =

الملهم يعيش في عالم رائع، غير واقعي، وأن لديه نزعة واضحة أن يجعل الواقع البسيط متوافقاً مع عالم الحلم الروحي الذي تسكن فيه روحه. غالباً لا يمكن حتى بالفحص النفسي الدقيق أن يحدد حسن النية والصدق في الإحساس الذاتي فيكون في متناول اليد. ويبدو أنه من الممكن أن تكون التجربة - الحقيقية وغير الحقيقية - يستيقظ الملهم منها وكأنه خرج من حلم، ويجد نفسه قد أنتجت تجارب خارقة للطبيعة. ومن جهة أخرى: فإنه من غير العادل الادعاء أن الميل للباطل، والنفاق، والكذب المرّضي يمكن أن يكون من ميزة الملهمين على وجه العموم. علم النفس الطبي السابق، هو الذي أطلق هذا المفهوم، وحصل على تفسيره الطبيعي من خلال معالجة الباحثين في الطب النفسي لمرضى أدنى منزلةً ولأفراد منحرفين من جنس الملهمين. غير الواقعية هذه - حسب الاستقراء - يمكن أن تكون مقترنة بأعلى درجة من النزاهة الشخصية. نحن جميعاً قد واجهنا بالتأكيد أشخاصاً من هذا النوع، متحمسون لا يمكن إصلاحهم، حاملون في أرض الله، لديهم صعوبة في الحصول على اتصال مع الواقع^(١)، وبقدر ذلك من

=تقدم، أما وحي النفس والشيطان فهو بعيد عن الحقيقة باتفاق المقرّين بالنبوات.

- (١) وهكذا نجد أندريه يعدّ النبي ﷺ من جنس الملهمين، الذين يتميزون بذكاء حادّ، ويطوفون بخيالاتهم في عالم مثالي، وعندما يحاولون الاتصال بالواقع يعمدون إلى الكذب=



الصعوبة في أن يأخذوا الأشياء كما هي في الواقع، وقد وجدنا أن أولئك يمكن أن يُكوّنوا بدقة بالغة طبائع صادقة، هم أشدُّ الناس طلباً للحقيقة وقولاً لها. ومن جهة أخرى: يمكن أن يكون بعض الأشخاص واقعيين، وعندهم شعور واضح بالحقائق، إلا أنهم يكونون أكبر المخادعين الخُلص. نعم؛ قد يكون أمر الاحتيال الرفيع قابلاً للتشكيك في حالة ما إذا أمكن تصوُّره بدون إدراك ذكيٍّ للواقع. هذه الحقيقة النفسية البريئة تَمَّ تجاهلها عندما سُويَّ بين نزعة تزييف الواقع والرجوع إلى الإلهام الداخلي^(١). إنَّ إلهام محمد كان من الناحية النفسية

=والنفاق، وذلك لما بين العالمين من مفارقة، وليس بالإمكان معرفة مقدار حسن النية والصدق في سلوكهم هذا، إنهم غير مبرئين من الكذب والخداع، ولكن ليس من العدل القول بأن ذلك من معالم شخصيتهم، لأن التشخيص النفسي رصد هذه الظاهرة في الطبقة الأدنى من هذا الصنف المريض. هذه مقدمة يطرحها أندريه ليقنع القارئ بما سيديعه من اجتماع صفات الأصالة والصدق والإخلاص من جهة، والمكر والخداع والنفاق من جهة أخرى؛ في شخصية واحدة هي شخصية النبي الكريم ﷺ. وسيحتج بشواهد وواقع سنبيّن وجه بطلان الاحتجاج بها، وبذلك ستبطل دعواه هنا، لأن هذه المقدمة - التي احتج بها - ليست ضرورة مسلّمة، بل هي رأي وظن، لأنَّ أندريه نفسه قد أقرَّ فيما تقدّم أن الصدق والإخلاص تجربة ذاتية لا تخضع للتقييم الخارجي.

(١) يعني: أن سلوك الملهم المخلص يخضع لاستجابة صادقة وبريئة لتجربته الذاتية، بخلاف الملهمين المخادعين الذين يعتمدون تزييف الحقائق. والنبي ﷺ في زعم أندريه من=

أصيلاً، كما سبق تأكيده....) ثم قال: (كثير من الملهمين فهموا أن تحقق الدليل الإلهي هو الذي يؤكّد إرسالهم. الأساطير عن الرجل المقدّس ليست دائماً أكاذيب، ولكنها غالباً تجارب حقيقية). ثم قال: (وبالطبع؛ غالباً ما تُنتج مثل هذه المعجزات مع إخلاص ذاتي كامل، ولكن من الواضح أنه لنفس الغرض يلجأ - بقصد أو بغير قصد - إلى الخداع).

قلتُ: هذا كله كلام أندريه، ويظهر - بأدنى تأمل فيه - أنه مجرد آراء شخصية يطلقها أندريه من غير أي مستند علمي، وعندما تكون تلك الآراء المجردة في حقّ رجل عظيم - بل رسول كريم من ربّ العالمين -؛ فإنها تدل على غرور واستعلاء، وهذا ما تنبّه إليه كريستر هيدين، فقال: (مما يعطي الانطباع بشعور أندريه بالاستعلاء عدم رغبته في إخضاع وجهات نظره وأسسها للتمحيص العلمي. إنّ (محكمته) لا تأخذ مرجعية محدّدة؛ لأنه من النادر أن يوضح على ماذا يبنى عندما يحيل إلى (البحث النفسي) أو (علم النفس الديني). إنه يمكن أن يكون من المتعب والمزعج عدم معرفتنا أيّ بحثٍ يقصد في إحالته، ولا إلى أي درجة يمكن أن يكون موثوقاً به)^(١).

=الصف الأول. إنه يبرّؤه من تعمد الكذب والتزييف، ويراه ضحية بريئة لأوهام التجربة الذاتية. وفي ضوء هذه النظرية الفاسدة يفسّر حقيقة الوحي، ويقىم سلوكه وأخلاقه.

(1) «Tor Andrae och orientalism» s. 48.



نعم؛ لم تكن (محكمة أندريه) موفقة في اعتمادها لقانون التحليل النفسي، فقد جعل ذلك من (القاضي) طبيباً نفسياً يحكم في الوقائع من خلال الانطباع الشخصي، وليس وفق الأحكام العادلة المنصفة، إنه يقرُّ بأنَّه بين يدي إنسان عظيم، متصف بالصدق والإخلاص والسلوك الرفيع، كل الأدلة تبرهن على أصالته واستقامته وصحة تدينه وإحساسه النفسي...؛ ومع ذلك لا يجد لبعض أعماله وتصرفاته الجزئية التفصيلية توجيهاً إلا بما يناقض ذلك كله، وهذه بعض الأمثلة من أحكامه الجائرة:

١ - قال أندريه: (لكن لا يوجد شيء يمكن أن يشير إلى أن محمداً حاول استغلال التعظيم الخرافي لشخصه الذي أظهره المؤمنون به في المدينة، لإظهار منزلته) ثم استدرك قائلاً: (يمكننا أن نقرأ في السورة (٦٦) الآية (٣) أنه حاول المحافظة على الانضباط الضروري لدى حريمه من خلال أن يُفهم أنه يعلم أكثر من الآخرين. ويوجد في هذا احتمال خداع بريء^(١) من جانبه - بشكل أو آخر -،

(١) الترجمة الحرفية: (خداع ورع)، ويستعمل أندريه صفة (ورع) للدلالة على أنه ليس خداعاً خبيثاً كما كانت تدعي الكنيسة في العصور الوسطى حيث كانت تصف النبي ﷺ بالفائد الكبير الذي استطاع أن يقود قومه بالكذب والدجل والاحتيال. أما أندريه فيراه ملهماً صادقاً، مخلصاً في دعوته، كان يسعى إلى تنفيذ مفاهيم إلهامه وتجربته الأصلية في أرض =

وقد حصل هذا بلا شك في ظروف مخففة). يشير أندريه إلى قوله تعالى في سورة التحريم: ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرِضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾، ومن عجب أن ينزع أندريه إلى موقف جزئي، وهو يعلم جيداً أن النبوة قائمة أساساً على اختصاص النبي بعلم زائد، قد أوتيته من قبل الوحي دون الناس أجمعين، وكان هذا موضع النزاع بين محمد ﷺ وقومه منذ أول يوم قال لهم فيه: «أرأيتم لو أخبركم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»^(١). وقد كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ في مناسبات كثيرة لتكشف ما خفي عنه عن وقائع أو أشخاص، لهذا كان المنافقون يخافون أن ينزل فيهم وحي يفضحهم^(٢)، فهل يمكن أن تغفل عن هذه الحقيقة

=الواقع، لهذا كان يضطر أحياناً إلى استخدام (أساليب المكر والخداع)، لا لخبثه وفساد نيته، بل لحرصه إلى الوصول إلى ما اقتنع - صادقاً مخلصاً - بأنه مقاصد شريفة، وأهدافه نبيلة؛ لهذا فخداعه: (بريء). سبحانه هذا بهتان عظيم.

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٤٧٧٠)، ومسلم في الصحيح (٢٠٨).

(٢) كما في سورة التوبة: (٦٤).



إحدى أمهات المؤمنين، فيعمد النبي ﷺ إلى استخدامه كوسيلة انضباط؟! ولقول أندريه: (وقد حصل هذا بلا شك في ظروف مخففة) دلالته، فهو يقصد أنه ﷺ لجأ إلى الخداع من غير ضرورة، وبالتالي فإنه لن يتورع عن الخداع كلما اشتدت به الظروف. إنَّ هذا الاستنتاج قد بناه أندريه على مجرد: (احتمال) كما صرَّح به في عبارته السابقة، وهي تدلُّ على دقته في اختيار كلماته، وكان عليه أن يكون دقيقاً كذلك في ضبط المعاني، إذ لا يخفى على مثله أن (الاحتمال) لا يمكن ترجيحه - بله الجزم به - إلا بدليل خارجيٍّ، وأندريه يقرُّ بأن الأدلة الخارجية تدلُّ على صدق محمد ﷺ وإخلاصه واستقامته وأصالته، وهذه أمور مسلَّم بها؛ فهي كافية في نقض ذلك الاحتمال ودفعه.

٢ - ويقول أندريه: (على أي حال؛ هو لم يحاول بشكل كبير أن يقوي سلطته، ويضمن مكانته من خلال خوارق زائفة)، ثم يستدرك قائلاً: (إنني لا أعلم إلا استثناءين فقط: الأول: عندما أخذ في غزوة بدرٍ حفنةً من تراب، ورمى بها في جهة الأعداء. هذا العمل الخارق نُظر إليه كسبب للنصر. إن هذا يبدو تفسيراً حسناً إنه في أعلى لحظات الشدة، عندما وضعت قضيته على المحكِّ؛ جاءته آية من الله بهذا المحتوى، وهذا طبيعي مثلما فعل إشعيا عندما أراد أن ينتصر على الملك أهاس؛ لقد وعد - لإيماحه الجريء، وبلا تردد - بآية، قبل أن

يطلبها الملك).

أقول: هذه محاولة فاشلة لاختزال ما في غزوة بدر من دلائل النبوة في نفس ذلك الفعل المجرد، ليوهم بعد ذلك أنه محاولة للخداع. إن ذلك الفعل كان من آثار تأييد الله ونصرته لنبيه ولعباده المؤمنين الذين لم يتجاوز عددهم ثلاث مئة وسبعة عشر رجلاً، مقابل ألفٍ من المشركين، فأوحى الله تعالى إلى ملائكته: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ سَأُلْقِيَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ۚ﴾ [الأنفال: ١٢]، وأوحى إلى رسوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْأَفْرِ مِنَ الْمَلَكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، وفي شأن تلك الحفنة من الحصباء التي رمى بها رسول الله ﷺ وجوه المشركين أنزل الله آية في كتابه تقطع الطريق على أي غلوٍّ في شخص النبي، أو تعلق بذاته، فقال سبحانه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلِكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ [الأنفال: ١٧]، فليس هاهنا مجال لإثبات سلطة لذاته، أو مكانة لشخصه، بل القضية أعظم من ذلك، فهذه الغزوة، وما ظهر خلالها من آيات، والهزيمة الساحقة التي نزلت بالمشركين بأن قتل منهم سبعون، وأسر سبعون، ونتائجها الباهرة في التمكين للدعوة؛ كل ذلك انتصار للرسالة، وبراهين كونية على مصداقيتها، وليس انتصاراً مجرداً لشخص الرسول ﷺ. وكان ينبغي على أندريه أن يذكر من أخبار تلك الغزوة ما يؤيد هذه المعاني



الجليلة، من ذلك: «ما كان عليه النبي ﷺ من الابتهاال إلى ربه، ومناشدته له ما وعده من النصر، بتذلّل وانكسار وتضرع»^(١)، وكذلك «إعلامه أصحابه قبل المعركة بيوم بمواضع هلاك أكابر أعدائه، فكان يذكر اسم كل واحد منهم ويحدّد الموضع الذي سيقتل فيه، وتحقّق ذلك كما أخبر»^(٢).

ثم قال أندرية: (والثانية: الرحلة الليلية إلى القدس، وهي رؤية منامية، تحدّث عنها بطريقة تظهر أنه منح الخيال نفس قيمة الحقيقة للتجارب الأخرى).

أقول: لم يوفّق أندرية في هذا المثال أيضًا، فحادثة الإسراء والمعراج لم يكن لها طرف مادي حتى يتمكن محمد ﷺ من استغلالها في تثبيت مكانته، وتقوية سلطته. ثم إن الإسراء وقع - باتفاق العلماء - قبل الهجرة، وإعلان النبي ﷺ في أهل مكة - وعامتهم يكذبونه ويسخرون من دعوته - هذا الحدث الغيبي بالنسبة لهم لم يكن ليحقق له أي مكسب في الواقع، ومن سبق منه الإيمان بنبوته لم يكن تصديقه لخبر الحادثة إلا بناءً على الإيمان السابق؛ كما صرّح به أبو بكر الصديق^(٣).

(١) صحيح البخاري (٤٨٧٥)، وصحيح مسلم (١٧٦٣).

(٢) صحيح مسلم (١٧٧٩).

(٣) حيث جاء ناس من قريش إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك يزعم أنه أتى بيت =

وهو امتحان صعبٌ قد يسبب خسارة بعض الأتباع رغم شدة الحاجة إليهم. فجميع هذا يدلُّ على أنَّ النبي ﷺ لم يكن له غرض في الإخبار بهذه الحادثة في تلك المرحلة من دعوته، وإنما كان الأمر كُلُّه باختيار الله تعالى وعلمه وحكمته، كما قال سبحانه: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

٣- ويطرح أندريه تساؤلاً - يريد أن يخضع به سلوك النبي ﷺ في العهد المدني للشبهات والالتهامات، ليستنتج من ذلك أن الرجل الملهم لم يتمكن من ضبط سلوكه في تلك المرحلة، وأنه قد صدر منه ما يعبر عن كوامنه ونزعاته الداخلية - فيقول: (هل فهم محمد نفسه أن يأخذ حذرَه أم سقط في المدينة - أحياناً كما يقال - ضحية للإغراءات الدنيوية: السُّلطة والشرف والمتعة؟) ثم ذكر وصفاً جيداً لما عانى منه النبي ﷺ من الجوع والفقر - نقلته فيما سبق -، ولم يترك قراءه يتأملون تلك الشوائل الشريفة، بل ألقى عليهم شبهة تعيدهم إلى نقطة التشكيك والارتياب؟ لنتركه يسترسل، ولنلاحظ ما يقول: (بعض هذه

=المقدس ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة؟ قال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لقد صدق، إني أصدقه بأبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء. فسَمِّي بذلك الصديق. انظر تخريجه في كتاب: الإسراء والمعراج للألباني، المكتبة الإسلامية، عمان: ١٤٢١، ص: ٦٠.



السمات تبدو لنا ملموسة حقيقة، وتشعر أنها تحمل معها أثر صبغة الواقع، ولكن يصبح المرء مترددًا عندما يجد أحاديث أخرى تعطي صورة مختلفة تمامًا عن النبي، وتنفي بوضوح أن يكون قد اتَّبَعَ في حياته الزهد المشالي؛ يقال: إن بعض صحابة النبي قد أشادوا في حضرته بورعهم؛ قال الأول: لا أتزوج النساء. وقال الثاني: لا أكل اللحم. وقال الثالث: أنام على الأرض. وقال الرابع: أصوم ولا أفطر. فقال النبي حينئذٍ: «سبحان الله! أنا أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١).

لقد تمَّ التركيز على إظهار أن النبي عاش كشخص عادي، لم يوجد شيء من التنطع والروحانية المبالغ فيها في طبيعته. جاء بعض الزهاد إلى زيد بن ثابت وقالوا له: حدثنا عن أخلاق رسول الله. فقال: «ماذا أحدثكم؟ كنت جاره، فكان إذا نزل عليه الوحي أرسل إليَّ فكتبته له، وكان إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا، أفكلَّ هذا أحدثكم عنه؟»^(٢).

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٢٨٠، والبخاري في الصحيح (٥٠٦٣)، ومسلم في

الصحيح (١٤٠١) من حديث أنس بن مالك. وقد ذكره أندريه بمعناه.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٢٧٤، والترمذي في الشائل (٣٤٣). وضعفه الألباني في

مختصر الشائل (٢٩٤).

إزاء هذه الأخبار المتعارضة ليس لدينا بالفعل الكثير من أوصاف الحياة البيّنة لمحمد، إلاّ أحاديث مبرجة في قضايا أخلاقية، تلك الأحاديث التي يريد المرء منها أن يدعم بالسنة النبوية ويوضح طريقة حياته المثالية. لقد وجد في الإسلام أتقياء متشدّدون في الالتزام، ورِعون وزهاد، أرادوا المضي في طريق التضحية الضيق، وصخبوا ضد روح المادية والإسراف في المتع الجسدية بجميع أشكالها. بينما رأى آخرون أنه ينبغي للمرء أن يكون زاهدًا إلى حدٍّ معقول، وأن يأخذ بنصيبه من متع الحياة الدنيا. كلا الاتجاهين استندا إلى نموذج النبي، لهذا فإن ما حدّث به كتب السنة عن الحياة الشخصية لمحمد هو - في الغالب، وإلى حدٍّ ما - عديم القيمة كمصدرٍ تاريخي).

قلتُ: الجواب عن هذا الكلام واضح لكلّ ذي عقل، ولم يكن ليخفى على مثل أندريه - لولا التحامل والشَّغْفُ بالتَّشْغيب على الحقائق -؛ فهذه الأخبار المختلفة متعلقة بأحوال وأزمان مختلفة، وبعضها لا يصحُّ أو له أصل صحيح لكن ليس بالمعنى والسياق الذي أورده - كما بيّنته في تعليقاتي على كلامه^(١) -، فقد كان رسول الله ﷺ يأتيه المال فينفق منه على نفسه وأهله بقدر الكفاف ثم

(١) راجع الفقرة (٦) من مبحث (الجوانب الجيدة في بحث أندريه)، التعليق: (٢٢)



يتصدق بالباقي، فتمضي عليه أيام - تطول أو تقصر - يعاني منها من الجوع والعوز حتى يأتي مال آخر. ولعل أندريه قد وقف على الأثر الذي أورده ابن سعد وفيه أن أبا هريرة رضي الله عنه وصف جوع رسول الله ﷺ، فسأله تلميذه - متعجبًا -: كيف ذلك الجوع؟ فقال أبو هريرة: لكثرة من يغشاه وأضيافه، وقوم يلزمونه لذلك فلا يأكل طعامًا أبدًا إلا ومعه أصحابه، وأهل الحاجة يتتابعون من المسجد، فلما فتح الله خيبر اتسع الناس بعض الاتساع، وفي الأمر بعد ضيق، والمعاش شديد، هي بلاد ظلف، لا زرع فيها، إنما طعام أهلها التمر^(١). وبهذا التفصيل يتبين لنا عدم صحة ادعاء أندريه: (أنَّ تصوير فقر وتضحية النبي يجب أن يكون مبالغًا فيه جدًا. رغم أن النبي - حسب ما ذكره الواقدي - كان يستخدم خمس الغنائم التي كان يحصل عليها في كل الغزوات للهدايا والصدقات، فإنه كان - أيضًا - ينفق منها على عائلته، وكانت لديه المقدرة المالية على أن يمنح عائشة عقدًا ثمينًا من اللؤلؤ، وبالتالي لم يكن بحاجة إلى رهن درعه. إنه لم يعيش على الأرجح في وضع مثالي تمامًا، كذلك الذي تصوره الأساطير الرومانية).

قلتُ: أما أنه ﷺ لم يكن زهده وتقشفه على طريقة الفلاسفة والرهبان والمنتنعين؛ فهذا حق. وأما ادعاؤه أن في تصوير زهده وفقره ﷺ مبالغة؛

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣١٣.

فمردود عليه بالتفصيل الذي تقدم. وأما قصة عقد عائشة ورهن الدرع؛ فحادثتان منفصلتان وقعتا في وقتين مختلفين، «ولم يكن رسول الله ﷺ يدّخر شيئاً للغد»^(١).

وقد ورد حديث صحيح يوضح هذا وأنه سبب رهن الدرع: فقد أخبر عبد الله بن عباس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات يوم، وفي يده قطعة من ذهب، فقال: (يا عبد الله بن عمرو! ما كان محمدٌ قاتلاً لربه لو مات وهذه عنده)، ثم قسمها قبل أن يقوم، ثم قال: (ما يسرني أن لآل محمدٍ رضي الله عنهم مثل هذا الجبل - وأشار إلى الجبل - وأني متٌ وتركت منه دينارين). قال ابن عباس: فقبض رسول الله ﷺ يوم قبض فلم يدع ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمةً، وترك درعه مرهونةً بثلاثين صاعاً من شعير كان يأكل منه ويطعم عياله، عند رجلٍ من اليهود»^(٢).

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٢٣٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٤٨٤٦).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٠٠، وابن ماجة في السنن (٢٤٣٩)، وابن جرير الطبري في تهذيب الآثار: مسند ابن عباس ١/ ٢٣٩. وأخرج البخاري في الصحيح (٢٣٨٩): عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «لو كان لي مثل أحد ذهباً ما يسرني أن لا يمر علي ثلاثٌ، وعندي منه شيء، إلا شيء أرصده لدين». وأخرجه هو (٦٤٤)، ومسلم (٩٤) =



٤ - ويورد أندريه شبهة أخرى - محكومًا بتحليلاته النفسية - فيقول: (يمكن الحكم من خلال مواضع متفرقة من القرآن بأن محمدًا أراد أن يحيط نفسه في المدينة بسياج شَرَفٍ من المراسيم التي تدعم منصبه القيادي الجديد. ومن هنا منع المؤمنين من أن: (يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي) يعني: أن يتكلموا بصوت مرتفع في حضوره، ويؤكد أنه لا ينبغي لهم أن يستعملوا الخطاب العادي في حضوره. ولم يقتصر على فرض الممارسات الجيدة المطلوبة بشكل عام، مثل منع دخول منزله دون استئذان، بل حاول وضع رسم على من أراد الدخول عليه، وهو عبارة عن صدقة طوعية تصرف في الصالح العام، ومن المرجح أنه فعل ذلك ليقُلِّل من ازدحام المتسولين المزعجين^(١). يعدُّ هذا الحكم الذي أعقبه

=من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه بنحوه.

(١) هذا الاحتمال لا يرجحه شيء من المرويات التاريخية، بل الظاهر منها ومن سياق الآيات في سورة المجادلة (الآية ٨ وما بعدها) أن المسألة متعلقة بنفس النجوى وآدابها، وقد ذكر الماوردي في تفسيره: النكت والعيون ٥/٤٩٣، (دار الكتب العلمية، بيروت) عن الحسن البصري رضي الله عنه: أنه كان قوم من المسلمين يستخلون النبي ﷺ ويناجونه، فظنَّ بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم في النجوى، فشق عليهم ذلك، فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن استخلائه. وأخرج ابن جرير الطبري في تفسيره ٢٣/٢٤٩: عن ابن عباس في قوله: ﴿فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانَكُمْ صَدَقَةٌ﴾؛ قال: وذاك أن المسلمين أكثروا=

بشكل مباشر نسخ الأمر من أشد المسائل غرابة في القرآن: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المجادلة: ١٢]، ويأتي عقب هذا مباشرة: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقْتُمْ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ١٣]. هذا - كما نرى - تراجع مشين إلى حد ما. من له الاحترام المصون ويجراً على مثل هذا التصرف البهلواني يجب أن يكون قد امتلك ثقة جيدة وكبيرة جداً لدى المؤمنين به. الشروح العربية تحكي أن هذا الحكم كان ساريًا لساعة واحدة فقط، أو عشرة أيام، وهذا هو الأظهر. لم يكن عند الفقراء ما يقدمونه، والأغنياء لم يرغبوا في تقديم شيء، لهذا امتنع الجميع من طلب الحديث مع النبي. لقد كان عليُّ يفتخر بأنه كان الشخص الوحيد الذي نفذ الأمر، فقد أعطى درهماً لكل مناجاة. حديث آخر يُظهر عليًّا في تصرفٍ أقل احترامًا. لقد سأله النبي عن رأيه فيما إذا كان الدينار مناسباً؟ فقال: لا يطيقونه. قال: فبنصف دينار؟ قال: لا

= المسائل على رسول الله ﷺ، حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه؛ فلما قال ذلك صبر كثير من الناس، وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ فوسَّع الله عليهم، ولم يضيق.



يطيقونه. قال: فبكم؟ قال: بشعيرة. فقال النبي لعلِّي: «إنك لزهيدٌ»^(١). على كلِّ حالٍ: المحاولات الصغيرة من هذا القبيل لسنَّ نوعٍ من المراسيم الرسمية لم تجذب العربَ الفطريين المحبين للحرية).

ثم قال أندرية: (كان السبب الذي دفع محمداً إلى هذا التصرف - وهو إيجابِيٌّ إلى حدٍّ كبيرٍ - رغبته في غرس الاحترام والانضباط، اللذين اشتدت الحاجةُ إليهما في ذلك الوقت بعدما جاءت حشود جديدة من الأتباع الذين لم تتأصل فيهم بعدُ بشكلٍ عميقٍ التبجيلُ اللازمُ لشخص النبي).

قلتُ: لا نحتاج إلى تكلف الردِّ على تحليلات أندرية المبنية على الظن والادعاء المجرد؛ فقد سارع بنفسه إلى نقضها بتعليقه هذا، فقد كان في ذلك الحكم ثم في نسخه حكمٌ ومقاصد جليلة، أدرك منها أندرية جانباً ظاهرياً محدوداً، فكيف بأهل العلم والإيمان؟

وأيضاً: فإن وضع ضوابط للاستئذان والدخول والمحادثة من الآداب العامة عند البشر تجاه كبرائهم وأمرائهم، بل حتى أمهاتهم وآبائهم؛ فكيف يجعل هذا التأديب للأتباع تجاه نبيِّهم ورسولهم - وهو أجلُّ قدرًا وأرفعُ منزلةً من سائر

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٠٠)، وقال الألباني في ضعيف سنن الترمذي: إسناده ضعيف.

الناس - محاولة لأجل وضع: (سياج شرفي من المراسيم التي تدعم منصبه القيادي الجديد)؟!

وأيضاً: فإن في هذا التأديب مصلحة عامة في ترسيخ القيم الأخلاقية في المجتمع، وبالتالي لا يمكن النظر إليه من خلال تعلقه بشخص النبي ﷺ فحسب، فالأخلاق والآداب التي ربَّى عليها النبي ﷺ أصحابه الكرام هي التي كوّنت - من بعد - ملامح المجتمع الإسلامي بمعايره وقيمه وخصوصياته.

٥ - ويصرُّ أندريه عل إخضاع الحقائق التاريخية لاحتِمالات النظرية النفسية فيقول: (الأصالة والجدية في تدبُّن محمد، والإخلاص في إيمانه بدعوته الدينية؛ كلُّ ذلك واضح لا جدال فيه، لكن للأسف لا يمكن القول أن الصراحة والنزاهة كانت من السمات الأكثر وضوحاً في شخصيته بشكل عام؛ لقد طرحنا أمثلة من قبيل سرية النخلة^(١)، وقتل كعب بن الأشرف^(٢)، وهناك

- (١) هي سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه الذي أمره النبي ﷺ أن ينزل بأصحابه نخلة - موضع بين مكة والطائف - فوق منهم مبادرة إلى قتال بعض المشركين في آخر يوم من شهر الله المحرم: رجب، فلما رجعوا إلى المدينة قال لهم رسول الله ﷺ: (ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام). ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧].
- (٢) وقع هنا في أصل المؤلف، وفي الطبقات اللاحقة: (كعب بن زهير)، وهو سبق قلم منه.



حالات مشابهة في بعض الأحيان تكشف بوضوح رغبةً في المكر والنفاق، مشيرةً للاشمئزاز).

قلتُ: عجبٌ أمرُ أندريه؛ يثبت أولاً الأصالة والجدية والإخلاص لمحمد ﷺ، ويثبت له أيضاً - كما سبق - استقامة سلوكه ومحافظته على قيمه حتى في العهد المدني؛ ثم يريد أن ينقض ذلك كله بمثالين أو ثلاثة أو أربعة لم تقع إلا: (في بعض الأحيان)، ولم يظفر بها أندريه إلا بعد التّقميش الشديد؛ ومع ذلك يريد أن يحمل تلك الوقائع على أسوأ الوجوه ليحزم بعد ذلك أن النبي ﷺ كان يعاني من رغبة في المكر والخداع. وهذا من أندريه بغْيٌ وتجنُّ، لأن حكم البديهة العقلية في هذه الصورة يقضي بترجيح الاحتمال الجزئي الذي يوافق الحكم الكلي. والحكم الكلي - بإقرار أندريه - هو إثبات المصادقية والنزاهة والاستقامة له ﷺ، فإذا وردت في الواقعة المعيّنة عدة احتمالات، ولا سبيل إلى الترجيح بينها إلا بالرجوع إلى الأصل الثابت والحالة الراجعة المستقرة؛ فالواجب حينئذٍ ترجيح الوجه الموافق للأصل الذي هو موضع اتفاق. وفي ضوء هذا التقرير العقلي يمكننا أن نفهم حادثة سرية عبد الله بن جحش ومقتل كعب بن الأشرف.

أما سرية النخلة؛ فقد أطل أندريه البحث فيها في الفصل السادس من

كتابه، ووجد فيها فرصته للانتقال من البحث التاريخي إلى التحليل النفسي. والأمر أيسر مما تكلفه، فعدم موافقة رسول الله ﷺ على ما فعله عبد الله بن جحش وأصحابه من القتال في الشهر الحرام؛ لا بدَّ أن يحمل على الأمر الراتب المعروف من حال النبي ﷺ، حيث كان يتوقف في الأمر حتَّى يأتيه الوحي بحكم الله فيه، وكان أحياناً يجتهد فيأتي الوحي بما يخالف اجتهاده، وربما جاء الوحي بمعارضته أحياناً - وهذه الحالات لها أمثلة كثيرة جداً لم تكن لتخفى على مثل أندريه -؛ فموقفه في قصة سرية النخلة من هذا القبيل، فهو في الحقيقة يدل على صدقه وأصالته وإخلاصه؛ لأنه تصرَّف في تلك اللحظة وفق المبدأ العام السائد في منع القتال في الأشهر الحرم بإطلاق، وكان بإمكانه إن يبادر إلى تقديم تسويغٍ لفعل أصحابه بوضع تشريعٍ جديد، ولكنه لم يفعل ذلك، وكان نتيجة ذلك أن جاء الوحي مخالفاً لاجتهاده، لكن أندريه لا يؤمن بالوحي المحمدي، ولا يرضى أن يعرض الوقائع التاريخية كما وردت - ليترك لأصحاب العقول الصحيحة والفطر السليمة فرصة التفكير في صحة مثل هذا التصرف من أولئك النفر من الصحابة ضدَّ الذين عادوهم وأذوهم وأخرجوهم من ديارهم ظلماً وعدواناً -؛ لهذا يعمد إلى تفسير الواقعة في ضوء تحليل نفسي لا يستند إلى أي منطق عقلي أو علمي، بل إلى ظنون وتوهمات يطلقها رجماً بالغيب، فلنستمع إليه



وهو يحاول - بزعمه - الدفاع عن النبي ﷺ بعد أن رماه بتلك العظيمة: (على أنَّ التحليل لأخلاقيات محمد يُظهر بشكل كبير ما يمكن - وما يجب - أن يقال دفاعاً عنه. يعتقد أنه قد سيطرت عليه منذ أول نشأته حياء طبيعي، ليس من غير المؤلف عند هذا النوع الانطوائي^(١)).

إنَّ هذا النوع يمتلك غالباً مخيَّلة غنية ومتقدمة، وحياة عاطفية، ولكنه يعاني من بعض الخوف من الفعل. هذا الحياء ليس مثل ضعف الشخصية وضعف الإرادة، وليس له صلة بمرض شلل الإرادة للفعل. على العكس من ذلك؛ يمكن للأشخاص من هذا النوع أن يمتلكوا موهبة هائلة، وقدرة هائلة على الثبات في تنفيذ مقاصده بمثابرة وعناد وعدم خضوع للعواقب. محمد الذي هاجم وثنية ومادية قومه من غير أدنى شكٍّ ولا تردُّدٍ في رسالته؛ يبدو حقاً أنه عانى من بعض الارتباك الداخلي في العلاقات الشخصية: أن يدفع النَّاسَ

(١) لا نجد في سيرته الشريفة ﷺ أي سلوك يمكن أن يدعم هذا الزعم الباطل، فقد عاش محمد ﷺ بين قومه كسائر الناس، تربَّى في أحضانهم وشاركهم في حياتهم اليومية، وربطه بهم صداقات وصلات، ودخل معهم في التجارة، وتزوَّج وأنجب، ولم يكن ابتداءه بالخلاء في غار حراء إلا قبل بعثته بزمانٍ يسيرٍ، كما ثبت في حديث بدء الوحي في صحيح الإمام البخاري (٤).

المقبلين عليه، أن يقول: لا، أن يدخل فيما يريده بشكل مباشر وصريح^(١). مثل باول الذي كان قوياً وبليغاً في كلماته، لكنه وجوده المادي كان ضعيفاً. نحن نرى كيف أن البدو غير المترين يتدافعون على رسول الله عند توزيع الصدقات، يصيحون، وينادون، إلى درجة أنهم يسحبون ثوبه، مما حمل عمر على تهديدهم بسوطه ليحملهم على احترام رسول الله.

«تهجم أحدهم مرة في حضور النبي على أبي بكر بسب قاذح، وبقي محمد صامتاً، وعندما بدأ أبو بكر بالردّ انصرف محمد من المكان، وعندما سأله أبو بكر في وقت لاحق عن سبب ذلك، أوضح له أنّ جبريل كان ما زال يُكذِّبُه، لكن عندما بدأ أبو بكر بالدفاع عن نفسه انصرف الملك عنه»^(٢).

(١) يعرض أندريه صفات نبيلة مثل: (الحياء) و(الكرم) و(السماحة) و(الجود)؛ في سياق يربطه بظواهر نفسية، ثم يقوم بتحليلها وفقاً لأهوائه الشخصية. إن أندريه هو الطرف الوحيد في هذه المحاجة الذي يحتاج إلى تحليل ومعالجة نفسية!

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٩٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١٦٣٩). وقد ساقه أندريه بمعناه، وهذا الاستشهاد - بغض النظر عن ضعف الحديث - لا يدعم رأيه، لأن الذي ردّ هو أبو بكر، فلم يرغب النبي ﷺ في ذلك أخذاً بالأعلى والأحسن في مثل هذا الموقف، ولو كان الأمر كما يريد أندريه أن يصوّره؛ لشجّع النبيُّ أبا بكر - سرّاً! - على الردّ، والتزم هو الصمت! وحاشاه ﷺ من هذه الأخلاق الذميمة.



رواية أخرى - ليست أقل أهمية - تحكي «كيف أن عائشة لامت النبيّ لأنه تكلم بسلبية بالغة عن أحد الأشخاص، وبعد ذلك مباشرة دخل عليه ذلك الشخص فاستقبله بلطفٍ خاصٍّ»^(١).

الشخص الذي يفتقر إلى القدرة الطبيعية القوية والصريحة يضطرّ بسهولة

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١) عن عائشة: أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: «أئذنوا له فلبس ابن العشيرة» أو: «بس رجل العشيرة»، فلما دخل عليه ألان له القول، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله قلت له الذي قلت، ثم ألت له القول؟ قال: «يا عائشة! إن شرّ الناس منزلةً عند الله يوم القيامة من ودعه أو تركه الناس اتقاء فحشه».

وقد ذكر العلماء ما يبيّن الحكمة من هذا الحديث: نقل النووي في شرح صحيح مسلم (٢٥٩١)، عن القاضي عياض، قال: «هذا الرجل هو عينة بن حصن، ولم يكن أسلم حينئذ، وإن كان قد أظهر الإسلام، فأراد النبي ﷺ أن يبيّن حاله ليعرفه الناس، ولا يغتر به من لم يعرف حاله. وكان منه في حياة النبي ﷺ وبعده ما دلّ على ضعف إيمانه، وارتدّ مع المرتدين، وجيء به أسيراً إلى أبي بكر ؓ، ووصف النبي ﷺ له بأنه بس أخو العشيرة من أعلام النبوة، لأنه ظهر كما وصف، وإنما ألان له القول تألفاً له ولأمثاله على الإسلام». وفي هذا الحديث مداراة من يتقّى فحشه، وجواز غيبة الفاسق المعلن فسقه، ومن يحتاج الناس إلى التحذير منه. ولم يمدحه النبي ﷺ، ولا ذكر أنه أثنى عليه في وجهه، ولا في فقاه، إنما تألفه بشيء من الدنيا، مع لين الكلام.

أن يتخذ لتنفيذ إرادته طرقاً ملتوية، ويستخدم المكر والنفاق. إن الطيبة الرائعة، واللفظ، وإرادة الخير، صبغت - وفقاً لتراث الإسلام - شخصية النبي: «كان إذا لقي الرجلَ فكلَّمه لم يصرف وجهه عنه حتى يكون هو الذي ينصرف، وإذا صافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينزعها»^(١)، ولم يكلمه أحد أحر كان أو أسود - عربياً أو أعجمياً - إلا وأجابه^(٢). وكان يأخذ في كثير من الأحيان ثمرة ساقطة فيضعها في فمه؛ لأنه كان يفكر حيثئذ أنها يمكن أن تكون هدية، فلم يكن يحب أن يجرح مشاعر من أهداها^(٣). وكان يسلم على الجميع حتى على العبيد والأطفال. عندما سئلت عائشة كيف كان النبي إذا خلا في بيته؟ أجابت: «كان ألين الناس، وأكرم الناس، وكان رجلاً من رجالكم إلا أنه كان ضحاًكاً بساماً»^(٤).

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٧١٦)، والترمذي في الجامع (٢٤٩٠).

(٢) طبقات ابن سعد ١/ ٢٧٠، وإسناده مرسل.

(٣) لم أجد هذا، وإنما المعروف ما أخرجه البخاري في الصحيح (٢٤٣٣)، ومسلم في الصحيح (١٠٧١) عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «إني لأنقلب إلى أهلي، فأجد التمرة ساقطة على فراشي، فأرفعها لأكلها، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقبها». وهذا في طبقات ابن سعد ضمن الحديث السابق، فالظاهر أن أندريه أخطأ في فهمه.

(٤) طبقات ابن سعد ١/ ٢٧٤.



ومن المؤكد أنه ليس من قبيل المصادفة، أن مصادرنا كثيرًا ما تتحدث عن هذه الابتسامة التي لا يقاوم....^(١).

ثم قال أندريه: (يشهد لنفس الخصائص ميله الشديد للتنازل بالقدر الممكن عن القوانين والضوابط التي وضعها بنفسه. لا يتوقف تنازله على ضعف إرادته وإنما على صعوبة طبيعية في مواجهة مظاهر التذمر وعدم الرضى. الرغبة الواضحة في الحصول على الشعبية والاحتراف والمحبة هي ضعف يبدو أن له علاقة مع الموهبة الملهمة. المتنبؤون عندهم هذا التوافق مع الفنانين والشعراء، وتحليل هذه الرغبة لا يُظهر بالطبع معدنًا أخلاقيًا نفيسًا. هذا الصنف من النفوس ليس في حلٍّ من بعض الميل إلى إهمال الصداقة والمودة التي حصلت عليها سابقًا، ومن البحث باستمرار وجدًّا عن فتوحات جديدة، والإهمال واللامبالاة لأفضل الأصدقاء مع شيء من المودة الخفيفة للأعداء. ويبرز في الجانب الإيجابي لهذا السلوك: الحاجة الاجتماعية القوية له، والرغبة في التوافق الشخصي، والمودة التلقائية، ولين الجانب. لهذا يمكن القول دفاعًا عن محمد أن جزءاً من لباقة المتقدمة متوقف على اضطراب فطري إلى إخفاء عدم الرغبة وعدم الرضى تحت قناع من اللطف.

(١) وأوردتُ باقي كلامه فيما تقدم.

وأخيراً: ينبغي أن لا ننسى أن اللعبة السياسية الآن مرة أخرى من هذا القبيل، حيث يبدو بوضوح أنها تحتاج إلى درجة من الكمال في فن اللباقة. (الذي يستطيع إخفاء أفكاره قد أدرك أن الحكم يخضع لهذا المعيار) كما يصف آثينا سلفيو القيصر سيكيسموند. لقد استطاع محمد بسيطرته على ذاته أن يثبت أيضاً شرطاً طبيعياً حتى يصبح سياسياً مهماً وفاعلاً).

قلتُ: هذا كله كلام أندريه، وقد أطلت بنقله - كما فعلتُ بكلامه السابق في التحليل النفسي - ليتمكن القارئ من أخذ فكرة تامة عن هذه الطريقة العوجاء العرجاء في الحكم على بواطن النفوس والأمور التي وقعت قبل أربعة عشر قرناً، وقد ذكرتُ الرد عليها فيما سبقت، والمقصود هنا: أن شغف أندريه بالتحليل النفسي هو الذي حمّله على تفسير ما حدث في سرية النخلة على أسوأ وجه، وكذلك استشهاده بقصة مقتل كعب بن الأشرف، وهو ما تطرق إليه في الفصل السادس أيضاً، أثناء كلامه في حكم النبي ﷺ في المدينة، فأطال الكلام وبسطه؛ ليثبت أن هذا الحدث يدل على خلل في سلوك النبي ﷺ يرجع إلى تكوينه الشخصي، وهو ما شرحه في كلامه أعلاه.

لا نحتاج إلى الدفاع عن النبي ﷺ لأمره بعض الصحابة باغتيال كعب ابن الأشرف، فالأمر أيسر من ذلك؛ فقد كان ابن الأشرف يهودياً حليفاً لليهود



بني النضير، وكان بينهم وبين النبي ﷺ عهد، لكن ابن الأشرف نقض العهد، وسافر إلى مكة بعد انتصار المسلمين في بدر؛ يهجو النبي ﷺ، ويحرض قريشاً على الثأر لقتلهم، ثم عاد إلى المدينة ليعلن عداوته ويجهر بالسوء من القول حتى بلغت به الجرأة إلى التشب بأم الفضل بنت الحارث ﷺ زوجة العباس عم النبي ﷺ. فلما بالغ في الهجاء والإساءة والتحريض؛ قال النبي ﷺ: «من لكعب بن الأشرف؛ فإنه آذى الله ورسوله؟» فاستأذنه محمد بن مسلمة وأبو نائلة في قتله، فأذن لهم، فقاموا بتدبير أمر اغتياله^(١).

ولندع أندريه يدافع عن موقف النبي ﷺ - على عادته في إيراد الشبهات ثم نقضها من بعض الوجوه -: (بعد غزوة بدر سافر كعب بن الأشرف إلى مكة، وحاول هناك من خلال شعره في الهجاء البالغ أن يحرض قريشاً على الانتقام. كان محمد - مثل سائر قومه عموماً - ذو تأثر بالغ جداً بشعر الهجاء، ولم يكن ينسى الإهانات بسهولة...).^(٢)

وقال: (ينبغي علينا أن لا ننسى أن شعر الهجاء السياسي في الجزيرة العربية في ذلك الوقت؛ كان سلاحاً فعالاً جداً).

(١) القصة في صحيح البخاري (٤٠٣٧)، وصحيح مسلم (١٨٠١).

إذن قد سلك ابن الأشراف أخطر طرق الحرب، فقاده إلى نهاية قد كان في سلامة منها لو أنه التزم بعهد قومه - بني النضير - مع المسلمين في المدينة. فتصرف النبي ﷺ يأتي في سياق الحرب والصراع، حيث يبادر القائد إلى القيام بمسؤولياته في المحافظة على كيان الأمة ووحدتها وهيبتها، فيقطع الطريق على أهل الغدر والخيانة والتحريض والتشويش.

إنه ليس من الصدق والإخلاص والاستقامة أن يتحكّم التردّد والضعف في صاحب القرار والقيادة، فيعتمد إلى اللين والمسالمة عندما يقتضي الموقف الحزم والمواجهة لقطع دابر الشرّ.

بل إن من كمال شخصية النبي ﷺ ومصادقيتها وسلامتها من الخلل والعيب قدرته الفريدة على المبادرة إلى التصرّف بما يناسب الزمان والمكان والأحوال والأشخاص، فيضع كلاً من الرحمة والعفو والرفق واللين والصبر والسماحة في مواضعها، كما يضع كلاً من العقوبة والشدة والتّعنيف والتنكيل والمعاملة بالمثل في مواضعها.

فلا يحمل الرفق والرحمة على تضييع الحقّ والخنوع للأعداء والجبن عن المواجهة والمنازلة، ولا تدفعه الحماسة في نصرة الدين وإعلاء كلمة الله تعالى إلى الظلم والبغي والعدوان.



وهذا آخر ما تيسر إيرادَه في التعريف بكتاب: (محمد حياته وعقيدته)،
واستعراض مادة الفصل الأخير منه حول شخصية النبي ﷺ، مع المناقشة
والنقد والتحليل.

الخاتمة

النتائج والتوصيات:

١. أهمية الكتاب من جهة انتشاره وتداوله حيث وقف الباحث على أكثر من عشرين طبعة بست لغات أوروبية؛ مما يؤثر بشكل بالغ في تصورات الأوربيين عن نبي الإسلام.
٢. إن من محاسن الكتاب اعتماده على المصادر الإسلامية الأصلية، ومحاولة تقديم تقييم منصف وعادل، وتأكيد المؤلف على جملة من المفاهيم الأساسية الصحيحة عن شخصية النبي ﷺ.
٣. إن عدم إيمان المؤلف بالرسالة الإسلامية أوقعه في كثير من الأخطاء والمغالطات المنهجية والتفصيلية. وهذا إشكال عام لدى عامة المستشرقين غير المسلمين.
٤. تحكّم نظرية التحليل النفسي للدين في آراء المؤلف في جميع مباحث الكتاب، فهي القاعدة الكلية لمنهجه في التعليل والتفسير والنقد.
٥. وأخيرًا: يوصي الباحث بترجمة الكتاب إلى اللغة العربية، ودراسة



مواده، والجواب عن شبهاته، والكشف عن أباطليه ومغالطاته. ثم ترجمته مع تلك الدراسة إلى اللغتين الإنكليزية والفرنسية، ومحاولة نشره عن طريق بعض دور النشر الغربية، ليكون بديلاً عن النسخة السابقة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



أصول الصورة المشوهة لمحمد ﷺ

في الغرب الأوروبي ومكوناتها

«قراءة في تاريخ الاستشراق الإسباني ونماذجه وامتداداته»

إعداد

أ. د. محمد عبد الواحد العسري

جامعة عبد المالك السعدي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان - المملكة المغربية

ابيض



تحيّد

١ . يتعرض المسلمون اليوم إلى هجمات الغرب المتوالية ضدهم وضد دينهم من خلال التركيز على النيل من شخص نبي الله محمد ﷺ، وعلى الخط من رسالته وبخسها. والواقع أن هذا الأمر ليس بجديد على المسلمين؛ فلقد طاهم منذ أن التقوا بالغرب في مطلع القرون الوسطى، ولم يرتفع عنهم إلى الآن. ولا يملك المرء إلا أن يتساءل عن الأسباب التي تدفع بهذا الغرب إلى المحافظة على هذا التقليد في تنظيم علاقاته بالإسلام والمسلمين ونبى العالمين محمد ﷺ. وذلك على الرغم من تبدل الأزمنة والأحوال منذ انصرام القرون المذكورة إلى الآن، وعلى الرغم من مصالحه المادية التي تجمعهم مع كثير من الشعوب الإسلامية وأقطارها ودولها. لماذا يصر الغرب على تخليد هذا التقليد في تدبير تلك العلاقة؟ هل يرجع ذلك إلى حقد دفين لديه ومترسخ في لا وعيه ضد الإسلام والمسلمين يتخذ من الهجوم على رسول الله محمد ﷺ مطية للتعبير عنه، وغاية من غاياته في الوقت نفسه؟! وإن كان الأمر كذلك فلا مناص من التساؤل عن دواعي هذا الحقد لمحاولة فهم شراسته البينة بذاتها فيما أضحى

يسمى بالرسوم المسيئة لرسول الله ﷺ وفي غيرها من الأشكال والوسائط التعبيرية والتواصلية الأخرى التي يتفنن الغرب في إبداعها وتفعيلها كما هو معروف.

٢. فمما لا شك فيه أن هذا الحقد يرجع، فيما يرجع إليه بصفة أساسية، إلى طبيعة العلاقات التي جمعت تاريخيا بين الغرب والإسلام ومحدداتها التي انتظمها الصراع المعروف الذي فرضه أولهما على ثانيهما، للظفر بأرضه وإنسانه وبسط هيمنته عليهما.

٣. غير أنه، ومهما كانت أهمية هذا الحقد في هذا المضمار، فإنه لا يبدو لنا أنه وحده كافٍ لتفسير تلك الهجمات بإرجاعها إليه أو اختزالها فيه، وفيه فقط، من دون أن يعني ذلك إنكار هذا الحقد أو نفي وظيفته في تأجيحها بطبيعة الحال. فالواقع أن تلك الهجمات قد أضحت اليوم بحاجة إلى أن ننظر إليها بوصفها إحدى تداعيات الاستشراق الأوروبي، وأن نعمل النظر فيها، من حيث هي كذلك، ووفق نقد علمي مؤصل ومقنع، يتجاوز النقد الأخلاقي، من حيث كونه نقدا معياريا، وقد يتضمنه في الوقت نفسه ضمن فهم أوسع وأرحب لإشكالات العميق^(١). وذلك من خلال العمل على إرجاع هاته الهجمات إلى أصولها

(١) لقد سبق أن نبه سالم يفوت على هذا المنزلق الذي تندرج فيها الدراسات التي تناولت =



الثاوية في التصورات الأزلية للغرب عن الإسلام، وعبر تتبع مكونات هذه التصورات في نماذجها الدالة عليها، لرصد امتداداتها فيما بينها وتحليل آليات اشتغالها وتفكيكها، طمعا في تفسير معرفي للمهابة التي اكتسبتها هاته التصورات في الغرب الأوروبي بقدرتها على التمتع عن أي تحول نوعي. فلو

=الاستشراق، بإرجاعه إلى ميول المستشرقين ونزعاتهم ورغباتهم.

حفريات الاستشراق. في نقد العقل الاستشراقي، الدار البيضاء، ١٩٨٩، ٥.

ومن المعروف أن الاستشراق قد أخضع إلى ضروب مختلفة من الدراسة والنقد. ولقد وقفنا على أمثلة دالة على مختلف أنواعها وتوجهاتها في كتابنا عن الاستشراق الإسباني، بحيث بينا كيف أن الغالبية الساحقة منها قد اقتصرت على النظر إلى مضمون الاستشراق وأهدافه، وأغفلت النظر في المنهج الذي يتوصل به وفي خلفياته النظرية. كما وقفنا كذلك على الدراسات الأخرى للاستشراق التي اهتمت بنقد المنهج المنتج له وتحليله خلفياته النظرية التي تثوي فيه، لنلاحظ كيف أنها مازالت تتسم بالقلّة وكيف تتبوأ فيها دراسات إدوارد سعيد مكانة متميزة ورائدة بامتياز. وهي اليوم أكثر من معروفة، ويكفي التنبيه على أنه لا يمكن لحد الآن لأي دارس للاستشراق القفز على أول عمل له في هذا المجال أو تجاوزه. والمقصود بذلك كتابه: الاستشراق. المعرفة السلطة الإنشاء، تر. كمال أبو ديب، بيروت، ١٩٨٤ م.

محمد عبد الواحد العسري، الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني. من ريموندس لولوس إلى أسين بلاثيوس، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ١٤٢٣-٢٠٠٩، ٣٩-٣١.

حفرنا بالمعنى الفوكوي^(١) في أول النصوص التي أعدها الغرب لنفسه عن محمد ﷺ فإنه سيتضح لنا بأن التصورات المتضمنة فيها هي نفس التصورات المبثوثة، بشكل آخر، في رسائل الرسوم المسيئة لهذا الرسول صلوات الله وسلامه عليه، والتي يصر الغرب على نشرها ونشر نظائرها الأخرى، باسم حرية التعبير أو قدسية البحث والدرس الجامعيين. فكيف لم يستطع أن ينال الزمان أبداً من

(١) يتعلق الأمر بمنهج ميشل فوكو في معالجة الأفكار وتكوينها، المسمى عنده بمنهج حفريات المعرفة، الذي أراد به مراجعة منهج تاريخ الأفكار التقليدي ونقده. ولقد أرسى قواعده في كتابه المذكور أسفله، من بعدما بشر به وبخطوطه العامة والأولية في كتبه الأخرى وخاصة: كتاب الكلمات والأشياء وكتاب تاريخ الجنون، وكتاب تاريخ العيادة، ضمن مشروعه العام في إعادة كتابة هذه التواريخ. والواقع أننا لا نستخدم في هذه المرحلة من هذا البحث جميع مقتضيات هذا المنهج، بل مقتضى مخصوص منه؛ مفاده الدعوة إلى عدم إرجاع الإبداع الفكري إلى رغبة الإنسان واختزاله فيها فقط. «لا تريد حفريات المعرفة أن تركز على الأثر [...] ولا تسعى إلى أن تكون دراسة نفسية أو اجتماعية [...] بل تسعى إلى تحديد أنماط وقواعد الممارسات الخطابية التي تحكم الآثار الفردية وتوجهها أحيانا توجيهها كلياً؛ بحيث لا ينجو من هيمنتها شيء، لذا، فالإلحاح على دور الذات المبدعة، واعتبارها علة وجود الأثر ومبدأ وحدته، أمر لا تقر به حفريات المعرفة».

لقد ترجم هذا الكتاب عن أصله الفرنسي. سالم يفوت، حفريات المعرفة، الدار البيضاء،

ط. ٢، ١٩٨٧.

Michel Foucault, l'Archéologie du savoir, Paris, 1972



الثوابت البنائية لهاته التصورات؟! وكيف احتكرت، وما زالت، اللاشعور الجمعي للغرب الأوروبي النصراني إلى الحد الذي يجوز لنا فيه أن نتساءل مرة أخرى مع هشام جعيط عن إمكانية تخلصه من هيمنتها عليه في يوم من الأيام^(١)؟ وقبل هذا وبعده، فلا بد من التساؤل عن مصدر هاته التصورات وعن كيفية إنجازها لتتمكن من تتبع هيمنتها المذكورة في مختلف امتداداتها المتواصلة.

٤. ومما لا شك فيه أن الغرب الأوروبي يدين بهاته التصورات التي تشوي خلف تلك الهجمات التي يتعرض لها سيدنا محمد ﷺ، ومن خلاله الإسلام وجميع المسلمين إلى مجهودات مستشرقيه الذين لا يقصرون في إنتاجها ونشرها. ومما لا شك فيه أنهم قد أخذوها عن أسلافهم العلماء من المستشرقين الإسبانين الذين زودوهم بها عبر مكتبتهم الاستشرقية. لذلك فلا مناص من العودة إلى دراسة الاستشراق الإسباني، وتتبع امتداداته في الغرب الأوروبي. ولمقاربة المدة الطويلة لتاريخ هذا الاستشراق ولريادته لبقية الاستشراق الأوروبي، فإننا سنركز على الوقوف على مجالين من مجالاته الدالة عليه فيما يتعلق بموضوعنا، وعلى معالجة أهم نماذجهما وتتبع امتداداتهما في الغرب الأوروبي. يتعلق الأمر

(1) "Il reste que les préjugés médiévaux se sont insinués dans l'inconscient collectif de l'occident à un niveau si profond qu'on peut se demander, avec effroi, s'ils pourront un jour en être extirpés", Hichem Djait, l'Europe et l'Islam, Paris, 1974, 21.

بمجال ترجمة هذا الاستشراق الإسباني لمعاني القرآن الكريم، إلى جانب مجال مجادلة الاستشراق نفسه للإسلام والمسلمين. فالواقع أن الصورة المشوهة والمشوهة لنبي الرحمة ﷺ قد تم وضع ثوابتها البنائية داخل هذه المجادلة وتلك الترجمة، وتخويلها فيها قدرتها على الاستمرار والهيمنة المذكورتين. وللاستدلال على ذلك نجعل هذه الورقة في قسمين: قسم نعى فيه هذه الترجمة وبامتداداتها. وقسم آخر نهتم فيه بتلك المجادلة وامتداداتها كذلك. ولا يعني فصلنا بين هاذين القسمين أنه قد وقع في واقع استشراقنا فصل تام بينهما. بل العكس هو الصحيح. فلقد تم التداخل بينهما، بحيث كانت الترجمة التي تعيننا فيه مجادلة، أو ترجمة جدالية. لذلك فلا ينبغي أن يحمل هذا التقسيم إلا على سبيل التوزيع المنهجي لا أكثر ولا أقل.

أ. ترجمة الاستشراق الإسباني لمعاني القرآن الكريم وامتداداتها.

١-١. لقد انتبه كثير من الباحثين والدارسين العرب والمسلمين وغيرهم إلى أنه لا يمكن فهم تصورات الاستشراق لموضوعه بإرجاعه إلى تاريخه الحديث، بل ينبغي كذلك البحث في تاريخ بداياته الأولى وروافدها ومكوناتها. ويكاد يتم الإجماع بينهم على أن هذه البدايات تتجذر في الأندلس التي ستتحول لاحقا بعد سقوط مملكة غرناطة الإسلامية واستكمال سيطرة الملوك الكاثوليك



عليها في (٨٩٧ / ١٤٩٢). ولا غرو في ذلك، فلقد شهد الاستشراق بوصفه «حقلا معرفيا مخصوصا» ومن حيث كونه «محض تصور الذات الغربية لغيريتها الشرقية»، بداياته الأولى في الأندلس. ولقد تم ذلك عبر ما عرفته فيها الثقافات «الإسلامية العربية والنصرانية اللاتينية» من احتدام وصراع وتعايش وثاقف^(١). لقد اضطرت كل واحدة من هاتئ الثقافتين إلى «بناء ذاتها وتأسيس هويتها بالنظر إلى الثقافة الأخرى، أي إلى غيريتها»، ما «دامت الغربية هي التي تكرر الوعي بالهوية»^(٢). فضمن هذا الإطار جاءت الترجمة الإسبانية الأولى لمعاني القرآن الكريم، التي ستخلد في جميع الترجمات الغربية الأوروبية التي ستليها. فكيف تم ذلك؟ وما مختلف السياقات التاريخية والمعرفية التي حددت استبناءها للصورة المشوهة لمحمد نبي الرحمة ﷺ، التي جعلت منه نبيا للنقمة بامتياز؟.

١-٢. يتعلق الأمر بالترجمة التي أمر بإنجازها بطرس الموقر أو المبجل

Petri Venerabilis رئيس دير كلوني الفرنسي **Abbatis Cluiacensis**

- (١) محمد عبد الواحد العسري، «من روافد الاستشراق الإسباني ومكوناته في القرون الوسطى. مجادلة عبد المسيح الكندي للإسلام بالأندلس»، مع. العلوم الإنسانية، جامعة البحرين، ع. ٩، شتاء، ٢٠٠٤، ٣٣٩ - ٣٦٧.
- (٢) نفسه.

ضمن المشروع الذي وضعه بالأندلس، في أواسط القرن الثاني عشر الميلادي (١١٤١)، للتعرف إلى الإسلام ومجادلتة، بقصد الحد من انتشاره وتنويع أساليب مواجهته، من بعدما أخذت الأساليب العسكرية تؤتي أكلها بعد استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة^(١) في ٤٧٨ / ١٠٨٥. لقد جاء هذا المشروع

(١) يتضح في رسالة لبطرس المبجل إلى المسلمين بأنه إذ يؤمن بحتمية الصراع مع الإسلام، فإنه يفضل ألا يصارعهم بالسلاح مثلما يفعل أغلب النصارى، بل «بالكلمة وليس بالبعض والكرهية» يراجع: أليكسي جورافسكي، الإسلام والمسيحية، تر. خلف محمد الجراد، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٦، ٨١-٨٥٢.

ولقد دأب مؤرخو هذه الترجمة ودارسوها على نسبتها إلى روبيرتوس كتينيس Robertus Ketenesis والواقع أن بطرس المبجل كان قد أمر كذلك بطرس الطليطي Petrus Toletanus أحد اليهود المتنصرين بالأندلس، بإنجاز نفس الترجمة ذلك هو ما يستفاد من بعض رسائل الموقر إلى سان برناردو San Bernardo. فضلا على أنه قد جاء على أعلى الورقة الأولى لإحدى نسخ الترجمة المعنية، المحفوظة بالمكتبة الوطنية بباريز Mas. Lat. 14,503 بأنها من عمل بيتروس طوليطانوس. " Translatio Alchorani per M. Petrum Toletanum". والظاهر أن كلا من هذا الأخير وروبرتو كيتون وغيرهما من بقية تراجمة الفريقين، ومنهم حتى أحد المسلمين المقلبين عن دينهم الأصلي إلى النصرانية، قد ساهموا جميعا كل واحد من جهته، في إنجاز أول ترجمة للقرآن إلى اللاتينية. فالظاهر أن الموقر كان قد شكل فريقين من التراجمة، يكمل كل واحد منه الآخر من حيث إتقان اللغات المطلوبة، لإنجاز هذا الغرض ونظائره.



في أصله لإصلاح النصرانية الإسبانية التي رأت فيها نصرانيته ونصرانية الفاتكان **Vatican** انحرافات وهرطقات، باتت الحاجة ملحة لتحطيم معتقداتها وتعويضها بالمعتقدات الرومية الكاثوليكية، ليتطور بعد ذلك وخلالها إلى أول مشروع غربي أوروبي للتعرف إلى الإسلام والمسلمين. ولا غرو في ذلك فكل من هذا الدين وأهله مسؤول في هذا المشروع عن تلك الهرطقات والانحرافات التي نتجت في نصرانية الكنيسة المستعربة بالأندلس من جراء تعاملها معها. وبالفعل، وإذ لا نتهم من جهتنا الإسلام بإفساد هذه النصرانية،

=يراجع:

Muños Sendino. José, "La Apología del Cristianismo de Al Kindi"
Ed. Preparada y anotada, Miscelánea Comillas, 11-12, 1949,
Introducción, 357. 64.65.69.72

أما دير كلوني أو نظام كلوني **Orden de Cluny** فلقد تأسس بفرنسة في ١١ شتنبر من ٩٠٩ ميلادية ليعلن في بدايته بتنظيم الحياة الكنسية للرهبان النصارى الكاثوليك بهذه البلاد وبتقنينها. ولقد استطاع هذا النظام أن يفرض نفسه على هذه الكنيسة وأن ينتشر بسرعة مؤسساً لنفسه مجموعات متفرقة من الأديرة، حيث تقوت تنظيماته فيما بين القرن العشر والثاني عشر الميلاديين. ولقد تعاقب على رئاسته مجموعة من الآباء من الرهبان البندكتيين. ويجمع مؤرخو هذا النظام على أن بطرس المبجل يحتل من بينهم مكانة متميزة بالنظر إلى كونه قد جعل من هذا الدير، منذ أن تسلم رئاسته في ١١٢٢ أهم مركز من مراكز الحياة العملية والفنية لأوربة. يراجع عن تاريخ هذا الدير:

Marcel Pacaut, L'Ordre de Cluny (909-1789), (2e éd.), Paris, 1994.

فالواقع أنه كان قد ترتب عن لقاءها به وبثقافته العربية في الأندلس أن استعربت كنيستها و(تأسلمت) إلى حد تبنت فيه الإصطلاح الديني الإسلامي للتعبير عن بعض شعائرها^(١).

كما ترتب عن نفس اللقاء أن تنامت داخلها هرطقة نصرانية تسمى بهرطقة: «التبني **Adoptionisme**». والمقصود بالتبني هو الاعتقاد بأن عيسى عليه السلام لم يكن إلهاً إلا بالتبني، وأنه لا بد من تأويل ما جاء بشأن هذه البنية في الاعتقاد النصراني على هذا الشكل^(٢). وذلك هو ما كان يمكن أن يقرب بين الإسلام والنصرانية وأن يسهم بالتالي في دحض عقائد الحلول والتجسيد والثالوث المقدس بوصفها إحدى الأركان الأساسية للنصرانية الرومية الكاثوليكية.

-
- (1) "...la traducción árabe de los cánones de la iglesia mozárabe [...] la total bona fide con la que los cristianos parecen haber adoptado la terminología religiosa islámica".
Maria Fierro Bello. I, "El Islam andalusí del S. V/XI ante el judaísmo y el cristianismo", Dialogo filosófico-religioso entre cristianismo, judaísmo e islamismo durante la edad media en la península ibérica. BBREPOLS, Belgiëum, 1994. 86
- (2) "Jésus dont l'humanité n'aurait été divine que par adoption. D'où le nom de l'adoptionisme (....) – "Bon, qu'il soit fils de Dieu doit être interpreter".
Mikel De Epalza, Influences islamique dans la théologie chrétienne médiéval: L'adoptionisme espagnol (VIIIeme siecle), Islamo - christiana, Roma, 1992, 55. 62.

لقد جاءت هذه الترجمة إذا ضمن هذا الإطار، إطار محاصرة الإسلام من أن يسهم في تحول النصرانية الإبيرية إليه ودخول أهلها فيه، الذي يقتضي في ذاته التعرف إلى الإسلام وتشكيل معرفة فيه. ولعل هذا الأمر هو الذي أدى أن لا يقتصر مشروع دير كلوني الفرنسي على ترجمة معاني القرآن الكريم، فلقد أمر رئيسه بطرس المبجل بترجمة مجامع نصرانية وعربية في مجادلة الإسلام والمسلمين، وكتب أخرى عن حياة محمد ﷺ اهتمت بالنيل من أعماله وسلوكه ودعوته ودينه. وذلك قبل أن يتفرغ بنفسه إلى كتابة مجادلته للإسلام^(١).

١-٢. ويجمع جميع الذين تناولوا هذا المشروع لدير كلوني بالبحث أو الدرس على أنه قد شكل بالفعل بدايات تأسيس المعرفة الغربية بالشرق، من خلال إعداداته لوعي النصرانية بالإسلام وتعرفها إليه بوساطة ترجمة معاني

(١) لقد ألف بطرس المبجل هذه المجادلة حوالي ١١٤٣ بعد عودته من إسبانية إلى ديره بفرنسة. ولقد اعتمد في إعدادها على خطط للرد على الإسلام التي زوده بها سكرتيره أي كاتبه لهذا الغرض من بعد مشاركته الفعالة في جميع الترجمات المذكورة. ولقد نشر جاك بول ميغن نصها ضمن نشره لأعمال صاحبها في مجموعة الآباء اللاتينية.

Petri Venerabilis, Adeversus Nefandam Haerisim Sive Sectam
Saracenorum, in Opera Ominia, Accurante Jaques-Paul Migne,
Patrologia Latinae Tomos, 189, Belgium, 1890.

القرآن الكريم وغيره من المتن العربية الأخرى إلى اللاتينية، فيما سيسى «مجموعة طليطة» **Corpus Toletanum**^(١). ولقد رام هذا الوعي تأسيس الذات الغربية وتدعيمها من خلال معرفة نقيضها أو آخرها الذي هو الإسلام، لتدبير شؤون تحجيمه، ولم لا يمكن السيطرة عليه؟. فالكيانان معا، النصرانية والإسلام، ينعكسان داخل هذا الوعي ويتقابلان. لا بل، إن الإسلام ليعبر عن تصدعات هذا الوعي وتناقضاته؛ أي عن آخره الداخلي، أو آخره الضدي. ولاغرو في ذلك، ألم يجد هذا الوعي في الإسلام أصلا لانحراف النصرانية بإسبانية ولتنامي هرطقاتها الداخلية؟ بلى. ولقد انتهج هذا الوعي، فيما انتهجه، أسلوبا محمدا في إنتاج خطابه، اعتمد على آلية التمرکز على الذات والتمحور حولها. ذلك هو ما يفسر التشويه الذي طال مجمل هذه الترجمة والتحريف الذي عرف كيف يتسلل إليها. وتجدر الملاحظة إلى أن هذا التشويه وذاك التحريف لا يرجعان في نظرنا، فقط، إلى رغبة النصارى فيها وإلى قصدهم إليها، بقدر ما

(١) وتسمى كذلك بمجموعة كلوني. ولقد لقبها أليكسي جورافسكي «بفيلق كلوني». وهي تضم نصوصا عديدة، بحسب نسخ مخطوطتها، وبحسب ما طبع ونشر منها. وما يهمننا بصفة أساسية منها في هذه الورقة هي ترجمتها لمعاني القرآن الكريم واعتمادها في ذلك على رسالة عبد المسيح بن إسحاق الكندي.



يرجعان إلى مسائل أعقد وأعمق من أن نخترلها فيما يمكن أن نسميه من جهتنا بلغة الترجمات بالترجمة المتحيزة^(١). يتعلق الأمر باعتماد هؤلاء النصارى اللاتينيين في ترجمتهم المشوهة لمعاني القرآن الكريم على تلك الآلية وانتهاجهم لمنهجية تتبع التأثير والتأثر وتعقبها. فيما أن النصرانية سابقة في الظهور على الإسلام الذي يقر لها بذلك فإنها هي الأصل المؤثر والمُعير، والإسلام هو الفرع المتأثر والمستعير. ولعل ذلك هو ما يمكن أن يفسر في نظرنا تحاشي هذه الترجمة استخدام أي مصطلح يمكن لدلوله أن يحيل على أي معنى من معاني الإسلام أو المسلمين، مع العمل على إسقاطه وتعويضه بمصطلحات من مثل الإسماعيلية والساسانيين أو المحمديين. وهكذا تحول الإسلام، في هذه الترجمة، بوصفه ديناً

(١) يكاد يجمع الذين وقفوا على هذه المسألة ودرسوها على أن هؤلاء الترجمة قد تحيزوا كثيراً،

وعن قصد مسبق، لذواتهم وأغراضهم في ترجمتهم. يراجع:

قاسم السمراي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، س. د، ٦٣-٧٠.

وكذلك نورمان دانييل الذي يذهب في هذا المضمار إلى أن «أغلب الترجمة قد شوهوا أسس

الإسلام ومرتكزاته عن قصد في ترجماتهم».

"Pourtant, les fondements de l'islam furent bien compris par un grand sens par la nombre d'auteurs et interprétés délibérément à contre plupart".

N. Daniel, Islam and the West, Edinburgh, 1960 (trad. franc. Alain Spiess, Islam et Occident, Paris. 1993 35.

آخر إلى مجرد مذهب ينتسب صاحبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. وتحول المسلمون من حيث كونهم المؤمنين بهذا الدين إلى مجرد سراسانيين ومحمديين.

٢-٢. فأما تعويض هذه الترجمة المسلمين بالسراسانيين، فلقد جاء ليستبدل فيها العرب بالإسلام، فيصبح مجرد دعوة لهؤلاء^(١). أما تعويضها المسلمين بالمحمديين، فتلك ثلاثة الأثافي في هذه الترجمة، التي ينتج عنها النفي التام لصفة الدين الإلهي عن الإسلام، لكي يتحول فيها إلى مجرد دعوة لرجل من العرب اسمه محمد، نتجت عن علاقته براهب نصراني منحرف ومتهرطق^(٢). ثم إن

(١) وتجدر الإشارة إلى أن مفردة سراسان المشتقة من اللاتينية Saraceniorum قد استخدمت قبل ظهور الإسلام وخلال القرن الأول لبعثة المسيح، للدلالة على المجموعات البشرية المتحدرة من شبه الجزيرة العربية ولتسميتها وتلقيبها. وفضلا عن المعنى الذي اتخذته في هذه الترجمة، فلقد اكتسبت معناها الاصطلاحي والتاريخي في الغرب النصراني اللاتيني خلال القرون الوسطى؛ للتعبير عن المسلمين بصفة عامة، وعن المسلمين المحاربين للنصرانية من عرب وبربر بصفة أخص.

Diccionario del uso del Español, Gredos, Madrid, 1982
Encyclopedia Universal Ilustrada, Espasa Calpe, Madrid, 1987.

(٢) ولسوف نعود لاحقا إلى هذه الفكرة التي تشكل إحدى الأطروحات الأساسية في هذه الترجمة وفيما سيعقبها من الترجمات اللاتينية الأخرى، ثم بقية الترجمات الأوروبية للقرآن الكريم.



النصارى لما ينسبون الإسلام إلى محمد، فيصير المسلمون عندهم المحمديين، أي الذين يتبعون مذهب الرجل الذي يسمى محمدا، فإنهم ينطلقون في ذلك مما تعودوه من نسبتهم أنفسهم إلى المسيح^(١). وفي ذلك ما يعضد ما نذهب إليه من تمركز المستشرقين على ذاتهم وتمحورهم حولها وانطلاقهم منها للنظر إلى غيرها وتمثله وتمثليه لها. ويرتبط هذا الأمر بالمشاكل النظرية للترجمة، فكل لغة تحمل تصورا للكون وتعمل على بلورته ونشره وتكريسه لا يطابق بالضرورة تصور لغة أخرى، بل يختلف عنه ويتميز. فنقل القرآن الكريم من العربية إلى اللاتينية، ما كان يمكن أن يتم من خارج تصور اللاتين للدين وللوحي وللنبوة. لذلك

(١) لقد وقف على هذا الأمر وعالجه كل من نورمان دانييل في كتابه: صناعة صورة الإسلام في الغرب، وجيمس كريتزك في كتابه: بطرس الموقر والإسلام. ويقول إدوارد سعيد انطلاقا منهما في هذا المضمار: «لقد كان أحد الضوابط المقيدة التي أثرت على المفكرين المسيحيين الذين حاولوا فهم الإسلام ينبع من عملية قياسية؛ ما دام المسيح هو أساس العقيدة، فقد افترض بطريقة خاطئة تماما أن محمدا كان للإسلام ما كانه المسيح للمسيحية. ومن ثم إطلاق التسمية التمهكية «المحمدية» على الإسلام، والنعت الآلي المنتحل على محمد». إدوارد سعيد، الاستشراق، س.د، ٩٠. ٢٣٨.

Norman Daniel, Islam and the West: The Making of an Image, Edinburgh, University Press, 1960, 33.
James Kritzeck, Peter the Venerable and Islam, Princeton, University Press, 1964, 33.

فإنه لا يرجع التحريف الذي لحق ترجمته فيما يخص استخدام الإسماعيليين والمحمديين والسرائانيين بدل الإسلام والمسلمين، إلى رغبة هؤلاء النصارى في ذلك فقط، بقدر ما يؤول في نظرنا إلى هذا العامل الموضوعي؛ بحيث إنه كان سيرد على هذا الشكل سواء أقصدوه أم لم يقصدوه. ولا يزيد الأمر في هذه الحالة، أن وافق الموضوعي الذاتي، والذاتي الموضوعي^(١). ومما لا شك فيه أن كلا من التشويه والتحريف المذكورين يرجعان كذلك، إلى القلق الذي سببه القرآن الكريم لهؤلاء النصارى اللاتين. فانطلاقاً من وقوفهم فيه على الآية الكريمة الثامنة والأربعين من سورة المائدة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾^ط، فإنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا ورود بعض القصص فيه «بصورة لا تتفق مع ما يعهدونه في كتبهم»^(٢). أما قراءتهم الجزئية والمتحيزة لنفس هذه الآية بإسقاط معنى ومهيمننا عليه، فهي ترجع في نظرنا إلى انتهاجهم لآلتي: تتبع التأثير والتأثر، والتمركز على الذات والتمحور

(١) يتعلق هذا الأمر بإحدى الإشكالات النظرية في الترجمة. ويمكن أن يراجع فيها هذا

العنوان الكلاسيكي المعروف والمشهور.

Mounin. George, Les problèmes théoriques de la traduction, 1963, 189-223. 227-241

(٢) قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، الرياض، ١٩٨٣، ٦٥.



حولها. فلا يمكن للقرآن الكريم إلا أن يكون متأثراً بكتبهم السابقة عليه من العهد القديم والعهد الجديد، ولا يمكنه مخالفتها. وبما أنه قد خالفها فإنه لا يمكن أن يكون وحياً من الله إلى نبيه الكريم، بل وضعاً وتلفيقاً من مؤلفه. ويقصدون بذلك محمداً ﷺ، الذي سيتحول على أيديهم إلى مجرد محتال. تعالى نبي الرحمة ﷺ عما يصفون.

٢-٣. ولقد انضافت إلى هذا القلق الحيرة التي سوف تلم بهم جراء اعتمادهم للآيتين المذكورتين في ترجمتهم لمعاني القرآن الكريم، عندما وقفوا فيه على دعوته إلى الإيمان بما جاء به عيسى ﷺ ضمن الإيمان بما أتى به جميع الرسل والأنبياء من قبله، منكرًا عليهم وفي نفس الوقت، التثليث والصلب والحلول والذنب الأصلي.... إلخ، مما يترتب عليه إنكار معتقد شفاعة الكنيسة للمذنبين^(١). فكيف يصح هذا؟!، وكيف لا يقلق النصارى ويجارون ثم يشوهون ويحرفون، وهم، في نظرهم وبآلية تصورهم لغيرهم، الأصل، والإسلام مجرد فرع له؟! وما لا شك فيه أن التحريف والتشويه المذكورين لا يرجعان فقط إلى هذه العوامل الموضوعية الكامنة في المنهجية التي انتهجها التراجمة والعوامل

(١) نفسه.

الذاتية الكامنة في أن دير كلوني قد استهدف من هاته الترجمة محاصرة الإسلام والاستعانة بها على حربه، بل يرجعان كذلك إلى ضعف الترجمة وعدم قدرتهم على الإحاطة بمعاني القرآن الكريم وقصورهم في تعبيرهم عنها^(١). غير أن كل هذا وذاك، لن يمنع هذه الترجمة من أن تتحول إلى أصل لجميع الترجمات الغربية لمعاني القرآن الكريم التي ستستخلفها خير استخلاف، مجترة بذلك الصورة المشوهة والمشوهة التي أنتجتها، ضمن مجموعة كلوني، لمحمد ﷺ.

امتدادات هذه الترجمة لمعاني القرآن الكريم في غيرها من الترجمات الأوربية

الأخرى.

١-١. وبالفعل، فلقد امتدت ترجمة دير كلوني لمعاني القرآن الكريم ومجموعة نصوصه في الإسلام والمسلمين إلى غيرها من الترجمات الأوربية

(١) وهذا أمر أكدته جميع الدراسات التي تناولت هذه الترجمة سواء التي سبقت الإحالة عليها أو التي سترجع إليها في حينه.

ويقول محمد ياسين عرابي: «إننا نجد كتناز اعتمد في ترجمته على استخراج المعاني التخمينية دون تحليل وفهم حقيقي للغة العربية، ورغم استعانتهم ببعض التفاسير للقرآن فإنه كان يميل إلى الاختصار وإلى حذف بعض الآيات، ولصعوبة تحديد المعاني اللغوية في القرآن فإنه لا توجد آية واحدة مترجمة تعطي المعنى المقارب لحقيقتها». الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي. نقد العقل التاريخي، ١، ١٤٥. نقلا عن الإسلام والمسيحية، س. د. ٨٣.



الأخرى لهذا الكتاب الكريم، وفي مختلف التصورات التي ستأخذها أوروبا منها عن نبي الرحمة محمد ﷺ، التي جعلت منه نبيا للنقمة، ضمن الصورة المشوهة التي صنعتها له ولدعوته. ويرجع أوسكار دي لا كروث بالمّة **Óscar de la Cruz Palma** توفق هذه النصوص في الظفر لنفسها بهذا الامتداد إلى جملة من العوامل يضع على رأسها ما ذكرناه سابقا عن ضعف الترجمة وقصورهم، بالإضافة إلى روحها العدائية ضد الإسلام، المتمثلة في تحقيرها لشخص الرسول محمد ﷺ، فضلا عما حظيت به، تبعا لذلك، من نشر مكثف بأوروبا بعد طبعها بسويسرة^(١). وهذا أمر صحيح فلقد كان الغرب الأوروبي، بالنظر إلى المكون النصراني لهويته، الذي جعله يدخل في منافسة قوية للإسلام، في حاجة إلى مثل هاته النصوص الكolonية التي تسهم في تأسيس هويته وتدعيمها. فمما لا شك فيه أنّ هذه النصوص التي تشكل في ذاتها فيلقا^(٢)، قد راهنت على النصراني المقتنعين

(1) Óscar de la Cruz Palma, "La Trascendencia de la Primera Traducción Latina del Corán (Robert de Ketton, 1142)", Proyecto de investigación BFF2000-1097-C02-02, dirigido por el profesor José Martínez Gázquez y financiado por la DGICYT. Collatio n.7 (2002), pp. 21-28, [http://www.hottopos.com/collat7/oscar.htm].

(٢) «فيلق كلوني» على حد وصفها من طرف أليكسي جورافيسكي، الإسلام والمسيحية، س.د، ٨٤. وهو وصف في محله، يأتي كناية عن العنف المتضمن في هذه النصوص والمحايث لها. وهو العنف الذي شكل موضوع دراسة خوسي مارتينث غثكيث.

بدينهم لتبشيتهم عليه بتقبيح الإسلام ورسوله محمد ﷺ في عيونهم وقلوبهم. لذلك عمل على النهل منها أكثر المجادلين النصارى للإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية وغيرها من أمثال رامون يول ورامون مارتى وخوان أندريس الذين سنعود إلى مجادلاتهم لاحقاً^(١). ولا غرو في ذلك فلقد جاءت هذه الترجمة صحبة فيلق كلوني الذي ضم مما ضمه، الترجمة اللاتينية لرسالة عبد المسيح بن إسحاق الكندي التي جادل فيها الإسلام عبر النيل من رسوله ورسول العالمين محمد ﷺ. وهي الرسالة التي نعدها من جهتنا إلى جانب هذه الترجمة النص

José Martínez Gázquez, "El lenguaje de la violencia en el prólogo de la traducción latina del Corán impulsada por Pedro el Venerable", en Cahiers d'études hispaniques médiévales 28 (2005), pp. 243-252.

(١) ويرى أوسكار بأن هذه الترجمة قد شكلت المصدر الأساس لمجاذلي الإسلام بأوروبا قبل

صدور ترجمة لوديفيغو ماراتشي. فلقد أثرت في كثير من المستشرقين الذين وجدوا فيها زادا كانوا بحاجة إليه. ومنهم المستشرق جوهانيس غيرغيوس نيسسيليوس، كما استخدمها استيفانوس أراطوريس، وغيرهم كثير.

“Así mismo, aunque indirectamente, Ketton mantiene la influencia "sobre el orientalista Johannis Georgius Nisselius (m.1662”

“Hasta la aparición de la traducción de Ludovico Marracci en 1698, la traducción de Robert de Ketton es la versión latina del Corán más difundida y utilizada para la elaboración de tratados de refutación del Islam”.

“El siglo XVII continúa encontrando útil la traducción de Ketton.

Stephanus Aratoris, en su *Confutatio* publicada en 1611 (36), demuestra conocerla”.



المفتتح للاستشراق الإسباني ومن خلاله للاستشراق الأوروبي ولمجمل الاستقبال الغربي للإسلام وتصوراته المشوهة للنبي الكريم ﷺ. والراجح عندي، بعد دراسة متأنية لهذه الرسالة التي سنرجع إليها لاحقاً، أن فرق الترجمة الكلونية قد ترجمتها قبل الشروع في ترجمة القرآن الكريم، مما أدى إلى هيمنة أطاريحها ومنهجها في تشويه الإسلام ونبيه ﷺ وأهله، على ترجمتهم، ومن ثم على غيرها من الترجمات الإسبانية والاستشراقية الغربية التي توالى وتعاقت وما زالت تتوالى علينا إلى الآن.

١-٢. وبالفعل فلقد اعتمدت كل هاته الترجمات للقرآن الكريم ترجمة دير كلوني قبل طبعها ونشرها بسويسرة وبعدهما. ويمكن أن نخص بالذكر منها الترجمات اللاتينية التي أنجزها كل من خوان دي سيغوية **Juan de Segovia** في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي ودومينكوس خرمانوس **Dominicus** **Germanus** في القرن السابع عشر الميلادي ولوديفيغو ماراتشي **Ludovico** **Marracci** في نهاية القرن نفسه (١١٠٩-١٦٩٨)^(١). كما اعتمدتها أصلاً جميع الترجمات التي اعتنت بنقل معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأوروبية الأخرى،

(١) ولقد استدل أوسكار دي لا كروث بالملة على كل هذا ووثقه خير توثيق في دراسته.

من بعد ما قام اللاهوتي السويسري تيودور بيبلياندر **Teheodor Bibliander** بطبع هذه الترجمة ونشرها في بازل **Basileae** بسويسرة في ٩٤٩-١٥٤٣، ضمن نشره لنصوص فيلق كلوني^(١). ولسوف يعيد بيبلياندر نشرها مرة أخرى في سنة ٩٥٦-١٥٥٠، من بعدما حظيت بقبول جميع النصارى بالغرب الأوروبي بما في ذلك أهل الإصلاح البروتستانتي وباستحسانهم لها، من أمثال مارتن لوتر^(٢) **Martín Lutero**. وإن دل كل هذا على شيء، فإنه يدل على مدى انتشارها بين المهتمين بموضوعها، من الغربيين، بكنيستهم الكاثوليكية والبروتستانتية،

- (1) Th. Bibliander (ed.), *Mahumeti Saracenorum principis eiusque successorum uita, doctrina ac ipse Alcoran... quae ante annos CCC... D. Petrus abbas cluniacensis per uiros eruditos... ex arabica lingua in latinam transferri curauit... opera et studio Theodori Bibliandri... Bâle, 1543.*

يرجع هذا الاستحسان إلى أن بيبلياندر كان قد قدم لنشرته هذه بمقدمة جدالية في محمد ﷺ وسيرته إلخ. وهو الأمر الذي سيصبح تقليدا عزيزا على جميع ترجمات معاني القرآن الكريم في الغرب الأوروبي، بحيث إنها لم تستغن عنه إلى أيام الله هذه، لتحافظ على سلطته ومهابته.

- (2) Óscar de la Cruz Palma, "La Trascendencia de la Primera Traducción Latina del Corán (Robert de Ketton, 1142)", op.cit, 6. "La edición de Bibliander, además, cuenta con el extraordinario interés de estar fabricada en las tierras donde ya se había establecido la Reforma. No en vano, fue fundamental para que viera la luz el apoyo del cardenal Melanchthon y de Lutero, que añadieron sendos prólogos en favor de esta recopilación y, por lo tanto, del Corán latino".



المهوسين بالنيل من الإسلام ورسوله ﷺ. ولا غرو في ذلك فلقد خلد هذا النشر لهذه الترجمة وغيرها من النصوص الكلونية عبر الطباعة والانتشار الواسع التي تضمنه هذه الوسيلة التواصلية لهذا الهوس الذي لم يتوقف، كما هو معروف عن أوروبا، إلى الآن. لذلك لم يهتم مترجمو معاني القرآن الكريم إلى اللغات القومية والوطنية الأوروبية المختلفة بالرجوع إلى النص العربي لهذا الكتاب الكريم، ليكتفوا بالرجوع إلى نصه اللاتيني كما استوى على يد مترجمي مشروع دير كلوني. وتلك هي حال الترجمة الإيطالية لأربيني^(١) (A. Arrivabne) التي ستعتمدها الترجمة الألمانية لسالمون شويغر^(٢) Salomon Schweigger التي ستعتمدها بدورها الترجمة الهولندية لغيدرولك بور بارنت^(٣) Gedruckt vor Barent Adriae وحال الترجمة الفرنسية لدي ري^(٤) Du Ryer ثم الإنجليزية^(٥)

١٦٨٨ وهلم جرا.

- (1) A. Arrivabne. Ed, L'Alcorano di Macometo, nel qual si contiene la doctrina la vita, i costumi et le leggi sue, 1547.
- (2) Salomon Schweigge. Ed, Alcoranus Mohameticus, das ist Der Turken Alcoran...in die Italienische, Nurnberg, 1616.
- (3) Gedruckt vor Barent Adria. Ed, De Arabische Alkoran. Uyt Arabische Sparaeke, nu nieuwelijks in Hooghduytsch gertanslateer-door Salomon Schweigge ..., 1641
- (4) Du Ryer. Ed, L'Alcoran de Mahomet. Translate d'Arabe en Français par le sieur, Paris, 1647.
- (5) William Bedwel. Ed, The Alkoran of Mohamet, translated out of arabik into french....., London, 1688.

وهكذا أخذت كل ترجمة من هذه الترجمات بتلايب الترجمة التي سبقتها، لتتخلد بذلك في أوروبة الصورة المشوهة لنبي الرحمة ﷺ، كما صنعتها له نصوص فيلق كلوني. ويكفي أن نلاحظ في هذا المضمار كيف أن جميع هؤلاء التراجمة الأوروبيين سواء الذين ترجموا معاني القرآن الكريم إلى اللاتينية أو إلى مختلف اللغات القومية الأوروبية، قد نسبوا هذا الكتاب العزيز إلى محمد ﷺ، وجعلوا منه مؤلفه، لكي ينفوا عنه صفة النبي المرسل، وينفوا عن القرآن الكريم صفة الوحي الإلهي، كما تعلموا ذلك من رسالة عبد المسيح الكندي المضمنة في نصوص الفيلق المذكور.

١-٢. أما إذا رجعنا إلى ترجمات معاني القرآن الكريم التي أنجزت في الاستشراق الإسباني للتمثيل بها على أطروحة هذه الورقة، فإننا سنلاحظ بأن هذه الترجمات لم تتوقف، إلا حيناً قصيراً من الزمن، من الصدور في إسبانية على تتابع مختلف مراحل تاريخها الفكري والعقدي وتوالي حقبة؛ بحيث لم تخل أية واحدة منها من هذا الأمر^(١). وجريا على هذا التقليد الراسخ بهذا البلد وتخليدا

(١) لقد توالى هذه الترجمات إلى لغات شبه الجزيرة الإيبيرية كالقشتالية والقطالانية والأرغونية، وتناقلت بها كذلك دراسات القرآن الكريم ومجادلاته، ضمن محاولة إقناع=



له، فإنه لم تكل أبدا دور النشر الإسبانية عن طبع الترجمات الإسبانية الاستشراقية المعاصرة لمعاني القرآن الكريم ونشرها. وهي ترجمات عديدة ومختلفة باختلاف الجمهور الذي تتوجه إليه، وبتنامي طلبه للإسلام وأهله وتشوفه إلى معرفتها^(١). وضمنها تقع نشرة اللغوي خوليو كورطس Julio

=النصارى بصحة النصرانية وتحويل المسلمين عن دينهم إليها. ويمكن أن نمثل على ذلك، بالترجمة القطلانية لفرانسيسكو بونس سكلوطا Francisco Ponsc Saclota، وبإسهام خوان دي سيغوفية de Juan de Segovia بنشرة ثلاثية للقرآن الكريم (العربية والقشتالية واللاتينية).

D. Rodriguez Cabanelas. D, «Juan de Segovia y el primer Alcorán trilingüe», Al-Andalus, XIV, 1949, 149-173

وبعد استنفاد إسبانية لمهمة تنصير المسلمين الموريسكيين واعترافها بفشلها الذريع في استيعابهم ضمن منظومتها الدينية والقومية، توقفت ترجمات القرآن بها، ضمن توقفها العام عن الاهتمام بالإسلام وبالدراسات العربية. وبعد تجديد علاقتها بهذا المجال، بعيد مطلع القرن التاسع عشر، انبعثت بها ترجمات أخرى للقرآن الكريم، عرف بها كل من برنابي بونس وميكيل دي إبالثا.

Luis. Bernabé Pons y Mikel. De Epalza, "Bibliografía sobre traducciones castellanas del Corán/Alcorán" Rubiera Mata. Maria Jesús. Introducción a los Estudios Árabes, Alicante, 1994, 109-111.

(١) تميز مطلع القرن العشرين بنشر ترجمة خواكين غارسية برافو García Bravo في ١٩٠٧

التي ذهب في مقدمتها على عادة أسلافه، إلى أن «القرآن قد أخذ الكثير من التوراة ومن خلفات السنوات الأولى للنصرانية» وإلى «أنه يشكل بالنظر إلى اعتقاد المسلمين فيه =

Cortés لمعانى القرآن الكريم التى جاءت نتيجة تعاونه العلمى مع المستشرق
جاك جومىي^(١). **Jaques Jomier** وهى ترجمة علمية وأكاديمية لمعانى القرآن

= واحترامهم له، السبب الأساس لتخلفهم وشبه توحشهم».

Joaquín. Garcia Bravo, El Corán, Barcelona, 1907. V. VI.

وفى الثلاثينات من القرن نفسه، وعلى عهد الجمهورية بإسبانية، الذى ساءت فيه علاقة
الدولة بالكنيسة، ظهرت أول طبعة لنشرة خوان بيرغوة، التى يرى خوان بابلو أرياس بأنها
قد جاءت عارية عن أية خلفية دينية أو إيديولوجية.

Juan. Pablo Arias, "Imágenes del texto sagrado", Orientalismo,
Exotismo y Traducción, Ed. Universidad de Castilla, 2000, 184.

والأمر عندنا-غير صحيح بالمرة. فعلى الرغم من أن هذه الترجمة قد تغيت ذلك؛ فإنها لم
تستطع أن تتجاوز هذه الخلفية. فلقد نسبت مثل نظيراتها «القرآن إلى محمد»، ولم تتردد فى
استعادة الأحكام النصرانية عن «أخذه من التوراة» واتهامه بالشبقية الجنسية، ولمزه فى جهاده. لا
بل إنها لم ترعو عن اتهامه بأنه قد «أسس أحقر دين، أو بالأحرى فإنه لم يأت بأى دين».

Jaun Bergua. B, El Korán. Edición, Prologo y Notas, 4°. Edición,
1972. VII. XIII.

ولابد من التنبيه فى هذا المضمار على أن الطبعة الأولى لهذه الترجمة قد جاءت فى الوقت الذى
كانت فيه إسبانية تحتل شمال المملكة المغربية لإشباع فضول أهلها فى التعرف إلى ديانة
مستعمرتهم. وما فتئت تتوالى إلى يومنا هذا طبعاتها فى شكل نشرات شعبية رخيصة،
لتستجيب هذه المرة لرغبة الأسبان فى التعرف إلى ديانة إحدى أهم جالية المهاجرين المقيمين
بينهم؛ الجالية الإسلامية المغربية التى ما فتئت تتأبى فى الواقع على مختلف أشكال الاندماج
الذى تريده لها إسبانية.

(1) Julio. Cortes, El Corán, V°. Ed, Barcelona, 1995.



الكريم اعتمدت، خلافا للترجمتين المذكورتين آنفا، النص العربي للقرآن بدلا من ترجمته الفرنسية^(١). ولتستدر هذه الترجمة ثقة جمهورها بها، ولتبسط حجتها العلمية عليه، قدمت نفسها إليه بوصفها ثمرة للتعاون المذكور. وبالفعل فهي كذلك، ما دام كل من خوليو كورطس وزميله جاك جومبي يصدران فيها عن التصور نفسه للقرآن الكريم ولمحمد صلوات الله عليه، ويقتسمان نفس قواعد المنهج الفيلولوجي ومقتضياته في تحصيله. والدليل على ذلك هو هذا التطابق الاستراتيجي البين في ذاته بين أطروحات المقدمة ونظيراتها المبثوثة في هوامش الترجمة وإحالاتها العديدة، التي توجه معانيها وتضبطها. ومن جنس ذلك مثلا، أطروحة أخذ القرآن الكريم من العهد القديم والعهد الجديد ومما يوازيها من

(١) والحق أنها ليست أول ترجمة إسبانية علمية وأكاديمية لمعاني القرآن الكريم. فلقد سبقتها ترجمة رفيفيل كانسينوس أسنس، الذي كان أول من دعا إلى ضرورة قيام المستشرقين الإسبان باعتماد النص العربي للقرآن في ترجمته، وترجمة خوان بيرنيت. وتشترك معها في الصفة المذكورة، ترجمة ميكيل دي إبالثا وزميله، وهي باللغة القطلانية، إحدى اللغات القومية لإسبانية.

Rafael. Cansinos Assens, Mahoma. El Koran, Madrid, 1954.

Juan. Vernet, El Corán. Traducción, introducción y notas, 2º.Ed, 1973.

Mikél. De Epalza, L'Alcorà. Traducció de l'àrab al català, estudis alcorànics per, col·laboració de introducció a la lectura i cinc Josep. Focadell i Joam.Perjo, Barcelona, 2000.

أدبيات نصرانية متتحلة، التي تجد لنفسها متنفسا في إحالات الترجمة وهوامشها، ودليلا آخر على صحتها، ودعما إضافيا لفعل سلطتها على المتلقي المعنى بها^(١). وهي ذات الأطروحة التي سبق إنتاجها في نصوص كلوني والتي ترددت في جميع المقدمات التي قدم بها أغلب التراجمة اللاتين والأوروبيين لترجماتهم المتعددة للقرآن الكريم. فهذه عادة تعودوها وتقليد انتهجوه ليجدوا فيه المجال لتمرير هذه الأطروحة الأثرية لديهم وعليهم. ولقد دافع عنها خوليو كورطس بطريقته الخاصة عندما أخذ، متأسفا بعمق، «على الدراسات العقيدية أو الكلامية الإسلامية المعاصرة عدم اهتمامها بدراسة التأثير المباشر للنصوص القديمة [التوراة والإنجيل] في القرآن»، متمنيا أن يتم تجاوز هذا الأمر في المستقبل، وكأنه لا يمكن أن تتأسس العقيدة الإسلامية في استقلال تام عن هذا التأثير المزعوم^(٢). لذلك قرر الاهتمام بهذا التأثير ليردد مع أسلافه من المرددين بأن:

(١) والواقع أنه لا تكاد تخلو صفحة واحدة من صفحات هذه الترجمة من هذا الأمر، فلقد توالت الإحالات على التوراة والأنجيل والمنحولات النصرانية العديدة بها، لتشكل بذلك همها الأساس وديدها المتواصل. ولا يخفى في هذا الصدد، دور هذا الكم المتراكم من الإحالات في إقناع الواقف عليها، بصحة الأطروحة المذكورة.

(2) "En las perspectivas teológicas actuales del islam, no se plantea ningún problema de influjo directo de textos antiguos en el Corán. Tal vez un día esta teología se modifique," op.cit, 11.



«التقليد اليهودي النصراني قد اتخذ لنفسه في القرآن شكلا عربيا». وبأنه «إن لم يقصر القرآن في مجادلة مخاطبيه في التوحيد والبعث، فإنه قد استخدم لإقناعهم بهما، مختلف الأدلة الكلاسيكية للتقليد اليهودي النصراني في هذا المضمار»^(١). كما أن التوحيد، إذ يندرج ضمن هذا التقليد، فإن إعلانه والتعبير عنه «بلا اله إلا الله»، يشكل في حد ذاته رجع صدى للعبارة الخامسة من الأصحاح الخامس والأربعين من سفر إشعياء: «أنا الرب وليس آخر. لا إله سواي...»^(٢).

- (1) ... "el Corán no cesa de polemizar, de acumula argumentos, clásicos en la traducción judeocristiana, para establecer la posibilidad de la resurrección. ", op.cit, 13.
- (2) "El monoteísmo coránico se coloca perfectamente en la línea del judaísmo y la proclamación coránica de la unicidad de Dios bajo la forma de La Ilaha Illa LLah (no hay mas dios que Dios) constituye un eco del siguiente versículo de la Biblia: "Soy Yahve, sin igual. Fuera del Mí no hay Dios" Is.-45/5". op.cit, 15.

الترجمة العربية لهذه الجملة التوراتية مأخوذة من الكتاب المقدس، طبعة المركز العالمي للكتاب المقدس، جبل الزيتون، القدس، ١٩٨٦. إشعياء الأصحاح. ٤٥ / ٥.

لقد تعود كبار المستشرقين عند مقارنتهم بين القرآن الكريم والكتاب المقدس؛ على إعداد جداول يرتبون فيها بعض آيات الكتاب المقدس، وما يقابلها في المعنى من الآيات القرآنية. وذلك للتدليل، في زعمهم، على أخذ القرآن من التوراة والإنجيل، بضمان الشرط المذكور في الهامش أعلاه. وهو نفس النهج الذي انتهجه خوليو كورطس في هذا المضمار، وإن لم يفرغ نتائج مقارنته في ترسيمات مثلهم.

=

٢-٢. ماذا يتبقى من القرآن الكريم بوصفه وحيا إلهيا، ومن محمد ﷺ من حيث كونه نبيا ومرسلا في هذه الترجمة وفي غيرها من الترجمات الأخرى؟! لا شيء بالمرة. أو على الأصح، لا تبقى غير آثار وشم شاحبة من العهد القديم والعهد الجديد ونسخة محرفة منهما. ففي هذه النسخة وتلك الآثار اختزلت جميع هذه الترجمات الرسول الكريم ودعوته الإلهية. ولا عجب في ذلك، فلقد اتضح لنا بأن هذه الترجمات لم تستطع أن تشكل أية قطيعة معرفية مع أساليب نصوص مشروع دير كلوني ومنهجية إنتاجها التي توصلت بها في بناء صورة عن نبي الرحمة محمد ﷺ التي تحول فيها، من ضمن ما تحول إليه، إلى مجرد مدعي للنبوّة ومردد لبعض ما جاء في العهدين المذكورين.

غير أن هذا التحول ليس أكثر من جزء من الأجزاء المكونة لهذه الصورة. ولتناول بعض أجزائها الأخرى، نعالج، فيما يليه، مجال آخر للاستشراق الإسباني، وهو مجال المجادلة التي سعى عبره هذا الاستشراق إلى طلب الإسلام والتعرف إليه ودراسته مؤسسا بذلك ثوابت الوعي الغربي بالإسلام وبالمسلمين ونبیهم ونبي العالمين محمد ﷺ.

=ويمكن التمثيل على ذلك، بكتاب فلهلم رودلف، صلة القرآن باليهودية والمسيحية، ترجمه عن الألمانية عصام الدين حفني ناصف، بيروت، ١٩٧٤، ١٥-٣٤.



مجادلة الاستشراق الإسباني للإسلام والمسلمين وامتداداتها.

١.١. لقد سبق أن نبهنا على أنه لا يمكن أن يتم أي فصل تام بين مجال ترجمة معاني القرآن الكريم ومجال مجادلة الإسلام في الاستشراق الإسباني ومن خلاله في مجمل الاستشراق الغربي. فلقد تبين لنا بأن الترجمة التي سبق تناولها لم تعر لا عن روح المجادلة ولا عن أسلوبها ومنهجها. لا بل إننا لنزعم من جهتنا، كما سبقت الإشارة إليه، إلى أن ترجمة مشروع كلوني قد ترجموا رسالة عربية في مجادلة الإسلام والمسلمين، قبل شروعه في ترجمة معاني القرآن الكريم، لتهيمن بذلك طروحاتها ومنهجية إعدادها على ترجمتهم، ولتبصم بذلك الوعي الغربي بالإسلام ببصمتها التي ما فتئنا نقف على آثارها فيه إلى اليوم^(١). يتعلق الأمر برسالة عبد المسيح يوسف بن جرجيس الكندي التي أعدها جواباً على رسالة صديقه عبد الله بن إسماعيل الهاشمي الذي كان قد دعاه إلى الانقلاب عن نصرانيته والدخول في الإسلام^(٢). ويسمح سياق وضعها، فضلاً عن صياغتها

(١) وهي الآثار التي تتخفى اليوم في الهجمات التي يتعرض لها المسلمون من خلال النيل من شخص نبيهم ونبى العالمين المصطفى الأمين صلوات الله عليه.

(٢) يجدر التنبيه في هذا المضمار إلى أن مسألة الإنجاز التاريخي لرسالتنا في القرن الثالث الهجري (٨٣٠/٢١٥) بالشرق، وانتقالها إلى الأندلس حيث ترجمت إلى اللاتينية في سنة ١١٤١م، =

بالاستنتاج بأنها جاءت لتراهن على منتظر آخر بالدفاع عن النصرانية بين نصارى الشرق الإسلامي، لإقناعهم بصحتها وتقبيح الإسلام في عيونهم وقلوبهم^(١). لذلك لم يتردد مشروع دير كلوني بإدراجها ضمن ترجماته نظرا لتطابق رهاناته مع رهانها بالنسبة للنصرانية وللإسلام على السواء^(٢).

=قد باتت محققة ومعروفة ومشهورة بين المتخصصين. ولقد سبق أن قمنا بتوثيقها بما لا يدع أي مجال للشك في مقالتنا السابقة الذكر عنها. ولا بأس من أن نحيل مرة أخرى على نسختيها المخطوطتين اللتين اعتمدهما خوسي مونيوت سندنو في تخريج نصها:

Oxford. Ms. 184, Corpus Christi, ff 272-353

Paris. Mas. Lat. 6064, B.N. ff. 83-105

وعلى مخطوطة باريز التالية التي ضمت نص هذه الرسالة مثلما ضمت نص ترجمة معاني القرآن ونصوصا جدالية أخرى.

París Bibl. del Arsenal, ms. 1162

José Muños Sendino, La apologia del cristianismo de Al-Kendi, Miscelanea Comillas, 11-12, Santander, 1949.

(١) يتكرر كثيرا معنى العبارة التالية في هذه الرسالة: «على أنك تعلم وكل من ينظر في كتابنا

هذا». ٣٨. لقد هذب هذه الرسالة للطبع ونشر نصها العربي القس أنطون تيان A. Tien

مرتين في لندن ١٨٨٠ ثم ١٨٨٥. وأكرر بهذه المناسبة جزيل الشكر والامتنان للفاضل

الزميل قاسم السامرائي الذي مكنتني من مصورة من طبعة ١٨٨٥، في الوقت الذي كان

يعز الوصول إليها.

(٢) ننبه على أننا نعتمد كثيرا فيما يليه على عملنا السابق الذكر في رسالة الكندي.



١-٢. فضمن هاجس القلق على النصرانية، والخوف عليها من الإسلام، لم يدخر الكندي جهداً في تأليف الحكايات عن ظهور الإسلام ورسالته الروحية والتاريخية، والتشنيع على رسوله الكريم وتشويه سيرته ومعجزاته. ولقد اعتمد في ذلك على التوليف بين الواقع التاريخي لسيرة محمد ﷺ، وتمثله الخاص لأحداث هذا الواقع وتشكلاته، عبر تشغيل خياله ورغباته ومكبواته، لتفصيل مجموعة التشويهات لذاك الواقع، من قبل إعادة تمثيله لمخاطبه^(١).

ولقد اتخذ في ذلك منهج قياس الإسلام، بما يتحصل له فيه بهذه الطريقة، بالنصرانية ومقارنته بها. وذلك عبر تشغيل مجموعة من الثنائيات التي ترجع في الواقع إلى الفرق الجوهرية الذي اصطنعه تعسفاً منه بين هذين الدينين. فأولهما دنيوي ومادي ومن وضع صاحبه، وثانيهما أخروي وروحي ومن وحي الله. وللاستدلال بالأقيسة العقلية والشواهد النصية على هذه المصادرة، تناول الكندي بالنقد بداية ظهور الإسلام وممارسات المسلمين، وما تضمنه القرآن الكريم من عقائد وشرائع. وفي هذا الإطار نسج قصتين لهذه البداية، ليسوغ بهما نقده لكل هذا وذاك يرجع الإسلام عنده، في أولاهما، إلى رغبة رجل نشأ يتيماً

(١) وما لا شك فيه أنه بهذه الطريقة وعلى منوال هذا التمثيل والتمثيل يشتغل الاستشراق على الإسلام، ويتج الغرب الأوروبي تصورات المشوهة عن رسول الرحمة ﷺ.

وفقيرا ووثنيا «يعبد الأصنام» بين الوثنيين. فلما «قوته [زوجته] بإلها نازعته نفسه إلى أن يدعي الملك والتروّس على عشيرته وأهل بلده [...] ادعى النبوة وانه رسول مبعوث من رب العالمين» بين «قوم بدو لم يفهموا شروط الرسالة ولم يعرفوا علامات النبوة لأنهم لم يبعث فيهم نبي قط». ولقد قادت هذه الرغبة صاحبها وأصحابه إلى أن «انصرفوا فرغا في الغزوات [...] وشن الغارات والخروج لإصابة الطرق والتعرض لأخذ أمتعة الناس». ثم إن الرجل «لم يكن له فكر إلا في امرأة يتزوجها [...] وكانت نساؤه فيما ظهر كما قد علمت خمس عشر حرة وأمتين»^(١).

١-٣. ولقد وضع الكندي إلى جانب هذه القصة، قصة لظهور المسيح ﷺ ولسيرته كما وردت في الأناجيل وفي بعض السور القرآنية، لكي يتمكن من مقارنة هذه بتلك، ومقابلة تلك بهذه. فمقابل الوسط الوثني للرسول وجهاده بالسيف وحث المسلمين على ذلك، وزواجه بأكثر من واحدة، بعث المسيح داخل وسط الرسالة السماوية، ولم يوص أصحابه بأن يدعوا الناس إليه بقتال، ولم يسمح للنصارى بأكثر من زوجة واحدة. وبذلك استطاع الكندي أن يبلور

(١) رسالة الكندي، س. ذ، ٣٢-٣٣، ٣٦-٣٧، ٥٠-٥١.



بعض عناصر ثنائيته المذكورة في تصويره للإسلام انطلاقاً من قياسه على النصرانية ومقارنته بها. فبات عنده الجهاد الإسلامي غزواً وطمعاً وجشعاً في الدنيا، مقابل الزهد النصراني فيها وانصرافه عنها. كما أضحت على يده الحياة الجنسية الإسلامية شبقاً وفسقاً، مقابل عفة النصرانية وعذريتها. وبذلك فلا يمكن للإسلام أن يكون ديناً سماوياً، ولا يمكن لرسوله أن يكون نبياً قد أوحى إليه. أما انتشار الإسلام وغلبته، فلا يرجع، عنده، إلى أنه دين الحق، بل يؤول إلى ذاك الطمع وإلى هذا الشبق والفسق^(١).

١-٤. وإلى جانب هذه القصة، لم يتردد الكندي في بلورة قصته الثانية عن ظهور الإسلام وانتشاره، ليسوغ بها هذه المرة نقده للقرآن الكريم، ولكي يعضد بها، مرة أخرى، استدلاله على رفضه لنبوة محمد ﷺ وتفنيداً ودحضاً. تقول القصة، بأنه: «كان رجل من النصارى يعرف بسر جيوس احدث حدثاً أنكره

(١) وتجدر الإشارة إلى أن الكندي قد رجع للاستدلال على كل هذا إلى القرآن الكريم وسيرة الرسول ﷺ وأصحابه من جهة، وإلى التوراة والإنجيل وسيرة المسيح ﷺ وأصحابه من جهة ثانية. ولقد برهن في هذا السياق على سعة اطلاعه على كل هذه المصادر، وعلى قدرة فائقة على اجتثاث مكوناتها عن سياقها وروحها العامة، وتفكيكها وإعادة تركيبها لتحقيق مراميه الخبيثة وتسويغها.

عليه أصحابه فحرموه وأخرجوه وقطعوه عن الدخول إلى الكنيسة [...] فندم على ما كان منه فأراد أن يفعل فعلاً يكون له به تمحيص عن ذنبه وحجة عند أصحابه [...] فلم يزل يتلطف بصاحبك حتى استماله وتسمى عنده نسطوريوس وذلك أنه أراد بتغير اسمه إثبات رأي نسطوريوس الذي كان يعتقده ويتدين به فلم يزل يخلو به ويكثر مجالسته ومحادثته ويلقي إليه الشيء بعد الشيء إلى أن أزاله عن عبادة الأصنام ثم صيره داعياً له وتلميذاً له يدعو إلى دين نسطوريوس [...] فلما قوي الأمر في النصرانية وكاد يتم توفي نسطوريوس هذا فوثب عبد الله بن سلام وكعب المعروف بالأخبار اليهوديان بخبثهما ومكرهما فآظهما له بأنهما قد تابعا على رأيه وقالوا بقوله [...] إلى أن وجدا الفرصة بعد موته [...] وكانا قد عمدا إلى ما في يد علي بن أبي طالب من الكتاب الذي دفعه إليه صاحبه على معنى الإنجيل فادخلا فيه أخبار التوراة وشيئا من جل أحكامها وأخبار بلدها وشنعا فيه وزادا ونقصا ودسا^(١).

(١) رسالة الكندي، ٧٦-٧٨. ولا بأس من التمثيل على ترجمة مشروع كلوني بمثل هذا النص،

المأخوذ من تخرّيج سندنو، فذلك ما كان يتوفق فيه تراجمته ولا يحرفون أو يشوهون.

Itaque Sergius coniunctus Mahumeth, quod ei deerat suppleuit, et scripturas sacras tam Veteris Testamenti quam Noui secundum magistri sui Nestorii intellectum, qui Saluatorem nostrum Deum esse negabat, partim prout sibi uisum est, ei exponens, simulque



ماذا يتبقى من الإسلام إزاء هذه القصة؟ لا شيء سوى أنه مجرد استمرار لهرطقة نسطوريوس النصرانية، لم تصمد طويلاً أمام المؤامرة اليهودية التي أجهضتها من داخلها. أما ما يوجد فيه مخالفاً لهذين الدينين، فهو في رأي عبد المسيح الكندي، من انتحال الرسول ﷺ وبقية أصحابه والمسلمين. ويقصد بذلك مسألة تدبير الجنس في الإسلام واعتماد الجهاد وسيلة من وسائل نشره^(١). وبذلك ظل صاحبنا مخلصاً لمنهجه في تصوير الإسلام الذي اعتمد فيه بصفة أساسية، آليتي القياس والمقارنة، والاختزال والتعميم؛ قياس الإسلام على النصرانية ومقارنته بها، واختزال الإسلام في بعض تعاليمه وتمظهراته، وتعميمها عليه. ولقد اعتمد في ذلك الهوية النصرانية بوصفها ذاتاً عارفة، منطلقاً ومعيّاراً

apochriphorum fabulis eis plenissime imbuens, Christianum Nestorianum effecit.

(١) لقد استغل الكندي ما هو معروف في سيرة محمد ﷺ من زواجه بأكثر من واحدة، ومن ورود الآية التاسعة والعشرين من سورة التوبة التي يقول فيها الله ﷻ: «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»، بحيث عمل على اجتثاث الأمرين معاً من سياقهما، وتحويله وتوليّفه لهما طفق يتهم الرسول الكريم وبقية المسلمين بالوحشية والشيق الجنسيين، وباعتماده واعتمادهم جميعاً على العنف في الجهاد. تعالى عما وصف وتنزهه.

للتعرف إلى الغيرية الإسلامية، بوصفها موضوعا لمعرفته؛ انصب عليها إنشاؤه وتخيالاته وتمثلاته وتمثيلاتة. وبذلك فما كان يمكن للإسلام أن يتجلى عنده كما هو أو كما يتصور نفسه، بل كما أراد له أن يكون وأن يمثل، إلى أن أضحي على يده؛ هرطقة نصرانية أجهضتها مؤامرة اليهود وتحريفات المسلمين الشيطانية.

امتدادات هذه المجادلة في أغلب تشكلات الصورة المشوهة عن نبي الرحمة ﷺ في الوعي الأوروبي بالإسلام^(١).

١-٢. لقد انتقلت كل تصورات عبد المسيح الكندي عن الإسلام ونبيه ونبي العالمين محمد ﷺ إلى الأندلس، ومن ثم إلى بدايات تحقق الوعي الأوروبي بالإسلام، من بعدما تمت ترجمتها إلى اللاتينية ضمن مشروع دير كلوني، التي ستؤسس فيه قطعة من أهم قطع فيلقه. ولقد استطاعت أن تهيمن تلك التصورات، وكذلك منهجية إنتاجها على مجمل المدة الطويلة لتاريخ هذا الوعي،

(١) لقد تتبعنا في دراسة سابقة لنا لهذه المجادلة استمرارية أطروحاتها واكتسابها لمزيد من الوجهة والمهابة في استشراق الغرب الأوروبي، ولقد مثلنا على ذلك بطائفة من أعمال هذا الغرب ووثقناها ودرسناها في حينه، مما لا داعي إلى إعادة تكراره في هذه الورقة. ولسوف نقصر على التمثيل عليها بأمثلة أخرى إضافية.



حائلة، في المجمل، بينه وبين إمكانية مراجعة مناهج تشكلاته وخلفياتها النظرية على الرغم من تطور التيارات والمناهج النقدية في الغرب.

والحق أنه يمكن التمثيل على هذا الطرح والتدليل عليه بالرجوع إلى ما شئنا من مراحل تعبير هذا الغرب الأوروبي عن ذاك الوعي، ومن أشكاله المختلفة التي قد تتمثل فيما وضعه ويضعه من أعمال فنية؛ من ضرب القصص أو المسرحيات أو الروايات أو الرسوم، وحتى الخرافات والأساطير، أو من أعمال علمية؛ من مثل المقالات أو الكتب أو الأبحاث والدراسات وغيرها... إلخ. فإذا رجعنا إلى بعض الثوابت المكونة لصورة محمد ﷺ كما استوت في رسالة الكندي وغيرها من نصوص مشروع كلوني، فإننا سنجدتها تشكل في ذاتها، ما يمكن إجماله في ثلاثة أطروحات متكاملة ومتداخلة، يمكن التعبير عنها كما يلي: «ما كان لمحمد أن يكون نبيا بالنظر إلى سيرته الجنسية، ولكونه قد شرع العنف (الجهاد) له ولأصحابه لنشر دعوته، أما القرآن فلقد أخذه عن راهب نصراني متهرطق»^(١).

(١) كيف لا يمكن أن نلاحظ مدى تماثل رسائل الرسوم المسيئة ودرس البابا المعروفين وتطابقهما مع الأطروحتين الأوليتين؟!

٢-٢. والواقع أننا نجد هذه الأطروحات تتكرر بأشكال مختلفة في جميع الكتب ذات الطابع الجدالي وغيرها مما أنتجته النصرانية الغربية الرومية باللاتينية ثم بلغاتها القومية الإسبانية أو القطلانية أو الفرنسية أو الإيطالية^(١). نقف عليها لدى رامون لول الذي طمع واهما في تنصير المسلمين في نفس الوقت الذي كان يجتهد فيه في الدفاع عن النصرانية الرومية القلقة إزاء جاذبية الإسلام في البحر الأبيض المتوسط طيلة القرون الوسطى. فهو يذكر بنفسه، في كتابه العقيدة الفاسدة، بأنه قد قرأ رسالة الكندي ويعيد إنتاج أطروحة أخذ محمد ﷺ من الراهب النصراني المنحرف الذي يسميه ميكلاو Mikolau بدلا من سرجيوس كما سماه مصدره^(٢). كما يكرر من جهته نفس التشنيع على الحياة الجنسية

(١) لا بأس من التذكير بأننا لا نهتم في هذه الورقة بغير صورة محمد ﷺ في الإنشاء الاستشراقي الأوربي اللاتيني. وللإطلاع على الاستشراق الأنجلوسكسوني يراجع سعيد، س.ذ، ويراجع مازن صلاح مطبقاني، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي (دراسة تطبيقية على كتابات المستشرق برنارد لويس)، الرياض، ١٤١٦، حيث يمكن الوقوف على نقده لمواقف لويس من محمد ﷺ ومزاعمه أخذ هذا الرسول الكريم من الأوساط النصرانية واليهودية. ١٢٧-١٤٠.

(2) "Unum librum, qui vocatur Al chindi" "Libre de fine, et maiortate, Cap. De praedicatione, Palmae de Maioricarum, 1960, 102.



للرسول ﷺ، وعلى انتشار الإسلام بالعنف، وتضمنه تعاليم شيطانية، باتت الحاجة ملحة لتخليصه منها وإرجاعها إلى أصله الذي هو النصرانية الحقّة^(١). الأمر نفسه نقف عليه عند زميل لرامون لول في طائفة دينية أخرى من طوائف النصرانية التي اندرجت ضمن المشروع نفسه، يتعلق الأمر بالدومينيكانى رامون مارتي الذي لم يقصر بدوره في تشويه صورة الرسول ﷺ، وتقبيحها في عيون الجمهور الذي توجهت إليه كتاباته التي من أشهرها في هذا المضمار كتاب سيف الإيمان ضد المسلمين واليهود^(٢). ولن يختلف خوان أندريس عن هاذين المجادلين

"Mafumet era mercader e avana ab mercaderia en jerusalem: e en la carrera prés de jerusalem estava un fals crestia qui avia nom Micolau, e era resclús [...] e aquí adoctriná Mafumet" Doctrina Pueril, Cap. De Mafumet, Ed. M. Obrador y Bennàssar. I, Palma de Mallorca, 1906, 125.

(١) ولقد وقفنا على كل هذا ووثقناه بالنصوص الأصلية لريموندس لولوس وبيننا كيف كان يبحث وقائع ثابتة في سيرة نبي الرحمة محمد ﷺ، عن سياق وقوعها وعن روحها العامة وعن معانيها الحقيقية ليحورها ويولف منها ما ظنه من جهته بأنه كفيل بتنصير مسلمي عصره.

محمد عبد الواحد العسري، الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني. من ريموندس لولوس إلى أسين بلاثيوس، س. ذ.، ١٥٧-١٦٨.

(2) Martini Raymundi, Pugio Fidei adversus Mauros et Iudeos, Leipzig, 1687. repr. Franebourg, 1967. =

ولا عن غيرهما إلا في كون كتابه الذي أساء فيه كثيرا إلى محمد ﷺ، قد اكتسى أهمية مضافة ومضاعفة بين الغرب النصراني؛ لكونه قد قدم نفسه فيه نصرانيا من أصول إسلامية، أي مسلما مرتدا عن دينه الأصلي إلى النصرانية^(١). والجدير بالتنبيه عليه في هذا المضمار، هو أنه قد صاغ أطروحة أخذ محمد ﷺ من التوراة والإنجيل صياغة أخرى. فلم يذهب إلى أن سرجيوس الراهب النصراني المنحرف هو الذي علم هذا النبي الكريم قرآنه، بل زعم بأنه قد أخذه عن مملوكين نصرانيين كانا يمتهنان صناعة السيوف بمكة^(٢). وبذلك فالبنية الصلبة للأطروحة تستمر، والتعبير عنها هو الذي يختلف.

٢-٣. وذلك ما يمكن ملاحظته كذلك في خرافة جان لوكليك دو طرويس Jean Le Clerc de Troys عن محمد ﷺ، التي نظمها في فرنسة

= وتنسحب على هذا الدومينيكاني وعلى خوان أندريس الذي سيلييه نفس الملاحظة في الهامش السابق؛ أي أنه قد سبق لنا دراستهم في المرجع المذكور.

(1) Andrés. Juan, Libro nuevamente imprimido que se llama confusion de la secta mahomática y del acorá, Valencia, 1515. 10. r.v

(٢) من المعروف أن هذا الزعم قد شكل عندما ذهب إليه المشركون، أحد أسباب نزول الآية الكريمة من سورة النحل ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّئَالِى يُلْحَدُوا رَبِّ إِلَيْهِ أَعِجْى وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾. صدق الله العظيم.



خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، لكي يتم حفظها وتداولها بسهولة. فلقد ذهب فيها إلى أن: «محمدًا كان نصرانيا بل كردينا لا في النصرانية، ولقد طلب منه زملاؤه الانتقال إلى الشرق للكراسة بالنصرانية بين العرب، وواعدوه إن فعل بمنصب البابا وكرسيه. وفعلا تم لهم ما أرادوا فدخل العرب في هذا الدين، بفضل ما كان يتمتع به هذا الداعية من قدرة على الخطابة واستمالة الناس الذين كانوا يفدون عليه أفواجا متتالية. غير أنهم سيسهون عن وعدهم ولن يعينوه بابا عليهم، مما أدى به إلى ثني العرب عن الدين الحق وصيرهم مسلمين»^(١).

٢-٤. ورب قائل يقول بأن مثل هذا الطرح هو من بنات أفكار القرون الوسطى الأوروبية المظلمة عن الإسلام وعن نبيه ﷺ، وبالتالي فلا داعي للعودة إليها لمعالجتها ونقدها. لكن هل صحيح أن الزمن الغربي قد عف عن مثل هاته الأفكار مثلما تجاوز كثيرا من نظائرها؛ بالنظر إلى ما عرفه ويعرفه من عقلانية وتقدم فكري ومنهجي؟! أبدا، فالحق أن هذه التصورات لم تتوار في

(١) هذا هو ملخص هذه الخرافة البين سخفها. ولقد وقف عليها إدمونت دوتي ونشرها وقدم لها.

Edmond Douté, Mahomet Cardinal, Chalons sur-Marne, 1899.

تاريخ الوعي الأوربي إلا لكي ترجع إليه بكل قوتها ومهابتها. ويكفي للتدليل على ذلك، ما نجده لدى بعض المستشرقين ورجال الدين النصاري من آثار لهذا الطرح ومن إعادة إنتاج له^(١). ذلك ما يمكن الوقوف عليه بكل وضوح في مقالة فولن شين **Fulon Scheen** الموسومة: «المسلمون ومريم العذراء»، التي لا زالت تنتشر إلى الآن عبر بعض المواقع الإلكترونية^(٢). ويذهب صاحبها فيها إلى أن: «المحمدية [يقصد الإسلام] التي تشكل آخر ديانة في العالم بعد النصرانية، قد تضمنت ما جمعه محمد فيها من عناصر نصرانية ويهودية وأخرى تعود إلى شبه الجزيرة العربية. وبذلك فالإسلام يتبنى عقيدة توحيد الله وتعظيم قدرته الخالقة، لكنه يستخدمها ضد المسيح بحيث ينكر أنه ابن للرب»^(٣). ولا يتردد فول شين في

(١) لقد سبق أن وقفنا على ذلك ومثلنا عليه بأعمال المستشرق الإسباني المعاصر ميغيل أسين بلاثيوس التي ينتصر فيها لأطروحة خروج الإسلام من رحم هرطقة نصرانية.

محمد عبد الواحد العسري، الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني. س.د، ٣٢٦-

(2) *Fulon Sheen. "Maria y los musulmanes", Original publicado en inglés por La Fundación del Cardenal Mindszenty, re-impreso, Oct, 2001 por Mindszenty Report.*

Traducido al español por www.corazones.org.

(3) "El mahometanismo es la única gran religión pos-cristiana en el mundo. Como tuvo su comienzo con Mahoma en el siglo VII, pudo reunir ciertos elementos del cristianismo y del judaísmo, junto a otras



هذه المقالة ليؤكد من جهته فيها على بعض أطروحات عقدة الخوف من الإسلام، أو الإسلاموفوبية، بحيث: «يزعم بأن الإسلام هو الهرطقة الوحيدة التي لم يتناقص ولا يتناقص أهلها. [...] فضلا عما تشكله من خطر على الغرب، الذي استطاع، في الماضي، أن ينجو بأعجوبة من قبضة المسلمين وتدميرهم»^(١).

٢-٥. وإذا تركنا الأزمنة المعاصرة وعدنا مرة أخرى إلى نهاية القرون الوسطى ومطلع الأزمنة الحديثة لتفحص فيها إنتاجاتها العلمية والفنية التي انصبت على شخص محمد ﷺ وعلى سيرته، فإننا سنجد لها تكل على تكريس الصورة المشوهة والسلبية نفسها عن هذا النبي الكريم، وتلك الصورة زودتها بها رسالة الكندي وغيرها من النصوص الجدالية لفيلق كلوني. فتكاد لا تخلو معظم هاته الإنتاجات من لمز هذا الرسول الكريم في حياته الجنسية واتهامه بممارسة العنف في نشر الإسلام، وإرجاع كل ذلك إلى فعل التعاليم الشيطانية

costumbres de Arabia. El Islam adopta la doctrina de la unidad de Dios, Su Majestad y Su Poder Creativo, y la usa para repudiar a Cristo, El Hijo de Dios", op.cit, 1.

- (1) "Si el Islam es una herejía, tal y como lo cree Hilaire Belloc, entonces sería la única herejía que nunca disminuyó El Occidente Europeo cristiano, apenas escapó la destrucción a manos de los musulmanes". Ibid

التي تسللت إليه وإلى دعوته. ذلك هو ما يفسر اللوحة التي تجرأ الرسام فيها على تصوير محمد ﷺ ضحية للشيطان الذي يوسوس إليه^(١). كما يمكن أن يفسر كذلك مسرحية فولتير ورسائله التي كال فيها التهم بسخاء لمحمد ﷺ، بحيث لم يتردد باتهامه بالعنف وبادعاء النبوة وبالتعصب... إلخ^(٢).

(١) تصر إلى يومنا هذا كنيسة سان بيترونيو دي بولون San Petronio de Bolonia على الاحتفاظ بهذه اللوحة. وهو ما يفسر كذلك صدور مثل كتاب بريدو Prideaux الذي تجرأ بدوره على تصدير غلافه بصورة لنبي الرحمة محمد ﷺ وهو □ يحمل سيفاً بتاراً ويقود أصحابه إلى حروب طاحنة.

Prideaux, La Vie de Mahomet, Amesterdam, 1609 M.

(2) Voltaire, Le Fanatisme ou Mahomet le prophète (1741), Œuvres complètes, éd. Garnier, 1875, tome 4, p. 135.

“Mahomet le fanatique, le cruel, le fourbe, et, à la honte des hommes, le grand, qui de garçon marchand devient prophète, législateur et monarque“, Recueil des Lettres de Voltaire (1739-41), Voltaire, éd. Sanson et Compagnie, 1792, p. 163



الخاتمة

تلكم هي أهم ثوابت بناء الصورة المشوهة لمحمد ﷺ في الغرب الأوروبي التي زودته بها المدة الطويلة لتاريخ الاستشراق الإسباني من خلال أهم نماذجه وامتداداته. ولقد كان قصدنا من الجمع بين تصورات نصوص فيلق دير كلوني لنبي الرحمة ﷺ التي أنتجت في مطلع القرون الوسطى، وبين نصوص الأزمنة المعاصرة في الموضوع نفسه؛ بالنظر، بعد تفكيكها وإعادة بنائها، في قوتها على الصمود في وجه التغيرات التاريخية والثورات المعرفية والمنهجية، التي عرفها ويعرفها الغرب باستمرار.

ولقد اتضح لنا -بما لا يدع مجالاً للشك- بأن هذه التغيرات كلها لم تستطع أن تنال إلى الآن من تلك القوة. لا بل إن العكس هو الذي حدث ويحدث فتوسل الاستشراق المعاصر بالمنهج الفيلولوجي الوضعي^(١) وبأدواته

(١) لقد ظهر المنهج الفيلولوجي في أوروبا خلال عصر نهضتها، من بعد ما أخذت في إعادة اكتشاف نصوص تراثها اليونانية واللاتينية. ولقد اهتم هذا المنهج من بعد ذلك، وبصفة أساسية، بالبحث في اللغات ودراساتها، والتأريخ لظواهرها، وترتيبها وتصنيفها في=

وآلياته ومقتضياته الصارمة، أكسب هذه التصورات قيمة علمية مضافة ومهابة معرفية جديدة، لتمارس حجيتها وسلطتها وهيمنتها على الوعي الغربي المعاصر بالإسلام. فما فتى هذا الخطاب يلوك إلى الآن نفس تصورات القرون الوسطى عن محمد ﷺ، التي لا ترى فيه نبيا بل مجرد مدعي متهرطق عن النصرانية، وتختزل دعوته في حمله الناس بالعنف على الدخول فيها، وسيرته في جريه وراء

=أنسقتها الزمنية، فضلا عن عنايته كذلك بفقهها وبالمقارنة بينها. والواقع أن هذا المنهج لم يعد يقتصر منذ القرن التاسع عشر على معالجة مثل هذه الموضوعات، بل صار هو المنهج المعتمد، وبامتياز، في إنجاز جميع الأبحاث العلمية والأكاديمية بالجامعات الأوروبية، وخاصة في الأبحاث التاريخية والأبحاث المعنية بتحقيق النصوص وتخريجها. فلا غرو - إذا - إن اعتمده المستشرقون في تحقيقاتهم لنصوص التراث العربي والإسلامي وكذلك في دراسة هذا التراث وتاريخه وحضارته، مطمئنين إلى ما يتحصل لديهم به في هذا المضمار من نتائج ما كان لهم أن يشكوا في صحتها العلمية المهيبة. غير أن اعتماد هذا المنهج على آلية المقارنة بين النصوص ومضامينها ولغاتها وأساليبها، وكذلك على آلية رصد تبادل تأثير هذه النصوص وتأثرها ببعضها، قد أدى بالمستشرقين وبجميع المتوسلين به إلى التجني على كثير من النصوص العربية والإسلامية؛ باختزالها بواسطة تلك المقارنة وهذا الرصد في نصوص سابقة عليها. وكذلك الشأن بالنسبة إلى تاريخ الإسلام وحضارته اللذين لم يسلموا كذلك من هذا التجني. ولقد اتضح ذلك جليا في هذه الورقة. ويراجع عن هذا المنهج:

Pascale Hemmert, Philologus auctor. Le philologue et son livre, éditions scientifiques européennes Peter Lang, collection Saphenea, Berne 2003.



ملذات الجنس والترؤس. (تعالى وتنزه عما تدعيه) وذلك على الرغم من كون العلم وإنتاج المعرفة قد انتقلا من عصر الخرافة والتعصب الديني لبنية القرون الوسطى الغربية، إلى إرهاصات النقد الأنواري في الأزمنة الحديثة، ثم إلى التفكيك والتقويض لزمن الحداثة وما بعدها للقرن الحادي والعشرين. وإلا فكيف يمكن أن نفهم -على سبيل التمثيل لا الحصر- إصرار الغرب على إعادة إنتاج نفس التصورات في الرسوم المسيئة لخير البرية -صلوات الله وسلامه عليه- باسم حرية التعبير الفني والصحفي؟؟!!

قائمة المراجع

أولاً: القرآن الكريم:

ثانياً: المراجع العربية:

(١) أليكسي جورافسكي، الإسلام والمسيحية، تر. خلف محمد الجراد، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٦.

(٢) الأمين إسماعيل، العرب لم يغزوا الأندلس. رؤية تاريخية مختلفة، لندن، ١٩٩١.

(٣) السامرائي قاسم، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، الرياض، ١٩٨٣.

(٤) سعيد إدوارد، الاستشراق. المعرفة السلطة الإنشاء، تر. كمال أبو ديب، بيروت، ١٩٨٤.

(٥) صلاح مطبقاني مازن، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي (دراسة تطبيقية على كتابات المستشرق برنارد لويس)، الرياض، ١٤١٦.

(٦) العسري محمد عبد الواحد، «من روافد الاستشراق الإسباني ومكوناته في القرون الوسطى. مجادلة عبد المسيح الكندي للإسلام بالأندلس»، «مج. العلوم الإنسانية، جامعة البحرين، ع. ٩، شتاء، ٢٠٠٤.

(٧) العسري محمد عبد الواحد، الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني. من ريموندس لولوس إلى أسين بلاثيوس، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ٢٠٠٩-١٤٢٣.



أصول الصورة المشوهة لمحمد ﷺ في الغرب الأوروبي ومكوناتها

- (٨) فلهلم رودلف، صلة القرآن باليهودية والمسيحية، ترجمه عن الألمانية عصام الدين حفني ناصف، بيروت، ١٩٧٤.
- (٩) فوكو ميشال، حفريات المعرفة، تريفوت سالم، ط. ٢، ١٩٨٧.
- (١٠) الكتاب المقدس، طبعة المركز العالمي للكتاب المقدس، جبل الزيتون، القدس، ١٩٨٦
- (١١) الكندي عبد المسيح ابن إسحاق، رسالة الكندي إلى الهاشمي، هذب نصها العربي ونشره القس أنطون تيان، لندن، ط. ١، ١٨٨٠. ط. ٢، ١٨٨٥.
- (١٢) يافوت سالم، حفريات الاستشراق. في نقد العقل الاستشراقي، الدار البيضاء، ١٩٨٩.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

Manuscritos:

B.N.P. Mas. Lat. 14,503

Oxford. Ms. 184, Corpus Christi, ff 272-353

París Bibl. del Arsenal, ms. 1162

Paris. Mas. Lat. 6064, B.N. ff. 83-105

Imprimados:

- (13) Andrés. Juan, Libro nuevamente imprimido que se llama confusion de la secta mahomática y del acorá, Valencia, 1515.
- (14) Arrivabne . A.. Ed, L'Alcorano di Macometo, nel qual si contiene la doctrina la vita, i costumi etle leggi sue, 1547.
- (15) Bedwel William. Ed, The Alkoran of Mohamet, translated out of arabik into french....., London, 1688.
- (16) Bergua Jaun. B, El Korán . Edición, Prologo y Notas, 4º. Edición, 1972. VII. XIII.
- (17) Bernabé Pons Luis. y Mikel. De Epalza, "Bibliografía sobre traducciones castellanas del Corán/Alcorán" Rubiera Mata. Maria Jesús. Introducción a los Estudios Árabes, Alicante, 1994.

- (18) Bibliander Th. (ed.), Mahumeti Saracenorum principis eiusque successorum uitae, doctrina ac ipse Alcoran... quae ante annos CCC... D. Petrus abbas cluniacensis per uiros eruditos... ex arabica lingua in latinam transferri curauit... opera et studio Theodori Bibliandri... Bâle, 1543.
- (19) Cortes Julio., El Corán, Vº. Ed, Barcelona, 1995.
- (20) Cruz Palma Óscar de la, “La Trascendencia de la Primera Traducción Latina del Corán (Robert de Ketton, 1142)”, Proyecto de investigación BFF2000-1097-C02-02, dirigido por el profesor José Martínez Gázquez
- (21) Diccionario del uso del Español, Gredos, Madrid, 1982.
- (22) Djait Hichem, l'Europe et l'Islam, Paris, 1974, 21.
- (23) Douté Edmond, Mahomet Cardinal, Chalons sur-Marne, 1899.
- (24) Du Ryer. Ed, L'Alcoran de Mahomet. Translate d'Arabe en Français par le sieur, Paris, 1647.
- (25) Encyclopedia Universal Ilustrada, Espasa Calpe, Madrid, 1987.
- (26) Epalza Mikél De, Influences islamique dans la théologie chrétienne médiéval: L'adoptionisme espagnol (VIIIeme siecle), Islamo - christiana, Roma, 1992.
- (27) Epalza Mikél. De, L'Alcorà. Traducció de l'àrab al català, introducció a la lectura i cinc estudis alcorànics per, col·laboració de Josep. Focadell i Joam.Perjo, Barcelona, 2000.
- (28) Fierro Bello Maria. I, "El Islam andalusí del S. V/XI ante el judaísmo y el cristianismo", Dialogo filosófico-religioso entre cristianismo, judaísmo e islamismo durante la edad media en la península ibérica. BBREPOLS, Bélgica, 1994.
- (29) Foucault Michel, l'Archéologie du savoir, Paris, 1972.
- (30) Fulon Sheen. “Maria y los musulmanes”, Original publicado en inglés por La Fundación del Cardenal Mindszenty, re-impreso, Oct, 2001 por Mindszenty Report. Traducido al español por www.corazones.org
- (31) Garcia Bravo Joaquín., El Corán, Barcelona, 1907.
- (32) Gázquez José Martínez, “El lenguaje de la violencia en el prólogo de la traducción latina del Corán impulsada por Pedro el Venerable”, en **Cahiers d'études hispaniques médiévales** 28 (2005)
- (33) Hemmert Pascale, Philologus auctor. Le philologue et son livre, éditions scientifiques européennes Peter Lang, collection Saphenea, Berne 2003
- (34) James Kritzeck, Peter the Venerable and Islam, Princeton, University Press, 1964.



- (35) Martini Raymundi, Pugio Fidei adversus Mauros et Iudeos, Leipzig, 1687. repr. Franebourgh, 1967.
- (36) Mounin. George, Les problèmes théoriques de la traduction, 1963.
- (37) Muño Sendino José, "La Apología del Cristianismo de Al Kindi " Ed. Preparada y anotada, Miscelánea Comillas, 11-12, 1949.
- (38) Muños Sendino José, La apologia del cristianismo de Al-Kendi, Miscelanea Comillas, 11-12, Santander, 1949. Norman Daniel, Islam and the West : The Making of an Image, Edinburgh, University Press, 1960. Trad. franc. Alain Spiess, Islam et Occident, Paris. 1993.
- (39) Olague Ignacio, La Revolución Islámica en Occidente, Córdoba, 2004.
- (40) Pablo Arias Juan, "Imágenes del texto sagrado", Orientalismo, Exotismo y Traducción, Ed. Universidad de Castilla, 2000.
- (41) Pacaut Marcel, L'Ordre de Cluny (909-1789), (2e éd.), Paris, 1994.
- (42) Petri Venerabilis, Adeversus Nefandam Haerisim Sive Sectam Saracenorum, in Opera Ominia, Accurante Jaques-Paul Migne, Patrologia Latinae Tomos, 189, Belgium, 1890.
- (43) Prideaux M, La Vie de Mahomet, Amesterdam, 1609
- (44) Rafael. Cansinos Assens, Mahoma. El Koran, Madrid, 1954.
- (45) Raimondi Lulli, Doctrina Pueril, Cap. De Mafumet, Ed. M. Obrador y Bennàssar. I, Palma de Mallorca, 1906.
- (46) Rodriguez Cabanelas. Dario, "Juan de Segovia y el primer Alcorán trilingüe", Al-Andalus, XIV, 1949.
- (47) Schweigge Salomon. Ed, Alcoranus Mohameticus, das ist Der Turken Alcoran...in die Italienische, Nurnberg, 1616.
- (48) Vernet Juan., El Corán. Traducción, introducción y notas, 2°.Ed, 1973.
- (49) Voltaire, Le Fanatisme ou Mahomet le prophète (1741), Œuvres complètes, éd. Garnier, 1875.
- (50) vorr Barent Gedruclt Adria. Ed, De Arabische Alkoran. Uyt Arabische Sparaeke, nu nieuwelijks in Hooghduytsch gertanslateer-door Salomon Schweigge ..., 1641.



محمد ﷺ نبي لزماننا

«دراسة تقويمية لوجهة نظر البريطانية كارين أرمسترونج»

MUHAMMAD PROPHET FOR OUR TIME

By KAREN ARMSTRONG

إعداد

أحمد بوعود

أستاذ الفلسفة والفكر الإسلامي

أكاديمية تطوان - المغرب

ابيض



المقدِّمة

في الثقافة الغربية تاريخ طويل من الرعب من الإسلام (الإسلاموفوبيا) يرجع لأيام الصليبيين. فقد انتشر في الأوساط المسيحية لأوروبا القرن الثاني عشر، بفعل الرهبان أن محمدا ﷺ كان دجالا فرض دينه على الناس الرافضين بقوة السلاح، وكانوا يسمونه بأبشع الأسماء وينعتونه بأقبح الصفات وأحطها... ٢٠٠١، والهجوم متواصل عبر أطراف متعددة اعتبرت النبي محمدا ﷺ إرهابيا ومدمن حرب منذ أحداث ١١ سبتمبر، حتى أصبحت هذه الصورة الكاذبة المشوهة نمطية مقبولة لدى الغرب.

أمام هذه الحالة، ترى المستشرقة البريطانية الباحثة المتخصصة في دراسة الأديان كارين أرمسترونغ أن محمدا (ﷺ) لم يكن قط رجل عنف، بل إنه نموذج لهداية العالم في زماننا. وتقرّح للوصول إلى هذه النتيجة «أن نقارب حياته بطريقة معتدلة حتى نستطيع تقدير إنجازاته المعبرة»^(١)، تلك الحياة التي

(1) Karen Armstrong, Muhammad Prophet for Our Time (Harper Perennial, London 2007), 18.

كانت حملة لا تكل في التصدي للطمع والظلم والتكبر. كان اهتمامه الأكبر (ﷺ) تغيير قلوب الناس وعقولهم، ولم يحاول فرض معتقد ديني.

هذه الفكرة تنتصر لها كارين أرمسترونغ من خلال معالجة قضايا: الدعوة الملكية، ومعالجة أمر الجاهلية، والهجرة، والجهاد، والسلام. فكيف تناولت هذه القضايا؟ وما هي ملامح المنهج المعتمد؟

أولاً: أهمية البحث والإضافة التي يقدمها:

- تنبع أهمية هذا البحث من أهمية كتابات كارين أرمسترونج التي تعرف رواجاً لافتاً بالغرب (وبخاصة بريطانيا وأمريكا)، كما أن موقفها من النبي ﷺ ومن دين الإسلام يكاد يكون متميزاً في زمن عُرف بالنيل من شخصية الرسول الكريم ومن شريعة الإسلام. والكاتبة أرمسترونج أخذت على عاتقها تصحيح صورة الإسلام وتقديم الصورة الحقيقية لنبينا الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم للغربيين.

- ما أحوجنا، نحن المسلمين، لمعرفة مثل هذه النماذج والتعرف عليها بهدف التواصل والتعاون، والغاية بعد ذلك طبعاً هي عرض معاني الرحمة النبوية للعالمين.

- إن دراسة نماذج مثل الباحثة كارين أرمسترونج تتيح لنا معرفة العقبات



والصعوبات التي تعترض النخب الغربية في سبيل الفهم السليم للنبي ﷺ وللدين الذي جاء به.

- إن مثل اجتهادات أرمسترونج من شأنه أن يفيدنا نحن المسلمين في طريقة تبليغ سيرة النبي ﷺ للغربيين، حيث إن أماننا نموذجا منهم أدرى بعقليتهم ولغتهم.

- لقد أَلَفَ الفكر الإسلامي دراسة الشبهات الغربية حول النبي محمد ﷺ والإسلام، ولا سيما المغرضة منها. والجديد الذي يزعم هذا البحث تقديمه هو تقويم وجهة نظر غربية حاولت الإنصاف، والاعتدال كما يتضح من عنوان أحد كتبها وهو «محمد نبي لزماننا» حيث تعتبر الباحثة أن منهاج النبي ﷺ أنسب منهاج للإنسان المعاصر، وليس المسلم فقط. وحسب علمي ليست هناك دراسة تناولت هذا الموضوع، خاصة وإن كتابها «محمد نبي لزماننا»، الذي يشكل العمود الفقري لهذا البحث، حديث الصدور.

ثانيا: منهج البحث:

أما منهجي في هذا البحث فتحده النقاط الآتية:

- التعريف بالباحثة كارين أرمسترونج.
- التوقف مع الباحثة عند الدروس والعبر المستفادة من بعض وقائع

السيرة النبوية.

- تجاوز الأحداث العادية في السيرة النبوية التي لا يقع بشأنها خلاف أو

سوء فهم.

- الوقوف عند بعض الإشكالات بخصوص بعض وقائع السيرة النبوية

لدى بعض الغربيين مبدئياً وجهة نظر الباحثة فيها سواء كانت مؤيدة أم معارضة

والتعليق عليها.

- تقويم ما بدلي غير صائب لدى الباحثة أرمسترونج بالعودة إلى كتب

السيرة وأمّهات المصادر.

- خلاصة تقويمية إجمالية لما ورد في البحث من آراء ووجهات نظر

للباحثة.

ثالثاً: خطة البحث:

من هنا جاءت خطة البحث كالآتي:

- مقدمة: عرفت فيها بأهمية البحث والإضافة التي يقدمها ومنهج

وخطته، وبالباحثة كارين أرمسترونج.

١- مكة: (بدء الوحي - محمد ﷺ قبل البعثة).

٢- الجاهلية.



- ٣- الهجرة: (في معنى الهجرة - حادثة الإسراء والمعراج - تعدد زوجات النبي ﷺ - مسجد النبي ﷺ - التربية النبوية).
- ٤- الجهاد: (في معنى الجهاد - الاجتهاد في أسرى بدر - طرد يهود قينقاع من المدينة - غزوة أحد وحماس الشباب - تعدد الزوجات).
- ٥- السلام: (زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش ﷺ) - الحجاب - صورة مريم وابنها عليهما السلام بالكعبة).
- خلاصة تقويمية: (العدة المرجعية - مفهوم الوحي - محمد ﷺ نبي الرحمة).

- خاتمة تتضمن نتائج البحث والتوصيات.
- وجدير بالذكر أن الباحثة المتخصصة في مقارنة الأديان كتبت كتابين عن نبينا محمد ﷺ:

- الأول: **Muhammad a Biography of the Prophet** سنة ١٩٩١، وكان قد صدر للمرة الأولى ببريطانيا ١٩٩١ بعنوان: **Muhammad a Western Attempt to Understand Islam**. ترجمه إلى العربية كل من فاطمة ونصر ومحمد عناني بعنوان: «محمد سيرة النبي ﷺ»^(١)، ومحمد الجورا

(١) صدرت هذه الترجمة عن دار سطور الجديدة سنة ١٩٩٨.

بعنوان: «الإسلام في مرآة الغرب.. محاولة جديدة في فهم الإسلام»^(١).

وقصة تأليف هذا الكتاب ترجع إلى قضية سلمان رشدي وكتابه «آيات شيطانية» الذي اعتبره المسلمون إساءة إلى رسول الله ﷺ وآل بيته. وما أثار كارين أرمسترونج هو تلك الفتوى التي أصدرها الخميني بإباحة دم سلمان رشدي ونشر كتابه، كما لم تعجبها الطريقة التي تعامل بها الناس مع قضية سلمان رشدي في إنجلترا.

- والثاني: **Muhammad Prophet for Our Time** سنة ٢٠٠٦،

وقد ترجمته إلى العربية فاتن الزلباني بعنوان: «محمد (ﷺ) نبي لزماننا»^(٢).

وتوضح كارين بأن هذا الكتاب الذي جاء بعد مرور خمسة عشرة سنة على الكتاب الأول جديد ومختلف اختلافاً كلياً؛ ذلك أن كتابها الأول لم يعد يفي بالغرض بعد هجمات ١١ سبتمبر، حيث دعت الحاجة، في نظرها، إلى التركيز على جوانب أخرى من حياة محمد (ﷺ) لأن هذه الأحداث زادت من العداء للإسلام ونبيه (ﷺ).

- كما عقدت فصلاً خاصاً عن النبي (ﷺ) بعنوان: **The Prophet**

(١) صدرت هذه الترجمة عن دار الحصاد، دمشق سنة ٢٠٠٢.

(٢) صدرت هذه الترجمة عن دار الشروق الدولية سنة ٢٠٠٨.



«النبي» هو أول فصول كتابها **Islam a Short History** الذي صدر سنة ٢٠٠٠.

وأشير إلى أن الباحثة كارين أرمسترونج واحدة من أشهر الباحثين اليوم في الأديان ومقارنتها. وقد كتبت في ذلك مجموعة كبيرة من الكتب^(١) تدرس فيها العقائد والأديان الرئيسة (اليهودية، المسيحية، الإسلام)، وتبحث عما هو مشترك بينها، كما تبحث فيها عما يؤثر منها في تاريخ العالم ويوجه أحداثه.

ولدت كارين عام ١٩٤٥ بضواحي برمنجهام البريطانية. وهي الآن مدرسة للمسيحية بكلية ليوبيك لدراسة اليهودية بلندن (**London's Leo Baeck College for Study of Judaism**). وقد قضت سبع سنوات، ما بين ١٩٦٢ و١٩٦٩، كراهبة بالكنيسة الكاثوليكية، وأفردت لتجربتها في الرهينة كتابين هما: **Trough the Narrow Gate (1982)** «عبر البوابة الضيقة» الذي لقي رفضا في الأوساط الكاثوليكية الإنجليزية، و **The Spiral Staircase.. My Climb out of Darkness (2004)** «السلم اللولبي.. صعودي من الظلام».

(١) سأذكر قائمة من كتب الباحثة في نهاية هذا البحث.

(١) مكة

أولاً: بدء الوحي:

تروي كارين أرمسترونج قصة بدء الوحي - حسب فهمها - باختصار شديد، ثم تعلق قائلة: «لقد شاهد هذه الرؤيا vision في شهر رمضان ٦١٠ ميلادية تقريباً. وقد سهاها محمد ليلة القدر...»^(١).

وهنا أتوقف لأقول:

أ- لا يبدو في نية الباحثة تشويه الحقائق أو تزييف الوقائع، وإنما هذا خلط وقع لها بسبب خلل منهجي.

ب- إن القول بكون واقعة بدء الوحي رؤيا نجده عند معظم المستشرقين وكثير من أبناء المسلمين، وسببه الاعتماد على رواية لابن إسحاق جاء فيها: «قال رسول الله ﷺ: «فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ وَأَنَا نَائِمٌ بِنَمَطٍ مِنْ دِيْبَاجٍ فِيهِ كِتَابٌ (...) ثُمَّ انْتَهَى فَانْصَرَفَ عَنِّي وَهَبَيْتُ مِنْ نَوْمِي، فَكَأَنَّمَا كَتَبْتُ فِي قَلْبِي كِتَابًا...»^(٢).

(1) Karen Armstrong, Muhammad Prophet for Our Time, 22.

(٢) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي المدني، السيرة النبوية، تحقيق أحمد فريد المدني المزيدي،

دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤-٢٠٠٤، ١/١٦٨.



ما يفهم من هذه الرواية أن واقعة بدء الوحي كانت رؤيا رآها النبي ﷺ في المنام بغار حراء، وهذا ما دفع بمحمد عابد الجابري مثلاً إلى إيراد هذه الرواية ويعلق عليها مفسراً: «وَأَنَا نَائِمٌ (في رؤيا المنام)»^(١).

والصحيح هو ما استقر في أذهان المسلمين أن جبريل ﷺ أتى رسول الله ﷺ يقظة وليس في المنام كما تحدثنا عنه الروايات المعتبرة. مثلاً نجد عند الإمام البخاري رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها: «... حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارٍ حَرَاءَ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهِدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهِدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (العلق: ١-٣)^(٢) فليس هنا أي ذكر للنوم أو الرؤيا أو ما يدل على ذلك. وهنا يسأل النبي: «هل كان رسول الله ﷺ يذهب إلى غار حراء من أجل التعبد

(١) محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، الجزء الأول: في التعريف بالقرآن، مركز

دراسات الوحدة العربية، بيروت ط ١، ٢٠٠٦، ص ٧٨.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله

ﷺ، رقم ٣.

أم النوم؟ ولو كان ذلك مناما، لماذا لم يحدث له في بيته؟».

ج- ليس النبي محمد ﷺ هو الذي سمى ليلة القدر، بل الله ﷻ هو الذي سماها، هذا إن سلمنا بأن ليلة القدر هي هذه الليلة التي بدأ فيها نزول القرآن الكريم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر: ١).

ثانيا: محمد ﷺ قبل البعثة:

أما عن حياة النبي ﷺ قبيل البعثة فتستتج الباحثة كارين أرمسترونج من السيرة اللاحقة أنه ﷺ «قد أدرك الخلل الذي أصاب مكة... وازداد إدراك محمد (ﷺ) بأن قريشا تخلت عن قيم المروءة وتسابقت إلى ضدها من طيش وتكبر وإحساس متضخم بالذات، مما يدمر أخلاق المجتمع ويؤدي به إلى الهلاك. اعتقد بوجوب إصلاح اجتماعي مبني على حل أخلاقي وروحي جديد، وإلا فلن يؤدي ثماره. ربما أدرك في أعماقه بأن له موهبة استثنائية، ولكن ما عساه أن يفعل؟ لن يأخذه أحد محمل الجد، لأنه رغم زواجه من خديجة لم تكن له وجهة اجتماعية في مكة»^(١).

فما الذي يفهم من هذا الكلام؟

إن تعبير الباحثة بتعابير من قبيل «اعتقد بوجوب إصلاح اجتماعي...»

(1) Karen Armstrong, Muhammad Prophet for Our Time, 39.



و«ربما أدرك في أعماقه بأن له موهبة استثنائية» يفهم منه أن النبوة تكون برغبة النبي وإرادته وتدبيره، وهذا عكس الحقيقة إذ النبوة اصطفاء إلهي لا خيرة للإنسان المصطفى فيه. وقد وردت في القرآن الكريم مجموعة من الآيات في هذا المعنى: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة: ١٠٥)، وقوله ﷻ: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج: ٧٥)، وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

كما أن تلك التعابير تجعل من النبي واحداً من المصلحين الذين عرفهم التاريخ ليس غير، استفزهم واقعهم الفاسد فقاموا بإنشاده إصلاحه وتغييره. وهذه معضلة الفكر الغربي مع مفهوم النبوة. وما يبرر هذا الفهم المنحرف للنبوة هو الاضطرابات التي عرفت العقيدتان اليهودية والمسيحية وما دخلهما من تفسيرات عقلية بشرية بعيدة كل البعد عن روح الوحي والغيب والنبوة.

(٢) الجاهلية

تعرف كارين أرمسترونج الجاهلية بالروح السائدة وقت بعثة النبي محمد ﷺ، وترى أن الجاهلية ليست فقط تلك الفترة الزمنية التي سادت قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية، ولكن، استنادا إلى أبحاث جديدة، استنتجت أن محمدا ﷺ لم يستعمل لفظ «الجاهلية» ليعني تلك الفترة الزمنية، وإنما للتعبير عن حالة من العقل التي تسبب العنف والإرهاب في ذلك الزمان، وتخلص إلى أن الجاهلية تعيش في الغرب اليوم كما تعيش في العالم الإسلامي.

وهنا أتوقف لأشير إلى:

- إن الجاهلية وصف أطلقه القرآن الكريم على الحالة التي كانت سائدة قبل الإسلام.

- إن عدم قصر مفهوم الجاهلية على الفترة الزمنية التي سادت قبل الإسلام وجعله مفهوما يتجاوز الزمان والمكان هو صحيح إلى حد ما؛ ذلك أن الجاهلية توجد في أي وقت ما وجدت أمور أربعة:

- ظن الجاهلية: في قوله تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ



يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ^ط ﴿آل عمران: ١٥٤﴾. هذا الظن ناتج عن ضعف الإيمان في النفوس وغياب العقيدة الصحيحة، ويعني عدم الثقة في الله وفيما عنده، وعدم قدرة الإنسان على التدبر في هذا الكون للتعرف على خالقه وإدراك مصيره بعد هذه الدنيا.

- حكم الجاهلية: في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ^ع وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ^ط﴾ (المائدة: ٥٠). أمام الإنسان تحكيم حكم الله ﷻ، أو تحكيم هواه. ولا يخفى ما بينهما من فروق واضحة بينة. فتحكيم الهوى إنما هو الاستبداد والضلال والانحراف عن الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها. أما تحكيم أمر الله فإنما يعني العدل والرحمة بالإنسان في الدنيا، فضلاً عن الفوز في الآخرة.

- تبرج الجاهلية: نجده في قول الله ﷻ: ﴿يَنْبِسَاءُ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ^ع إِنَّ أَتَقَيَّتْنَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا^ط﴾ ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى^ط وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ^ع﴾ (الأحزاب: ٣٢ - ٣٣). ولا ينكر أحد أن بؤس النساء والمجتمعات اليوم، في الشرق والغرب، مرده إلى هذه الصفة من صفات الجاهلية التي تفتح الباب أمام الزنا، فتتشتت الأسر وتضيع.

- حمية الجاهلية: وردت في القرآن الكريم عند وصفه تعالى لغيلان المشركين يوم الحديبية: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الفتح: ٢٦). وحمية الجاهلية إنما هي التعصب والعنف الذي لا يعرف له حد. ولعل أخبار التمييز العنصري والعنصري والديني، الذي نسمع عنها في كل وقت، إنما هي من قبيل هذه الحمية الجاهلية، وكذلك العنف إنما هو تعبير عن هذه الحمية التي تعتبر وصفًا رئيسًا من أوصاف الجاهلية.

هذه صفات الجاهلية الرئيسة، تلتصق بدول الغرب أكثر من غيرها من دول العالم، تدل عليها الإحصاءات والتقارير. وهي صفات مؤذنة بخراب الحضارة. وأمامي إحصاءات، مع أنها تعود إلى عام ١٩٨١، إلا أنها لا تخلو من دلالة. بل تدفعنا إلى السؤال: كيف هو الحال اليوم بعد مرور أكثر من ربع قرن؟ تقول هذه الإحصاءات: «على المستوى الاجتماعي لا نجد شيئًا في الغرب اسمه الأسرة. فحسب تقرير نشر في جريدة (لوموند) الفرنسية منذ ستينين تبين أن ٥٣ بالمائة من النساء في فرنسا يضعن أوائل مواليدهن - من سفاح - خارج مؤسسة الزواج، و ٤٠ بالمائة من مجموع الولادات المسجلة هي ولادات خارج الزواج.



عن مجلة V.S.D الفرنسية أن عدد الفارين من الزواج والمطلقين في ارتفاع مستمر، أكثر من ١٣ مليون حالة سنة ١٩٨١.

كذلك ارتفعت الأسرة ذات العائل الواحد، فبلغت ٧٢٣٠٠٠ عام ١٩٧٥، وأكثر من مليون في عام ١٩٨١^(١). فماذا الآن؟

لكن، هل يمكن إلصاق صفة الجاهلية بمجتمعات المسلمين؟
وأشير إلى أن أول من أطلق هذا الوصف في الفكر الإسلامي هو الأستاذ المودودي رحمه الله، وذلك في كتابين هما «الاصطلاحات الأربعة الأساسية في القرآن»، و«الإسلام والجاهلية»، ثم تلقف هذا الحكم الأستاذ سيد قطب رحمه الله الذي كان يرى أننا «اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم. كل ما حولنا جاهلية.. تصورات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم. حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية، ومراجع إسلامية، وفلسفة إسلامية، وتفكير إسلامي، هو كذلك من صنع الجاهلية!!»^(٢).

(١) عمر عبيد حسنة في تقديمه لكتاب التفكك الأسري.. الأسباب والحلول المقترحة (٨٣). قطر ٢٠٠١.

(٢) سيد قطب، معالم في الطريق، دار الشروق بيروت ١٩٩٣، ص ٢١.

وأعلق بأن وصف المجتمع والحياة بالجاهلية له انعكاسات خطيرة على المنهج المستخدم في التغيير؛ ذلك أن تشخيص الواقع هو الذي يدلنا على المنهج الممكن اتباعه. وما دام التشخيص بهذا الشكل، فإن المنهج سيكون في مستوى لا يغير هذه الجاهلية. وهذا ما يتابع سيد قطب رحمه الله حديثه عنه قائلا: «إن أولى الخطوات في طريقنا هي أن نستعلي على هذا المجتمع الجاهلي وقيمه وتصورات. وألا نعدل نحن في قيمنا وتصوراتنا قليلا أو كثيرا لنلتقي معه في منتصف الطريق. كلا! إننا وإياه على مفرق الطريق، وحين نسايره خطوة واحدة فإننا نفقد المنهج كله ونفقد الطريق!»^(١). ومن هنا يبدأ التطرف.

هكذا يدعو سيد قطب رحمه الله إلى «مواجهة هذا الواقع كله بما يكافئه.. نواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات، ونواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها، تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات...»^(٢) ومن هنا يبدأ العنف.

إن الحكم بالجاهلية طريق سهل إلى التكفير والتطرف والعنف، ومعنى هذا أن الناس كلهم على ضلال ما داموا لم يتبنوا ما أعتقده.

(١) نفسه ص ٢٢.

(٢) نفسه ص ٦٤.



ولعله من سوء فقه الواقع أن نصف المجتمع الإسلامي المعاصر بالراشدي، أو بالمجتمع الإسلامي الخالص. لكن، من الظلم أيضا أن نصفه بالجاهلية؛ ذلك أن الحياة الإسلامية بها بقايا الخير والعقيدة الصالحة جذوة كامنة تتجلى في السلوك العام للمسلمين، وفي أخلاقهم وتضامنهم وتعاطفهم، وفي حُبهم للخير، وفي غيرتهم على دينهم، مهما يكن عدم الوفاء بالتزاماتهم نحوه، وكذلك في خشيتهم من ربهم وتعظيمهم لنبيهم.

ولعل من حق السائل أن يسأل: إذا لم نصف المجتمع الإسلامي المعاصر بالجاهلية، فيماذا نصفه؟ وهو غير خالص الإسلام؟

أقتطف هنا كلاما للأستاذ عبد السلام ياسين يعطي وصفا قرآنيا نبويا لما عليه المسلمون اليوم حين يقول: «متى اختلط الحق بالباطل، ودخل الإسلام على الجاهلية فبقي منها رواسب، أو أعادت الجاهلية كرتها على الإسلام فعكرت صفوه، فتلك «الفتنة». الفتنة مفهوم محوري، الفتنة حكم نبوي، الفتنة تحفظ وحكمة ولزوم لجانب التحري والصواب»^(١).

(١) عبد السلام ياسين، العدل.. الإسلاميون والحكم، مطبوعات الصفاء للإنتاج، ط ١، ٢٠٠٠، ص ٤٨٨.

(٣) الهجرة

تتوقف الباحثة كارين أرمسترونج عند عدد من الأحداث الكبرى التي سبقت الهجرة إلى المدينة: ك وفاة عم النبي ﷺ، وزوجه خديجة ﷺ، وذهابه إلى الطائف حيث قال دعاءه الشهير، وحادثة الإسراء والمعراج التي جاءت بلسما ومواساة له ﷺ لما مر به من أحزان.

أولاً: في معنى الهجرة:

تذهب كارين أرمسترونج معرفة الهجرة على أنها قطع مؤلم، وتستدل بتعريف (متغمري وات) لمعنى «هجر» الذي يعني عنده «قطع نفسه من الاتصال الودي أو المحب، أو توقف عن الارتباط بهم»^(١). وهذا الانتقال المؤلم تصفه الباحثة بمحور الهوية الجديدة للمسلمين.

لقد سمي المسلمون الذين هاجروا إلى المدينة بالمهاجرين، بينما سمي أهل المدينة المستقبلون بالأنصار. وترى كارين أن كلمة الأنصار عادة ما تترجم بمعنى «المساعدين» (Helpers)، وهذه الترجمة في نظرها تعطي انطبعا أقل بكثير مما هم يقبلون عليه، ذلك أن «نصر» يعني أن لزاما عليك أن تقدم

(1) W. Montgomery Watt, Muhammad's Mecca: History of the Qur'an (Edinburgh, 1988), 25.



مساعدتك التي قد تصل إلى حد القتال.

إن الأمر يتجاوز المساعدة، بل إن نصره النبي ﷺ أو الدين تعني إظهاره وتخليصه من المكائد والمكاره والظلم، وهذا ما قام به الأنصار، والمراد بهم الأوس والخزرج، والرسول ﷺ هو الذي لقبهم بالأنصار، وذكرهم الله تعالى بهذا الوصف في القرآن الكريم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١٠٠)، ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٧).

ولفضل ما قاموا به فقد امتدحهم القرآن كما في الآيتين السابقتين، وامتدحهم رسول الله ﷺ بقوله: «آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ»^(١).

وأشير إلى أن الهجرة ليست حدثاً ماضياً وانقضى، بل هي سلوك يهم الفرد والجماعة؛ فهجرة الفرد تعني هجرة الكفر والمعاصي والتوبة إلى الله تعالى كما في

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب حب الأنصار، حديث رقم ٣٥٧٣.

الحديث الشريف: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»^(١)، وقوله ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(٢)، كما تعني هجرة الأنانية والتكتل داخل وحدة ما، إلى تضامن يحفظ للإنسان دينه وإيمانه، وللجماعة وجودها وعزتها. كما أن النصر اليوم تعني محبة هؤلاء المهاجرين إلى الله تعالى وإيوائهم ودعمهم. كل هذا من أجل توثيق العروة الإسلامية المطلوبة، وأي عمل من أعمال الأنصار الأوائل ﷺ قام به المؤمن اليوم يجعله منهم رغم تباعد الزمان والمكان.

وتورد الباحثة كارين قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى^٣ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا^٤ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٤٠). وتعلق تعليقا لطيفا فتقول:

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه... حديث رقم ٩.

(٢) أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد، مسند الإمام أحمد، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

مسند الشاميين، رقم الحديث ١٦٥٦٤. يُنظر في صحيح سنن أبي داود للألباني رقم



«يصر القرآن على نحو متكرر بأنه عندما يجد المسلمون أنفسهم في ظروف صعبة أو مرعبة، فيجب عليهم أن يحافظوا على هدوئهم وسكيتهم، ولا يجوز أبداً أن يقعوا فريسة للغضب الطائش الانتقامي للجاهلية»^(١).

ثانياً: حادثة الإسراء والمعراج:

لا تنكر كارين حادثة الإسراء والمعراج كما فعل كثيرون، ولم تعتبرها رؤياً رآها النبي ﷺ كما يقول كثيرون من الغربيين وبعض المفكرين العلمانيين، وإنما اعتبرتها حدثاً جسدياً وقع يقظة. وتعلق عليها فتقول: «انعكست في رحلة محمد (ﷺ) الليلية قيم المروءة القديمة، فبدلاً من أن يعود إلى قبيلته سافر بعيداً عنها إلى القدس، وبدلاً من أن يؤكد هويته القبلية بتعصب الجاهلية تخلص من الأنا القبلية، وبدلاً من أن يبتهج بالقتال والحرب حفلت رحلته بالانسجام والتكامل مع باقي الإنسانية وسمت عن عصبية الدم»^(٢).

وخلال معراج النبي ﷺ التقى بأنبياء الله السابقين الذين لم ينظروا إليه كمدّعٍ، حسب كارين. بل إن الأنبياء في نظرها لا يتعادون، ولا يحاولون تحويل بعضهم عن رسالته التي يدعو إليها، إذ كل واحد منهم له رؤيته الخاصة. وتؤكد أن القرآن يدعو المسلمين إلى الإيمان بمن سبق من الأنبياء حتى يكونوا فعلاً

(1) Karen Armstrong, Muhammad Prophet for Our Time, 113-114.

(2) Ibid, 97.

مسلمين، وتورد آيات منها قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ
مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٨٤-٨٥).
فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخسرين﴾

تتوقف الباحثة في الأديان عند الآية ٨٥ لأن المسلمين يستدلون بها في
غالب الأحيان «لإثبات» أن القرآن يدعي بأن الإسلام هو الدين الحقيقي
والوحيد، وبأن المسلمين هم الناجون فقط يوم الحساب، وتعرض على هذا
القول من وجهين:

الأول: أن الإسلام لم يصبح بعد الاسم الرسمي لدين محمد (ﷺ).
والثاني: أن الآية يجب فهمها في سياقها التعددي، حيث تعني عكس ما
يستدل به؛ إن القرآن في نظر كارين أرمسترونج، مصدق وشاهد على الكتب
المقدسة السابقة، ولكل وحي شرعه ومنهاجه. من هنا تستنتج أن أي دين اعتنقه
الإنسان، سواء كان اليهودية أم المسيحية أم الإسلام، فهو يجزئه. ونقول في موضع
آخر: «لم يطلب محمد (ﷺ) قط من اليهود أو النصارى قبول الإسلام، خاصة
إذا لم يرغبوا في ذلك، لأنهم تلقوا وحيهم الخاص والصحيح والكامل»^(١).

(1) Karen Armstrong, Islam a short History, (Mdern Library 2002), 10.



أجمع المسلمون على أن دين الإسلام خاتم الأديان وناسخ لها، وليس هناك دين يصح أن يُتعبد الله به غيره، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥). كما لم يبق كتاب يتعبد به سوى القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ﴾ (المائدة: ٤٨). والذي على الإنسان بعد مجيء الإسلام الإيمان بأن القرآن الكريم قد نسخ التوراة والإنجيل، وأنه قد لحقهما التحريف والتبديل والزيادة والنقصان كما نخبرنا بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مَيِّشَقُّهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۚ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافِيَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۚ﴾ (المائدة: ١٣).

من هنا كانت بعثة نبينا محمد ﷺ عامة للناس أجمعين، وكيفما كانت ديانتهم وملتهم فهم مأمورون باتباع دين الإسلام، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِنَاسٍ إِنْ رَسُلُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨)، والخطاب هنا موجه إلى عموم الناس وبإطلاق. بل إن القرآن الكريم يخص أهل الكتاب بالذكر ويأمرهم باتباع ما أنزل على النبي محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾. كما نجد في الحديث قوله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»^(١).

ثالثاً: تعدد زوجات النبي ﷺ:

قبيل الهجرة تزوج النبي ﷺ من سودة بنت زمعة وعائشة رضي الله عنهما. وبمناسبة الحديث عن هذا الزواج تورد الباحثة كارين أرمسترونج قضية تعدد زوجات النبي ﷺ وما أثير حولها في الغرب من آراء كان وراءها تخمين شهواني مريض مغرض. أما هي فلها وجهة نظر أخرى، حيث ترى أن الغاية منه هي ما يترتب عنه من نتائج عملية وليس ذا دوافع رومانسية أو جنسية. مثلاً أم المؤمنين سودة رضي الله عنها ترى فيها كارين امرأة بيتية، مضى شبابها، لكن بإمكانها الاعتناء بشؤون النبي ﷺ، كما كان ﷺ أيضاً يروم كسب سهيل إلى الإسلام

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، دار إحياء الكتب العربية، ط. د. ت، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، حديث رقم ١٥٣.



وهو ابنُ عمِ سودة رضي الله عنها وأحد أكابر قريش... وهكذا ترى في زواج النبي ﷺ هدفا سياسيا ورغبة في «تأسيس نوع مختلف من العشيرة، مستند إلى العقيدة بدلا من القرابة، ولكن رابطة الدم كانت وما زالت قيمة مقدسة، ساعدت على دعم مجتمع المؤمنين الأول»^(١).

لكن أشير إلى أن زواج النبي ﷺ من سودة بنت زمعة رضي الله عنها كان بعد وفاة خديجة رضي الله عنها، ولم يكن ﷺ قد تزوج بعد. وكانت سودة رضي الله عنها في سن الخامسة والخمسين، توفي عنها زوجها بعد الهجرة إلى الحبشة. وكان أبوها على دين قومه. ولا يخفى ما لهذا الزواج من عبر.

ويبدو أن الكاتبة اعتمدت رواية تذهب إلى أن رسول الله ﷺ تزوج عائشة بعد سودة رضي الله عنها، كما يرجح ابن كثير رحمه الله ويورد رواية طويلة^(٢) في الموضوع.

وخلال مرحلة الجهاد تتوقف الباحثة عند نقطة مهمة تعتبر الآن موضع جدل في الغرب في عصر التنغي بحقوق المرأة والمساواة وما إلى ذلك، فتذكر

(1) Karen Armstrong, Muhammad Prophet for Our Time, 105.

(٢) ينظر ابن كثير، البداية والنهاية، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٠٨-١٩٨٨، ٣/ ١٦٢ -

للقارئ الغربي أن محمداً ﷺ كان سهلاً لنا في علاقته مع أزواجه، يساعدهن في أعمال البيت، ويدبر حاجاته بنفسه، فيصلح ثوبه ويخسف نعله ويعتني بشيائه الأسرة، وغير ذلك.

رابعاً: مسجد النبي ﷺ:

ثم تتوقف كارين أرمسترونج عند مسجد النبي ﷺ فتشير نقطتين مهمتين:

الأولى: يعلن النبي (ﷺ) بإسكان زوجاته حول المسجد أنه ليس هناك فاصل بين الحياة العامة والحياة الخاصة، ولا تمييز بين الجنسين.

الثانية: إذا أراد اليهود والمسيحيون التعبد في المسجد فلا مانع لأنهم أيضاً جزء من عباد الله ﷻ.

يبدو أن الباحثة استندت في إطلاق القول بتعبد اليهود والمسيحيين في مسجد النبي ﷺ إلى قصة وفد نصارى نجران الذين وفدوا على رسول الله ﷺ بالمدينة، ودخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر فحانت صلاتهم فقاموا يُصلّون في مسجده، فأراد الناس منعهم فقال رسول الله ﷺ: «دعوه»، فاستقبلوا المشرق فصلّوا صلاتهم^(١).

(١) ابن القيم، زاد المعاد في هدى خير العباد - تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، =



عقد ابن القيم رحمه الله بعد إيراد هذه القصة فصلا وعلق عليه قائلا:

- «جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين».

- تمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين وفي مساجدهم أيضا

إذا كان ذلك عارضا، ولا يمكنون من اعتياد ذلك»^(١).

وفي هذه المسألة تفريعات وأقوال كثيرة، لكن دون إطلاق القول بالجواز،

يرجى الاطلاع عليها في مظانها من كتب الفقه.

خامسا: التربية النبوية:

تذكر الباحثة خصائص الأمة الجديدة بالمدينة وتبين مقاصدها التي تتجلى

في العدل والحلم والحفاظ على وحدتها والدفاع عن أنفسهم في حالة الهجوم

عليهم. وهنا توضح التغيير الذي أصاب قلوب المسلمين وعقولهم كما توضح

أن المسلمين لن ينتقموا بأسلوب الجاهلية القديم الذي لا يمكن السيطرة عليه.

إنهم دائما مستعدون للعفو لأن الثأر التلقائي، كما في أخلاق الجاهلية، يمكن أن

يصبح شرا عظيما، وتورد قوله ﷺ: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤).

= ط١، ١٤٢٥-٢٠٠٥، ٣/ ١٨٥.

(١) انظر المرجع السابق.

وتقر الباحثة بصعوبة المهمة حيث تتطلب التربية وقتاً طويلاً لأن روح الجاهلية متمكنة من قلوب المسلمين بفعل البيئة التي نشؤوا فيها قبل الإسلام. وهنا تبدو قيمة التربية النبوية وفعاليتها حيث غيرت قلوب وعقول الناس، ومالت بهم إلى الثمار الطيبة للإيمان: الرحمة والحلم والرفق.

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»^(١). ويقول ﷺ: «مَنْ يُحَرِّمِ الرَّفْقَ يُحَرِّمِ الْخَيْرَ»^(٢).

هذا الرفق لم يقتصر على مواعظ يلقيها النبي ﷺ وإنما هو سلوك يعود عليه أصحابه. ويحضرني هنا أن أعرابياً بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دَعُوهُ وَهَرِّقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنْوَبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيسَّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسَّرِينَ»^(٣).

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، حديث رقم ٢٥٩٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، حديث رقم ٢٥٩٢.

(٣) أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، رقمه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان، ١٤٠٧-١٩٨٦، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، حديث رقم ٢١٧.



ولعل ظهور طوائف من المسلمين تختار العنف وسيلة ومنهجاً مرده
ضعف موجود في إيمانهم، نتج عنه سوء في الطبع، وغياب فقه بالواقع الذي
يبصر بالعواقب، إذ غياب فقه الواقع سبب في الفشل، والفشل يوصل إلى
العنف.

لقد كانت التربية النبوية تربية دائمة ومتواصلة تنصح وتوجه وتجنب
المسلم الملتزم عثرات الطريق ومزالق الجاهلية برفق كامل ورحمة وعطف. وإن
إعراض الشباب اليوم عما يرقق القلوب ويكسبها رحمة ورقة ورفقا في التعامل
مع خلق الله ليشكل أكبر تحدٍ للمسلمين اليوم. وهذا يتطلب من الجمعيات
العامة والمؤسسات الرسمية أن تجعل من التربية النبوية ثابتاً رئيساً في مقدمة
برامجها. كما أن فهم تحولات تاريخ الأمة الإسلامية يشكل ضرورة ملحة
وعاجلة، وعلى العلماء والمفكرين الاهتمام بها بدلاً من الانغماس في مناقشة
جزئيات وفروع قد لا تزيد نار التطرف إلا اشتعالاً.

(٤) الجهاد

أولاً: في معنى الجهاد:

تعتبر غزوة بدر الكبرى أول مواجهة حربية حقيقية للمسلمين مع قريش.
وقبل ذكر وقائعها تشير الباحثة كارين أرمسترونج إلى أمور منها:
أولاً: التبرير الوحيد والممكن لأعمال الحرب في القرآن الكريم هو الدفاع
عن النفس.

ثانياً: الحرب دائماً شر فظيع، لكنها ضرورية في بعض الأحيان للحفاظ
على القيم، مثل حرية العبادة. ومن هنا ترى ضرورة حماية معابد اليهود وكنائس
المسيحيين تماماً كحماية المساجد.

وهذان الأمران يدفعان الباحثة إلى تحديد مفهوم الجهاد، فكيف تنظر إليه؟
تعلق كارين أرمسترونج على كلمة جهاد فتقول: «المعنى الرئيس لكلمة
جهاد التي كثيراً ما نسمعها اليوم ليس هو الحرب المقدسة (Holy War)،
ولكنه بذل الجهد، أو الكفاح، الضروري لممارسة ما أَرَادَهُ اللهُ مِنَ الْمَرْءِ، وعلى
المسلمين أن يبذلوا وسعهم في كل المجالات، الثقافية والاجتماعية والاقتصادية
والروحية والأسرية، وفقاً لما أَرَادَهُ اللهُ مِنْهُمْ. وفي بعض الأحيان سيضطرون



للقتال، ولكن ليس هذا واجبهـم الرئيس^(١). وتسوق هنا الحديث المشهور على الألسنة والذي لا أصل له: «رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ»^(٢) لتعلق أن إصلاح المجتمع وإصلاح القلوب أكثر أهمية وصعوبة من القتال.

وأتفق مع الباحثة فيما ذهبت إليه من توسيع لمعنى الجهاد؛ فالجهاد بالسيف ليس إلا واحداً من أنواع الجهاد، له ظروفه ودواعيه منها ما أشارت إليه الباحثة. وكل ما يحقق وحدة الأمة وعزتها ومهابتها بين الأمم في شتى المجالات فالسعي فيه جهاد، مثل جهاد التعليم وجهاد المال وجهاد الكلمة والإعلام وجهاد التنمية والبناء...

ويحضرني هنا سؤال كعب رضي الله عنه للنبي ﷺ لما نزلت ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٤): «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَنْزَلَ فِي الشُّعْرِ مَا أَنْزَلَ»، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَكَأَنَّا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحَ النَّبْلِ»^(٣). والأمثلة كثيرة في هذا الباب على تعدد معنى الجهاد.

(١) Karen Armstrong, Muhammad Prophet for Our Time, 137.

(٢) لمعرفة ما قيل فيه يُنظر مجموع فتاوى ابن باز (الرئاسة العامة للبحوث والإفتاء، المملكة العربية السعودية)، ٢٦ / ٣٨١.

(٣) مسند الإمام أحمد، مسند القبائل، رقم الحديث ٢٦٦٣٣.

ثانيا: أسرى بدر:

بعد أن ذكرت الباحثة وقائع غزوة بدر الكبرى وبينت انتصار المسلمين فيها انطلقت تذكر القارئ الغربي بأن من عادة العرب في حروبهم أنه لم تكن هناك رحمة بالمنهزمين، حيث يمثل بالمجروحين، ويذبح الأسرى أو يعذبون... لكن محمدا (ﷺ) أمر أصحابه بالامتناع عن تلك الأفعال التقليدية. أما أسرى الحرب، في نظرهما، فإما أن يعفى عنهم أو تؤخذ منهم فدية.

إن الأسرى، في غزوة بدر مع اجتهاد النبي (ﷺ) في أمرهم، قد نزل القرآن الكريم مصوبا وآمرا بقتلهم، وذلك بعدما استشار رسول الله (ﷺ) كلا من أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) ونزل عند رأي أبي بكر الذي قال بأخذ الفدية عنهم^(١). قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَكُمُ فِيهَا أَهْذَاتُ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾ (الأنفال: ٦٧-٦٩).

(١) ينظر الحديث كاملا في صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، حديث رقم ٣٣٠٩..



وعند ابن عاشور رحمته الله كلام نفيس في الموضوع^(١) يستفاد منه أن النبي إذا قاتل فقتاله متمحض لغاية واحدة، هي نصر الدين ودفع أعدائه، وليس قتاله للملك والسلطان، فإذا كان أتباع الدين في قلة كان قتل الأسرى تقليلا لعدد أعداء الدين حتى إذا انتشر الدين وكثر أتباعه صلح الفداء لنفع أتباعه بالمال، وانتفاء خشية عود العدو إلى القوة. وهذا حكم سابق في حروب الأنبياء في بني إسرائيل... وليس المراد أنه لا يصلح أن تقع في يد النبي أسرى؛ لأن أخذ الأسرى من شؤون الحرب، وهو من شؤون الغلب، إذا استسلم المقاتلون، فلا يعقل نفيه عن النبي، فتعين أن المراد نفي أثره، وإذا نفي أثر الأسر صدق بأحد أمرين: وهما المن عليهم بإطلاقهم، أو قتلهم، ولا يصلح المن هنا لأنه ينافي الغاية وهي (حتى يثخن في الأرض) فتعين أن المقصود قتل الأسرى الحاصلين في يده، أي أن ذلك الأجدر به حين ضعف المؤمنين، خضدا لشوكة أهل العناد، وقد صار حكم هذه الآية تشريعا للنبي ﷺ فيمن يأسرهم في غزواته.

والمراد بالعذاب أن أولئك الأسرى الذين فادوهم كانوا صنديد المشركين وقد تخلصوا من القتل والأسر يحملون في صدورهم حنقا فكان من معتاد أمثالهم في مثل ذلك أن يسعوا في قومهم إلى أخذ ثأر قتلهم واسترداد أموالهم.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون، ١١ / ٧٣-٧٨ (بتصرف).

فلو فعلوا لكانت دائرة عظيمة على المسلمين، ولكن الله سلم المسلمين من ذلك فصرف المشركين عن محبة أخذ الثأر، وألهاهم بما شغلهم عن معاودة قتال المسلمين، فذلك الصرف هو من الكتاب الذي سبق عند الله تعالى. وقد حصل من هذه الآية تحذير المسلمين من العودة للفداء في مثل هذه الحالة، وبذلك كانت تشريعا للمستقبل كما ذكرناه آنفا.

واستنادا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال: ٦١) تخلص كارين أرمسترونج إلى أن على المسلمين أن يقبلوا عرض السلام أو الهدنة، والأفضل دائما حسب القرآن هو حل المشاكل بالمجادلة بالتي هي أحسن.

ثالثا: طرد يهود بني قينقاع من المدينة:

عند الوقوف على طرد يهود بني قينقاع من المدينة تقدر الباحثة كارين أن محمدا ﷺ وقع في مأزق أخلاقي مأساوي، وأنه بذلك الفعل وقع في فخ التقاليد العربية. ورغم ما سردت الباحثة من أحداث سبقت الطرد فإنها تعتبر ذلك خطأ من النبي ﷺ وليس هناك ما يبرره. بل إن الباحثة اعتبرت ذبح الرجال وسبي النساء والأطفال أمرا كان متوقعا من محمد ﷺ طبقا للعقاب التقليدي المتبع. فأى خطأ أو مأزق وقع فيه محمد ﷺ؟ وهل فعلا اتبع ما كان



سائدا من تقاليد عربية؟ أم كان رحيميا بهم أن طردهم؟

وهذه النقطة تعتبر أهم ثغرة لدى كارين؛ إذ كيف تقتنع بأن ما فعله اليهود كان جرما بشعا، ثم تقر بعد ذلك أنه كان منتظرا ذبح الرجال وسبي النساء والأطفال، كما في العقاب التقليدي، ثم تعود لتقرر أن محمدا ﷺ وقع في مأزق أخلاقي عندما طرد اليهود؟

لقد حذرهم رسول الله ﷺ من عاقبة تصرفاتهم الحاقدة، فقالوا: «يا محمد، لا يغرّك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنت لم تلق مثلنا». فأنزل الله ﷻ في ذلك قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْغْلُوبٌ وَتُخْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِ اللَّتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران: ١٢-١٣)^(١).

وبلغ حقدهم مداه عندما قدمت امرأة من العرب «بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلس إلى صائغ بها، فجعلوا يراودونها على كشف وجهها،

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا، المكتبة العلمية بيروت، ٣/ ٤٧.

فأبَتْ، فعمد الصائغُ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلمّا قامت انكشفت سَوَاتُهَا، فضحكوا منها، فصاحت. فوثب رجلٌ من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدت اليهودُ على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهلُ المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشرُّ بينهم وبين بني قينقاع^(١).

رابعاً: غزوة أحد وحماس الشباب:

وفي غزوة أحد ترى كارين أرمسترونج أن محمداً ﷺ اضطر للنزول عند رأي الشباب الذين تحمسوا للخروج لملاقاة قريش. وما دفع الباحثة إلى هذا القول استشارة رسول الله ﷺ لأصحابه ﷺ في أمر الخروج، حيث نزل في الأخير عند رأي القائلين بالخروج، ومنهم الذين لم يكتب لهم شرف المشاركة في غزوة بدر، والقصة مشهورة ومبسوطة في كتب السيرة. وهنا أتوقف مع الباحثة على ما يلي:

أ- لقد استشار النبي ﷺ أصحابه ﷺ، وليست هذه بأول مرة يستشيرهم فيها، وفي هذا بيان لقبول الرأي الآخر والتربية عليه.

ب- لو كان في الأمر خلل لنزل الوحي يسدد ويصوب كما في كثير من القضايا. وهنا أذكرُ بمسألة سبقت الإشارة إليها في هذا البحث، وهي مفهوم النبوة

(١) نفسه ٤٨/٣.



الذي يصعب على الغربيين استيعابه، وكون النبي ﷺ مسددا من عند الله تعالى.

ج- عندما التزم المسلمون بأوامر نبيهم ﷺ جاءهم النصر وحلت الهزيمة

بالمشركين. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا

فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ ۚ مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ

الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ

ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٢). ولكن، كما تبين الآية، لما حل بهم الوهن

والفشل والتنازع والعصيان جريا وراء المغانم والدنيا حلت بهم الهزيمة. وهذه

سنة الله التي لا تبديل لها، وفيها للمسلمين من الدروس البليغة الشيء الكثير.

خامسا: تعدد الزوجات:

ترك المسلمون من شهداء أحد ﷺ خلفهم زوجات وبنات بلا عائلين،

ونزل بعد ذلك الوحي، كما ترى كارين أرمسترونج، يسمح للمسلمين باتخاذ

أربع زوجات. وتورد هنا الآيات الثلاث الأولى من سورة النساء. وتذكر

القارئ هنا أن تعدد الزوجات كان مثار نقد شديد باعتباره سبب معاناة نساء

المسلمين. وتذهب إلى أن وقت نزول القرآن كان هذا الحكم بمثابة تقدم

اجتماعي. تقول: «جاء نظام تعدد الزوجات، طبقا للقرآن، بمثابة قانون

اجتماعي، ليس الغرض إشباع الشهوة الجنسية للرجال، ولكن لرفع الظلم عن

الأرامل واليتامى، وبصفة عامة عن النساء اللاتي كن معرضات للظلم^(١).

ومن هنا تلاحظ:

- أن القرآن الكريم قنن تعدد الزوجات بعدما كان مطلقاً. وهذا ما تحدثنا عنه كتب الحديث، فقد ثبت أنه كان لدى قيس بن الحارث عندما أسلم ثمان زوجات^(٢)، ولدى غيلان بن سلمة الثقفي عشر زوجات^(٣)، وعند نوفل بن معاوية خمس زوجات^(٤)، فأمرهم النبي ﷺ بأن يقتصر كل واحد منهم على أربع زوجات فقط ويفارق الأخريات.

- إن القرآن نزل للفصل في المشاكل الاجتماعية، وهذا أمر مؤكد مادام أن القرآن الكريم هو من عند الخالق الخبير، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤).

(1) Karen Armstrong, Muhammad Prophet for Our Time, 147.

(2) ابن ماجة القزويني، سنن ابن ماجة، بيروت، د.ت، كتاب النكاح، باب الرجل يسلم وعنده أكثر من أربع نسوة، الحديث ذو الرقم ١٩٤٢.

(3) محمد بن إسماعيل الأمير اليمني الصنعاني، سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ-١٩٩١م، كتاب النكاح، باب الكفاءة والخيار، الحديث ذو الرقم ٩٤٤.

(4) موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة، المغني، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، كتاب النكاح، ليس للحر أن يجمع بين أربع زوجات، رقم ٥٣٠٦.



- أصبح الآن من حق المرأة امتلاك الثروات وإدارتها، كما أصبح من حقها أن ترث.

- كان الهدف من تعدد الزوجات ضمان حماية المرأة بأن تتزوج بكرامة. وهذه أمور أوردتها بهذه الطريقة لأؤكد الباحثة فيما قررت، في وقت نجد فيه أن الفكر الغربي - كما أشارت الباحثة - وكثيرا من أبناء المسلمين، ينتقد الدين الإسلامي في مسألة تعدد الزوجات.

هذا، وتنبه كارين أرمسترونج الإنسان المعاصر، خاصة الغربي، إلى أن القرآن الكريم أعطى النساء حقوقا لم تتمتع بها نساء الغرب إلا في القرن التاسع عشر. وتذهب إلى أن تحرير المرأة كان مشروعا عزيزا على قلب النبي ﷺ، إذ لم يكن يعامل أزواجه رضي الله عنهن كقطيع، بل كن «صاحباته» «companions»^(١) مثلما كان الرجال أصحابه.

(١) ورد هذا اللفظ في سياق ذكر طريقة عيش أزواج النبي الطاهرات رضي الله عنهن. وتستمر موضحة هذه العبارة بالقول إن النبي ﷺ عادة ما كان يأخذه مع إحدى نسائه في كثير من البعثات العسكرية...

(٥) السلام

أولاً: زواج النبي ﷺ من زينب:

تورد الباحثة عند ذكر قصة زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها عبارة «ويبدو أن محمداً (ﷺ) رآها بعين جديدة وأحبها فجأة عندما ذهب بعد الظهر إلى منزل زيد ليتكلم معه...»^(١).

هذه القصة، للأسف، حفلت بها مجموعة من كتب التراث، وقد انتقدها محمد الطاهر بن عاشور رحمته الله من وجوه قائلها: «وقد رويت في هذه القصة أخبار مخلوطة، فإياك أن تتسرب إلى نفسك منها أغلوطة، فلا تصغ ذهنك إلى ما ألصقه أهل القصص بهذه الآية من تبسيط في حال النبي ﷺ حين أمر زيدا بإمساك زوجه فإن ذلك من مختلقات القصاصين، فإما أن يكون ذلك اختلاقاً من القصاصين لتزيين القصة، وإما أن يكون كله أو بعضه من أراجيف المنافقين وبهتانهم، فتلقفه القصاص وهو الذي نجزم به. ومما يدل لذلك أنك لا تجد فيما يؤثر من أقوال السلف في تفسير هذه الآية أثراً مسنداً إلى النبي ﷺ أو إلى زيد أو إلى زينب أو إلى أحد من الصحابة... ولسوء فهم الآية كبر أمرها على بعض

(1) Karen Armstrong, Muhammad Prophet for Our Time, 167.



المسلمين واستفزت كثيرا من الملاحدة وأعداء الإسلام من أهل الكتاب.

فأما رؤيته زينب في بيت زيد إن كانت عن عمد فذلك أنه استأذن في بيت زيد، فإن الاستئذان واجب، فلا شك أنه رأى وجهها وأعجبته، ولا أحسب ذلك لأن النساء لم يكن يسترن وجوههن... وزيد كان من أشد الناس اتصالا بالنبي، وزينب كانت ابنة عمته وزوج مولاه ومتبناه، فكانت مختلطة بأهله، وهو الذي زوجها زيدا، فلا يصح أن يكون ما رآها إلا حين جاء بيت زيد...^(١).

ويورد ابن عاشور رحمته الله رواية عن علي زين العابدين أن الله أوحى إلى النبي ﷺ أنه سينكح زينب بنت جحش، وعن الزهري نزل جبريل على النبي ﷺ يعلمه أن الله زوجه زينب بنت جحش رضي الله عنها، وذلك هو ما في نفسه والمقصود من قوله تعالى: ﴿ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ الواردة في الآية الكريمة: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيِّ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (الأحزاب: ٣٧).

(١) ينظر محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ٢٣ / ٣٦-٣٧ (بتصرف).

والآية صريحة في أن تزويج النبي ﷺ من زينب بنت جحش ﷺ إنما هو أمر من الله تعالى ومن تدبيره ﷻ ولغرض واضح يبينه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۝ ﴾.

ثانيا: الحجاب:

وفي سياق الحديث عن أحداث غزوة الأحزاب وتأثيراتها، وبعد أن أوردت الآيات السبع من سورة الأحزاب (٥٣-٥٩) المتعلقة بفرض الحجاب، علقت الباحثة كارين أرمسترونج بأن هذه الآيات أصبحت مثار خلاف شديد، ودعت إلى فهمها في سياقها. فما هو سياقها؟

- إن الآيات، في نظر الباحثة، تتحدث عن أحداث الأحزاب.
- لم توجه تلك الأوامر لكل النساء المسلمات، ولكن لزوجات محمد (ﷺ).

- ما دعا إلى نزول هذه الآيات تهديدات أعداء محمد (ﷺ) الضمنية لحياته.

ولست أدري كيف فهمت الباحثة أن المقصود هنا أزواج وبنات النبي ﷺ، والآية تعطف نساء المؤمنين على أزواج وبنات النبي ﷺ. قال الله



تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَذًى أَنْ يُعْرِقَنَّ فَلَا يُؤْذِنُهُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٩). فالملقصود بالأمر هنا أزواج النبي ﷺ وبناته ونساء المؤمنين. و«كانت البداية في الآية بأزواج النبي ﷺ وبناته لأنهن أكمل النساء، فذكرهن من ذكر بعض أفراد العام للاهتمام به... فليس المراد بالنساء هنا أزواج المؤمنين بل المراد الإناث المؤمنات، وإضافته إلى المؤمنين على معنى «من»، أي النساء من المؤمنين»^(١).

أما كون الآية لها سبب نزولها، والحكم له ظروف تشريعه (أحداث الأحزاب، تهديدات أعداء محمد ﷺ الضمنية لحياته...)، فهذه حكمة الله ﷻ في التشريع، إذ لا بد من مناسبات من أجل تشريع حكم معين حتى تتقبله النفوس وتتهيأ له، ولا سيما ذلك الوقت الذي كانت فيه الدولة الإسلامية في بدايتها، وشريعة الإسلام لا تزال تنزل. وهذا موجود حتى في القوانين الوضعية.

ثم إن ما عرف بأسباب النزول إنما يدلنا على إجابات الوحي عن أسئلة الواقع وقضاياها، يرشدها ويقومها، ولا يدل على أن الوحي في فترة نزوله كان يسائر الواقع ويتكيف مع فقهاء أو يخضع له.

(١) التحرير والتنوير ١٠٧/٢٣.

إن أسباب النزول - كما يرى علماءنا - منهج الوحي في تعليمنا، ولا تدل أبداً على أن النص أو الحكم المنزل خاص بسببه وواقعه، وإنما اقتضت رحمة الله ﷻ وحكمته أن تكون هناك أسباب لنزول بعض أنواع الوحي، حتى نتعلم ونفهم أوامر الشرع ونواهيه، ونطبقها كما أراد لها ﷻ.

ثالثاً: صورة مريم وابنها ﷺ بالكعبة:

تورد كارين أنه لما دخل النبي ﷺ والمسلمون مكة يوم الفتح كان في داخل الكعبة صور وتماثيل الآلهة على الجدران، فأمر النبي ﷺ بمحوها وأبقى صورتي المسيح وأمه مريم ﷺ.

أعتقد أن الباحثة اعتمدت هنا على «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار» لأبي الوليد محمد بن عبد الله الأزرقى، الذي أورد مجموعة من الروايات^(١) في الموضوع، كلها ضعيفة ومعلولة، منها الرواية الآتية:

حَدَّثَنِي جَدِّي عَنْ سَعِيدِ بْنِ سَالِمٍ قَالَ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ عِيَّاضٍ بْنُ جُعْدَبَةَ، عَنْ ابْنِ شَهَابٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ الْكَعْبَةَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَفِيهَا صُورُ الْمَلَائِكَةِ

(١) يُنظر أخبار مكة للأزرقى، صححها وعلق حواشيها ووضع فهرسها رشدي الصالح ملحق، الناشر عبد المقصود سعيد خوجة، جدة، ط ٢، ١٤٢٥-٢٠٠٥، باب ما جاء في ذكر بناء قريش الكعبة في الجاهلية.



وَعَیْرِهَا، فَرَأَى صُورَةَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ: «قَاتَلَهُمُ اللَّهُ، جَعَلُوهُ شَيْخًا يَسْتَقْسِمُ بِالْأَزْلَامِ». ثُمَّ رَأَى صُورَةَ مَرْيَمَ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا، وَقَالَ: «اْمُحُوا مَا فِيهَا مِنْ الصُّوَرِ إِلَّا صُورَةَ مَرْيَمَ»^(١).

وهنا تجدر ملاحظة ما يلي:

- أن الحديث مرسل، أضافه التابعي إلى النبي ﷺ، والحديث المرسل في حكم الحديث الضعيف إلا أن يعضد من وجه آخر.

- فيه يزيد بن عياض بن جُعْدَبَةَ. قال عنه البخاري: «منكر الحديث»^(٢). وقال عنه يحيى بن معين: «ليس بشيء»^(٣) و«ضعيف»^(٤). وقال الدارقطني: «ضعيف الحديث»^(٥).

(١) نفسه، حديث رقم ١٧٠.

(٢) محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الضعفاء الصغير، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب، ط ١، ١٣٩٦هـ، ص ١٢١.

(٣) يحيى بن معين أبو زكريا، تاريخ ابن معين رواية الدوري، تحقيق أحمد محمد نور سيف، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ط ١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ٧٤ / ٣.

(٤) نفسه ٨٦ / ٤.

(٥) الدارقطني، العلل الواردة في الأحاديث النبوية، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله السلفي، =

- هذه الروايات تعارضها روايات صحيحة، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا رَأَى الصُّورَ فِي الْبَيْتِ لَمْ يَدْخُلْ حَتَّى أَمَرَ بِهَا فَمُحِيتَ وَرَأَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عليهما السلام بِأَيْدِيهِمَا الْأَزْلَامُ، فَقَالَ: «قَاتِلَهُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ إِنْ اسْتَفْسَمَا بِالْأَزْلَامِ قَطُّ»^(١).

وَعَنْ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه زَمَنَ الْفَتْحِ وَهُوَ بِالْبَطْحَاءِ أَنْ يَأْتِيَ الْكَعْبَةَ فَيَمْحُو كُلَّ صُورَةٍ فِيهَا فَلَمْ يَدْخُلْهَا ﷺ حَتَّى مُحِيتَ كُلُّ صُورَةٍ فِيهَا^(٢).

= دار طيبة، الرياض، ط ١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ١٠/ ٣٥١.

(١) صحيح البخاري، كتاب أحايث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾

(سورة النساء: ١٢٥)، الحديث المرقوم ب: ٣١٢٦.

(٢) سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين

عبد الحميد، دار الفكر.

كتاب اللباس، باب في الصور، الحديث ذو الرقم ٤١٥٦.



خلاصة تقويمية

اخترت أن أتناول في الخلاصة التقويمية القضايا الرئيسية الكبرى وهي:
العدة المرجعية، ومفهوم النبوة، ومحمد ﷺ نبي الرحمة، لأنني وجدت محاور
كبرى لما تدور عليه كتابات الباحثة كارين أرمسترونج عموماً، ومحمد (ﷺ)
نبي لزماننا خصوصاً. أما بعض القضايا الجزئية فقد سبق تقويمها خلال
العرض.

- العدة المرجعية:

تعود الباحثة من حين لآخر إلى القرآن الكريم، تؤيد به حجتها وتستند إليه
في كثير من القضايا التي تريد الانتصار لها. وأشير إلى أن الباحثة تعتقد أن القرآن
الكريم هو كلام الله تعالى، على عكس معظم المستشرقين، فتقول مثلاً: «القرآن
هو كلمة الله المقدسة»^(١). لكن مع هذا، نجد الباحثة تخلط أحياناً بين القرآن
الكريم، وهو كلام الله تعالى، وبين كلام النبي ﷺ فتنسب آيات من القرآن
الكريم إلى النبي ﷺ! وهذا نتيجة إسقاط ما هو سائد في الكتب السماوية
الأخرى المحرفة على القرآن الكريم. إن الإنجيل مثلاً تتعدد نسخه بتعدد كتابه

(1) Karen Armstrong, Muhammad Prophet for Our Time, 16.

ومفسريه فينسب إليهم، وهذا ما لا ينطبق على القرآن الكريم.

كما اعتمدت الباحثة على نحو واسع على سيرة ابن إسحاق رحمته الله، وكثير من كتب التراث الإسلامي، وترى أن كُتّاب السيرة النبوية المسلمين كابن إسحاق (١٥١هـ)، والواقدي (٢٠٧هـ)، وابن سعد (٢٣٠هـ)، والطبري وغيرهم، اتبعوا منهج التدقيق والنقد والتمحيص. لذا وفر لنا التاريخ معلومات كثيرة حول النبي محمد ﷺ أكثر مما وفرها عن غيره. لكن، مع هذه الإشادة بمنهج التدقيق والتمحيص نجد الباحثة أوردت بعض المعلومات الشاذة والمعلولة التي تتنافى مع التدقيق، كما في قضيتي زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها، وزعمها إبقاء النبي عليه الصلاة والسلام على صورتي مريم وابنها عليهما السلام بالكعبة أمرا بعدم محوها.

واعتمدت الباحثة أيضا على كُتّاب مستشرقين، لكن بنسبة قليلة جداً، ولا يبدو لهم أثر في توجيه الباحثة خاصة اليهودي صمويل مرجليوت المعروف بأفكاره العدائية للنبي ﷺ.

كما نجد في العدة المرجعية للباحثة باحثين علمانيين كالمغربية فاطمة المريني صاحبة كتاب الحريم، وربما كان هذا ما دفع بها إلى القول بارتباط فرض الحجاب بظروف نزوله، وباقتصاره على نساء النبي وبناته رضي الله عنهن دون نساء المؤمنين.



- مفهوم الوحي:

يعتبر مفهوم النبوة من المفاهيم المستعصية على الفهم عند كارين أرمسترونج، وعند الغربيين عموماً. وقد سبقت الإشارة في البحث إلى هذا الأمر عند ذكر اعتبارها النبي ﷺ شخصاً له «موهبة استثنائية»، والزعم باعتقاده ﷺ «بوجوب إصلاح اجتماعي»، ونزوله ﷺ «لرأي الشباب الكارثي الذين تحمسوا للخروج لملاقاة قريش» في غزوة أحد. كما زعمت أن النبي ﷺ كان «يعرق بشدة» عندما يفكر لمواجهة قضايا صعبة وحرارة!! نعم، كان النبي ﷺ يعرق، ولكن عند نزول الوحي عليه، وليس عند التفكير.

إن مثل هذه الاعتبارات باطلة لأنها تجعل من النبي رجلاً معزولاً عن السماء، يعتمد في حركته على جهده العقلي والفكري البشري. وهذا الفهم يسلب النبوة والنبي ﷺ كل معنى وروح.

إن النبوة اصطفاء إلهي، وعناية ربانية. والنبي محمد، أو غيره، صلوات الله على الجميع، لا اختيار له فيما يُبلغ، ولا حق له في التصرف أو الزيادة أو النقصان، إلا ما كان من أمور دنيوية تخصه وليست من الوحي والتشريع، ولا تأثير لها في حياة الناس. وإلا فما وظيفة الوحي؟ بل ما وظيفة النبوة أصلاً؟

ويمكن إجمال وظيفة مقام النبوة في:

- تبليغ الناس تعاليم ربهم كما هي.

- بيان ما احتاج من ذلك إلى بيان، وعلى رأس ذلك بيان عواقب الأفعال،

حسنها وسيئها.

- الفصل بين الناس فيما يحدث بينهم من نزاعات وخصومات، مذكرا

بمصير المعتدي.

- الإجابة عن أسئلة الناس التي تظهر لهم من خلال ممارستهم للعبادات

أو معاملاتهم مع غيرهم، مسلمين كانوا أو كفارا.

- ومع هذا وذاك، كانت الوظيفة الأساسية لمقام النبوة الشريف دوام تذكير

الناس بمصيرهم، وتعريفهم أن آخرتهم يجنون فيها حصاد أعمالهم الدنيوية، من شر

وخير، وأن كل تصرف يتصرفه المؤمن إنما هو مما يبيني به سعادته في آخرته.

وكل هذا بتسديد الوحي من عند الله ﷻ وتصويبه. والشواهد في القرآن

على هذا كثيرة، منها ما سبقت الإشارة إليه كموضوع أسرى بدر. بل من أين

للنبي القيام بهذه الوظائف إن لم يكن مدعما وموجها بالوحي من ربه؟

- محمد ﷺ نبي الرحمة:

كان الهم الذي طغى على الباحثة هو نفى صفة العنف والإرهاب التي يحاول



الغرب إصاقتها بالنبي ﷺ، خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فتسخر كل طاقاتها وكل كتاباتها عن الإسلام من أجل ذلك. وتتوقف كثيرا عند بعض المفكرين والدعاة المسلمين الذين أساءوا في نظرها فهم جهاد النبي ﷺ فنسبوا إليه ما هو بريء منه، من دعوى العنف الذي شوهوا به حياته والدين الذي جاء به. فهذا سيد قطب رحمه الله مثلا أفزعته التجربة التي خاضها في داخل معسكرات جمال عبد الناصر لمدة خمس عشرة سنة مع الأشغال الشاقة، وجعلت أفكاره أكثر راديكالية، وتلقبه بـ«مؤسس الأصولية السنية» لأن جميع الراديكاليين اعتمدوا على إيديولوجيته التي طورها في السجن.

وتعلق الباحثة على هذه الإيديولوجية قائلة: «لكن عندما جعل قطب الجهاد أمرا مركزيا في النظرة الإسلامية فقد شوه حياة النبي. فكتب السيرة التراثية توضح أن الأمة الأولى قاتلت كي تبقى على قيد الحياة، مع ذلك لم يحرز النبي النصر بحد السيف، بل بسياسة إبداعية وذكية تدعو إلى عدم العنف. فالقرآن يدين كل أشكال الحرب على أنها مقبحة، ولا يجيز الحرب إلا دفاعا عن النفس»^(١).

وتجد كارين تأصيل قتل السادات على يد خالد الإسلامبولي في كتاب «الفريضة الغربية» لصاحبه عبد السلام فرج، المرشد الروحي لتنظيم

(1) Karen Armstrong, The Battle for God, Fundamentalism in Judaism Christianity and Islam, Alfred A. Knopf New York 2000, 267.

الإسلامبولي، الذي أكد أن السبيل الوحيد لإقامة مجتمع عادل هو السيف وحده. وتناقش مضمون الفريضة الغربية بعد استعراض الآيات والأحاديث الأمرة بالقتل، وتبين أن القرآن يهاجم المشركين فقط، بينما زعم السادات أنه كان مسلماً يلتزم بالأركان الخمسة، فكيف بالإمكان أن يحاربه مسلم؟ وتوضح أن عبد السلام فرج وجد عوناً له في فتوى لابن تيمية تحيز قتل المغول، وحكام مصر في نظره أسوأ من المغول.

إن حرص الباحثة كارين على إثبات صفة الرحمة للنبي ﷺ وإقناع الإنسان الغربي بها جعلها تفهم كل تصرفات النبي وفق هذا المنظور، وهذا ما جعلها تقع في بعض المنزقات التأويلية، كقولها بقبوله ﷺ للفدية في غزوة بدر، ورؤيتها الخاصة بشأن طرد يهود بني قينقاع من المدينة...

وبالجملة، يبقى ما كتبه كارين أرمسترونج، على ما به من هفوات، نموذجاً غربياً حاول الإنصاف والانتصار للحبيب ﷺ وإبراز شخصيته للعالمين، يجب تطويره والبناء عليه. وقد كسبت كارين بكتاباتها حول النبي والإسلام قطاعات واسعة من الناس. وأوضح مثال على ذلك تعدد طبعات كتبها وبخاصة: «محمد نبي لزماننا».



الخاتمة

بعد عرض محاور هذا البحث ومناقشتها نصل الآن إلى خاتمة المطاف لنقف عند بعض النتائج وبعض التوصيات:

- النتائج:

- مهما صُوبت السهام نحو سيرة خير البرية ﷺ فإن ذلك لا يحجب الحقيقة عن كثيرين من ذوي النوايا الحسنة والإرادة الحرة في فهم حياة النبي محمد ﷺ. وكارين أرمسترونج واحدة منهم.

- لقد حققت كتب أرمسترونج نسبة مبيعات عالية، خاصة كتابها الأخير «محمد نبي لزماننا» الذي طُبِع في السنوات: ٢٠٠٦ و ٢٠٠٧ و ٢٠٠٨ طبعات مختلفة تفوق عشر طبعات باللغة الإنجليزية. وهذا يبين تعطش العالم لمعرفة سيرة نبينا ﷺ بطريقة شائقة وموضوعية.

- إن الباحث الغربي مهما حاول أن يتحرى الموضوعية في بحثه، ومهما بدا منصفاً، أو مناصراً، في كتابته عن الإسلام لا بد أن يقع في بعض الأخطاء المعرفية التي ترجع بالأساس إلى عدم القدرة على التعامل مع التراث الإسلامي

المكتوب باللغة العربية. وهذا يفوت عليه كثيرا من الفوائد والصواب.

- إن الباحث غير المسلم لا يستطيع التخلص من رواسته العقدية (نصرانية أو يهودية) وهي المضطربة والمحرفة، فيقع بذلك في تأويلات وتفسيرات بعيدة عن الحقيقة عندما يكون بإزاء الدين الإسلامي، كما لا يستطيع الانفكاك عن منهج الإسقاط، أي إسقاط ما يعرفه عن النصرانية مثلا على الإسلام.

- التوصيات:

- أرجو من العلماء والمفكرين والباحثين المتخصصين إشاعة معاني الرحمة النبوية، وهم أقدر على ذلك، وبلغات شتى.

- الانتقال في السيرة النبوية من الدرس التقليدي الذي يعرض السيرة أحداثا تاريخية فقط، إلى الدرس التحليلي والاستنتاجي الذي يتناول القضايا والإشكالات التي تلبس بشأنها أفهام وتزل أقدام.

- تحقيق كتب السيرة والروايات والأخبار المتعلقة بجزئيات حياة النبي ﷺ لتجاوز المعلول والضعيف منها، حتى لا تؤدي إلى التشويش على من يريد فهم نبي الإسلام ﷺ، ولا سيما من كان من غير المسلمين.

- أن ينبثق عن المؤتمر فريق يهتم بمتابعة الجديد من الدراسات الغربية عن النبي ﷺ قصد تصنيفه ودراسته وتقويمه.



قائمة المراجع

أولاً: أهم مؤلفات كارين أرمسترونج غير التي ذكرت في البحث:

- (1) **The Bible: A Biography (2007).**
- (2) **The Great Transformation: The Beginning of Our Religious Traditions (2006).**
- (3) **A Short History of Myth (2005).**

وقد ترجم إلى العربية مرتين:

الأولى: بعنوان «موجز تاريخ الأسطورة»، لأسامة إسبر سنة ٢٠٠٧، صدرت عن بدايات للطباعة والنشر والتوزيع.

والثانية: بعنوان «تاريخ الأسطورة»، لوجيه قانصو سنة ٢٠٠٨، صدرت عن الدار العربية للعلوم وناشرون.

- (4) **Faith After September 11th (2002).**
- (5) **The Battle for God: Fundamentalism in Judaism, Christianity and Islam (2000).**

وقد صدرت للكتاب ترجمتان:

الأولى بعنوان: «معارك في سبيل الإله.. الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام»، لفاطمة نصر وآخرين، عن دار سطور ٢٠٠٠.

والثانية بعنوان: «النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام»، لمحمد جورا، عن دار الكلمة للنشر والتوزيع ٢٠٠٥.

- (6) **Buddha (2000).**
- (7) **In the Beginning: A New Interpretation of Genesis (1996).**
صدرت ترجمة لهذا الكتاب بعنوان «في البداية دراسة في التكوين»، لمحمد جورا،
سنة ٢٠٠٥، عن مكتبة نينار للدراسات والترجمة والنشر والتوزيع.
- (8) **Jerusalem: One City, Three Faiths (1996).**
صدرت ترجمة هذا الكتاب بعنوان «القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث»، لفاطمة
نصر ومحمد عناني، سنة ١٩٩٩، عن دار سطور الجديدة.
- (9) **A History of God: The 4000-Year Quest of Judaism;
Christianity and Islam (1993).**
صدرت ترجمة لهذا الكتاب بعنوان «الله والإنسان»، لمحمد جورا سنة ١٩٩٦، عن
دار الحصاد للنشر والتوزيع.
- (10) **The End of Silence: Women and the Priesthood (1993).**
- (11) **The English Mystics of the Fourteenth Century (1991).**
- (12) **Holy War: The Crusades and their Impact on Today's World
(1988).**
صدرت للكتاب ترجمة بعنوان «الحرب المقدسة، الحملات الصليبية وأثرها على
العالم اليوم»، لسامي الكعكي، سنة ٢٠٠٣، عن دار الكتاب العربي.
- (13) **The Gospel According to Woman: Christianity's Creation of
the Sex War in the West (1986).**
- (14) **Tongues of Fire: An Anthology of Religious and Poetic
Experience (1985).**
- (15) **Beginning the World (1983).**
- (16) **The First Christian: Saint Paul's Impact on Christianity
(1983).**



ثانياً: لائحة المراجع المعتمدة:

- (١) ابن القيم، زاد المعاد في هدى خير العباد، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٢٥.
- (٢) ابن ماجة القزويني، سنن ابن ماجة، بيروت، د.ت.
- (٣) أبو الوليد الأزرق، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، صحتها وعلق حواشيها ووضع فهرسها رشدي الصالح ملحق، الناشر عبد المقصود سعيد خوجة، جدة، ط٢، ١٤٢٥-٢٠٠٥.
- (٤) أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقمه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان، ١٤٠٧.
- (٥) أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد، مسند الإمام أحمد، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٤هـ.
- (٦) سليمان بن الأشعث، أبو داود السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.
- (٧) سيد قطب، معالم في الطريق، دار الشروق بيروت ١٩٩٣.
- (٨) عبد السلام ياسين، العدل.. الإسلاميون والحكم، مطبوعات الصفاء للإنتاج، ط١، ٢٠٠٠.
- (٩) علي بن عمر بن أحمد بن مهدي أبو الحسن الدارقطني البغدادي، العلل الواردة في الأحاديث النبوية، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله السلفي، دار طيبة، الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

- (١٠) محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون د.ت.
- (١١) محمد بن إسحاق، السيرة النبوية، تحقيق أحمد فريد المدني المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٤-٢٠٠٤.
- (١٢) محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الضعفاء الصغير، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب، ط ١، ١٣٩٦هـ..
- (١٣) محمد بن إسماعيل الأمير اليمني الصنعاني، سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- (١٤) محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم.. الجزء الأول: في التعريف بالقرآن، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط ١، ٢٠٠٦.
- (١٥) مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، دار إحياء الكتب العربية، ط د.ت.
- (١٦) موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة، المغني، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- (١٧) يحيى بن معين أبو زكريا، تاريخ ابن معين رواية الدوري، تحقيق أحمد محمد نور سيف، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ط ١، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

- (18) Karen Armstrong, Islam a short History, (Modern Library 2002).
- (19) Karen Armstrong, Muhammad a Biography of the Prophet, (HarperCollins 1992).



- (20) **Karen Armstrong, Muhammad Prophet for Our Time, (Harper Perennial, London2007).**
- (21) **Karen Armstrong, The Battle for God, Fundamentalism in Christianity and Islam, (Alfred A. Knopf New York Judaism 2000).**

* * *



أدباء أوروبا والإسلام وتداخل المصالح الشخصية مع المهمة المقدسة

«دراسة تقويمية لأراء الكاتب والفيلسوف الفرنسي فولتير حول الإسلام ونبيه ﷺ أنموذجاً»

إعلاء

محمود عبد العزيز محمود محمد راضي

باحث بالماجستير - قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية دارالعلوم - جامعة القاهرة

ابيض



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين؛ الصادق الأمين ﷺ

أما بعد:

اصطبغت العلاقات الإسلامية الغربية على مرّ الحقب والعصور بصبغة جدلية «دينية وتاريخية»، ومَرَّتْ بمسلسل من عدم التجانس والاتساق؛ فقد كان للاختلاف وعدم التوافق والالتقاء النَّصِيب الأكبر والحِيز الأوسع فيها، عبر مُدِّ تاريخية مضطربة وقلقة. وهذا أمر طبيعي، لاسيما إذا عُلِمَ تباين الثقافة والفكر، وعُرفَ تنازع اللغة واختلاف الدين، وهو ما يمكن أن نسمّيه بالتكوين الثقافي والديني المتتابع والمتراكم.

ومن ثَمَّ كانت مظاهر الاختلاف والتوجُّه الديني والفكري بين الإسلام والغرب حاضرة تمام الحضور في كلِّ عصر ومصر؛ سواء من الناحية النظرية - التي تمثلت في عقد الحوارات الدينية وإقامة المجادلات الكلامية (التناج الثقافي المقروء والمسموع) - أو من الناحية التطبيقية التصادمية، التي ظهرت بشكلٍ جلي وغير متناسٍ في المناوشات الحربية والمعارك العسكرية (الفتوحات

الإسلامية والحروب الصليبية) التي دارت بين الفينة والأخرى.

إنَّ التوغل المخيف لفكي الأسد^(١) (الفتوحات الإسلامية) من جهتي المشرق والمغرب عبر مضيقي البسفور وجبل طارق^(٢) تجاه (أوروبا الفساد العَقْدِي والظلام المجتمعي) لأجل تبليغ الرسالة المبتعث بها رسول الله ﷺ رحمة للعالمين كان له أثر - أي هذا التوغل - في إيقاد شرارة العداء المتواصل بين الإسلام والغرب، لكن ما كان للإسلام أبداً أن يكون مبتغاه أن يوقد عداء أو يدفع البشرية نحو حروب جهادية^(٣)؛ لولا أنَّه جاء لتصحيح الاعتقاد، وتقويم

(١) أعني بذلك الإسلام.

(٢) (مضيق البسفور): يربط بين البحرين الأسود وبحر مرمرة، ويتفرع مرمرة من بحر آخر يعرف بـ «إيجة. أمّا (مضيق جبل طارق): فيفصل بين قارتي إفريقيا وأوروبا من الجهة الغربية عند المملكة المغربية وإسبانيا.

(٣) إنَّ إثارة قضية السَّيف وجعلها من محاور البحث والنقاش والجدال المتجدد مع العالم الإسلامي من قبل الغربيين يُعدُّ عاملاً من عوامل النيل من الإسلام؛ فهذه القضية يتخفى وراء تبنيها إعلامياً أغراض مغرضة؛ يُراد منها ترسيخ مفهومات معيّنة وتمريس استراتيجيات غربية استعمارية، يُراد منها الوقوف بالإسلام عند حدود لا ينبغي أن يتعدّاها، إنَّها حدود إقليمية على الرغم من أنَّ الإسلام ديانة عالمية، إنَّها حدود الضعف والهوان، حدودٌ دعت الشريعة إلى هدمها والثورة عليها بحكم الاستخلاف الأمثل، ووقفنا الشيخ: محمد متولي الشعراوي رَحِمَهُ اللهُ عَلَى أهداف هذه الدعايات وما أثمرته من =

الاعوجاج الحادث، الذي تمثّل في الانحراف العقدي، والظلم الاجتماعي، والفساد الأخلاقي الذي طرأ على البشرية، نتيجة التحريف والتبديل من جانب الأحرار والرهبان.

= مساوئ فيقول: «قضية القوة في الإسلام قضية موضوعة مهمة، إلا أننا في آخر عهدنا قد وجّهنا المهمة وجهة أخرى، هذه الوجهة هي ما أراد أعداؤنا أن يقنعونا بها، قالوا: إنّ الإسلام انتشر بالسيف، فأحبّ المسلمون أن يردّوا على ذلك فقالوا: لا إنّ الإسلام لم ينتشر بالسيف، والسيف لم يستعمل في الإسلام إلا دفاعاً عن النفس... ولكنهم ما فطنوا إلى خبث هذه الدّعوة؛ خبث هذه الدّعوة نشأ من ماذا؟

نشأ من خوف خصوم الإسلام أن يحقّق الإسلام المراد من وجوده في الأرض، الإسلام وجوده في الأرض ليظهر على الدين كلّ، ومعنى ليظهر على الدّين كلّ أنّه أنّ مهمته إثبات الرشد للإنسانية كلّها، هم يريدون للإسلام أن يكتفي بالبقعة التي هو فيها ولا يفكر تفكيراً طموحاً في أن ينساح ليجعل كلمة الله هي العليا فيقولون: الإسلام جاء للدفاع فقط وما دام جاء للدفاع فقط فليس له أن يتعدّى سائر حدوده.

تلك كلمة براءة تبرى الإسلام من البتر بالسيف ولكنها تعوق الإسلام عن مدّه الذي أراده الله له، لأنّ الإسلام ما جاء لينشئ أمة واحدة في الأرض، وإنّما جاء ليعمّ عدالة السماء في الأرض كلّها، ولكنّه لا يفرضها فرضاً... إنّهُ إنّ فرضها فرضاً بقوته - إن كان يملك قوة الفرض للعقائد - فإنّه قد استولى على القوالب، والإسلام لا يريد أن يستولي على قوالب وإنّما يريد أن يستولي على قلوب». اهـ. انظر: كتابه «الإسلام حضارة وحداثة»، بتصرف يسير، ص ٢٣١، دار العودة، ١٩٨٧ م، بيروت، لبنان.

قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْثًا بِالْسُنَنِ ۚ وَطَعَنَّا فِي الَّذِينَ ؕ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾^(٢).

وهكذا كُتِبَ للإسلام القيام بتلك المهمة، لتصحيح الاعتقاد وأداء الأمانة التي وُكِّلَ بها، لتحقيق السعادة الدنيوية والأخروية للإنسانية كلها.

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَىٰ آلِ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾^(٣).

كان الإسلام وما زال هو الأمل القريب والملاجأ الحصين لجموع البشر في ذلك الوقت وفي كل مكان وزمان؛ عقيدة صافية نقية، خالية من الغموض

(١) سورة التوبة، آية: ٣١.

(٢) سورة النساء، آية: ٤٦.

(٣) سورة التوبة، آية: ٣٣.



والمبهمات، تأبى الشطحات وتمج النطاحات. شريعة شاملة؛ متنوعة الفروع في شتى مناحي الحياة. ديانة كاملة مكملة لغيرها من الشرائع السابقة؛ لم يصبها ما أصاب الشرائع السابقة من تبديل وتحريف وفساد.

ومن هنا اقتضى الأمر أن يكون هذا الدين هو القائد لعالم تلك اللحظة وهذا اليوم، وإشراقة الغد، فهو النبراس السماوي الأخير للبشرية جمعاء إلى يوم التلاق، وهذا ما أشار إليه ربُّ العزة والجلال في قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٣).

لم يسلم بهذه الحقيقة كثير من الأفراد والأمم وبخاصة أصحاب الشرائع السابقة (أهل الكتاب) نتيجة للرجسية المكذوبة كما جاء في قول الله ﷻ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَانِي خُنُّ أَبْتَوْنَا اللَّهَ وَأَحْبَبْنَاهُ﴾^(٤)، وقوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَنْ

(١) سورة آل عمران، آية: ١٩.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٨٥.

(٣) سورة المائدة، آية: ٣.

(٤) سورة المائدة، آية: ١٨.

يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ ۚ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾

من هنا صار الجدل الديني والسّجال العسكري هو العنوان الأبرز في العلاقات الإسلامية الغربية. وقد تباينت تظاهرات هذا السّجال من وقت لآخر تبعاً لاختلاف درجة المواقف الدينية وشدتها، وحدة الأحداث العسكرية. كما أنّ هذه المناوشات الكلامية والتلاحمات الحربية صارت عاملاً رئيساً في الارتفاع أو الهبوط لمؤشر التشويه ونشر ثقافة التجهيل عن الإسلام ونبي الإسلام ﷺ في البورصة الغربية.

وقد هياً الغربيون لقيادة هذه البورصة رجال الأكليروس وأشائوس الاستشراق^(١)؛ وكان هذا الاختيار موفقاً بالنسبة للغربيين؛ فقد عمل هذان الفريقان على رفع أسهم هذه البورصة من خلال تداول الشائعات واستنبات الشبهات ونشرها، واجتهدا في تحقيق أعلى معدل لمؤشرات التشويهية عبر تسطير الخرافات والخزعبلات عن الإسلام وخاتم الأنبياء ﷺ، وكافحا بكل ما أوتيا

(١) سورة البقرة، آية: ١١١.

(٢) سيأتي لاحقاً التعريف بهذين المصطلحين؛ فقد تحاشيت التعريف بهما هنا حتّى لا تثقل هذه المقدمة بما لا تتحمّله.

من قوة في توجيه المطاعن وحياسة التصورات الخاطئة عن الدين الإسلامي .
ويُعَدُّ النتاج التشويهي المتراكم لهاتين الطبقتين من رجال الأكليروس والاستشراق عبر الواقع التاريخي المتوالي أبرزَ شاهد على هذه الحقيقة؛ تشهد به دوائر المعارف الغربية والموسوعات والقواميس والدوريات والكتب والمعاجم القابعة في الاسكوريال وليدن والامبروزيانا وشيستر بيتي والسوربون وكمبريدج وأكسفورد وغير ذلك من مكتبات أوروبا وجامعاتها. ولستُ بحاجة إلى التذكير في هذه المقدمة بتأثيراته السلبية وآثاره الضارة على العقلية الغربية أو التناول والتفكيك لبنيتها الثقافية التاريخية الممتدة عبر ما يربو على ألف وأربعمائة وثلاثين عامًا. لقد أغنتنا المكتبة العربية الإسلامية بكثير من البحوث والدراسات عن هذه الموضوعات التي قُتِلَتْ بحثًا ودراسةً.

إنَّ ما يشغل جُلَّ اهتمامي في هذا البحث والمقصد الأساس الذي أطلع إليه فيه: هو تناول النتاج الثقافي (الأدبي) لفريق آخر انضم لهذين الفريقين في القرون الخوالي الأخيرة، وهو فريق (الأدباء الغربيين) الذين صاروا بمنزلة الضلع الثالث لهذا الثلاث (الأكليروس - الاستشراق - الأدباء). وهذا الفريق اشتغل بتشويه تاريخ الإسلام وثقافته ورموزه ومقدساته، مع إلقاء مزيدٍ من الضوء على تأثيراته ومساوئه.

لقد كان لأدباء أوروبا أثر كبير في تشويه الإسلام وسيرة خير الأنام مُحَمَّد ابن عبد الله ﷺ منذ أن ضربوا بحظ وافر بالمشاركة في هذه (المهمة المقدسة)^(١)؛ فقد استفزَّ انتباههم هذه القوة التي يتمتع بها الإسلام، وأقلقهم هذا التمدُّد الزاحف الذي طالما استلقت الانتباه بمرور الأيام وتوالي الأعوام.

إلا أنَّ مشاركة الأدباء قد اختلفت عن مشاركة رجال الأكليروس والاستشراق من ناحية الدوافع التي جعلتهم ينكبُّون على تشويه الإسلام؛ في كون الأدباء قد اتخذوا من تلهيهم الأدبي بالإسلام وسيلة لتحقيق الشهرة وتحصيل الثروات، خلافاً لرجال الأكليروس والاستشراق؛ الذين لم يكن لهم همٌّ سوى وقف انتشار الإسلام عن طريق التشويه، انطلاقاً من قناعتهم الدينية التي رأوا من خلاها أنَّ الإسلام بالنسبة لهم شرٌّ وكفرٌ وهمجيَّةٌ وردَّةٌ ينبغي محاربته ووقف انتشاره وتمدُّده بأيِّ وسيلة كانت.

وموضوع الأدباء هذا قلَّما تناوله الباحثون؛ فلم أرَ من تطرق إليه بالبحث والدراسة^(٢)، وهذا الأمر في حدِّ ذاته يصبح مثاراً للتساؤل لابدَّ من طرحه:

(١) انظر التعريف بهذا المصطلح الذي أستخدمه في محتويات هذا البحث وثنائاه في بداية الفصل الأول.

(٢) لم يتناول أحد من الكتَّاب - سواء القدماء والمعاصرون - أثر أدباء أوروبا في تشويه =



ألم يُطرح هذا الموضوع لصغر الحقبة الزمنية التي أخرج فيها الأدباء نتاجهم التشويهي عن الإسلام ونبيه ﷺ، والتي امتدّت لثلاثة قرون أو أربعة؟ أم لم يُتناول لضعف نتاجهم التشويهي (الكمي) الذي وُظّف من خلال الأدب؟ أم أنّ جامعاتنا العربية والإسلامية أبت أن تلزم المنتسبين إليها إلا بالأشياء السقيمة

=الإسلام، وإنّما الذي تُتَوَلَّى هو موضوع الأدباء المعاصرين - الذين يتمون إلى الإسلام- وأثرهم في الهجوم على الإسلام من خلال الروايات الأدبية، وهذه نبذة عن هذه الدراسات؛ فقد تناول الأستاذ أحمد أبو زيد هذا الموضوع في كتابه: «الهجوم على الإسلام في الروايات الأدبية». وهو كتاب صادر عن رابطة العالم الإسلامي ضمن سلسلة دعوة الحق، السنة الثالثة عشرة، محرم ١٤١٥ هـ، العدد ١٤٥.

كما تناول الدكتور سعيد بن ناصر الغامدي هذا الموضوع كذلك في بحثه «تطاول المنافقين على الثوابت» الذي ألقاه في مؤتمر «تعظيم حرّمات الإسلام» الذي نظّمته مجلة البيان السعودية ومبرة الأعمال الخيرية الكويتية سنة ١٤٢٨ هـ. وقد بيّن الدكتور سعيد بن ناصر الغامدي أثر أرباب الشعر والكتاب في التطاول على الصحابة والقرآن والسنة واللغة العربية والقرون الفاضلة، متخذاً من طه حسين ونزار قباني ومحمد أركون وأدونيس ونصر حامد أبو زيد أمثلة على دراسته.

كذلك تناول الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد أثر الخوارج والشيعة والمستشرقين والكتاب المعاصرين في التطاول على الصحابة الكرام ﷺ وذلك في بحثه «التطاول على الصحابة الكرام» الصادر عن دار اليسر بالقاهرة سنة ١٤٢٨ هـ.

كدراسة القصة والمسرحية والرواية لهؤلاء الأدباء، دون النظر إلى محاولة الوقوف على معرفة مواقفهم من الإسلام؟

أسئلة كثيرة كان باستطاعتنا تلافي إثارتها لو كانت ثمة دراسة أو أطروحة ظهرت في الأفق تناولت موقف هؤلاء الأدباء، ونتائجهم الأدبي، وتأثيره السلبي على الغربيين، وبيّنت أسباب تفشي هذه الظاهرة، وحاولت أن تقدّم لنا أدباء تميّز موقفهم بالغلو والكذب، ثمّ تراجعوا عن سلوك هذا الطريق كحالة (فولتير) الأديب الشهير - محور بحثنا هذا.

ولئن كنّا في هذا البحث نستجلي ونقوّم مواقف الأدباء وما خلفوه من آثار سيئة على الإسلام والمسلمين من خلال التوظيف الأدبي المنحرف الذي ترسموه في تناولهم للثقافة الإسلامية المعرفية فإنّ خير تمثيل يمكن أن نمثّل به لهذه القضية هو موقف الفيلسوف والأديب الفرنسي (Francois Marie Arouet) الشهير بـ(فولتير) من الإسلام.

ومرّد اختياري لـ(فولتير) - قطب عصر التنوير - يرجع إلى عدّة أسباب وهي:
أولاً: يُعدّ (فولتير) من أشهر أدباء أوروبا، ومن ثمّ أردت أن يكون فيلسوف فرنسا محور هذا البحث، نظراً لشهرته الكبيرة التي عمّت الأفاق.
ثانياً: أنّ النتاج الإبداعي الأدبي لـ(فولتير) - الذي تناول من خلاله



الإسلام - يفوق ما أنتجه أيُّ أديب آخر من أدباء أوروبا - فيما أعلم.

ثالثاً: أضف إلى ذلك أنَّ التحوُّل الفجائي الذي حدث في حياة (فولتير) -

بعد طول عهده بالتشويه والتزييف للإسلام - وإقباله على تناول الإسلام في أواخر حياته من المنطلق الموضوعي البناء، الذي يرمي بنيران العصبية والانتماء الذاتي في سلة المهملات يُعدُّ مقدَّراً ومقبولاً؛ لأنَّه تحوُّل تاريخي قلَّما وُجدَ شبيه له من جانب أدباء أوروبا عموماً. ومن ثَمَّ أردتُ من هذا الاختيار أن يكون باكورة ثمرة بحث لدراسة مواقف الأدباء الآخرين الذين عسى أن نجد - من خلال دراسة إنتاج أحدهم الأديب - تحوُّلاً شبيهاً بهذا «التحوُّل المحمود» لـ (فولتير)، ومن ثَمَّ تتأكد لدينا حتمية إعادة توجيه سير البحوث والدراسات نحو هؤلاء الأدباء وضرورتها، وإيقاف الغربيين على حقيقتهم، وكيف كانت مواقفهم تتغير صوب الإسلام بعيداً عن الأدب وفنونه، وعن تحقيق المطامح الشخصية كالتطلع للشهرة والعمل للاستحواذ على الأموال.

وقد تعدَّدت أسباب إقبالي على طرح هذا الموضوع، وتنوعت على نحو ما

سأبيِّن. ومن هذه الأسباب ستوضح أكثر أهمية هذا الموضوع:

أولاً: لحظتُ بعد قراءة معمقة لـ (موقف فولتير من الإسلام أو ما يمكن أن

نسميه قضية فولتير مع الإسلام) - التي أفرد لها كثيراً من الكتاب الشرقيين

والغربيين في مصنفاتهم - كثرة إجماعهم على إحالة صنيع (فولتير الأدبي) السيئ الذي شوّه من خلاله الإسلام وسيرة النبي مُحَمَّد ﷺ إلى رغبته في نقد الكنيسة، أو كما قال بعضهم: «كي يحول دفة الحديث ضد المسيحية الكاثوليكية، وضد خداع القساوسة والخرافات، وضد الدّين نفسه، وما يرتبط به ضرورة من نزعة التعصّب»^(١). وهكذا أجمع الكتاب الشرقيون والغربيون على هذا الرأي وحده^(٢).

ثانياً: إنّ هذا الرأي الذي توافر عليه جلُّ الكتاب، بشتّى أطرافهم لا يمكن مصادرته أو عدم التسليم به، لكن تأبى حرية البحث العلمي وضوابطه - وبخاصة في ضوء النصوص الثابتة التي في حوزتنا، والتي دوّنت ووصلت إلينا في المراجع المعتمد بها - التمرکز والتفوق حول هذا الرأي وحده القائل: «بأنّ هذا الهجوم الأدبي كان وسيلة مبطنة من أجل نقد الكنيسة». والشواهد والقرائن على هذه الحقيقة كثيرة، سندع النصوص الثابتة في ثنايا هذا البحث تعبّر عنها،

(١) الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، ص ١٤٢، مكتبة وهبة، ط الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، القاهرة.

(٢) ثمة إحالة إلى أساء هؤلاء الكتاب الشرقيين والغربيين ومصنفاتهم في المبحث الثاني المعنون بـ «تضافر الدوافع وتعدّدها حول مشاركة فولتير المشبوهة» في الفصل الثاني: «مشاركة فولتير التشويهية أنموذجٌ للتجسّد الأدبي المضللّ في عيون النّقاد».



ومن ثمَّ يُعدُّ هذا البحث إضافة جديدة تضاف لملف (فولتير مع الإسلام). وتتضح سمات هذه الإضافة في محاولتنا هذه - وفق الأدلة والشواهد واستقراء الواقع التاريخي لـ (فولتير) - إثبات أنَّ ثمة دوافع عدَّة هي التي حركت قريحة (فولتير) في الهجوم الأدبي المزيف على الإسلام وعدم إيماننا بدافع (النقد الكنسي فقط) الذي تركز حوله جلُّ الكتاب الشرقيين والغربيين.

وقد أشرتُ إلى هذه الدوافع، ومنها: المشاركة في المهمة المقدسة من جانب الأدباء أسوة برجال الأكليروس والاستشراق. ومنها: اتخاذ الأدباء من التلهي بالإسلام في أعمالهم الأدبية وسيلة لتحقيق الشهرة والظفر بالثروة والتطلع إلى الصيت والغنى، وقد كان أديب فرنسا الشهير (فولتير) خير مثال على هذه القضية. ومنها: ما هو خاص بـ (فولتير)، كاشتغاله بهذا التشويه انطلاقاً من قناعاته بـ (الماسونية التي كانت تضع أولى خطوات قدمها على الطريق). ومعلوم أنَّها لا تعتدُّ بالشرائع السماوية، وتدعو إلى الانحلال الديني والخلقي. ومن هنا تداخلت المصالح الشخصية مع المهمة المقدسة.

ثالثاً: محاولتي لفت انتباه الباحثين والمتخصصين في دراسة الأدب الغربي والأدباء الغربيين عموماً وقادة العملية التعليمية خصوصاً الأساتذة ورؤساء الأقسام العربية والأجنبية في الدول العربية والإسلامية - إلى أهمية توجيه سير

الباحثين وسالكي طريق البحث العلمي والدراسات العليا إلى ضرورة الاهتمام بدراسة مواقف الأدباء من الإسلام، والتنبيه على الجوانب الإيجابية لهم، والتحذير من مواقفهم السلبية، وإيقاف الرجل الغربي على كيفية تلهيهم بالإسلام، وعدم توخيهم الأمانة العلمية والحقيقة التاريخية في أعمالهم الأدبية، وتأكيد تغير مواقفهم من الإسلام وحامل الرسالة ﷺ.

منهج الباحث في البحث:

سلك الباحث واتبع في تناول هذا الموضوع ومناقشته أكثر من منهج؛ ففي الفصل الأول: تفقَّى الباحث المنهج التاريخي الذي استطاع من خلاله أن يبين كيف قابل الغرب الإسلام منذ سطوع شمسهِ بخطط تشويهية فاسدة ومناهج عقيمة، ورصد الباحث من خلال المنهج التاريخي كذلك بعض صور التشويه والتزييف الغربي للإسلام ورموزه. وسرد أنماطاً من الأحكام المسبقة التي تشربتها عقلية الرجل الغربي. وبَيَّنَّ بعض الآثار السلبية التي لحقت العالم الإسلامي والغربي جراء الاشتغال بهذه الأنماط الفكرية الممقوتة للإسلام ومبادئه ومقدَّساته، وأنَّ الاعتماد على هذه الأحكام المسبقة والاحتكام إليها قد أسهم بصورة خطيرة في بقائها في النفوس والعقول بفضل جهود رجال الأكليروس والاستشراق والأدب.



وفي الفصلين الثاني والثالث: كان لترسم المنهج التحليلي - لدى الباحث - أثر مهم في الوقوف على تلهي أدباء أوروبا بالإسلام وتشويههم له، ومنهم فولتير؛ الذي اتخذ وسيلة لتحقيق مطامح عدة، ومن ثم قامت الدراسة في هذين الفصلين على العرض والنقد لمواقف فولتير السلبية من الإسلام ونبيه ﷺ، فضلاً عن إثبات ما لفولتير من مزية - تفرد بها عن بقية أدباء أوروبا - تمثلت في «التحول الفكري المحمود» من جانبه تجاه الإسلام ونبي الإسلام بعد بلوغه من الكبر عتياً، بعيداً عن المهمة المقدسة، مع تحليه بالشجاعة الأدبية والنضج الفكري العالي والاقتراب من الإسلام ونبي الإسلام ﷺ بحيادية الباحث وموضوعية البحث.

وقد أتبعت في هذا البحث الخطة الآتية:

قسّمتُ البحث إلى مقدّمة، وثلاثة فصول، وخاتمة؛ وهي كالآتي:

• المقدمة:

تناولتُ فيها موضوعَ البحث، والخطة التي اتبعتها في عرضه، وذكرتُ فيها الأسباب التي دفعتني إلى الكتابة في هذا الموضوع.

• الفصل الأول: أدباء أوروبا وثمار الانتداب المقدس للمهمة المقدسة.

وفي هذا الفصل أشرتُ إلى الأثر الكبير للأدباء الأوروبيين في تشويه

الإسلام بعد انتدابهم إلى صفوف رجال الأكليروس ومغاوير الاستشراق - أصحاب القدم الراسخة في التشويه والتخدير - وشدّدتُ على أن هذا الفريق اتخذ من التلهي الأدبي وسيلة لتحقيق ما يصبو إليه كلُّ منهم من أهداف شخصية، كالتطلع إلى الشهرة والرغبة في تحقيق أكبر قدر من الثروة. ثمَّ بيّنتُ بعض الآثار السلبية التي لحقت الغربيين والعالم الإسلامي جرّاء الاشتغال بهذا النمط من التشويه والتجهيل الذي شارك في صياغة معالمه وتصوراتهِ الثالث المقدّس (الأكليروس - الاستشراق - الأدباء).

• الفصل الثاني: مشاركة فولتير التشويهية أنموذجٌ للتجسّد الأدبي المضللّ في عيون النّقّاد.

ولمّا كان الفصل الأول يدور حول الأدباء وأثرهم في تشويه الإسلام فإنّ الفصل الثاني قد خُصّصَ للحديث عن مشاركة أحد عمالقّة الأدب الأوروبي، وهو الكاتب والأديب الفرنسي (فولتير)، لبنين كيف ركب (فولتير) طريق الشهرة على حساب الإسلام، ومن ثمَّ سُقّت نماذج من هذا التلهي الفولتيري، لأدلّل على مثالبه الأدبية تجاه الإسلام. كما خصّصتُ مبحثاً لتناول بعض أعمال (فولتير) المسرحية، ووضحتُ كيف أنّ هذه الأعمال قُوِّلتْ بنقد لاذع ومستتهجن من قبل النقاد على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم الفكرية والأدبية



والتاريخية. وفي أحد مباحث هذا الفصل نبّهت على تنوّع الدوافع وتعدّدها في مشاركة (فولتير) في (المهمة المقدسة).

• الفصل الثالث: فولتير والاقتراب الموضوعي المتأخر من الإسلام.

وقد دار الحديث في هذا الفصل عن اقتراب (فولتير) الموضوعي والمتأخر في تناوله للقضايا الإسلامية، ومسائل الثقافة الإسلامية ورموزها عمومًا، وسقتُ بعض النصوص التي توضّح ذلك، بعد عهد طويل من التخلّي عن النزاهة العلمية والتاريخية في أعماله الأدبية. كما أثبتتُ بعض المواقف التاريخية العظيمة لـ(فولتير) في دفاعه عن الإسلام ونبي الإسلام مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ.

• الخاتمة:

وقد ضمنتُها بعض التوصيات التي رأيتُ من الأهمية بمكان الإشارة إليها في نهاية هذا البحث. وعسى من خلال طرحي إيّاها أن أكون وفّقتُ في الوقوف على حيثيات هذا الموضوع وسبل معالجته.

والله أسأل أن يجعل بحثي هذا خالصًا لوجهه، وصلّ اللهم وبارك على النَّبي الأُمي مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليماً كثيرًا.



الفصل الأول

أدباء أوروبا وثمار الانتداب المقدس للمهمة المقدسة

وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول: انتداب الأكفاء للحماية المؤمنة.
- المبحث الثاني: الهدف القومي والأمل المعقود.
- المبحث الثالث: أدباء أوروبا وطريق الشهرة وعالم الصيت والغنى (الممر الآمن).
- المبحث الرابع: ثمار الغسل المنظم للأدمغة (قطف الثمار).

اييض

الفصل الأول

أدباء أوروبا وثمار الانتداب المقدس للمهمة المقدسة

كان للأدباء الأوروبيين أثر كبير في تشويه صورة الإسلام وسيرة النبي مُحَمَّد ابن عبد الله ﷺ. وعلى الرغم من حداثة القيام بهذه المهمة المقدسة^(١) التي تطلعوا للقيام بها مشاركة مع رجال الأكليروس والاستشراق - لاسيما إذا ما قيسَتْ بالحقبة الزمنية التي اشتغل بها رجال الأكليروس والاستشراق بالشرق وديانته وعلومه ورجاله ومقدساته منذ أن ظهر الإسلام - فإنَّ نتائجهم الأدبي السيئ عن الإسلام

(١) استخدامي لمصطلح «المهمة المقدسة» في ثنايا هذا البحث ومحتوياته وقضاياها أعني به ما سلكه رجال الأكليروس والاستشراق والأدباء في معرفة الشرق عموماً والإسلام خصوصاً من منهجية مريضة، تنطلق من تقديم الأحكام المسبقة، ولا تقيم أي أهمية للتجرد الذاتي أو التحلّي بالأمانة الموضوعية والنزاهة العلمية في التناول والمعالجة للناحية المعرفية والتاريخية للثقافة الإسلامية ومسائلها ورموزها ومقدساتها، ومن ثمَّ كان التشويه لمسائل العقيدة والشريعة الإسلامية، والتحريف لكتاب الإسلام (القرآن الكريم)، والتنقيص من رموزها، والتبديل لأفكاره، والتخدير للعقول والأفراد، والتهجُّم والتقليل من الإسلام وحامل رسالته عنواناً للنتاج الغربي المتراكب؛ الموجّه لحماية الرجل الغربي من التساقط في أحضان الدّين الخاتم، ومن ثمَّ أمكنتنا هذه الوسائل وتلك الأساليب التي اتَّخَذَتْ من جانب الغربيين في تشويه الإسلام من تسميتها بـ(المهمة المقدسة).

كان له تأثير كبير على عقلية الرجل الغربي سواء من الناحية الكمية أو التأثيرية. وفي هذا الفصل ألقى الضوء على عملية الانتداب من جانب الأدباء للقيام بـ «المهمة المقدسة»، مبرزاً الهدف من هذا الاشتغال لدى الغربيين، مبيّناً الطريق الذي سلكه الأدباء، والذي تنوعت دوافع الأدباء من خلاله تجاه الشرق (الإسلام)، معرياً الوهم الغربي الذي قلّل من شأن الآثار السلبية التي لحقت الإسلام والمسلمين جراء هذا الاشتغال الفاسد والمشوّه، والذي انعكس بالسلب على صورة الإسلام والمسلمين، ومن ثمّ أدّى إلى انتشار مرض «الإسلام فوبيا»^(١) لدى الغربيين على مرّ العصور وتتابع القرون والدهور.

(١) تعني ظاهرة «الإسلام فوبيا» انتشار الخوف المرضي من الإسلام لدى الغربيين، نتيجة الجهود التشويحية المبذولة من قبل وسائل الإعلام الغربية؛ فمعظم ما طرأ على العالم في الآونة الأخيرة من أحداث سياسية وإرهابية، جعلت وسائل الإعلام تربط بين تلك الأحداث والإسلام والمسلمين، وهو ما أدّى إلى انتشار هذه الظاهرة العنصرية، التي كانت آخر ضحاياها الدكتورة مروة الشربيني؛ التي طعنها مجرم ألماني نازي يدعى (أليكس - Alex) في قلب محكمة ألمانية في مدينة «دريسدن» الألمانية يوم ١ يوليو ٢٠٠٩ م، ومن قبلها تعرّض الشيخ مُحَمَّد السلاّموني - مبعوث الأزهر وإمام المسجد الكبير في لندن - لاعتداء مماثل من مواطن بريطاني متطرف من أصل إيرلندي يدعى (رايان دونيجان - Ryan Donejan)؛ حيث فقأ عين الشيخ مُحَمَّد السلاّموني داخل المسجد الكبير بلندن في ١٠ أغسطس ٢٠٠٧ م.

المبحث الأول

انتداب الأكفاء للحماية المؤمنة

لم يكن أحد من الناس في أوائل القرن السابع الميلادي يتصور أن البشرية - بعد هذا التخبط الواضح، والانحلال الاجتماعي، والفساد الديني الذي طرأ عليها نتيجة التحريف والتبديل الكتابي^(١) - سترد إلى الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾.

بيد أن هذا التصور صار واقعاً معيشاً مع نزول أول آيات قرآنية، داعية إلى إقامة المعتقد الإنساني الصحيح على العلم والمعرفة، وحاضرة على التفكير والعلم والعمل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

ثم ما لبث هذا التصور أن صار حقيقة كونية، مع الإخبار الإلهي عن إتمام

(١) نسبة إلى أهل الكتاب (اليهود والنصارى).

(٢) سورة الإخلاص، الآيات (١ - ٤).

(٣) سورة العلق، الآيات: (١ - ٥).

آخر رسالة إلهية غير مبدّلة أو محرّفة وإكمالها، لتكون نبراساً للبشرية التّعيسة في سيرها نحو الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١).

سَلَّمَ بهذه الحقائق كثير من الأفراد والأمم، إلا أن بزوغ فجر الإسلام في بدايات القرن السابع الميلادي- ليتّم سلسلة الرّسالات الإلهية ويختم ببعثة رسوله مُحَمَّد ﷺ سلسلة الأنبياء- لم يسلم من أن تعتريه الكثير من الصعوبات وتواجهه العقبات من جانب أهل الكتاب؛ الذين تعاملوا مع الإسلام من منطلق التشويه والتزيف وليس التعريف والاطلاع الموضوعي.

وقد هياّ الغريون لهذه (المهمة المقدّسة)- مهمة التشويه والتخدير لا المعرفة الصّادقة المجردة- وانتدبوا لعملية الغسل المنظم للأدمغة رجالاً أقوياء، لم يكونوا من السّداجة والبلاهة بمنزلة أو معرفة- بزعمهم- فهم متدّبون «للحماية المؤمّنة» حتّى يوقفوا نهر الإسلام، الذي تتعدّد قنواته، وتتسع جداوله يوماً بعد يوم، والأخذ بالجريان والزيادة، إنهم رجال الأكليروس^(٢)، ومغاوير

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) (إكليروس - Clergy): كلمة يونانية يُقصدُ بها أصحاب الرتب الكهنوتية الذين يخدمون شعب الله، من أساقفة وكهنة وشمامسة، ويُقال: إنهم يحملون صوت الشعب إلى الله، =

الاستشراق^(١).

ولعلَّ أسوأ نموذج يمكن أن نستأنس به في هذا الموضع، لندل على تركة رجال الدين والاستشراق السخيفة المشوهة الموجهة ضد الإسلام؛ هو تلكم الصورة المشوهة التي رُسِمَت عن النبي ﷺ والتي جعلت منه «رجلاً ضالاً»^(٢)،

=ويحملون سرَّ الله وكلمته إلى الشعب، وهم رتب وهي: رتبة الشمامسة، ورتبة القسيسية، ورتبة الأسقفية. وقيل يدلُّ معناها اللاهوتي والكنسي «على طبقة من الأشخاص، يشتركون بدرجة تحددها لهم الكنيسة بصورة دقيقة في مهمات كنسية وفي السلطات اللاحقة بها» مستفاد من موقع www.st.takla.org. وراجع معجم اللاهوت الكاثوليكي، لـ(كارل راهنر) و(هربرت فورغريملر)، ترجمة: المطران عبده خليفة، مادة: الأكليروس، دار المشرق، بيروت، لبنان.

(١) (الاستشراق – Orietalism): «تعبير يدلُّ على الاتجاه نحو الشرق، ويُطلق على كلِّ من يبحث في أمور الشرقيين وثقافتهم وتاريخهم؛ ويُقصد به ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، التي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته. ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة، معبراً عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة»، مادة الاستشراق، مطبوعات دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط الخامسة، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م، الرياض، السعودية.

(2) N. Daniel, Islam and the west: the making of an image, Edinburgh university press, Edinburgh, 1960, p 234 – 235.

عَلَّمَهُ الرَّاهِبُ النَّصْرَانِي الضَّالَّ (بحيرا) أمور الدين. فهذا الكاتب الأوروبي (بيدرو باسكال - Pedro Pascal) يتبنَّى هذا النهج، مدعيًا أَنَّهُ قد استقى معلوماته عن تتلمذ محمد من (بحيرا) من مصدر موثوق به وهو سيرة ابن هشام في ترجمتها إلى اللغة اللاتينية. يقول: «إِنَّ المصادر الإسلامية تفيد بأنَّ راهبًا مرتدًا عن النصرانية يقال له (بحيرا) رأى محمدًا وقَرَّبَهُ إليه وعَلَّمَهُ الدين المنحرف! وحذَّرَ عمه أبا طالب من أن يصيبه اليهود بسوء، وسرعان ما تعلَّم محمد أمور الرهبنة، وانقطع للتنسُّك بجبل في «مكة» مهينًا نفسه لتزوير كتاب ديني يزعم أَنَّهُ أوحى إليه»^(١).

إِنَّ هَذَا الْكَذِبَ الْبَيِّنَ الَّذِي تَقُولُهُ (بيدرو باسكال) - عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ - اعْتِمَادًا عَلَى مَصَادِرِهِ الْمَزِيْفَةِ الَّتِي ادَّعَى أَنَّهَا إِسْلَامِيَّةٌ لِيُخْزِيَهُ، فَأَيْنَ هِيَ الْمَصَادِرُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي حَوَتْ وَضَمَّتْ هَذِهِ الْأَوْهَامَ وَالْأَكَاذِيبَ؟! وَجَمَاعَ الْقَوْلِ عَنْ افْتِرَاءَاتِ (بيدرو باسكال) أَنَّهُ أَرَادَ نَسْجَ قِصَّةٍ مِنْ وَحْيِ خِيَالِهِ، تَدْفَعُهُ إِلَى ذَلِكَ دَوَافِعُ تَعْصِيبَةٍ مُحْضَةٍ، لَا يَسْلُكُهَا وَيَتَّبِعُهَا إِلَّا أَرْبَابُ التَّعَصُّبِ وَالْهَوَى. وَقَدْ بَدَأَ ذَلِكَ جَلِيًّا فِي مُحَاوَلَةٍ إِضَافَتِهِ إِلَى أَصْلِ الْقِصَّةِ مِنْ وَحْيِ أَفْكَارِهِ وَتَحْرِصَاتِهِ زَعْمَهُ تَأْلِيفَ مُحَمَّدٍ لِلْقُرْآنِ بِوَحْيٍ مِنَ الرَّاهِبِ الْأَرُوسِيِّ (بحيرا).

(1) N. Daniel, Islam and the west: the making of an image, Edinburgh university press, Edinburgh, 1960, p 235.



طالما تعامل الغربيون مع الإسلام من منطلق الهوية والصراع؛ فقد كان لصدى الجيوش الإسلامية الزاحفة على جبال كانتبرية وهضاب الأناضول أثر كبير في توجس الغرب من الإسلام، والنظر إليه على أنه إمبراطورية توسعية، لا على أنه دين ناسخ للشرائع السابقة، ومن ثمَّ قوبل المحتوى الإيماني الإسلامي بكلِّ ما يملئه هذا الدين الخاتم من إنسانية ورحمة وفطرة سليمة لجميع البشر بجهود تشويهية جبارة، ولذا صارت جدلية العلاقة بين الغرب والإسلام قائمة على نوع من الارتياب الفسيولوجي والصدام الثقافي الدائم والسجال العسكري المتجدد بين الفينة والأخرى.

ويديلي المستشرق الإسباني (خوان غويتسلو - Juan Goytisolo) بدلوه في هذا الأمر فيقول: «منذ التوسع المستمر للإمبراطورية العثمانية في البلقان وشمال إفريقيا - خاصة بعد سقوط القسطنطينية ومحاولة الاستيلاء على روما - تحول اهتمام المؤرخين الفرنسيين بالحروب الصليبية وتواجد المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية إلى إعجاب متزايد بالأتراك مع مشاعر الخوف والحقد عليهم». وقد استلزم هذا التوجس لدى الغربيين وضع الخطط والمناهج التي تقدّم الإسلام في أشع صورة وأردأ قالب حتّى يحافظ الغرب على تماسكه الذي مزقته المناظرات الجدلية في أمور العقيدة.

وقد قُدِّمَ الإسلام ونبي الإسلام ﷺ للقارئ الغربي أسوأ تقديم، وليس ثمة تأكيد على هذه المسألة يماثل تلك الحقيقة أخبر من تعبير المستشرق الإسباني (خوان غويتسلو) الذي يصف من خلاله هذه التركة الغربية بالملفقة. يقول: «وحتى القرن السادس عشر وجهة النظر عن الرسول محمد والمسلمين مأخوذة من المخطوطات الملفقة عما يسمى بالفتح!!! والتي قام إدوارد سعيد بمناقشة محتواها السري والغريب في كتابه الاستشراق»^(١).

(1) Periodico el pais, 4-5-2006, Tribauna: Juan Goytisolo, Artículo: Voltaire y Islam.



المبحث الثاني

الهدف القومي والأمل المعقود

شرع رجال الأكليروس والاستشراق يشوّهون الإسلام وكلّ ما يمت بصلة إليه، وأقبلوا بقضّهم وقضيضهم على هذا الهدف القومي، فاختلفوا الأكاذيب، وألصقوا به الأعاجيب، والهدف من ذلك - كما (تقول أرمسترونج) - أنّهم «كانوا يرومون إثارة استجابة عاطفية معينة لدى قرائهم، وخلق حالة ذهنية من شأنها أن تقود المسيحيين إلى رؤية الإسلام كشّر مطلق وخطر منفلت من عقاله!!!»^(١).

وكان من أهم الدوافع التي أدّت إلى تفريخ هذه الشبهات وتوليدها تنامي أعداد المسلمين وزيادتهم جيلاً بعد جيل، ومفارقة غير المسلمين للملهم وارتماؤهم في حديقة الإسلام، تقول (كارين أرمسترونج): «كان الدّارسون المسيحيون في حيرة من أمرهم لمعرفة كيف استطاع مُحمّد أن يُلهِم مثل هذا الجحفل من الأتباع الأوفياء في العالم العربي، لذا قدّموه على صورة محتال أفك أو

(١) الحرب المقدّسة، كارين أرمسترونج، ترجمة: سامي الكعكي، ص ٥٠٩، دار الكتاب

العربي، ٢٠٠٥م، بيروت، لبنان.

ساحر مخادع لَفَّقَ معجزات زائفة خلبت لبَّ العرب البسطاء!!!^(١). اهـ.

ويوقفنا (رامون مارتى - Ramon Marti)^(٢) - صاحب «الإدانة الرباعية» -

على الهدف من هذه المهمة المقدَّسة ومن اشتغال الغربيين بعلوم الإسلام وآدابه وتاريخه ورموزه، فيقول: «إنَّهم لا يكتبون لكي يفهموا بل ليدينوا؟!». وما أكثرها من إدانات استحدثت تحت حرية الفكر والبحث؟! وما أغربها من شبهات افتعلوها وهي بعيدة كلَّ البعد عن سياق الحقيقة وواقعية التاريخ؟!

وإلى جانب فرق الأكليروس والاستشراق وُجِدَ فريق آخر اضطلع بالإسهام في هذه المهمة المقدَّسة، ومن ثَمَّ تَقَفَّى معالمها محتذياً منهجها، وإن كان قد اتَّخذ منها غطاءً لتحقيق مصالحه الشخصية، ألا وهو: «فريق الأدباء»^(٣)، الذي

(١) الحرب المقدَّسة، كارين أرمسترونج، ص ٥١٠.

(٢) (رامون مارتى - Ramon Marti): راهب دومينيكاني نصراني أندلسي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي، وقد عدَّه (مونتيير دي فيلا - Montert De Villard) «أول مستشرق أوروبي» تميِّناً لجهوده في تشويه الإسلام وسيرة النَّبي ﷺ - انظر كتاب «الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني»، الدكتور مُحَمَّد عبد الواحد العسري، ص ١٦٩، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ط ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، الرياض، السعودية.

(٣) الحرب المقدَّسة، كارين أرمسترونج، ص ٥٠٩.

(٤) اختطَّت في هذا البحث منهجاً مخالفاً لمعظم من تناولوا الجانب الاستشراقي من ناحية =

كان له باع في رواج أسواق التشويه داخل المحافل الأدبية والتجمعات الجماهيرية في أوروبا منذ أن ظهر الإسلام، مرورًا بالحملات الصليبية^(١) وحتى العصر الحديث.

لقد كان لهذا الفريق - الذي اتخذ من الأدب وسيلة لتشويه الإسلام والنيل من رموزه ومقدساته - أثر مؤثّر في إذكاء شعلة العداء المتواصل بين الغرب والإسلام على مرّ العصور والحقب، نتيجة معالجته غير الموضوعية والمريضة للشرق وحضارته وثقافته، وكلّ ما يتّصل بتاريخ الإسلام.

ويدلّل الدكتور محمّد عبد الواحد العسري على هذه القضية أو تلك الحقيقة، ملقيًا مزيدًا من البيان حولها، فيقول: «قوي الاهتمام الأوروبي بالشرق

= أفراد جهود الأدباء وعزلها عن إسهامات المستشرقين، وإن كان يضرب كلّ منهما بحظ وافر في المشاركة في المهمة المقدسة، إذ إنّ تجاهل هذه الجهود في وضع لبنات البناء الاستشراقي يُعدّ ضربًا من الجنون، لأنّ هذا الأدب - كما يقول (إدوارد سعيد) -: «غنيّ غنى خاصًا وذو إسهام هام في بناء الإنشاء الاستشراقي». راجع كتابه: «الاستشراق: المعرفة - السلطة - الإنشاء»، ترجمة: كمال أبو ديب، ص ١٢٣، مطبوعات مؤسسة الأبحاث العربية، ط الرابعة ١٩٩٥م، بيروت، لبنان.

(١) مصطلح «الحملات الصليبية» الذي أستخدمه هنا ومدلوله لا ينبغي أن يحمل أو يقتصر على تلك الحملات التاريخية الشهيرة التي سطرّها المؤرخون الشرقيون والغربيون في كتب التاريخ فقط؛ بل ينسحب إلى وقتنا الحاضر.

بين مجموعة من الرومانسيين^(١) الذين وجدوا في موضوع الاستشراق - أي الشرق - مجالاً رحباً وخصباً لتجارهم الأدبية الجديدة والمجددة. وعلى الرغم من كون هذا الضرب من الاستشراق، لم يتغيب أبداً بالنظر إلى طبيعته المعرفية بالشرق والعلم الدقيق به، فإنه قد ساهم في بلورة تصورات عن الشرق، وتزويد جمهور عريض من الغربيين بها لاستهلاكها وإعادة إنتاجها^(٢). ضمن المخطط

(١) وهو يعني في هذا الموضع الأدباء الرومانسيين مثل: (دانتي أليجييري - Dante Alighieri) الأديب الإيطالي ومن أهم أعماله: (الكوميديا الإلهية - Divina Commedia)، و(ميجل دي ثربانتس - Miguel De Cervantes) الأديب الإسباني الذي اشتهر بروايته (دون كيشوت دي لا مانشا أو دون كيخوته)، و(ويليام شكسبير - William Shakespeare) الأديب الإنجليزي الذي يُعدُّ من أهم كتّاب المسرح في العالم، والذي لُقِّب بـ «شاعر إنجلترا الوطني»، ومن أهم أعماله: عطيل، وهاملت، والمليك لير، وروميو وجوليت، وأنطونيو وكليو باترا، و(يوهان فولفجانج فون جوته - Johan Wolfgang Von Goethe) الأديب الألماني الذي اشتهر بكتابة الأشعار والمسرحيات والروايات، ومن أهم أعماله: الديوان الشرقي الغربي، والشعر والحقيقة، والمتواطئون، والمراثيات الرومانية، والرحلة الإيطالية، و(ألفونسو دي لامارتين - Alphonse De Lamartine) الأديب الفرنسي الشهير، الذي من مؤلفاته: رحلة إلى الشرق، وسقوط ملاك، وخشوع شعري.

(٢) الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني، الدكتور مُحَمَّد عبد الواحد العسري،



الاستراتيجي الذي وُضِعَ لمحاربة الإسلام.

وعلى الرغم من الأثر الذي كان لهذا الفريق، إلا أنه لم يحظ - في اعتقادي - بأي نصيب من البحث والدراسة الجادة عن آثاره المقدسة داخل نطاق الثقافة العربية الإسلامية عمومًا وأروقة البحث العلمي والدراسات العليا خصوصًا في الجامعات العربية والإسلامية.

لقد كان الإسلام عقيدةً وشريعةً، وسيرةً رسولهُ ﷺ لدى أدباء أوروبا - مرتعًا خصبًا للتشويه، وعملاً مقدسًا للتمويه منذ أن ظهر؛ فلم يحفل هؤلاء الأدباء والكتّاب إلا بهذا الأمر الذي أناطوا أنفسهم به، عاديّين إياه عملاً مقدسًا، دفاعًا عن المسيحية الآخذة في الذبول، نتيجة انتشار أسواق الجدل في روما وبيزنطة في أسماء الله وصفاته.

ويوقفنا المستشرق الإسباني (خوان غويتسلو - Juan Goytisolo) على ذلك فيقول: «منذ أن ظهر الإسلام في أفق المسيحية في القرن السابع الميلادي وصفته الأغلبية السّاحقة من الكتّاب الأوروبيين بأنه دين الشبكية التي لا تعرف حدودًا ولا عوائق، وعدم التسامح البربري المتوارث؟!»^(١).

(١) في الاستشراق الإسباني، خوان غويتسلو، ترجمة: كاظم جهاد، ص ٦٧، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط الأولى، ١٩٨٧م، بيروت، لبنان.

استغلَّ الأوربيون النهج الأدبي بما يضمه من فنون عديدة: كالقصة والرواية والمسرحية وما لهذه الفنون من بريق ساحر وتأثير قاتل لدى الجماهير، سبيلاً للحماية المؤمّنة خشية التحوّل الجزئي أو الكليّ نحو نهر الإسلام، وحتىّ يوقفوا زحفه المتجدّد وانتشاره المتزايد بفضل ما أبدعه من هم أمثال^(١):

(دانتي أليجييري - Dante Alighieri) و(ثربانتس - Cervantes)

و(شكسبير - Shakespeare) و(جوته - Goethe) و(لامارتين - Lamartine).

ولمّا كان الاستغلال الأوروبي الجيّد لفنون الأدب من خلال توظيف الأدباء تجاه الإسلام يسدُّ ثغرة من الثغرات من أجل المهمة المقدّسة، فإنّه يمكن القول: إنّ تجنيد خالطته المصالح الشخصية من جانب الأدباء، فقد اتّخذَ غطاء للوصول إلى مآرب شخصية وذاتية على حساب الإسلام ونبي الإسلام ﷺ. كيف جرى هذا أو حدث ذلك؟ هذا ما سبيّنه في المبحث القادم.

(١) أدباء أوروبيون يعدّون من مشاهير الأدباء؛ ف(دانتي - Dante) أديب إيطالي ت ١٣٢١م، و(ثربانتس - Cervantes) أديب إسباني ت ١٦١٦م، و(شكسبير - Shakespeare) أديب إنجليزي ت ١٦١٦م، و(جوته - Goethe) أديب ألماني ت ١٨٣٢م، و(لامارتين - Lamartine) أديب فرنسي ت ١٨٦٩م.



المبحث الثالث

أدباء أوروبا وطريق الشهرة وعالم الصيت والغنى (الممر الآمن)

لم يكن أدباء أوروبا يجدون طريقاً ذليلاً للشهرة وذيوع الصيت، وسيلاً ممهداً للغنى وكنز الثروات إلا بتشويه حقائق الإسلام، وطمس معالمه، والنيل من مقدّساته، وإصاق كلّ قبيح بسيرة خير الأنام ﷺ أمام هذه الجماهير المحتشدة المتلهفة إلى سماع كلّ ما هو سيئ عن الشرق - وأعني بالشرق هنا الإسلام عامةً وكلّ ما يتّصل بثقافته وحضارته - فقد استمرأت آذانهم الطرب من خلال هذه المعمة الغوغائية الكذوبة التي لاكتها ألسنة الكتّاب وأقلام الأدباء.

ولذا ألصق هؤلاء الأدباء بالإسلام وسيرة رسوله ﷺ الخزعبلات، وحملوه الخرافات؛ حيث كان هذا التشويه - المتكسّب به تارةً والذي تدفعه نار الحقد والعصبية تارةً أخرى - وسيلةً مهمة لالتفاف الناس حولهم والتصفيق من أجلهم، وحشدتهم صفّاً واحداً ضد نهر الإسلام، الآخذ في النمو والزيادة، والذي بهرّ النفوس، وخلبّ العقول بما قدّمه من إسهامات حضارية منذ أن بزغ فجره فوق غار حراء.

لقد طفق الأدباء يحمّلون دين التوحيد الكثير من الأكاذيب والغرائب؛ فجعلوا من عقيدته وثنية ممسوخة، ومن شريعته جاهلية ممقوتة، عفا عليها الزمان، وعُدَّ هذا العمل إبداعاً، وبُورِكَ لمتبنييه، وصُفِّقَ لهم. ويوقفنا المستشرق الإسباني (خوان غويتسلو) على هذا الاستغلال الأدبي لتحقيق الشهرة وتحصيل الثروة، وكيف كان الأدباء يتلهوّن بالإسلام في أعمالهم الأدبية، فيقول: «يتحول الشرق والإسلام تحت يراع الكاتب الغربي - سواء كان^(١) «لوديه ده فيغا»، أو «شكسبير»، أو «ثربانتس»، أو «لامارتين»، أو «غوتيه»، أو «فلوبير»، أو «نرفال»، أو «لوتي»، أو «لورنس»، أو «جيد»، أو «دوفير» - أقول يتحول إلى مجرد تعلّة (تله) يستند إليها الكاتب لنشر إبداعه، وتجسيد استهاماته، والخروج للبحث عن هويته الشخصية، ونسج بعض الحبكات، ووضع أعمال خيالية، واجتراف مجازات... الخ»^(٢).

ويضيف (خوان غويتسلو) قائلاً: «أبدًا لا تعمل الأفكار والرؤى والكشوف والصور لصالح الكائنات الإنسانية التي أظهرتها إلى النور، ولا تمهد لقيام خطاب حقيقي حول هذه الكائنات؟! ما يهمّ (لنقلها بفضاظة) هو المسيرة

(١) كل ما يأتي ذكره من أسماء هؤلاء الأدباء يُعدُّ من مشهوري أدباء أوروبا.

(٢) في الاستشراق الإسباني، خوان غويتسلو، ص ٣٣.

الشخصية والأنانية للكاتب، وأثرها على جمهوره الأوروبي، سواء كان الأثر مضيئاً أو على العكس مكرراً لما سبقه وسلبياً، من حيث كونه يساهم في ترسيخ «الكلشيهات» والأحكام المسبقة القائمة؟!^(١). على الكذب والتعصّب وبثّ ثقافة التجهيل.

وهكذا كانت المسيرة الشخصية للكاتب أو الأديب وما تطمح إليه من الصيت والغنى عاملاً أساساً في اللعب على مشاعر الجماهير، وإثارة عواطفهم، وملء عقولهم بالأساطير على حساب الإسلام وحامل رسالته ﷺ.

لقد شرع أدباء أوروبا يصوّرون الإسلام ويكوّنون أفكارهم عن خاتم الأنبياء ﷺ ويُسقطون الكلشيهات عليه ﷺ ويملئون العقول كما سوّلت لهم أنفسهم. وليته كان تصويراً صادقاً مجرداً من الأهواء، وأيُّ صدق يمكن أن ينقله فن أدبي من قصة أو مسرحية أو رواية... الخ، ما دام بعيداً عن الإبداع (الكذب والاختلاق)؟! - هكذا نظروا للإبداع - ولذا لم يكن هذا الموروث الفكري المشوّه الذي اختزن في قرائح المنتسبين إليهم طَبَقَ الأصول الجوهرية التي جاء بها الإسلام، ونطقت بها عقائده، وأفصحت عنها حضارته.

إنّه عمل تشويهي قبيح، وغسيل منظمّ للأدمغة، وقبل كلّ شيء طريق

(١) في الاستشراق الإسباني، خوان غويتسلو، ص ٣٣.

أسهل لعالم الشهرة، وفوق كل ذلك وسيلة قوية لوقف نمو الإسلام الذي ظلت
غزواته الروحية متجددة دون انقطاع ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُشْرِكُونَ﴾^(١).

المبحث الرابع

ثمار الغسل المنظم للأدمغة (قطف الثمار)

لابدّ أن يكون لكل عمل أو مشروع ثمار ونتائج تمكّن القارئ عليه من جنيها وتحقيقتها. وقد جنى الأوروبيون من التناج الأدبي الإبداعي الموجه صوب الإسلام الكثير من المزايا والفوائد، فقد كوّنوا الكلشيات المشوّهة، ورَسَّخوا الأحكام المسبقة بفضل جهود هؤلاء الأدباء، الذين كانوا بمثابة الضلع الثالث للثالوث المقدّس: [الأكليروس، الاستشراق، الأدباء] فلم يكن صنيعهم - على الرغم من تداخل مصالحهم الشخصية فيه - بأقل حدة وتأثيراً ممّا اختلقه الأكليروس واقترفته أيدي المستشرقين، ولا كتّه ألسنتهم.

إنّ ما أبدعه هذا الثالوث المقدّس من شبهات، وما أثاره من إشكالات في الحقل الإسلامي المعرفي والتاريخي الموجه لحماية الرجل الغربي، وما نتج عنه من «كلشيات» وأحكام مسبقة تشرّبتّها النفوس دون أن تقف على حقيقتها؛ كان له أسوأ الآثار السلبية التي لحقت بالغرب والإسلام سواء، فما زال ركام الماضي البغيض محفوظاً في دوائر المعارف والموسوعات والكتب في مكتبات أوروبا وأمريكا^(١)، يستلهم منه الرجل الغربي المعرفة عن الإسلام، فتصدّه عنه.

(١) نَبّه (موريس بوكاي - Maurice Bucaille) ﷺ على هذه المسألة، وأشار إلى =

لقد أقام هذا الثالوث بين الغربيين والإسلام سياجاً بُنيَ من مواد التعصُّب والحقْد والتجهيل، ولم يُبْنَ على المعرفة الصحيحة والنزاهة العلمية والحقيقة التاريخية.

وقد وقف المستشرق الفرنسي (مارسيل بوازار - M. Poizer) على بعض الآثار السلبية التي نتجت عن المجهودات الضخمة التي قام بها هذا الثالوث، والتي لحقت بالإسلام والمسلمين، فقال: «حكم المسيحيون على الإسلام لضعفهم الفكري وجهلهم حكمهم على الرسائل السماوية والأديان القائمة،

= مساوئها في كتابه التحفة «التوراة والأنجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث»، فقال: «إنَّ أيَّ إنسان غربي أُتيحت له فرص معرفة حقائق الإسلام ليعجب عندما يعرف إلى أيِّ حدٍّ شوَّه رجال الدِّين المسيحي حقائق الإسلام وعقيدته وشريعته وتاريخه وأهدافه.

وعلىنا أن نضع في اعتبارنا ثانياً أنَّ الوثائق والمراجع العلمية الموجودة في الغرب عن الإسلام لا تزال تغصُّ وتمتلئ بالأحكام الخاطئة عن الإسلام، المتوارثة عن العصور الوسطى، دون أيِّ تغيير في دوائر المعارف المشهورة في الغرب حتَّى الآن؛ مما يجعل مهمة الباحث الذي يعتمد عليها مهمة شاقة وعسيرة لو كان يرغب في الوصول إلى الحقائق بالرجوع إلى مراجع لا تعطيه عن الإسلام سوى الأكاذيب أو بعض الحقائق ممزوجة بكثير من الأكاذيب». اهـ.
انظر كتابه «التوراة والأنجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث»، ترجمة: علي الجوهري، ص ١٦٣، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، ١٩٩٩م، القاهرة.

فرأوا فيه هرطقة، ونظروا إلى مُحَمَّدٍ نظرهم إلى مخادع دَجَّال. وسرعان ما أدَّت الدعاية والخوف الناشئ عن جهل الناس إلى انتشار أفكار وبقائها رائجة، بالرغم من أنَّ التجربة السياسية أكَّدت بطلانها»^(١).

ويضيف (مارسيل بوازار) أمثلةً من التَّصورات لهذه الأحكام الجائرة قائلاً: «أفكار من مثل: أنَّ الحرب والقتل والنهب من معتقدات الإسلام»^(٢). أو أنَّ المسلمين مبشَّرون بالجنة إن هم قتلوا المسيحيين^(٣)، وإذ ظنَّ المؤلفون أنَّهم يصيبون الدين في الصميم إذا هم شوَّهوا سمعة مُحَمَّدٍ ﷺ فقد صوروه في مقارنة ساذجة مفرطة في التبسيط بين المسيحية والمحمدية^(٤) هرطيقاً متعطشاً

(١) إنسانية الإسلام، مارسيل بوازار، ترجمة: د. عفيف دمشقية، ص ٧٩، منشورات دار الآداب، ط الثانية، ١٩٨٣ م، بيروت، لبنان.

(٢) ليست هذه الأشياء من مبادئ الإسلام ولا من معتقداته، ولا تستحق التوقف عندها من أجل مناقشتها؛ لتفاهتها، وعدم واقعيتها.

(٣) مازالت هذه التصورات الخاطئة عن المسلمين تتداول في الإعلام الغربي.

(٤) درج رجال الأكليروس والاستشراق على تسمية الدين الإسلامي بـ «المحمدي والمُحمَّدانية - Mohammedanism) أو (المهوتمانية والمحمدية - Mahometanism)؛ حتَّى يوهوا الناس أنَّ هذا الدين ظهر ونشأ بفضل جهاد رجل، وليس من وحي السماء. ولذا فالهدف من رواج هذه التسمية هو إنكار النَّبوة والرَّسالة. وقد سلك الأوروبيون من أجل =

للدماء والنساء. وقد ظلَّ هذا الحكم المسبق المتعصَّب والنفور من الكافر - المسلم - يسيطران على الفكر الغربي طوال العصور الوسطى، تغذيها حبكة روائية صيبانية؟!^(١).

وكم من حَبِكَات حاكها أدباء أوروبا وصاغوها - وهي بعيدة عن الواقع والتاريخ، وموغلة في الخيال والوهم - كان لها أثر إيديولوجي في التشويه الممقوت! فقد كان أدباء أوروبا يجدون تخیلات الفانتازيا^(٢) التي يسقطونها على الإسلام (عقيدة وشريعة ونبوة ورسالة) سبيلاً ممهداً للإبداع ونيل الخطوة، وتَبَوُّء المكانة لدى جماهير طالما دُرِّبَتْ على الحقد والكراهية، ومُرِّنَتْ على الكذب والمراوغة، بفضل جهود هؤلاء الأدباء التشويهيّة التي لا تقل ضراوة ووحشية

=ترسيخ هذه البلية وحمل الناس على الإيمان بها مسالك شتى؛ فزعموا أنَّ (بحيرا الراهب) علّم رسول الله، وأنّه كان يقرأ ويكتب، وقرأ التوراة والأنجيل، وأنّه كان قسيساً وانشق عن الكنيسة الرومانية... إلى آخر هاتيك المطاعن التي تقوّلوها والشبهات التي أثاروها.

(١) إنسانية الإسلام، مارسيل بوازار، ص ٧٩.

(٢) (الفانتازيا - Fantasia): هي ذلك النوع من الأدب الذي يخالف الواقع ويخرقه، وهي ما لا يمكن أن يكون قد حدث في الماضي؛ أي ما لا يمكن أن يحدث أو يوجد، وتتناول أشياء من المستحيل تحقيقها. ويعد السحر والأساطير والخرافات من أشهر موضوعات أدب الفانتازيا. انظر موقع www.wikipedia.com.



أدباء أوروبا والإسلام وتداخل المصالح الشخصية مع المهمة المقدسة

عن أعمال الأكليروس والمستشرقين في الهجوم على الإسلام والطعن فيه،
والتنقيص من رموزه ومقدساته.



الفصل الثاني

مشاركة فولتير النشويحية

أنموذج للنجسد المضلل في عيون النقاد

وفيه ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول: (فولتير) يركب طريق الشهرة على حساب الإسلام.**
- **المبحث الثاني: تضافر الدوافع وتعددتها حول مشاركة (فولتير) المشبوهة.**
- **المبحث الثالث: عمل (فولتير) المسرحي « محمد أو التعصب » في عيون النقاد.**

ايض

المبحث الأول

(فولتير) يركب طريق الشهرة على حساب الإسلام

لم يكن فيلسوف أوروبا الظلام في ذلك الوقت - (فولتير)^(١) - بعيداً عن

(١) (فولتير): كاتب وفيلسوف فرنسي، وُلِدَ في إحدى ضواحي باريس عام ١٦٩٤ م. وقد تعلَّم

(فولتير) عند الآباء اليسوعيين، وتعلَّم منذ صغره مع أصول الدين وتقاليد الشك، وعندما

كان في الثالثة والعشرين من عمره سُجِنَ في قلعة الباستيل لإهانته القصر الملكي. قضى

(فولتير) فترة اعتقاله في مطالعة أشعار هوميروس، وأدَّى ذلك إلى تأليفه «ملحمة هنرياد»

التي روى فيها الملك (هنري الرابع) للملكة (اليزابيث) قصة اضطهاد البروتستانت. وبعد

خروجه من السجن نشر (فولتير) مسرحيته «أوديب» فالت نجاحاً مبهراً.

وفي عام ١٧٢٦ م اعتقل مرة أخرى لجرأته وأقواله الصريحة في السياسة والملوك، ونُفِيَ إلى

إنجلترا؛ حيث أمضى ثلاث سنوات فيها، عاد (فولتير) بعد فترة اعتقاله هذه إلى باريس،

ونشر كتابه «رسائل عن الإنكليز» الذي سرعان ما أحدث ضجة في فرنسا، اضطرت به إلى

الفرار إلى اللورين بعد أن اختطف زوجة المركز (دو شاتيليه).

في عام ١٧٤٦ م عاد (فولتير) إلى باريس فانتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية، ومع

استقراره أخرج روايته: «صادق» و«ميكرو ميغاس». وقد دُعِيَ (فولتير) إلى البلاط

الروسي فمكث هناك ثلاث سنوات، ثم عاد بعدها إلى باريس حيث وضع أول كتاب له

فلسفي في التاريخ «مقالة عن الآداب وروح الأمم» حاول من خلاله تحليل السبب الطبيعي

الذي كان وراء تطور الفكر الأوروبي.

سلوك مسلك المشوّهين والمبدّلين، فقد ركبه وتقّى معاملة، ليطبّق اسمه الآفاق،
ويُلقي بالحفاوة والترحاب ويُنزّل منزلة الملوك والرؤساء.

في عام ١٧٤١م كتب (فولتير) مسرحيته «مُحمّد أو التعصّب»، وفي هذه
المسرحية اتّهم (فولتير) الإسلام بخطف النساء وحملهنّ على الإيثار - ولا أدري من
أين أتى بهذه المزاعم التي تُعدّ لغوًا باطلاً، وافتراءً كاذبًا، لا يستحق المرء أن يأخذه
مأخذ الجد؟! - وشكك في أحاديث الرّسول ﷺ مع سفير الوحي جبريل ﷺ^(١).
والأمر الذي يسترعي الانتباه في هذه المسرحية؛ أنّ (فولتير) بحماقته
الأدبية - وأعتذر للقارئ مقدّمًا من التدليل بحماقات (فولتير) حتّى يكون على
بيّنة من موقفه - جعل من النّبي ﷺ «منافقًا لا يعرف الحياء^(٢)، ومضللًا وظالمًا،

=أقام (فولتير) في «فريتّي» بسويسرا ردحًا من الزمن كتب خلاله رواية «كانديد»، وأسهم
(فولتير) في وضع الموسوعة الفرنسية وقاموسه الفلسفي، وأصدر سلسلة من النشرات هاجم
من خلالها التعصّب الديني والكنيسة. وعندما عاد إلى باريس وهو في العقد الثامن استقبل
استقبالًا حماسيًا، ولذا لقب بشراة الحرية، وتوفي في ٣٠ أيار عام ١٧٧٨م، بعد أن وضع حجر
أساس الثورتين الفرنسية والأمريكية. مستفاد من «موسوعة الشعراء والأدباء الأجانب»،
د. مورييس حنا شربل، ص ٣١٢، ٣١٣، مطبوعات جروس برس، ١٩٩٦م، بيروت، لبنان.

(١) راجع موقع ويكيبيديا www.wikipedia.com.

(٢) فطّر نبي الله مُحمّد ﷺ على الحياء؛ لأنّ الله ﷻ الذي اصطفاه وأرسله للبشر نذيرًا =

تدفعه النوازع الحسية^(١) والتعطُّش للدماء... الخ^(٢). وهذه كلُّها مزاعم باطلة

= وبشيراً يحبُّ الحياء، ولذا زَيْنُ مُحَمَّدًا عليه السلام بالحياء، يقول عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ سَتِيرٌ يَحِبُّ الحياءَ والستر»، (مسند الإمام أحمد، ج ٤، ص ٢٢٤، حديث رقم ١٧٩٩٧). ولأنَّ الرِّسالة التي جاء بها تقوم على الحياء يقول عليه السلام: «إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خَلْقًا وَخَلَقَ الْإِسْلَامَ الْحَيَاءَ»، (السلسلة الصحيحة، الألباني، ج ٢، ص ٦١٦، حديث رقم ٩٤٠). كما أنَّ من سنن إخوانه من الأنبياء والمرسلين الحياء ابتداءً من آدم إلى موسى وعيسى السابقين عليه، يقول عليه السلام: «أَرْبَعٌ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ: الْحَيَاءُ وَالتَّعَطُّرُ وَالسَّوَاكُ وَالنِّكَاحُ». (سنن الترمذي، ج ٣، ص ٣٩١، حديث رقم ١٠٨٠) ومن ثَمَّ كانت حركاته وسكناته تقوم على الحياء.

(١) إذا كان (فولتير) هنا تُمَادَى في وصف النَّبِيِّ عليه السلام بهذه الأوصاف الكاذبة مطلقاً لخياله العنان، جرياً وراء الشهرة وتحصيل الثروة، فإنَّنا نذكر هنا شذرات من مواقفه السفيهة مع النساء، وشتَّان بين خيال الشاعر وواقع التُّبوة وحقيقة الرِّسالة؛ لقد صدم (فولتير) أباه بالسهر خارج البيت مع المعريدين من رجال الدين منذ صغره، فكان يرجع إلى البيت متأخراً، وقد تعلَّم (فولتير) ذلك من الأبيه (دشوليو) - أحد معلميه - الذي كان «يجهر بأنَّ الخمر والنساء أطيب النعم التي جادت بها على الإنسان طبيعة حكيمة خيرة». وقد كان هؤلاء المعلمون - كما يقول (ويل ديورانت - William James Durant): «رجال دنيا لا دين، لمعوا في المجتمع رغم تمسكهم برداء الكهنوت، ومنهم من ألفوا المشاركة السافرة في مجالس خلت من الوقار، ومنهم من عاش كما يشتهي متسترًا وإن حافظ على مظهر لبقه». اهـ. مستفاد من قصة الحضارة، ويل ديورانت، ج ٣٥، ص ٩، ١٠، ١١، ١٢.

(٢) الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، ص ٨٨.

يكذبها ويدفعها الواقع والتاريخ، وتدخل كلها في باب التشويه والتخمينات والظنون.

كما أن وصفه للنبي محمد ﷺ كما يقول المستشرق والمفكر الإسباني (خوان غويتسلو - Juan Goytisolo) - في مقاله (فولتير والإسلام) المنشور بجريدة (البابيس - el pais) الإسبانية - جاء: «مصاحباً لنعته إياه بالإهانة في شخصه وفي المعجزات التي أتى بها»^(١).

والغريب حقاً أن (فولتير) كان يتفاخر بهذا الهراء وهذه النزقات الأدبية الصببانية التي أسقطها على شخصية النبي ﷺ؛ فقد كتب إلى صديق له يقول متفاخراً بإبداعاته الحمقاء: «إنني أصورُ مُحَمَّدًا متعصباً ومحتالاً... وعاراً على الجنس البشري الذي حوّل تاجرًا ليصبح نبيًا مشرّعًا وملكًا... مُحَمَّدٌ إنه يجسّد خطر التعصب؟!»^(٢). الحُظُّ استعمال (فولتير) للفعل «أصوّر» الذي طالما يجنح إليه الأدباء في أعمالهم الأدبية الخيالية غير آبهين بمراعاة الحقائق التاريخية.

(1) Periodico el pais, 4-5-2006, Tribuna: Juan Goytisolo, Artículo:

Voltaire y Islam.

(2) لماذا يكرهونه، د. باسم خفاجي، ص ٥٢، ٥٣، مطبوعات مجلة البيان، ط الأولى ١٤٢٧ هـ -

٢٠٠٦ م، الرياض، السعودية.



وقد مثلت هذه المسرحية بمدينة «ليل» الفرنسية أولاً عام ١٧٤١م، ثم قَدِّمَتْها «الكوميدي فرانسيز» في باريس عام ١٧٤٢م، وأدَّى عرضها إلى احتجاج السفير التركي في فرنسا، وعَقَدَ مؤتمرًا دعا إليه كَتَّاب فرنسا الأحرار، ومن ثَمَّ أوقفت الحكومة الفرنسية عرضها؛ فلم تزد حفلاتها على الثلاث، وظَلَّت بعد ذلك تسعة أعوام مختفية في الظلام^(١).

تقول عالمة مقارنة الشرائع البريطانية (كارين أرمسترونج - Karen Armstrong): «عُرِفَ عن (فولتير) تحامله المغرض على الإسلام؛ فقد كتب مسرحية تراجيدية عن حياة مُحَمَّدٍ دعاها «تعصّب» ١٧٤٢م. وقد يكون العنوان بحدِّ ذاته خير مؤشر على حقيقة موقفه. كان (فولتير) يفترق عن القروسطيين - نسبة إلى القرون الوسطى - في أَنَّهُ كان يجد تخيلاتهم الفانتازية عن النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ قاصرة من حيث بذائها وسفاهتها، فاختلق المزيد منها من عندياته بالنسبة إليه!، مُحَمَّدٌ محتال عادي، مثله مثل سائر مؤسَّسي الديانات الأخرى جميعاً! وعلى غرارهم أيضاً لجأ إلى أفانين الشعوذة الاعتيادية التي آثر أتباعه أن يروا فيها معجزات خارقة. من جهة أخرى فقد بُولِغَ كثيراً في الحديث عن أهواء مُحَمَّدٍ

(١) الشرق والإسلام في أدب جوته، عبد الرحمن صدقي، ص ٢٣، مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد، المكتبة الثقافية رقم ١٠، القاهرة.

العاطفية وطبيعته الشهبانية... و(فولتير) بدوره استخدم النبي لتشويه سمعة الدين^(١). وهكذا اتخذ (فولتير) الأدب مطية للوصول إلى أغراض مشبوهة وأدوار مكروهة، لم يكن بوسعه الوصول إليها فاتخذ الأدب وسيلة لتحقيق أمانيه ورغباته.

لم يكن الحقل المعرفي الإسلامي والتاريخي المجال الوحيد الذي سلكه (فولتير) ليحقق الشهرة ويحصل الثروة وينال المكانة والحظوة تحت وهم التنوير والبحث عن الحرية^(٢)، فقد استخدم مواهبه الأدبية في النيل من أصحاب البلاط الفرنسي؛ ففي عام ١٧١٩م نُشِرت قصائد شعرية سمّيت (Les Philippques) - الفلبقيات)، وتبيّن منها رائحة الهجاء الشديد لـ(فيليب الثاني) - دوق أورليون^(٣)، وأنه «بيّئت تسميم الملك الصبي واغتصاب العرش»، واشتبّه كثيرون أن مؤلفها

(١) الحرب المقدسة، كارين أرمسترونج، ص ٥٧٩.

(٢) بعد أن تخرج (فولتير) من كلية لوي (جران) اليسوعية - الواقعة على شاطئ باريس الأيسر - «نوى أن يجعل الأدب مهنته، ولكن أباه أصرّ على أن يدرس القانون، محدّراً إيّاه من احتراف الأدب، الذي هو كلمة المرور السحرية إلى الفقر والعوز». انظر: «قصة الحضارة»، ويل ديورانت، ج ٣٥، ٣٦، ص ١١، دار الجليل، بيروت، لبنان.

(٣) كان (فيليب الثاني) - دوق أورليون - وصيّاً على عرش الملك الصغير (لويس الخامس عشر) الذي صار ملكاً لفرنسا فيما بعد.



(فولتير) «فأكّد براءته، ولكنّه كان قد كذب في حالات كهذه كذبًا صارخًا»^(١).
ولمّا كان (فولتير) «مؤمنًا بأنّ المال حجر الفلاسفة؛ فقد استخدم ذكاءه
الحاد في فهم مشكلات المالية وحيلها، وسعى لمصادقة المصرفيين، وأجيز
بمكافأة سخية للمعونة التي قدّمها لأخوان باريس» للحصول على عقود بتوريد
مؤن وذخائر للجيش»، وكان بطلنا من استغلاليي الحرب، وظل بعيدًا عن نظام
«لو»، واستثمر ثروته بحكمة، وأقرض النقود بالربا. وفي ١٧٢٢م مات أبوه،
واحتكم (فولتير) إلى القضاء في أمر الوراثة، وثابر على دعواه بعزيمة ماضية،
ففاز بوراثة دخل سنوي قدره 250, 4 فرنكًا، وفي تلك السنة ذاتها أجرى عليه
الوصي معاشًا قدره 2,000 جنيه، وغدا الآن رجلًا موسرًا، وعمًّا قليل سيصبح
مليونيرًا، وعلينا ألا نفكر فيه سائرًا إلا فيما يتّصل بالدين»^(٢).

(١) قصة الحضارة، ويل ديورانت، ج ٣٥، ٣٦، ص ٥٦، ٥٧.

(٢) قصة الحضارة، ويل ديورانت، ج ٣٥، ٣٦، ص ٥٦، ٥٧.

المبحث الثاني

تضافر الدوافع وتعدُّها حول مشاركة (فولتير) المشبوهة

ليس ثَمَّةَ سبيل أسهل من أن يخلق الإنسان الكثير من الأقاويل ويروِّج لِبَنَاتِ أفكاره حقيقية كانت أم خيالية، صالحة أم فاسدة، والشأن مع (فولتير) كما هو واضح مختلف تمام الاختلاف عن أشباهه من أصحاب الإبداع؛ فمناطق التباين بينه وبينهم أنَّه وجد بذاءتهم وسفاهتهم ضعيفة قليلة؛ فاختلق المزيد (كَمًّا) وطَوَّرها (كَيْفًا) «من عندياته»^(١)، كما تقول (كارين أرمسترونج) ليشارك بحظ وافر في المهمة المقدَّسة، ومن ثَمَّ يحقِّق الشهرة التي طالما حلم بها وسعى إليها وجاهد من أجلها.

ولم يكن هذا الطَّعن البَيِّن الموجه للإسلام من قبل (فولتير) من أجل نقد الكنيسة فقط وإزالة الستار الحديدي الذي ضربته على حرية الفكر كما ذهب إلى ذلك معظم الباحثين^(٢).

(١) الحرب المقدسة، كارين أرمسترونج، ص ٥٧٩.

(٢) جل الباحثين الذين تناولوا (مسألة فولتير أو قضية فولتير مع الإسلام) اختزلوا موقف (فولتير) من الإسلام في هذا الرأي وحده، ومن هؤلاء: هشام جعيط في كتابه: «أوروبا=



وسأعرض لآراء هؤلاء النُّقاد^(١) والباحثين - (المهتمين بشأن فولتير والإسلام) - الذين سنجد أنَّ جلَّ آرائهم ستركز على إحالة صنيع (فولتير) الأدبي تجاه الإسلام إلى رغبته في نقد الكنيسة. ومع إيماننا وتسليمنا بهذه الحقيقة لا تسمح لنا ضوابط البحث العلمي ومبادؤه باختزال موقف (فولتير) في هذا المضمار وحده، في ضوء الشواهد والإشارات التي تتوافر لدينا، والتي تفسح المجال من خلال ما تضمه من حقائق علمية لأهداف أخرى - تجتمع مع دافع النقد الكنسي - كانت من أهم عوامل إقبال (فولتير) على هذا العمل الأدبي

= والإسلام»، ص ١٩، وعبد الرحمن صدقي في كتابه: «الشرق والإسلام في أدب جوته»، ص ٢٢، ٢٣، والدكتور محمود حمدي زقزوق في كتابه: «الإسلام في تصورات الغرب»، ص ٨٨، والدكتور خالد بن عبد الرحمن الشايع في مقاله المعنون بـ «حقيقة موقف الفيلسوف الفرنسي فولتير من رسول الله مُحَمَّد ومن رسالته»، والمنشور في جريدة الشرق الأوسط في العدد ١٠٧٨٧ بتاريخ ٦ جمادى الآخرة، ١٤٢٩هـ، ١٠-٦-٢٠٠٨م. ومن الكتاب الغربيين Islam, Europe, and Empire, Norman Daniel, page 26, Edinburgh university press 1966., North America (جورج هنري بوسكي - George Henry Bosquet) في مقاله: «فولتير والإسلام» المنشور بمجلة ستاديا إسلاميكا، عدد (٢٨، ١٩٦٢م).

(١) انظر محتوى المبحث الثالث من الفصل الثاني المعنون بـ (عمل فولتير المسرحي «مُحمَّد أو التعصُّب» في عيون نقاد النقد الأدبي والتاريخي).

الموغل في تزيف الحقائق وغسل الأفكار عن المحيط الإسلامي.

أضف إلى ذلك أنَّ الحقائق التاريخية تمنعنا من التوقع حول هذا الرأي وحده، كما تحول دون محاولة تلمس الأعذار لـ(فولتير)، نظرًا لموقفه من الكنيسة الأوروبية. وسأبيِّن ذلك لاحقًا من خلال إبراز الدوافع المختلفة التي سبقت الإشارة إلى بعضها^(١).

إنَّ ما ذهب إليه معظم الباحثين والكتَّاب الذين تناولوا موقف (فولتير) من الإسلام - من أنَّ (فولتير) اتخذ من هجومه على الإسلام وسيلة مبطنة من أجل الثورة على أصحاب الكهنوت والشطحات الكنسية المتبقية من العصور الوسطى - رأي لا يخلو من صواب، لكنَّ موضوعية البحث تحتم علينا ألا نختزل موقف (فولتير) من الإسلام في هذا المضمار وحده فقط، ومن ثمَّ لا نستطيع أن نشاطر هؤلاء رأيهم.

لأنَّ العصر الذي عاش فيه (فولتير) وهو ما يلقَّبونه بـ(عصر النور أو التنوير) طغت عليه الفلسفة العقلية - التي مهدت لقيام الثورة الفرنسية في آخره، والتي شارك (فولتير) في إنجازها - حيث «كان دعاة يحملون حملة شعواء

(١) من خلال استجلاء النظرة التفحصية عن موقف (فولتير) التشويهي تجاه الإسلام من المنطلق الأدبي، والمشاركة مع أدباء أوروبا، وقد ظهر ذلك جليًّا في مسرحيته «مُحمَّد أو التعصُّب».



على الأديان عامة، ولا يريدون أن يروا في أصحاب الدين إلا أصحاب مخرفة دَجَّالين، يزعمون للناس أنَّهم من المرسلين الملهمين»^(١).

وقد كان (فولتير) على رأس هؤلاء الذين يحملون على الأديان ويحاربون الدين محاربة شرسة. وهذا الاتجاه أو الفكر تشربَه (فولتير) في صغره على يد الأب (دشاتو نوف) - أول معلِّم له (فولتير) والذي يشك بإسონيته، وسأدلل على ذلك في الفقرة القادمة بناء على أقدم الشواهد والأدلة وأوثقها - حيث أشرب هذا الأب (فولتير) «وثنية (نينوي)، وارتيازية (مونتينى). وفي رواية قديمة مشكوك فيها أنَّه قدَّم للصبي ملحمة هازلة تدعى «الملحمة الموسوية»، كانت تتداول في مخطوطة سرية، ومؤدَّاها أنَّ الدين إذا استثنينا الإيمان بكائن أعظم ليس إلا ذريعة يتذرَّع بها الحكَّام لإخضاع المحكومين وإرهابهم»^(٢). وهذه الآراء تعبرُ بشكل صريح عن صميم الماسونية وتوجهاتها.

ومَّا يؤكد وجهة النظر هذه؛ أي أنَّ (فولتير) كان ماسونيًّا - بل تلقَّفه الماسونيون^(٣) منذ صغره لنشر أفكارهم وتصديرها وتكريسها - تكريمُ الماسونيين

(١) الشرق والإسلام في أدب جوته، عبد الرحمن صدقي، ص ٢٢.

(٢) قصة الحضارة، ويل ديورانت، ج ٣٥، ص ١٠.

(٣) «الماسونية - Freemasons»: لغة تعني البنائين الأحرار، وهي منظمة يهودية سرية =

له قبل موته بحوالي شهرين؛ ففي السابع من إبريل عام ١٧٧٨ م أُخِذَ (فولتير) إلى محفل «الأخوات التسع» الماسوني فُقِبَ عضواً دون إلزامه باجتياز المراحل التمهيدية المألوفة، وكلل رأسه بإكليل من الغار، وألقى رئيس المحفل خطاباً كشف من خلاله اللثام عن ماسونية (فولتير) مثنياً فيه على جهوده العظيمة، ولذا بَوَّاه المكانة اللائقة.

فقد قال في هذا الخطاب: «إننا نقسم بأن نساعد إخوتنا، ولكنك كنتَ المؤسس لمستعمرة كاملة تعبدك وتفيض بإحساناتك. لقد كنت أيها الأخ المحبوب جداً ماسونياً قبل أن تنال الرتبة، وقد حققت التزامات عضو الماسونية قبل أن تتعهد بالوفاء بها؟!»^(١). أي حققت الشروط التي ينبغي توافرها في العضو الماسوني الذي يحمل أفكار الماسونية وأهدافها.

ولكي ندلل على هذه الماسونية أكثر أسوق بعض الشواهد التي توضّح

=هدامة وإرهابية غامضة، محكمة التنظيم؛ تهدف في المقام الأول إلى سيطرة اليهود على العالم». راجع «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة»، مادة الماسونية، مج ١، ص ٥١٠، ٥١١، مطبوعات دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط الخامسة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، الرياض، السعودية.

(١) قصة الحضارة، ويل ديورانت، ج ٤١، ٤٢، ص ٣٥٧، ٣٥٨.

موقفه من الشريعة المسيحية؛ فيكفي أن نعرف أن (فولتير) كما تعرّض للإسلام تعرّض للمسيحية أيضاً^(١)، فقد كان يؤمن بتحريف العهد الجديد (الإنجيل)، ولهذا انتقد العالم الشهير (إسحاق نيوتن) بسبب تمسكه بالكتاب المقدس وقوله: «إنَّ أعظم كتاب هو الكتاب المقدس».

لقد انتقده (فولتير) قائلاً: «ما أخطَّ المستوى الذي يمكن أن ينزل إليه شخص متعلّم ذو مواهب عظيمة عندما يشغل نفسه بما يسمّونه الكتاب المقدس»^(٢). وقال أيضاً متهمًا^(٣): «إنَّه خلال ١٠٠ عام سيختفي الكتاب المقدس من الأرض ويدخل التاريخ»^(٤).

(١) على الرغم من أنه قام على تربية (فولتير) «أب متمسك بالنصرانية وأخ متعصّب» إلا أن ذلك بعث في نفسه «الامتعاظ من الطقوس الدينية»، وقد حمل ذلك والده على تعاليمه عند الآباء اليسوعيين إلا أنّهم «لم ينجحوا يقيناً في أن يلهموه احترام الدين». راجع كتاب فولتير، (أندريه موروا)، ترجمة: د. محمّد غلاب، ص ٧، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة.

(٢) راجع موقع ويكيبيديا www.wikipedia.com.

(٣) ممّا هو جدير بالذكر أن جمعية جنيف للكتاب المقدس اشترت بعد موت (فولتير) مطبعته ومنزله، واستعملتهما لنشر الكتاب المقدس، نكايّة بـ (فولتير) لأقواله هذه، والتي رأوا فيها انتقاصاً من المسيحية وهجومًا عليها.

(٤) راجع موقع ويكيبيديا www.wikipedia.com.

وَتَمَّةٌ موقف آخر - يدل على ماسونيته ودعوته للإلحاد - جرت أحداثه أثناء حياة (فولتير) وثورته على الدين، يشي بما كان يكنُّه (فولتير) من عدااء للدين وبخاصة الشريعة المسيحية؛ فعندما حمل (توماس وولستن - Wellston Thomas) - المعاصر لـ (فولتير)^(١) - على المسيحية، مطلقاً ثورته عليها في كتابه «ستة أحاديث عن معجزات مخلصنا»، متهمًا إيَّاهَا بالتحريف، ذاهبًا إلى أنَّ قصة قيامة المسيح^(٢) خدعة مفتعلة خدع بها الرسل سامعيهم، أدَّى ذلك إلى قيام

(١) وَجَدَ في عصر (فولتير) كثير من الكتاب والفلاسفة والمفكرين والعلماء الذين اتخذوا موقفًا عدائيًا من الكنيسة، نظرًا لتحريف رجال الأكليروس شريعة المسيح ﷺ وتبديلها، وأذكر من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر بجانب (فولتير) و(توماس وولستن) البروفيسور (وليم هيوستن - William Houston) - أستاذ الرياضة في جامعة «كمبردج - Cambridge».

فقد شكك (وليم هيوستن) في مسألة التثليث ودافع عن أريوسيته - و«الأريوسية»: نسبة إلى أريوس وكانوا يبطلون التثليث، ويؤمنون بالتوحيد لله الواحد الأحد الفرد الصمد - في كتابه «إحياء المسيحية البدائية» - وذهب إلى أنَّ تنبؤات العهد القديم لا تشير إلى المسيح، وقد أدَّى ذلك إلى طرده من منصبه في جامعة (كمبردج - Cambridge) عام ١٧١٠م وخلفه (نيوتن) أستاذًا «لوكازيًا». انظر قصة الحضارة، ويل ديورانت، ج ٣٥، ص ١٧٢.

(٢) يعتقد النَّصارى أنَّ المسيح ﷺ مات مصلوبًا فداءً عن الخليقة لشدة حبِّ الله للبشر ولعدالته، وأنَّه دُفِنَ بعد صلبه، وقام بعد ثلاثة أيام متغلبًا على الموت ليرتفع إلى السماء - =



الأساقفة برفع دعوى القذف والتجديف عليه عام ١٧٢٩ م نظراً لوصفه إياهم بالجشع والكذب، وترتب على ذلك أن حكمت عليه المحكمة بدفع غرامة قدرها (مائة جنيه).

عجز (توماس وولستن) عن تدبير هذا المبلغ الكبير في ذلك الوقت، ومن ثم زُجَّ به في السَّجن، ولم يجد (توماس وولستن) من ينقذه من هذا المأزق إلا صديقه في الفكر ورفيقه في التوجُّه والدرب؛ فقد قدَّم (فولتير) ثلث المبلغ المطلوب وشرع في جمع الباقي، وأفرج عن (ولستن) بفضل ما قام به (فولتير) من جهود للإفراج عنه لأجل «ثورته التي خلت من التوقيع للمسيحية»^(١) - أي ثورة (توماس وولستن) - كما يقول (ويل ديورانت).

والأمر الذي ينبغي أن يتفطن إليه هنا - بعد إفرادي لهذه الدوافع التي حركت ذاكرة فولتير في الهجوم على الإسلام وغيره من الشرائع - ألا تحال جهود (فولتير) التشويحية تجاه الإسلام إلى رغبته في نقد الكنيسة أو إلى اشتغاله فقط

=وقد ساق القرآن الكريم هذا الزعم، مبطلاً إياه، فقال في محكم آياته: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ هُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا آتِبَاعُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧].

(١) قصة الحضارة، ويل ديورانت، ج ٣٥، ص ١٧٢.

بالماسونية الثائرة على الأديان في ذلك الوقت، ويكفي لتأكيد هذه الحقيقة^(١) أنَّ اشتغال (فولتير) كسائر أدباء أوروبا بتشويه الإسلام كان انطلاقاً من قناعته بالمسيحية، ونابعاً من إيمانه بها بصفتها عقيدةً ليس فيها الصكوك وحماقات رجال الدين وليست المسيحية جملة وتفصيلاً، ولذا لم يكن غريباً أن يهدي كتابه عن مُحَمَّد ﷺ للبابا (بنوا الرابع عشر) بقوله: «فلتستغفر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس إعجاباً بالفضيلة، إذ تجرأً فقدم إلى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضدَّ مؤسس ديانة بربرية - يقصد النبي مُحَمَّد ﷺ والإسلام - وإلى من غير وکیل رب السلام والحقيقة أستطيع أن أتوجه بنقدي القاسي لنبي كاذب؟! فلتأذن لي قداستك في أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه، وأن أجروء على سؤالك الحماية والبركة، وإني مع الإجلال العميق أجشو وأقبل قدميك القدسيتين»^(٢). مشاركة مع رجال الأكليروس والاستشراق.

- (١) تعدد الدوافع وتنوعها حول مشاركة فولتير التشويحية. وعدم اقتصرها على الهجوم على الكنيسة وبث الفكر الماسوني الإلحادي.
- (٢) تحت شمس الفكر، توفيق الحكيم، ص ٢٢، ٢٣، ٢٤، مكتبة الآداب، ط الثانية ١٩٤١م، القاهرة.

المبحث الثالث

عمل (فولتير) المسرحي «مُحمَّد أو التعصُّب» في عيون النُّقاد

بها أنَّ (فولتير) قد حاد عن توخِّي الأمانة العلمية وترسم الموضوعية في أعماله الأدبية وبخاصة المسرحية، وعلى سبيل الخصوص «مُحمَّد أو التعصُّب»، فلا شك إذن أن يقابل بسهام من النقد من جانب المفكرين والكتّاب الشرقيين والغربيين في عصره وما يليه من عقود لاحقة. فقد لقي ما حكاه وأبدعه من تحرُّصات وخزعבלات عن الإسلام ونبيه ﷺ هجوماً حاداً من قبل المهتمين بشأن (فولتير) وأعماله والمختصين بالعلاقات الإسلامية والغربية، نتيجة لإفراغه الحقائق اليقينية المسلّم بها عن الإسلام ونبيه ﷺ - والتي يؤمن ويسلّم بها مئات الملايين من البشر - من سياقاتها التاريخية ومضامينها الحقيقية.

لقد هاجم المستشرق الألماني (جوستاف بفانمولر - Gustav Pfannmueller) عمل (فولتير) وعدّه خارجاً عن مراعاة الحقائق التاريخية، وموغلاً في الوهم والخيال، مشيراً بذلك إلى أنَّ (فولتير) استغلَّ توظيف الصُّورة السيئة للنبي ﷺ لدى الغرب في ذلك الوقت في نسج الخيالات والأوهام عن نبي الإسلام ﷺ. يقول: «أمّا (فولتير) فقد كتب روايته المأسوية «مُحمَّد أو التعصُّب» دون أن

يراعي الحقائق التاريخية، وقد كان (فولتير) مقتنعًا بأن كتابه المنبثق من خياله يتناقض تناقضًا حادًا هو والتاريخ، ومع ذلك فقد أراد أن يعرض على الجمهور شخصية (تارتوف - Tartuffe) ممسكًا سلاحًا في يده، وكان يعتقد أنه يستطيع أن يعير مُحمَّدًا هذا الدور، ولكن (فولتير) لم يكن له أن يفعل ذلك لو لم يكن التصور السائد حينذاك هو أن مُحمَّدًا يمثل التعصُّب والتضليل الديني^(١)، لأنَّ أوروبا في ذلك الوقت كانت ومازالت تموج في جوٍّ من الحقد والتعصُّب والكرهية تجاه الإسلام وحامل الرسالة ﷺ.

وقد ظلَّ هذا الموروث الفكري القبيح سائدًا في العصور الوسطى، إلا أنَّ توهجه زاد في العصر الحاضر، فما زالت سهام التهجُّم والتطاول تتجدد بين الفينة والأخرى على رموز الإسلام ومقدَّساته عن طريق الشحن الإعلامي من جانب أصحاب الوعد المكذوب لتحقيق أهدافهم الخبيثة في إيلياء (القدس).

ويشير (جوستاف بفانمولر) إلى الدافع الذي حرك قريحة (فولتير) إلى هذا العمل الأدبي - وهذا الدافع عوَّل عليه كلُّ الباحثين الذين تناولوا موقف (فولتير) من الإسلام ونبيه ﷺ دون الالتفاف إلى أسباب أخرى لتسويق

(١) الإسلام في تصورات الغرب، الدكتور محمود حمدي زقزوق، ص ٨٧.

هجوم (فولتير) على الإسلام ونبيه ﷺ - فيقول: «لم يكن (فولتير) يريد بمسرحيته إطلاقاً أن يصف مُحَمَّدًا كما يعرفه التاريخ، وإنما استخدمه فقط لكي يحول دفة الحديث ضد المسيحية الكاثوليكية، وضد خداع القساوسة والخرافات، وضد الدين نفسه وما يرتبط به ضرورة من نزعة التعصُّب»^(١).

وقد ذهب الدكتور محمود حمدي زقزوق إلى ما ذهب إليه المستشرق الألماني (جوستاف بفانمولر) فقال: «لم يكن (فولتير) - وهو أديب فرنسا الشهير وقطب عصر التنوير الفرنسي - يعني مُحَمَّدًا ﷺ في حقيقة الأمر بكل هذه الأوصاف كما يشير إلى ذلك (بفانمولر) عقب ذلك مباشرة، بل كان يعني المؤسسة الكاثوليكية بكل ما تمثله. وأقل ما يمكن أن يصف به المرء موقف (فولتير) هنا هو أنه نفاق كريبه، وتضليل متعمد، وعمل لا أخلاقي»^(٢).

لاشك أن هذه الأوصاف تعدُّ قليلة إذا ما قيسَتْ بما أبدعه وتقولّه (فولتير) عن الإسلام وسيرة الرسول ﷺ من أوهام وترّهات.

من جانبه ذهب (جورج هنري بوسكي - George Henry Bosquet) في مقاله «فولتير والإسلام» إلى أن عمل (فولتير) المسرحي يمكن عدّه عملاً غير

(١) الإسلام في تصورات الغرب، الدكتور محمود حمدي زقزوق، ص ١٤٢.

(٢) الإسلام في تصورات الغرب، الدكتور محمود حمدي زقزوق، ص ١٤٢.

مقدّر على المستوى العالمي، حيث لا يخرج عن كونه عملاً نفعياً متسلّطاً، يقول: «إنّ مسرحية مُحَمَّد لا مكان لها إلا في التاريخ الأدبي لأوروبا، وإذا أردنا لها مكاناً ينبغي أن تدرج في تاريخ بروباغاندا الفلاسفة، وكلُّ هذا لا يهم الإسلامولوجي»^(١). ذلك لأنّ ما ساقه (فولتير) في أعماله الأدبية لا يعبر من قريب أو من بعيد عن الحقائق التاريخية عن الإسلام ورسوله ﷺ.

وقد أشار (جورج هنري بوسكي - George Henry Bosquet) إلى دافع «تَلْمُس الأعداء»^(٢) الذي ركن إليه كلُّ الباحثين الذين تناولوا موقف (فولتير) من الإسلام، فقال: «لقد استغلَّ (فولتير) الإسلام مبرراً للتهجُّم على الأديان والمسيحية بشكل عام، والكاثوليكية بشكل خاص»^(٣). في حين أكّد هشام جعيط

(١) نقلاً عن صحيفة العرب القطرية، العدد ٧٣٢٧، بتاريخ ٤ يوليو ٢٠٠٨م، ١ رجب ١٤٢٩هـ، مقال للطبيب بوعزة بعنوان: «فولتير والرّسول ٢-٢».

(٢) أعني به تعويل الباحثين على اتخاذ (فولتير) من الإسلام وسيلة مبطنة لنقد الكنيسة دون الالتفاف إلى الأسباب الأخرى. ومنها: بذور الفكر الماسوني. ومنها: مشاركته مع الأدياء في المهمة المقدّسة بصفته نصرانياً. ومنها: تطلّعه إلى الشهرة والثروة؛ حيث كان التلّهّي بالإسلام وسيلة قوية لدى أدياء أوروبا لتحقيق ما يصبو كل واحد منهم إليه، ومنهم (فولتير).

(٣) نقلاً عن صحيفة العرب القطرية، العدد ٧٣٢٧، بتاريخ ٤ يوليو ٢٠٠٨م، ١ رجب =



أنَّ «الخصائص التي ألصق بها- (فولتير)- الإسلام ونبهه تعبّر عن نفور واضح تجاههما»^(١). لتناقضها وتفاهتها وانطلاقها من عقلية تسقط الأحكام المسبقة والقوالب الجامدة على الإسلام ومقدّساته، دون مراعاة البعد الموضوعي والحقيقة العلمية والتاريخية.

هذا، وقد ظلت أعمال فولتير الأدبية مجالاً خصباً للنقد والفحص من جانب الأدباء، نظراً للتلبّس صاحبها بكثير من الشبهات التي تدور حول أعماله الأدبية؛ فحينما قرأ الأديب العربي توفيق الحكيم مسرحية فولتير «مُحمَّد أو التعصّب» تعجّب لأمر فولتير وأحال عمله المسرحي إلى رغبة فولتير في التملق والتزلف إلى الملوك والبابوات، يقول: «عظم عجبي لأمر فولتير، وسألت نفسي طويلاً: أيستطيع عقل مثقف كعقل هذا الكاتب العظيم أن يعتقد ما يقول؟ دين تبعه آلاف الملايين من البشر على مدى الأجيال هو في نظره حقاً دين كاذب؟! ومبادئ إنسانية كالتي جاء بها الإسلام هي عنده حقاً مبادئ بربرية! أم إنّه التملق والزلفى والنفاق. وإنّ الزمن والتاريخ يضعان أحياناً أقنعة زائفة على

= ١٤٢٩هـ، مقال للطبيب بو عزة بعنوان: «فولتير والرّسول ٢-٢».

(١) أوروبا والإسلام: «صدام الثقافة والحداثة»، هشام جعيط، ص ١٩، دار الطليعة، ط الأولى ١٩٩٥م، بيروت، لبنان.

نفوس تزعم أنها خلقت للدفاع عن حرية الفكر. منذ ذلك اليوم وأنا أحس كأنني فجعت في شيء عزيز لدي: (الإيمان بنزاهة الفكر الحر). ولقد كنت أحياناً ألتمس الأعذار لفولتير، وأزعم أنه قال ما قال لا عن مجاملة أو ملق، بل عن عقيدة وحسن طوية استناداً إلى علم خاطئ بأخبار النبي ولكن كتابه إلى البابا كان يتهمة اتهاماً صارخاً ويدع مجالاً للشك في دخيلة أمره».

وأضاف توفيق الحكيم قائلاً، منتقداً صنيع فولتير الأدبي: «إني قرأت لفولتير كتباً أخرى كانت تكشف عن آراء حرة حقاً في مسائل الأديان، وتنم عن روح واسعة الآفاق تكره التعصب الذميم، فما باله عندما عرض لذكر محمد والإسلام كتب شيئاً هو التعصب بعينه، تعصب لدينه، ذهب فيه إلى حد السجود وتقبيل الأقدام لا لرَبِّ العزة والخلق، بل لبشر هو رئيس الكنيسة التي ما أرى أن فولتير كان في ذات يوم من خدامها المخلصين! هي الأطماع التي تدفع فولتير فيما أرى إلى التمسح بأعتاب الملوك والبابوات، ولقد يقدم ثمناً لذلك أفكاره الحرة أحياناً. منذ ذلك الحين وفولتير عندي متهم ولن أبرئه أبداً، ولن أعدّه أبداً من بين أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده وللفكر. وأحسب أن التاريخ العادل سوف يحكم عليه هذا الحكم»^(١).

(١) تحت شمس الفكر، توفيق الحكيم، ص ٢٢، ٢٣، ٢٤.



ولم يكن صنيع (فولتير) المسرحي الأدبي الهزيل بعيداً عن توجيه سهام النقد إليه من قبل القائد الفرنسي (نابليون بونابرت - Bonaparte NapoLeon)؛ فقد انتقد (نابليون بونابرت) مسرحية (فولتير) هذه لتزييفه الحقائق التاريخية عن النبي ﷺ قائلاً: «إنه قد تخلى هنا عن التاريخ والضمير الإنساني»^(١).

حقاً تخلى (فولتير) عن مراعاة البعد الموضوعي وطبيعة الحقيقة التاريخية للإسلام ونبيه ﷺ، مستغلاً ضعف الرصيد المعرفي الإسلامي لدى هذه الجماهير، لتحقيق مطامحه الشخصية، والتي تمثلت في مشاركة الأدباء دفاعاً عن المهمة المقدسة، وتحقيق الشهرة والظفر بالثروة، ونشر الأفكار الماسونية المتحررة.

(1) Islam, Europe, and Empire, Norman Daniel, page 29, Edinburgh university press 1966., North America.



الفصل الثالث

فولتير والاقتراب الموضوعي المناخر من الاسلام

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: العود الحميد لـ (فولتير) مع بلوغه من الكبر عتياً (موضوعية متأخرة).
- المبحث الثاني: (فولتير) يصدق بالحق ويعترف بمنزلة الهادي البشير ﷺ.

اييض

المبحث الأول

العود الحميد لـ (فولتير) مع بلوغه من الكبر عتياً (موضوعية متأخرة)

أما وقد «استمتع الآن (فولتير) حيناً بالشهرة والمال دون أن يكدرهما مكدر»^(١) نتيجة لصنيعه هذا - من اختلاق الأكاذيب وبث ثقافة التجهيل - إلا أن نهجه لم يدم على هذا الحال وهو من المحال؛ فالشهرة قد أوسعته ضرباً، قد علم الجميع به، طار ذكره في الآفاق (المبدع، الفيلسوف، الأديب، الكاتب، الشاعر المبير من أجل العبيد... الخ) واستقبل بالحفاوة والترحاب، ومع بلوغه من الكبر عتياً، وبعيداً عن عالم الشهرة التي حققها، آبَ (فولتير) عن صنيعه، تركه، اعتزله، أو كفى؟

أزمع الكاتب والفيلسوف الفرنسي (Francois Marie Arouet) الشهير بـ(فولتير) المسير نحو الحقيقة، تاركاً عالم الخيال والفانتازيا وراء ظهره، ولذا أغدق الثناء على رسول الله مُحَمَّد ﷺ بعيداً عن فنون الأدب^(٢)، بعيداً عن المهمة

(١) قصة الحضارة، ويل ديورانت، ج ٣٥، ٣٦، ص ٦٠.

(٢) لهج لسان (فولتير) بالثناء على الإسلام ورسوله ﷺ مع تقدّم العمر؛ ومع استقلاله عن ضغوط الكنيسة، ويؤكّد (إيمري نف - Emery Edward Neff) هذه الحقيقة، =

المقدّسة، بعيداً عن عهد ملئ بالتعصّب والحقد وعدم الموضوعية؛ فقد لهج لسانه بالثناء على خير الأنام ﷺ إحقاقاً للحق وإقراراً بالفضل.

وتشير الباحثة البريطانية المتخصصة في مقارنة الأديان (كارين أرمسترونج) إلى شيءٍ من ذلك، فتقول: «لَمَّا أراد (فولتير) أن يبين كم كان مُحَمَّد متسامحاً، وكم كانت المسيحية متعصّبة في كتابه «مقالة في الأخلاق»، فقد أغدق الثناء على الإسلام بسبب تسامحه»^(١).

وممّا كتبه وجاء في «مقالته عن الأخلاق»- المطبوعة ضمن قاموسه الفلسفي؛ المنشور عام ١٨٣٥م- تعريته للوهم الخاطيء حول فرية السيف، التي طالما دندن الغربيون حولها؛ فقد كتب يقول: «إنَّ الإسلام الذي يعتنقه أكثر من نصف من يعيشون في نصف الكرة الأرضية ما كان أبداً بواسطة السلاح، وإنّما

=فيقول: «كان (فولتير) مفكّراً متأملاً متعدّد الجوانب، يهتم اهتماماً شديداً بالعلم وعلم النفس والأدب والفنون الجميلة، وألّف مقالة في عادات الأمم وأخلاقيها (١٧٥٤م- ١٧٦٩م) في نضجه حين بلغ الستين، بعد أن أصبح مستقلاً عن نفوذ الكنيسة والدولة، وكان ذلك الاستقلال ضرورياً لعدم تحيُّز المؤرخ ونادر الحدوث في أيّ عصر». راجع كتابه «المؤرخون وروح الشعر»، ترجمة: توفيق إسكندر، ص ١٦، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦١م، القاهرة.

(١) الحرب المقدّسة، كارين أرمسترونج، ص ٥٧٩.

انتشر بالحماس، وبالقدرة على الإقناع، ثُمَّ على وجه الخصوص بالمثال الذي ضربه المنتصرون... فبمجرد أن اجتاز العرب (المسلمون) حدود بلادهم التي لم يكونوا قد بارحوها من قبل حتَّى ذلك الوقت؛ فإنَّهم لم يجبروا أحداً من الأجانب على الدخول في الإسلام؛ لقد أعطوا الشعوب التي خضعت لهم حرية الاختيار ما بين أن يكونوا مسلمين أو أن يدفعوا لهم الجزية... والقليل الذي أريد أن أقوله إنَّها يكذب تماماً كلُّ ما يقوله لنا مؤرخونا وخطباؤنا وأحكامنا المسبقة، ولكن الحقيقة لا بدَّ أن تُقال، وأن تصفَعهم^(١).

لم يتوقف دفاع (فولتير) عن الإسلام عند هذه المسألة (أكذوبة وخرافة السيف)^(٢)؛ فقد أشار إلى أسباب انتشار الإسلام وما تميَّز به العقيدة الإسلامية من أسس فطرية - جعلتها تنساب في النفوس طبيعياً من غير عناء دون أيِّ سيف أو بهتان - وما فطَّرَ عليه النَّبي ﷺ من خلال الفاضلة والصفات

(1) Dictionnaire Philosophique de Voltaire, Tome 3pp 99-100 Paris 1835

(٢) تناولت هذه الشبهة وما يتفرع عنها من شبهات كـ (أخذ الجزية من أجل الابتزاز أو الإكراه على الاعتقاد) وأفردت لها فصلاً كاملاً في كتابي: «الرَّسول الخاتم ﷺ رحمة للعالمين: دراسة حول جدلية العلاقة الدينية والتاريخية بين الغرب ونبي الإسلام» فليراجعه من أراد الوقوف والردَّ عليها.

الكريمة، ولهذا قال: «إنَّ معتقدات بمثل هذه البساطة قد جذبت بسرعة الاحترام والثقة في دينه، وإنَّ عقيدة الإيَّان بوحداًنية الله دون غموض والتي هي متوافقة مع الفهم البشري قد جلبت تحت شريعته جماهير كبيرة من الأمم؛ ما بين الشعوب السوداء في إفريقيا، إلى شعوب الجزر المتناثرة في المحيط الهندي. هذا الدِّين يسمَّى الإسلام- أي الخضوع لإرادة الله- وهذه الكلمة الفريدة (الإسلام) لا بدَّ لها أن تجلب مهتدين كثير إلى هذا الدِّين»^(١).

وقد كان للقرآن نصيب من الشَّاء الفولتيري، ومن ثمَّ حلَّ محلاً مرموقاً في الموضوعية المتأخرة التي تحلَّى بها (فولتير) في شيخوخته بعد أن عاش ريعان الشباب يكيل الخزعبلات للإسلام ورموزه ومقدَّساته من خلال التوظيف الأدبي السيئ الذي اتخذ مجالا للإبداعاته؛ فقد أثنى على القرآن وانتقد رجال الأكليروس والاستشراق لما حملوا (القرآن الكريم) من الأكاذيب والسفاهات الحمقاء والمطاعن الآثمة^(٢)، ولهذا قال: «لا يزال القرآن في واقع الأمر يبقى

(1) Dictionnaire Philosophique de Voltaire, Tome 3pp 99-100

(٢) وقد عبَّرَ المستشرق الفرنسي (ريجيس بلاشير- Regis Blashir) عن هذه الحقيقة خير تعبير عندما قال: «قلَّما وجدنا بين الكتب الدينية الشرقية كتاباً بلبل بقراءته دأبنا الفكري أكثر ممَّا فعل القرآن». اهـ. راجع كتابه: «القرآن؛ نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره»، ترجمة: =



ويشتهر إلى اليوم بأنه الكتاب الأكثر تميّزاً وسموّاً، الذي كُتِبَ بهذه اللغة العربية. لقد نُسِبَ إلى القرآن ما لا نهاية له من الحماقات التي لم تُوجد به على الإطلاق»^(١).

ومأ هو جدير بالذكر ويحسب لـ(فولتير) أنّه وقف على الهدف من اختلاق هذه المطاعن التي تولى كبرها رجال الأكليروس، ولذا وضح الغاية من تبني افتعالها والتغني بها، فقال: «لقد كان هذا موجّهاً بالدرجة الأولى ضد الأتراك الذين أصبحوا من أتباع مُحَمَّد؛ فكتبَ رهباننا الكثير من كتب المطاعن هذه؟! إذ لم تكن هناك وسيلة تمكّنهم من مواجهة فاتحي القسطنطينية خلاف ذلك؟!»^(٢).

ولمّا كان (فولتير) يرى أنّ رجال الكنيسة لهم أثر رئيس فيما لحق الإسلام وسيرة الإمام ﷺ من مطاعن وشبهات؛ فقد حمل عليهم حملة شعواء، وقال مخاطباً عامة المجتمع، داعياً إياهم إلى عدم تصديق سفاهات رجال الكهنوت عن الإسلام وسيرة النبي مُحَمَّد ﷺ. قال: «مازلت أقول لكم القول أيّها الجهلة

=رضا سعادة، ص ٤١، دار الكتاب اللبناني، ط الأولى ١٩٧٤م، القاهرة.

(1) Dictionnaire Philosophique de Voltaire, Tome 7pp 46

(2) Dictionnaire Philosophique de Voltaire, Tome 7 pp 46-8

الأغبياء الذين خدعهم جهلة آخرون^(١)؛ إذ أقنعوكم بأنَّ الديانة المحمدية ديانة شهوانية ولذات جسدية^(٢)، بينما هي ليست شيئاً من ذلك، ولقد خُدِعْتُمْ في هذا الموضوع كما خُدِعْتُمْ في موضوعات أخرى كثيرة؟!!!^(٣).

إذن يتبين من خلال هذا المجهود الرائع أو «التحوُّل المحمود» الذي قام به (فولتير) أنَّه استطاع أن يزيل أفكاراً سيئة رسخت في العقول، وأن يمحو أباطيل سَطَرَتْ في الموسوعات ودوائر المعارف الغربية. ويمكن عدُّ هذا التغيُّر تاريخياً في حياة فولتير الأدبية بعد عهد طويل من التشويه والتزييف، ويُعدُّ هذا «التحوُّل

(١) يقصد بالجهلة الآخرين رجال الأكليروس والاستشراق.

(٢) هذه الشبهة عَوِّلَ عليها المستشرقون ورجال الأكليروس في كتاباتهم منذ قديم الأزل، كي يظهروا ويقدموا النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ للغربيين على أنَّه رجل شهواني، ومن ثَمَّ تكون شخصيته غير متسقة ومتفقة مع رسالته، وهذا ما شدَّدَ عليه غير واحد من الباحثين الغربيين، ومنهم المستشرقة الإيطالية (لورا فيشيا فاغليري-L. Veccia Vaglieri) فهي تحدَّثنا عن أساس هذه المشكلة (تصوير مُحَمَّدٍ بالسُّبق والتعدُّد) فتقول دالة على الهدف من تغني الغربيين بهذه المسألة: «لقد أصرَّ أعداء الإسلام على تصوير مُحَمَّدٍ شخصاً شهوانياً ورجلاً مستهتراً محاولين أن يجدوا في زواجه المتعدِّد شخصيةً ضعيفةً غير متناغمة مع رسالته!». راجع كتابها «دفاع عن الإسلام»، ترجمة: منير البعلبكي، ص ٩٩، دار العلم للملايين، ط الثالثة، ١٩٧٦م، بيروت، لبنان.

(3) Dictionnaire Philosophique de Voltaire, Tome 7 pp 46-8



أدباء أوروبا والإسلام وتداخل المصالح الشخصية مع المهمة المقدسة

الفجائي» مقدّرًا إذا ما قيسَ بتاريخ أحد رجال الأكليروس والاستشراق الذين
قلما وُجِدَ تحوُّلٌ فجائي في حياة أحد أفرادهما يماثل حالة قطب عصر التنوير
الفرنسي.

المبحث الثاني

(فولتير) يصدق بالحق ويعترف بمنزلة الهادي البشير ﷺ

هل شفع لـ (فولتير) ما قاله عن الإسلام ورسوله ﷺ؟ لا، لم يكتفِ (فولتير) بإقرار تلك الحقائق وإخبار الناس بها ومحاولات حمله إياهم على الإيمان والتسليم والتصديق بها؛ بل كان له موقف أكثر من رائع في الدفاع عن رسول الله مُحَمَّد ﷺ والاعتراف بمكانته ﷺ وهو موقف تشي محصلته النهائية بما ينبغي أن يكون عليه الإنسان من تجرد وموضوعية وبحث وتقصُّ أثناء سفره إلى معرفة الحقيقة، بعيداً عن التعصُّب والهوى والانسياق نحو الأهواء الشخصية.

فحينما زار سويسرا البرنس (تسينسندروف) الذي تولى حكومة النمسا في شهري سبتمبر وأكتوبر سنة ١٧٦٤م، واجتمع في أحد مجالسه مع (فولتير) وجرى بينهما ذكر (مارتن لوثر - Martin Luther)^(١)، و(جون كالفن - Jean Calvin)^(٢)، قال (فولتير) للبرنس (تسينسندروف): «إنَّهما لا يستحقان أن يكونا

(١) مصلح ديني مسيحي شهير.

(٢) مصلح ديني ولاهوتي فرنسي، من أشد أتباع المذهب اللوثيري.

صانعي أحذية عند مُحَمَّد!!!^(١) وهكذا أَب (فولتير) إلى الواقع^(٢)، رجع إلى الحقيقة بعيداً عن عالم الصيت، تاب من اختلاقاته وعاد إلى رشد.

ومقولة (فولتير) هذه لا ينبغي حملها على أيّ تأويل فاسد أو معنى بعيد يقود إليه ظنٌ غير حسن؛ لأنّ هذه المقولة إن كان جهر بها (فولتير) وأعلنها على الملأ فإنّها تخرج من قريحة رجل مختلف الفكر، متباين الثقافة، فهي تُحمّل أول ما تُحمّل على الثناء الحسن والتقدير الجميل لنبي الإسلام مُحَمَّد ﷺ، وغير قابلة لتأويل سيئ أو فهم مغالٍ يتجافى هو وسياق الموقف وطبيعة الحقيقة التاريخية

(١) حطّ من شأنها بقوله: «إنّهما لا يستحقان أن يكونا صانعي أحذية عند مُحَمَّد». وهو تعبير نابع من ثقافته وبيئته، وليس فيه أيّ نوع من الإيذاء للنبي ﷺ إذا وضعنا في حُسابنا ملاسبات هذا التحوّل المحمود من جانب (فولتير).

(٢) انظر تعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتاب «حاضر العالم الإسلامي» للمستشرق الأمريكي (لوثر روب ستودارد)، ترجمة: عجاج نويهض، ص ٤٢، دار الفكر العربي، دون بيانات طبع أو تاريخ، بيروت، لبنان.

(٣) النبي ﷺ ليس بحاجة إلى ثناء حسن ومدح جميل من (فولتير) وأمثاله؛ فقد خصّه الله ﷻ بالكثير من الخصائص التي تميّز بها على سائر الأنبياء والرُّسل في الدنيا والآخرة، وهو ما دلّ على علو مرتبته، وسمو منزلته عند الله؛ فقد ختم الله ﷻ به الرسالات السابقة لتكون رسالته هي الخاتمة والباقية والصّالحة للبشرية في كلّ مكان وزمان.

لنبي الإسلام ﷺ.

ويعد قول الناقد الفرنسي (رينيه إتيامبل - Rene Etiemble) الآتي الذكر خير تعبير يبين لنا حقيقة موقف الفيلسوف الفرنسي (فولتير) من الإسلام؛ فقد قال: «لم يتوقف فولتير سواء في شبابه أو شيخوخته عن إخبارنا عن كل نبي ورسالته مع الحرص الشديد على الإدراك الصحيح للموضوع الذي يتناوله»^(١). ومن هنا تتحدد ملامح العلاقة بين (فولتير) والإسلام على نحو جلي، بعيداً عن الطرح الظاهر الذي عوّل على أمور إن كان سُلّم بها فإنّه لا يمكن التمحور حولها وعدّها مسلمات لا تقبل النقاش أو النقد. وقد تبين ذلك من خلال تفكيك البنية الثقافية والتاريخية لأعمال (فولتير) الأدبية التي تناولها الباحثون السابقون دون مراعاة النظر إلى معالم هذه العلاقة من المنطلق العلمي والواقع التاريخي المتراكب بكلّ معطياته وحيثياته الثقافية والدينية.

(1) Periodico el pais, 4-5-2006, Tribuna: Juan Goytisolo, Artículo: Voltaire y Islam.



خاتمة

لا يسع المرء في هذه الخاتمة إلا أن يشير إلى بعض النتائج التي توصل إليها من خلال هذا البحث، ثم يتبع ذلك ببعض التوصيات المهمة المتعلقة بهذا الموضوع، وهي كالآتي:

كان لأدباء أوروبا أثر فكري خطير في تشويه الإسلام وسيرة النبي ﷺ مشاركة مع رجال الأكليروس والاستشراق؛ وهذا الأثر الفكري - الذي انتهجه الأدباء في تزيف الإسلام وطمس مبادئه - لم يتنبه له أهل الفكر في بلادنا العربية والإسلامية، ومن ثمَّ كانت خطورته تكمن في عدم تعريته وكشف خباياه والوقوف على ملامحه، فما زالت تركته باقية التأثير في العقلية الغربية.

إنَّ ما أحدثه أدباء أوروبا من تشويه وتلفيق متعمَّد خالطته المصالح الشخصية على حساب سيرة رسول الله ﷺ وشريعته قضية مؤلمة ومشكلة مؤرقة؛ لأنَّ هذا النتاج الإبداعي صدَّ الكثير عن المعرفة الصحيحة بالإسلام، وسيرة خير الأنام ﷺ وصار حائط صدِّ يقف ويحول دون تطلع صحيح تجاه الإسلام.

وبناء على ذلك يمكن القول - إذن - بأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نلتمس العذر لـ (فولتير) وأمثاله من الأدباء الذين تعرضوا للإسلام بالإساءة والتشويه اعتماداً على هذا الرأي وحده القائل: «بأن هذا الهجوم كان وسيلة مبطنة من أجل نقد الكنيسة»، لأننا بهذا نكون قد نحينا الموضوعية العلمية جانباً، وحَدَّنَا عن منهجية البحث العلمي الصحيحة. ومن ثمَّ بينتُ أنَّ هؤلاء الأدباء قد أسهموا بجهود كبيرة في تحقيق المهمة المقدَّسة، متخذين من الإسلام ذريعة لتحقيق أغراضهم الشخصية وأحلامهم الدنيوية.

ومن ثمَّ تعدُّ جهود أدباء أوروبا التشويبية تجاه الإسلام ونبى ﷺ بمثابة المشكلة المؤرقة؛ لأنَّ التناج الأدبي التاريخي الذي أسهم في إنتاجه الأدباء الأوروبيون لا يمكن إغفال حجمه وتأثيره على الأوروبيين حتَّى العصر الحاضر. وهذا يقودنا إلى أن نلقي بالمسئولية على جامعاتنا العربية والإسلامية التي نأمل من القائمين عليها إعادة رسم توجهاتها من خلال الإسهام في غربلة هذا التراث الأدبي الغربي، وأن تبين كيف يفكر المنتسبون إلى في الإسلام عن الإسلام، وأن توقف القارئ الغربي على حقيقة هؤلاء الأدباء، وكيف استغلوا الأدب لتحقيق مصالحهم، وأن تخاطب عقولهم من أجل معرفة صحيحة عن الإسلام من خلال علماء اللغة ومنابرها.



أعتقد أننا إذا عرفنا ذلك نكون قد أدّينا المهمة المنوطة بنا التي استخلفنا الله ﷻ في الأرض لأجلها، من أجل ملة إبراهيم ﷺ من أجل كلمة التوحيد «لا إله إلا الله، مُحَمَّد رسول الله» ﷺ.

وتمّة توصيات تحتم علينا أن ننوّه بها حتّى نقف على أبعاد هذه المسألة ومراميها، وحتّى تتم معالجتها وفق ما نتسلح به من إمكانيات ووسائل مادية ومعنوية، كي يتدارك الأمر، ومن ثمّ تكتمل حلقات الحوار البناء دون غوغائية كذوبة أو مظهرية الحوارات الشكلية، التي لا تجدي نفعاً أو تروي غلة، ومن هذه التوصيات الآتي:

أولاً: العمل لإنشاء قنوات فضائية إعلامية موجهة في ظل هذه الثورة المعرفية والمعلوماتية لمخاطبة الرجل الغربي بكلّ اللغات عن الإسلام ونبي الإسلام ﷺ وفق مناهج إسلامية راشدة لا تحيد عن نهج الكتاب والسنة القائم على فهم سلف هذه الأمة.

ثانياً: لا بدّ أن يلزم قادة العملية التعليمية وواضعو مناهجها - في كليات اللغات والترجمة وأقسامها - الباحثين بعمل أبحاث ودراسات وتسجيل رسائل عن موقف الأدباء والمفكرين والمؤرخين والعلماء الغربيين الذين تبنّوا موقفاً متشدداً أو منصفاً، وتقديم الذي يتسم موقفه بالجمود إلى الجمهور الغربي،

وفضح أهدافه، وإبراز معالم الإنصاف لدى فئة المنصفين، وإيقاف هذه الجماهير على كيفية تلهي الأدباء بالإسلام لتحقيق المصالح الشخصية، وإبراز المساوئ التي نتجت عن التلهي الأدبي من جانب الأدباء الغربيين ولحقت بالإسلام والمسلمين.

ثالثاً: إلزام كليات اللغات والترجمة وأقسامها في البلاد العربية والإسلامية الباحثين بعمل رسائل علمية تتناول ثقافة كل مجتمع من هذه المجتمعات المتباينة مثل: المجتمع الفرنسي، المجتمع الألماني، المجتمع الهولندي، المجتمع الياباني، المجتمع الإيطالي، المجتمع البولندي.... الخ.

وبناء على النتائج التي تتوصل إليها هذه الدراسات توضع مجموعة من الحلول والآليات لمخاطبة كل مجتمع بعينه على حدة عن الإسلام ونبي الإسلام ﷺ وفق الوسائل الدعوية والإعلامية التي تتماشى مع ثقافة هذا المجتمع.

رابعاً: استغلال النُخب الجديدة التي اعتنقت الإسلام ديناً، وإثقال معارفها الدينية، وتدريبها على كيفية مخاطبة الشرائح الغربية المختلفة؛ حيث ثبت أن هذا المسلك له أثر إيجابي في نقل رسالة الإسلام إلى الرجل الغربي عن طريق رجل تشبع بثقافة المجتمع ويعرف الدخائل إلى نفوس أفراد وأهله ومؤسساته.

خامساً: إيجاد فريق علمي متكامل من الباحثين، وتوجيهه نحو غربة



التراث الأدبي المدون باللغات اللاتينية، وإنشاء قاعدة بيانات من هذا التراث عن الأخطاء والأكاذيب والافتراءات، والإفادة مما فيه من مميزات وشهادات، وإعادة توجيه هذا النتاج إلى الغربيين بعد غربلته نقدياً وعلمياً ليتعرف الغربي خطايا رجال الأدب تجاه الإسلام وعقائده وشريعته ورموزه ومقدساته.

سادساً: تبني المواهب الصغيرة التي بلغت من معرفة اللغة مبلغاً، وتدريبها على كيفية مواجهة الشبهات وتفنيدها والرد عليها، وإرسالهم إلى البلاد الغربية ليكونوا سفراء للإسلام.

سابعاً: العمل على توجيه هذا النتاج الذي أسهم في إخراج الباحثون نحو القارئ الغربي وتطويعه من أجل تخفيف الآثار السلبية عن الإسلام، ويقتضي ذلك الآتي:

✓ ترجمة هذه الدراسات والأبحاث لشتى اللغات اللاتينية وتوزيعها على الأوروبيين عبر طرق النشر والإعلام المختلفة؛ العام والخاص (المقروء والمسموع والمرئي).

✓ منح الدول المستعمرة من قبل الدول الاستعمارية سابقاً أعداداً من هذه الجهود البحثية الدراسية المصححة لأوهام رجال الأدب وترهاتهم، سواء أكانت موسوعات أم دوائر معارف أم كتباً ومطبوعات؛ لأن هذه الدول ربطها

المستعمر بثقافته وهويته وتشربت المساوئ التي سطرها المستعمر ونُقِلَتْ بلغته إلى أهل تلك البلاد.

✓ استغلال المؤتمرات والمعارض الدولية للكتاب في عقد الندوات والمحاضرات ليتم من خلالها لفت انتباه الأوربيين إلى مساوئ رجال الأدب تجاه الإسلام ونبيه ﷺ.

✓ استضافة الكوادر والنخب الأوروبية التي لها اشتغال بالأدب وحقوقه في القنوات الإعلامية الموجهة للغرب وإتاحة الفرصة لهم في تبين النهج المعوج الذي سار واعتمد عليه الأدباء في تناولهم للإسلام وسيرة خير الأنام محمد ﷺ.

✓ إنشاء جائزة رمزية للأدباء والكتّاب الأوربيين يتم من خلالها تكريم الذين قاموا بدراسات نقدية لأدباء أوروبا وبيّنوا الأخطاء التاريخية والعلمية تجاه الإسلام ونبيه ﷺ في نتاجهم الأدبي.

✓ العمل لتشجيع الأدب الإسلامي المقيد بضوابط الشريعة في الذب عن الدين ورجاله ورموزه ومقدساته، وفضح أساليب الذين يتخذون من الأدب وسيلة للتهجم على الإسلام ليتحصلوا من خلالها على جوائز دولية تكن الحقد والكراهية على الإسلام وأهله وتعمل لنشر هذه السفاهات تحت زعم

الحرية والموضوعية.

✓ تحجيم أثر المؤسسات العالمية التي تساعد على تشويه الإسلام وسيرة النبي ﷺ بشكل مريب، من خلال تشجيعها للأدباء الذين يشوهون الإسلام، ويتم منحهم الأنواط والأوسمة مثل: الأكاديمية السويدية المسئولة والمشرقة على «جائزة نوبل»^(١)، ودعوتها بالتي هي أحسن ومراسلتها، وإيقافها على أن هذه

(١) تعمل المؤسسات الثقافية والأدبية الغربية على تشويه صورة الإسلام ورموزه ومقدساته ضمن استراتيجية فكرية محكمة طويلة الأجل دفاعاً عن هويتها، ويتضح ذلك من خلال تشجيع الأدباء العالميين الذين يشوهون الإسلام، ويتم بمقتضى ذلك منحهم الجوائز. ولعلَّ أئمن أنموذج يمكن التمثيل به هنا هو أنموذج الكاتب البريطاني، التريندادي المولد، الهندي الأصل (فيدهار سورجير سارنيبول)؛ فقد تزامنت أحداث الحادي عشر من سبتمبر مع إعلان الأكاديمية السويدية المسئولة والمشرقة على جائزة نوبل عن إعلان الفائز بجائزة نوبل للآداب لعام ٢٠٠١م، وكانت من نصيب هذا الكاتب الذي أشبع كتاباته كثيراً من الأوصاف المريضة عن الإسلام والمسلمين. «لقد وصف المسلمين الأوائل بأنهم كانوا غزاة انحدروا من الشمال الغربي، ونهبوا معابد هندوستان، وفرضوا دينهم بالقهر على غير المؤمنين... كما يصف الديانة المحمدية بأنَّها في جذورها ديانة عربية أي أن أحداً ليس عربياً فهو مسلم مرتد، ويضيف أن الإسلام له تأثير مأساوي على الناس الذين تحولوا إليه». انظر كتاب «صورة الإسلام في الإعلام الغربي»، د. محمد بشاري، ص ١٢٠، دار الفكر، ط الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، دمشق، سوريا.

الأساليب التي تنتهجها تؤذي المسلمين، وتؤدي إلى نوع من الكراهية المولدة للعنف غير المرغوب فيه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتدرك الغايات، اللهم استعملني لدينك واستخدمني فيه، واجعلني من الذين قدّموا لأنفسهم في دار اللقاء قبل دار البقاء، واجعل بحثي ودراستي خالصة لوجهك الكريم، وصلّ اللهم وسلّم على الحبيب المصطفى ﷺ وعلى آله وصحبه تسليماً كثيراً.



قائمة المراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: كتب السنن والتخريج.

- (١) السلسلة الصحيحة، الشيخ: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض.
- (٢) سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، دون بيانات طبع أو تاريخ، بيروت، لبنان.
- (٣) مسند أحمد بن حنبل، الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، دون بيانات طبع أو تاريخ، القاهرة.

ثالثاً: كتب معاصرة.

- (٤) الإسلام حضارة وحادثة، الشيخ: محمد متولي الشعراوي، دار العودة، ١٩٨٧ م، بيروت، لبنان.
- (٥) الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني، د. محمد عبد الواحد العسري، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ط ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، الرياض، السعودية.
- (٦) الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، ط الأولى، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، القاهرة.

- (٧) أوروبا والإسلام: «صدام الثقافة والحداثة»، هشام جعيط، دار الطليعة، ط الأولى ١٩٩٥م، بيروت، لبنان.
- (٨) تحت شمس الفكر، توفيق الحكيم، مكتبة الآداب، ط الثانية ١٩٤١م، القاهرة.
- (٩) الشرق والإسلام في أدب جوته، عبد الرحمن صدقي، مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد، المكتبة الثقافية رقم ١٠، القاهرة.
- (١٠) صورة الإسلام في الإعلام الغربي، د. محمد بشاري، دار الفكر، ط الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، دمشق، سوريا.
- (١١) لماذا يكرهونه، د. باسم خفاجي، مطبوعات مجلة البيان، ط الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، الرياض، السعودية.
- (١٢) المهجوم على الإسلام في الروايات الأدبية، أحمد أبو زيد، مطبوعات رابطة العالم الإسلامي، سلسلة دعوة الحق، السنة الثالثة عشرة، محرم ١٤١٥هـ، العدد ١٤٥، مكة المكرمة.

رابعاً: الكتب المترجمة من اللغات اللاتينية.

- (١٣) الاستشراق: «المعرفة - السلطة - الإنشاء»، إدوارد سعيد، ترجمة: كمال أبو ديب، مطبوعات مؤسسة الأبحاث العربية، ط الرابعة ١٩٩٥م، بيروت، لبنان.
- (١٤) إنسانية الإسلام، مارسيل بوازار، ترجمة: د. عفيف دمشقية، منشورات دار الآداب، ط الثانية، ١٩٨٣م، بيروت، لبنان.
- (١٥) التوراة والأنجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث، موريس بوكاي، ترجمة: علي الجوهري، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، ١٩٩٩م، القاهرة.



أدباء أوروبا والإسلام وتداخل المصالح الشخصية مع المهمة المقدسة

- (١٦) حاضر العالم الإسلامي، لوثر وب ستودارد، ترجمة: عجاج نويض، دار الفكر العربي، دون طبعة أو تاريخ، بيروت، لبنان.
- (١٧) الحرب المقدسة، كارين أرمسترونج، ترجمة: سامي الكعكي، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٥م، بيروت، لبنان.
- (١٨) دفاع عن الإسلام، لورا فيشيا فاغليري، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط الثالثة، ١٩٧٦م، بيروت، لبنان.
- (١٩) فولتير، أندريه موروا، ترجمة: د. محمد غلاب، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة.
- (٢٠) في الاستشراق الإسباني، خوان غويتسلو، ترجمة: كاظم جهاد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط الأولى، ١٩٨٧م، بيروت، لبنان.
- (٢١) القرآن؛ «نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره»، بلاشير، ترجمة: رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، ط الأولى ١٩٧٤م، القاهرة.
- (٢٢) المؤرخون وروح الشعر، إيمري نف، ترجمة: توفيق إسكندر، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦١م، القاهرة.

خامساً: دوائر المعارف والموسوعات.

- (٢٣) قصة الحضارة، ويليام جيمس ديورانت، دار الجليل، بيروت، لبنان.
- (٢٤) موسوعة الشعراء والأدباء الأجانب، د. مورييس حنا شربل، مطبوعات جروس برس، ١٩٩٦م، بيروت، لبنان.

(٢٥) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط الخامسة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، الرياض، السعودية.

سادساً: المجالات والدوريات.

(٢٦) أعمال مؤتمر تعظيم حرمت الإسلام، مطبوعات مجلة البيان السعودية، بحث للدكتور سعيد بن ناصر الغامدي بعنوان: تطاول المنافقين على الثوابت، ط الأولى ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، الرياض، السعودية.

(٢٧) جريدة الأهرام المصرية، العدد ٤٢٤١٠، بتاريخ ١٤ من ذي القعدة ١٤٢٣هـ الموافق ١٧ يناير ٢٠٠٣م، عرض كتاب بعنوان: الإسلام في الخطاب الأمريكي.

(٢٨) جريدة الشرق الأوسط اللبنانية، العدد ١٠٧٨٧ بتاريخ ٦ جمادى الآخرة، ١٤٢٩هـ، ١٠ يونيو ٢٠٠٨م، مقال للدكتور خالد بن عبد الرحمن الشايع بعنوان: «حقيقة موقف الفيلسوف الفرنسي فولتير من رسول الله مُحَمَّد ومن رسالته».

(٢٩) صحيفة العرب القطرية، العدد ٧٣٢٧، بتاريخ ٤ يوليو ٢٠٠٨م، ١ رجب ١٤٢٩هـ، مقال للطيب بوعزة بعنوان: «فولتير والرَّسول ٢-٢».

سابعاً: المواقع الإلكترونية على شبكة الإنترنت.

(30) www.wikipedia.com

(31) www.islamtomorrw.com

(32) www.st.takla.org



ثامناً: المصادر الأجنبية.

- (33) Dictionnaire Philosophique de Voltaire, {Francois Marie Arouet} Paris 1835.
- (34) Islam, Europe, and Empire, {Norman Daniel}, Edinburgh university press 1966, North America.
- (35) Islam and the west, {N. A. Daniel}, the making of an image, Edinburgh university press, Edinburgh, 1960, North America.
- (36) Periodico el pais, 4-5-2006, Tribauna: {Juan Goytisolo}, Articulo: Voltaire y Islam.
